الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثالث

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر

أحمد التوفيق أحمد بنجلون

دار نشر المعرفة

الرباط

L'AFRIQVE DE MARMOL, DE LA TRADVCTION de NICOLAS PERROT sieur D'ABLANCOVRT. DIVISÉE EN TROIS VOLVMES, Et enrichie des Cartes Geographiques de M. Sanson, Geographe ordinaire du Roy. Avec l'Histoire des Chérifs, traduite de l'Espagnol de DIEGO TORRE'S, par le Duc d'Angoulesme le Pere. Reveuë et retouchée par P. R. A.

aux Capucins du Mans

A PARIS, Chez LOVIS BILLAINE, en la grand' Salle du Palais, à la P... & au Grand Cesar. M. DC. LXVII. AVEC PRIVILEGE DV ROY.

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الثالث

ترجمة عن الفرنسية

محمد حجي محمد زنيبر محمد الأخضر
أحمد التوفيق أحمد بنجلون

1408 ـ 1409 هـ

1988 ـ 1989 م

رقم الايداع القانوني 117 ـ 1984

الكتاب السادس

مملكة تونس

الفصل الأول
ذكر حدود هذه الايالة

مملكة تونس هي رابعة ممالك البربر وهي في أقصاها من جهة الشرق. تحدها من جهة الغرب موريطانية القيصرية واقليم بجاية عند نهر أمساية(1) وتحدها من جهة الشرق مصر ومن جهة الشمال البحر المتوسط ومن جهة الجنوب جبال الأطلس الكبير الى طرفه الشرقي الذي يسميه المحدثون مياس. وتمتد هذه المملكة الى ايالة الزاب التي تشمل جزءا مهما من ليبيا ونوميديا الشرقية. وتنقسم الى أربعة أقاليم هي قسنطينة وتونس وطرابلس بلاد البربر والزاب الذي يضم طرفا مما كان يسمى في القديم بنوميديا. ومعظمها بواد تتنقل فيها تجمعات قوية من الغرب والبربر. وملوك هذه الأقاليم وحكامها دائبون على مخاطبة ود تلك الجماعات بالتنازل لها عن جزء من إيراداتهم، ولطالما أعنتهم كسب رضاها. ولنذكر الآن الاقليم الأول من جهة الغرب وهو اقليم قسنطينة.

الفصل الثاني
قسنطينة

إسم إقليم قسنطينة عند بطليموس نوميديا الجديدة، ويحده من جهة الغرب إقليم بجاية عند موقع جيجرى، وتحده من الشرق البلاد التي اختصت باسم افريقيا. وفي الجنوب تشمل الجزء الذي يمر بها من جبل الأطلس وتمتد ما وراءه الى نوميديا وجيتوليا، ويحدها من الشمال البحر المتوسط وخليج نوميديا ما بين جيجري ومصب مجردة(2) عند بنزرت. ولنذكر ما في هذا الاقليم من أماكن العمارة.

1) سوفكمار.
2) أورباكاس.

الفصل الثالث

القــل

مدينة عتيقة يقال إنها من بناء الرومان. جعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة طولا وإحدي وثلاثين درجة عرضا وزيادة خمس وأربعين دقيقة، ويسميها مدينة القل العظمى. وموقعها عند قدم جبل يمتد على ساحل البحر في خليج نوميديا. كانت في الماضي كثيرة السكان. وكانت لها أسوار عالية، هدمها القوط عندما انتزعوا المدينة من الرومان، ولم يقع تجديد بناء تلك الأسوار بالرغم من كون المدينة مركزا لتجارة مهمة ومقرا لعدد كبير من التجار والصناع. أهلها طيبون متمدنون بفضل التعامل التجاري مع أوربا، إذ هي مقصودة لشراء الشمع والجلود وغيرها من البضائع. وفي الأراضي المجاورة لها من جهة الجبل تكثر الحنطة والمواشي ومختلف أنواع الفواكه. كان سكانها في الماضي يعيشون أحرارا طلقاء وكانوا قادرين على مدافعة ملوك تونس وحكام قسنطينة الذين تفصلهم عنهم جبال شديدة الارتفاع تمتد الى أبعد من أربعين فرسخا، يضاف الى ذلك أن معظم بلادهم جبال يسكنها برابر وزواوة متميزون بشجاعتهم وإقدامهم، ولذلك لم تكن مدينة أغنى من مدينتهم هذه، إذ كانت تستطيع تجنيد عشرة آلاف من المقاتلين. وقد استسلمت فيما بعد للأتراك، ولهم فيها حامية دائمة، ويقوم الحاكم في الجزائر بتعيين وال عليها يكون تابعا لحاكم قسنطينة، وهو الذي يتولى استخلاص جباية الاقليم بكامله، وله حرص على الرفق بالسكان وإبعاد العسف عنهم.

الفصل الرابع

اشـتـورة

مدينة قديمة على مسافة أربعة عشر فرسخا من القل الى جهة الشرق في خليج أشتورة، أو خليج نوميديا وفيها يوجد مرسى قسنطينة. ويجعلها بطليموس عند سبع وعشرين درجة وأربعين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة عرضا. واسمها عنده روسيكاد. وهي غير حصينة لأن أسوارها مهدمة. وعدد ما فيها من الدور المسكونة لا يتعدى مائتين. ويوجد بين هذا المرسى والمرسى السابق ثالث تعرف بمرسى الجنويين، ومن عادة السفن أن ترسو به إذا قويت الزوابع لأنه مستور من رياح الشمال ومن الرياح التي تهب من الشرق وتعرف بريح الاغريق. ولا توجد فيه

عمارة الا ما كان من مساكن قوم من البربر توجد داخل البلاد. وتوجد عندهم الحنطة ويمتلكون عددا من الخيل والماشية.

الفصل الخامس
سكيكدة

مدينة عتيقة بناها الرومان فوق جبل عال يمتد طرفه الى البحر عند خليج نوميديا. تقع شمالي قسنطينة على بعد اثني عشر ميلا منها. جعلها بطليموس عند تسع وعشرين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة عرضا، واسمها عنده طاكاسي. كان القوط قد دمروها، ولكن وجود مرسى جيد بها جعل عامل قسنطينة يبني على ساحل البحر بعض المخازن والملاجي للتجار الاوربيين الذين يقصدون هذه المدينة للتجارة. كما أمر ببناء حصن بأعلى جبل مجاور به حراسة دائمة، ويقايض سكانه مع الاوربيين في عدد من البضائع مقابل ما عندهم من حنطة وأغطية ومنسوجات، وتربط هذه المدينة بقسنطينة طريق الالتواء فيها، مبلطة بحجارة كبيرة سوداء مماثلة لتلك الطرق التي عبدها الرومان في كل من إيطاليا وإسبانيا، إلا أن المياه قد أفسدت أماكن من هذه الطريق.

الفصل السادس
عنابة

كان الرومان قد بنوها شرقي المكان الذي توجد فيه اليوم بعيدا عنه بمسافة فرسخ واحد على نهر يلوغ. كانت تسمى في القديم هيبون وموقعها على ساحل البحر المتوسط في خليج نوميديا على بعد أربعين فرسخا من مدينة تونس. وهي المدينة التي كان أسقفها القديس أوغسطين في أيام الأمبراطور غراسيان(3). وقد نالت شهرة في عهد القوط، لكن الخليفة الثالث(4) هدمها ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. وما زالت تشاهد على ضفة النهر أطلال معبد وقصر كبير، وذلك على مسافة فرسخ ونصف من ساحل البحر في المكان المعروف بعنابة القديمة. وبعد مضي مدة على خرابها قام أتباع محمد ببناء مدينة أخرى شرقي الموقع القديم على

3) سنة 1532 من تأسيس روما.

4) عثمان.

بعد فرسخ واحد وسميت عنابة الجديدة، ويسميها العرب بلد العناب لكثرة ما فيها من هذه الثمار. أما المسيحيون فيسمونها بون أي الجيلة وهي تسمية أقرب الى الصواب لأن بها أجود أراضي بلاد البربر وأكثرها خصبا وأنقاها هواء. تحيط بها أسوار حصينة، ولها بابان رئيسيان يفضي أحدهما الى البحر ويفضي الثاني الى جهة الحصن الذي لا يبعد عنه الا بمقدار نصف رمية قوس قذافة. وموقعه فوق ربوة مشرفة على الباب. وملوك تونس هم الذين بنوا هذا الحصن حديثا وجعلوه مسكنا للعامل والحامية، ذلك بأن سكان هذه المدينة كانوا قبل أن يدخلها شارلكانت وان يستعيدها منه الأتراك، أغنياء معتزين بأنفسهم لا يترددون عن قتل عمالهم وعن التهديد بتسليم مدينة عنابة للنصارى إذا لم يول عليهم من يرضون حكمه من العمال الشرفاء. ودور هذه المدينة متقنة البناء، وبها مسجد فخم، وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد، وليس بالمدينة ولا بالحصن بئر ولا ساقية وإنما بها خزانات تجرى اليها مياه الأمطار من سطوح المنازل، وهي ذات سقوف مستوية مغطاة بطبقة من الجير والرمل والاسمنت. وتوجد جنوبي الحصن قريبا من جداره بساتين ومنتزهات وأجنة كثيرة بها اللذيذ الطيب من الثمار. ولعنابة مرسى صغير غير مستور من ريح الشمال، وتقصده سفن التجارة لشراء الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات. فهي تتكون من سهول(5) طولها أربعة عشرة فرسخا وعرضها ثمانية فراسخ، تظعن فيها جماعات كبيرة من البربر(6) يش في دواوير مثل العرب، ورجالها أغنياء بما يملكون من الأراضي والخيل المواشي. وفي كل يوم جمعة يهرعون الى سوق تقام عند أبواب المدينة يأتي اليها التجار من تونس وجلفة وطرابلس، بل وحتى من جنوة، ولهم في الاتجار بها أرباح كثيرة. ويوجد شرقي المدينة شاطىء منعرج يصطاد به المرجان، وكان من عادة أمراء تونس إكراء ذلك الصيد للجنويين، ولما أضرَّ بهم القراصنة أذن لهم الأمير ببناء قلعة فوق صخرة، ولكن السكان منعوهم من ذلك وذكروا للسلطان أن المسيحيين استولوا فيما مضى على عنابة باستعمال حيلة مماثلة. وهكذا لم يتوصل الجنويون في ذلك الحين الى مبتغاهم وإن كانوا قد نجحوا بعد ذلك. أما من جهتي الجنوب والشرق فتجاور عنابة جبال يطيب فيها المقام ويلذ العيش تتصل بجبال قسنطينة، وبها كثير من المجاري والجداول وأنواع الفواكه والصيد والطرائد. أما في

5) السيايرة.
6) شريس وبني مرديس وبني جريد وبني علوان وبني منصور.

جهة الشرق فتمتد تلال خصبة تجود بها الحنطة، وكانت بها فيما مضى مدن وقرى قديمة من بناء الرومان. ولكن العرب دمروها حتى انطمست معالمها ونسيت أسماؤها. تمتد هذه التلال على مساحة طولها ثمانية وعشرون فرسخا وعرضها عشرة فراسخ، وليس بها مدينة ولا قرية وإنما هي مجال لنجعة العرب والبرابر(7) وبها منابع ماء تجري منها جداول تخترق تلك الجهات وتصب في البحر. وقد استولى باربروس(8) على عنابة بعد أن امتلك مدينة تونس وأقام حامية في الحصن وجعل على رأسها حاكما من الأتراك. ولما استولى شارلكانت على تونس(9) أرسل أندريا دوريا بجيش قوامه ثلاثون سفينة حربية وألفان من المقاتلين بقصد احتلال عنابة، ولما وصل هذا الجيش وجدها مهجورة من أهلها حيث إنهم انسحبوا مع باربروس بعضهم عن طريق البحر وآخرون عن طريق البر، وعاد أندريا دوريا إلى حلق الواد بعد أن استولى على سفن كانت راسية هنالك، ولم يترك حامية لا بالمدينة ولا بالحصن. ولما كان الامبراطور عائدا إلى إيطاليا أعطى أوامره للجيش البحري الذي كان متجها إلى إسبانيا بأن يترك حامية بعنابة عند المرور بها، وتم تنفيذ تلك الأوامر، وكان أول حاكم بها هو ألبار قوميز زغل وكان معه ألف من المشاة وخمسة وعشرون من الفرسان، وقد عاثوا في تلك الجهات فسادا يغيرون على أهلها من العرب والبربر ويغنمون منهم عددا من المواشي والعبيد وغير ذلك، وقد انتصروا عليهم وعلى أتراك قسنطينة غير ما مرة، وكان هؤلاء الأتراك يقومون هم أيضا بأعمال قرصنة، كانوا يأتون مع الاعراب فينصبون كمائن حتى عند أبواب عنابة، ولكن محاولاتهم كانت تذهب سدى لأنهم لم يقدروا على هزم المسيحيين في يوم من الأيام. وقد قام هذا الحاكم بأعمال عظيمة تليق بمقام قائد عظيم لولا ما شانها من تصرفاته الطائشة وخاتمته المفجعة. وبعد موته أصدر الامبراطور أمره بالتخلي عن ذلك الثغر وبإحداث خروق في الجدران وبهدم الأبراج التي في المدينة وفي الحصن، ولكنهم ما لبثوا أن أصلحوها بسبب ما في هذا البلد من خيرات، ولما عجز ملوك تونس عن الدفاع عن هذه المدينة استولى عليها الأتراك وعمروها وقاموا بتحصينها.

7) شريس.

8) خير الدين.

9) سنة 1535

الفصــل السابــع
ذكر بنزرت في إقليم قسنطينــة

إسم هذه المدينة عند الأفارقة بنزرت بناها أهل البلد الأصليون على الساحل على بعد سبعة عشرة فرسخا من مدينة تونس، يسميها بطليموس أوتيكا، ويجعلها عند أربع وثلاثين درجة وأربعين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة عرضا، وقريبا منها يتوغل البحر عبر قنال ضيق يتسع شيئا فشيئا عند امتداده نحو الجنوب مكونا بحيرة(10) كبيرة تنقسم إلى شطرين، وفي جنباتها مساكن أناس من فقراء الصيادين والزراع، ولكنهم كغيرهم من سكان عنابة متصفون بالكبرياء والشراسة. وفي غربي هذه البحيرة يوجد سهل شاسع(11) تكثر به الحنطة والمراعي، ولكن سكانه يعيشون في فقر دائم بسبب عبء الضرائب ومضايقة العرب، ويصلح في هذه البحيرة سمك الشابل لأنها تصير حلوة لما يصب فيها من مياه الأمطار ويدوم صيده أوائل شهر نونبر إلى نهاية شهر أبريل، كما تُصاد بها أسماك المرجان، وقد يبلغ وزن السمكة منها خمسة أرطال أو ستة وكذا عدد من أنواع الأسماك تباع في تلك الجهات. ويعد بعضهم هذه المدينة من إقليم تونس، إلا أن الكتاب الثقات يجعلونها من نوميديا الجديدة. لا يتعدى عدد من في المدينة والجهات التابعة لها أربعة آلاف من السكان ولكنهم ثاروا عدة مرات ضد ملوك تونس وولاة قسنطينة، وكان ذلك سببا في خرابها مرات عديدة، وكان مولاي الحسن يقول إن أهل عنابة سببوا له من العنت ما لم يسببه له غيرهم، ولم يكسب رضاهم أبدا لا خوفا ولا طمعا. وعندما استولى باربروس(12) على تونس كانوا أول من اعترف به، ولما أخرج منها قتلوا الحاكم الذي نصبه فيها مولاي الحسن على رأس حامية، وقد انحازوا إلى باربروس ورحبوا بحامية تركية جاءت إلى حصن مدينتهم. ولكن اميرهم غضب لذلك واستغاث بشارلكانت الذي أمر أندريا دوريا بمهاجمتهم من جهة البحر، بينما كان هذا الأمير يهاجمهم من جهة البر، ووقع أخذ المدينة عنوة، ولما أراد المهاجمون ضرب الحصن استسلم من كان به من الأتراك ومن أهل البلد وأنزل الملك عقابه بالسكان الذين ثاروا ثلاث مرات، ولا يشتمل هذا الاقليم على مدن ساحلية أخرى، فلنذكر الآن تلك التي توجد داخل البلاد.

10) كانت تسمى في القديم أيبوديا تيتوس.

11) مطهر.

12) خير الدين.

الفصـــل الثامـــن

قسنطينـــة

مدينة عتيقة جدا كبيرة ممتدة، يقدر المسلمون مرقعها بثمانية وعشرين درجة وثلاثين دقيقة طولا وبإحدى وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة عرضا. وهي عاصمة إقليم نوميديا الجديدة، لأن العرب عندما دخلوا موريطانية جعلوها موقعهم الحصين ومقر قوتهم العظمى ودام ذلك مدة طويلة. وهي من بناء الرومان كما تشهد على ذلك جدرانها المبنية بحجارة منحوتة ضخمة سميكة. وقسنطينة ذات موقع ممتاز فوق جبل عال تجاورها من جهة الجنوب صخرة شديدة الانحدار ينبع منها نهر(13) شق في الأرض مجرى عميقا واسعا في هذه الجهة. وأسوارها صالحة جدا في جانبها الشرقي وجانبها الشمالي، والصعود إلى هذا الموقع وعر حتى إن الوصول إلى المدينة لا يتأتى إلا من ممرين ضيقين. ولمدينة قسنطينة باب رئيس مبنى بالحجارة المنحوتة المزخرفة يعد من زينة المدينة، وعدد دورها المسكونة ثمانية آلاف وبها مسجد كبير رائق. ومدرستان تدرس بهما مختلف العلوم، وبناياتها منتظمة غي متصل بعضها ببعض، وتمتاز أزقتها وساحاتها بتخطيط بديع، وهي مدينة غنية بها عدد من التجار والصناع ولكن موردها الأعظم وتجارتها الأكثر ربحا في إرسال القوافل إلى نوميديا وإلى ليبيا محملة بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية وبالزيت، وتعود منها بالتبر والتمر والعبيد السود، فهي أكثر بلاد البربر اتجارا في هذه الأشياء. فعندما كان الاسبانيون مستولين على عنابة كانت تأتيهم منها بضائع يحتاجون إليها في تموينهم ولا سيما التمر الذي كان بأربعة دراهم مرابطية للرطل الواحد أو ستة أرطال بريال واحد، وقد رأيناه يباع في غالب الأحيان بهذا الثمن. وفي شمالي المدينة يوجد حصن حصين عظيم يغلب على الظن أنه من بناء الرومان، جدد ترميمه وتحصينه مرتد من خدام ملك تونس(14)، وكان يحكم انطلاقا منه سكان المدينة والعرب الذين هم سادة الجهات المجاورة لقسنطينة وهم أشهر من ببلاد إفريقية(15) من العرب وأشجعهم، ويتوصل إلى التحكم فيهم بحمل رئيسهم على تقديم ثلاثة من أولاده رهائن لملك تونس الذي كان يشهر عليه الحرب. وكان هذا المرتد فخورا بانتصاراته حتى إنه تلقب بملك قسنطينة وضرب

13) سوفكمار أوبومرزوك.

14) جد مولاي الحسن.

15) يعرفون بأولاد الحنشة.

النقود وأتى بأمور أخرى مهينة للأمير، وكرهه السكان بسبب ذلك وثاروا عليه وهو غائب في حرب مدينة بسكرة، ولما رجع أغلقوا الأبواب دونه، فلجأ إلى الملك، وحبسه في السجن أياما حتى تبرأ مما نسب إليه وأعطى مائة ألف ريال من الذهب، فأمر له الملك بما طلب من العساكر، فرجع إلى قسنطينة ودخلها وقطع رؤوس معظم أولئك الذين تسببوا في الثورة عليه، وما لبث سكان المدينة أن انتفضوا وحاصروه في القلعة إلى أن مات بها أسفاوغما. وبعد ذلك نال المدينة عفو الملك وظلت مدة من الزمن لاتقبل متوليا عليها إلى أن أرسل أحد أمراء(16)) تونس ولده (17) عاملا عليها ولكنه قتل في أول خروج له إلى زواوة، وبادر الأمير بإرسال ولدثان(18)) ولكنه قتل على يد أحد أعوانه، ثم بعد ذلك أرسل الأمير ولدا ثالثا(19) ولكن الناس هموا بقتله بسبب ما كان عليه من عهر ورذيلة فاضطر والده إلى التقبض عليه وولى مكانه عاملا من النصارى((20)) الذين ارتدوا عن دينهم، وكان خبيرا محنكا ابتهج الشعب لتعيينه عاملا على المدينة. وبعد وفاته على عهد مولاي الحسن استسلمت المدينة للاتراك فأقاموا بها حامية تليق بمقامها بين أهم مدن هذه المملكة، ولكنهم اظهروا في حكمها رعونة كبيرة، وهم السكان بالثورة عليهم غير ما مرة، إلى أن كان ألف وخمسمائة وثمانية وستين حيث أقدموا على قتل العامل وإبادة الحامية واسترجاع حرية المدينة. ولكن عامل(21) الجزائر جاء يحاصرها، ولما اقتحمها عنوة نهب ما بأيدي سكانها وأجبر أثرياءهم على تحصين القلعة بأموالهم الخاصة وحملهم على أن يؤدوا له خمسين أو ستين ألف ريال، وبعد ذلك جردهم من السلاح وزادت عبوديتهم عن ذي قبل ــ وإذا عدنا إلى ذكر وصف هذه المدينة نقول إنها في بلد طيب كثيرة الخصب حتى إن الصاع الواحد من البذور يعطي ثلاثين صاعا من الغلة. وفي أرجائها عدد من المراعي الجيدة. وتوجد على جنبات النهر عند جريانه في السهل أجنبة لا تغل كثيرا وليست ثمارها من أجود الثمار ذلك لأن السكان لا يحسنون فلاحتها. وفي ظاهر المدينة توجد آثار قديمة رائقة وأطلال بنايات عظيمة وقوس نصر على بعد نصف فرسخ شبيه

16) مولاي محمد ولد مولاي الحسن.
17) مولاي الناصر.
18) عبد الرحمان.
19) مولاي عبد المومن.
20) علي بن فرش.
21) قولج علي الفراسي

بأقواس النصر التي توجد في روما على مقربة من وسط المدينة (الكابيتول). ويدعي جهلة العامة أن تلك الأطلال من بقايا قصر كانت تسكنه الارواح الشريرة في عهد الوثنيين إلى أن طردها أتباع محمد عندما دخلوا قسنطينة، بيد أنه واضح للعيان أن الأمر يتعلق ببناية شيدت تخليدا لأحد الانتصارات الرومانية. ويوجد بناء آخر يعد من مشاهد المدينة، ألا وهو سرداب مبني تحت الأرض تتخذه النساء اليوم طريقا عند ذهابهن إلى النهر، وهو سرداب مدرج منحوت في الصخر، وفي أسفله توجد قبة كبيرة نحتت جدرانها وأعمدتها وأرضيتها وسقفها في الصخر بواسطة فؤوس حادة من الصلب. وعلى بعد ثلاث قذفات بالحجارة من المدينة يوجد حمام كبير تنبعث منه عين من المياه الحارة وتنصب تلك المياه على صخرة عظيمة فتكون حوضا تنمو به سلاحف قد تبلغ في حجمها مثل الدرقات المستديرة، يأتي إليها المستحمون بقوت لأن الناس يعتقدون أنها من الأرواح الشريرة التي بقيت هنالك منذ عهد الرومان. وعلى مسافة منها إلى جهة الشرق توجد عين مياه باردة توجد بجانبها بناية قديمة من المرمر شيدت بأسطوانات عظيمة وحجارة كبيرة نحتت عليها وجوه آدمية عديدة من الرجال والنساء والاطفال، ويزعم الناس أن تلك البناية كانت مدرسة مسخ أساتيذها وتلاميذها حجارة بسبب ما كانوا عليه من الرذيلة. ويوجد في هذه الجهات عدد آخر من المعالم القديمة الدالة على أنها كانت مستعمرة(22) للرومان.

الفصل التاسع

ميلة

مدينة عتيقة واقعة على مسافة أربعة فراسخ من قسنطينة، تحيط بها أسوار عالية مبنية على النمط القديم كان بها في سالف عهدها ثلاثة آلاف من دور السكنى. وكان أهلها على درجة كبيرة من الغنى لأن بلدهم طيب كثير الزرع والماشية والثمار ولاسيما التفاح، ويظهر أن هذا هو أصل تسميتها. وقد خربها خليفة القيروان، ولكنها استطاعت أن تستعيد عمرانها بعد ذلك التخريب، لكن حكام قسنطينة ضيقوا بأهلها حتى لم يبق بتلك الجهة سوى ألف من السكان يشتغل معظمهم بصنع العباءات القصيرة في المسجد وبصنع الزرابي التركية، ومنهم مشتغلون بفلح الأرض متميزون بغلظتهم إلا أنهم ذوو أنفة وعزة إذ لم يترددوا في

22) كانت تدعى فولكا كولونيا.

بعض الأحيان عن قتل الحكام المعينين عليهم من قسنطينة لأنهم لم يرضوا بظلمهم ولم يتحملوا استبدادهم. ومدينة ميلة اليوم بيد الاتراك الذين أصبحوا سادة البلاد.

الفصل العاشر

تيفـــش

مدينة عتيقة بناها الرومان عند طرف نوميديا على بعد خمسة وثلاثين فرسخا من قسنطينة من جهة الجنوب. وموقعها على سفح جبل، تحيط بها أسوار وأبراج عاليه. كانت في سالف عهدها كبيرة عامرة بالسكان ذات بنايات رائقة، بها قصور وكنائس ومدارس. وعندما دخل أتباع محمد(23) إلى إفريقيا تعلقت بالرومان مدة طويلة، ولكن العرب أخذوها عنوة، ثم نهبوا أهلها ودمروا عمرانها، وقد انتعشت من مصيبتها تلك إلى أن قام العرب بغزوهم الثاني حيث نهبوها مرة ثانية تحت قيادة موسى بن نصير. وبعد ذلك سكنها الافارقة(24) المترحلون في البوادي كالأعراب. ولم يكونوا يستعملونها إلا لخزن زروعهم ولاخذ بعض الاتاوات من سكان الجهات المجاورة، وقد تمكنوا من امتلاكها مدة طويلة وامتلاك نواحيها، ولم يستطع العرب أن ينازعوهم فيها، وذلك بفضل قائد من قواد زواوة كان يجوب تلك الجهات، وقد تمكن في إحدى المعارك من قتل ولد(25) ملك من ملوك تونس كان عاملا لأبيه على قسنطينة. وقد اغتاظ هذا الامير لقتل ولده وزحف بجيشه لقتالهم، ولما هزمهم أعمل يد التخريب في ما بقي من عمران المدينة(26) ولم يعبأ العرب بعد ذلك بإعادة تعميرها. وكل ما بقي منها اليوم ربض يسكنه بعض البرابر وذلك بسبب سوق تقام هنالك كل أسبوع يقصدها العرب والبربر لشراء ما هم بحاجة إليه من البضاعة.

23) العرب السابقون اليها.

24) أولاد حرور.

25) مولاي الناصر.

26) عام 1057.

الفصل الحادي عشر

تبسة

مدينة عتيقة بناها الرومان على طرف نوميديا داخل البلاد بينها وبين البحر مسافة خمسة وخمسين فرسخا تحيط بها أسوار عالية مبنية بحجارة ضخمة شبيهة بالتي شيد بها الكوليزي في روما. وعلى مقربة من هذه المدينة يمر نهر ينحدر من الجبل، وبعد أن يشكل النهر عدة التواءات يخترق جانبا من المدينة. وتوجد في تبسة عيون غزيرة من المياه الجارية ومعالم بنايات ترجع إلى الزمن القديم، وتماثيل من الرخام نقشت عليها كتابات لاتينية على غرار ما يشاهد في روما وفي عدد من الاماكن في أوربا. وتحيط بالمدينة غابات من الأشجار المثمرة وأشجار جوز ضخمة تعطي غلة وافرة، ولكن بقية جهاتها عديمة الخصب، وجوها وخيم، وعلى مسافة من المدينة تزيد قليلا عن نصف فرسخ يوجد جبل كثير الكهوف والمغارات، ويعتقد العامة أنها مساكن للجن، بيد أنه واضح للعيان أنها محاجر اقتلعت منها الحجارة التي استخدمت في بناء المدينة، وقد قام خلفاء محمد مرات عديدة بنهب المدينة وسكنها فيما بعد أناس من البربر يتميزون بالبخل والقظاظة ومعاداة الاجانب ولطالما انتقضوا ضد ملوك تونس وحكام قسنطينة. وقد تجرأوا غير ما مرة على قتل الحكام الذين يعينون عليهم. ولما كان عام ألف (وخمسمائة) وخمسين مر مولاي محمد قريبا منهم وهو في طريقه لقتال هوارة، فلم يبادروا باستقباله، فأرسل يسألهم عمن هم إليه يدينون بالولاء فأجابوه مزهوين بأنهم لا يعترفون بالولاء لغير أسوارهم، فغضب لذلك الجواب، وناجزهم بالهجوم ودخل بلدتهم عنوة وسنق منهم من لم يلقوا حتفهم في القتال، وهدم المدينة، ولكن عددا من فقراء الناس سكونها بعد ذلك. وتتميز تبيسة عن غيرها من مدن بلاد البربر بثلاثة أشياء لها أهميتها وهي أسوارها وما بها من أشجار الجوز وما بها من عيون المياه والمجاري، وما عدا هذه فليس فيها شيء معتبر. وليس في هذا الاقليم، على حد علمنا، مدينة أخرى. ولنعرض الآن لذكر الجبال.

الفصل الثاني عشر

ذكر جبال إقليم قسنطينة

تغطي مجموع الجهات الغربية والشمالية لهذا الاقليم إلى غاية ضواحي قسنطينة جبال تبدأ من حدود بجاية وتمتد على طول الساحل إلى غاية عنابة على

مسافة تزيد عن خمسة وأربعين فرسخا، فهي إذا جبال كثيرة العدد ولكنها تحمل كلها أسماء القبائل التي تسكنها من برابرة وزواوة، وأرضها طيبة رائقة كثيرة الزرع والمواشي، وسهول أوديتها كثيرة الخصب تغل كثيرا من الزيت والتين وغير ذلك من الثمار التي تتزود منها جميع المدن المجاورة(27) كما يتزود منها عرب البوادي. وسكان هذه الجبال من البربر أكثر ذكاء من بربر جبال بجاية، ويوجد من بينهم كثير ممن يعملون في قبائل زواوة المشتهرين بجودة ما يصنعونه من المنسوجات، ولكنهم لا يكادون يكفون عن المقاتلة بسبب النساء اللائي يتطلقن في جبل من الجبال ليتزوجن من جديد في جبل آخر حسبما ما تسمح بذلك ديانتهن. وهم أناس مياسير لهم حرص شديد على حريتهم، لا يؤدون الاتاوة الا إذا خرج اليهم عسكر الملك في طلبها، وهم يعطون فيها عددا من المنسوجات والخيول لانهم لا يروجون الا قليلا من النقود، وهم على خلاف مستمر مع العرب، وهذا هو السبب في قلة متاجرتهم في السهول وندرة تعاملهم مع المدن، وتقام عندهم أسواق أسبوعية في عدة أماكن يقصدها تجار عنابة والقل وقسنطينة، ولا بد لهم إذا أرادوا التردد على تلك الاسواق من اكتساب صداقة أحد سكان الجبل الذي به السوق يصاحبهم ويحميهم، وإذا لم يعتلوا بهذا الحامي لم يأمنوا الضرر ولم يطمعوا في الانصاف، إذ ليس من بينهم عارف بالدين ولا قاض ولا من هو على قدر محمود من التعليم. ومجموع من تعبئهم هذه الجبال من المقاتلين أربعون ألف رجل من بينهم أربعة آلاف من الفرسان، وقد صاروا منذ مدة يسيرة يجهزون عددا من حملة البنادق والقذافات، وهم معروفون بشجاعتهم في القتال، ولو أنهم اتفقوا في يوم من الأيام لكانوا قادرين على غزو جزء عظيم من إفريقيا.

الفصل الثالث عشر

ذكر إقليم تونس

كان إقليم تونس يسمى إفريقية(28) وبه كانت في القديم مدينة قرطاجة، وهو الاقليم الثاني من هذه المملكة حسب الترتيب الذي اتبعناه. ويحده من جهة الغرب إقليم قسنطينة، ومن جهة الشرق إقليم طرابلس، ومن الجنوب جبال الأطلس وإقليم الزاب وجزء من نوميديا وليبيا الشرقية، أما من الشمال فيحده البحر

27) القل وجيجري وعنابة.

28) افريقية الصغرى والقرطاجنية.

المتوسط ما بين مصب نهر مجردة(29) عند بنزرت ومصب نهر قابس الذي كان يسمى في القديم تريتون. فهذا الاقليم إذا، إقليم مترامي الأطراف يحتوي عددا من المدن والقرى تعرض معظمها للتدمير على أيدي العرب عندما دخلوا إفريقيا، ولم يتحملوا عناء إعادة تعميرها بعد ذلك لأنهم يعيشون متنقلين في حرية بقطعان مواشيهم مستمتعين في سلام بخيرات البوادي حتى إن ذكر تلك الامصار قد تنوسي بمرور الزمن. وسنعرض في الفصول اللاحقة لذكر المدن الباقية ولبعض المدن المندثرة التي بقيت ذكرياتها محفوظة، وسنبدأ بذكر التي توجد على مقربة من البحر.

الفصــل الرابع عشــر
بورتو فارينا أو أوتيقــا

يوجد بين مدينة بنزرت وبين رأس قرطاجة مرسى مهجور يسمى عادة بورتو فارينا(30) ترى في جانب منه أطلال مدينة قديمة يقال إنها هي مدينة أوتيقا التي ارتبطت شهرتها بموت كاطون. هدم هذه المدينة خلفاء محمد ولم تعمر بعد ذلك وإن كانت تحيط بها قرى عديدة يسكنها أقوام من البربر يتكلمون عربية فاسدة ويدينون بالتبعية لمالك تونس، وتأوي إلى هذا المرسى السفن التي تتقدم على طول الساحل، وفيه نزلت(31) من البحر جيوش شارلكانت عندما جاء لغزو تونس.

الفصــل الخامــس عشــر
قـرطاجــة

مدينة قرطاجة مذكورة عند عدد من الكتاب الاغريق واللاتينيين والعرب، وموقعها على ساحل البحر في بسيط من الأرض وإن كانت في وسط أسوارها المترامية تضم جبلا كانت فوقه قلعتها الرئيسية، ويوجد فيه اليوم برج يسميه المسيحيون لاروكدي مايتناس ويسميها الافارقة المنار. وينسب بعضهم تأسيس هذه المدينة إلى رجل فنيقي من صور(32) يسمى كاركدون ومعناه قرطاج بلغة الافريق

29) أوراكّادة.

30) أوغار الملحة.

31) عام 1535.

32) عام 1268 قبل المسيح.

ويذهبون إلى القول بأن الاميرة ديدون أعادت بناءها بعد مرور مائتين وثلاثين أو مائتين وأربعين عاما على تأسيسها، ويؤكد آخرون القول بأن هذه الاميرة قد خرجت من صور حوالي عام ثلاثة آلاف وثمانين من خلق العالم، وهي التي بنت قرطاجة وسمتها بيرسة ومعناه في لسان الاغريق الزنار لانها طلبت من أهل البلاد أرضا تؤسس بها المدينة مساحتها مقدار ما يغطيه جلد بقرة واحدة، ولكنها قطعت ذلك الجلد فصنعت منه زنارات شديدة الرقة فامتدت على ما اتسع لمدينة عظيمة. ويذكر سيرفيوس أنها تسمت بقرطاج(33) من إسم مدينة ليبية أخرى كانت تسمى قارتا. ويرى آخرون أن قرطاجة بناها الفينيقيون الذين طردهم يشوع بن نون. وهكذا تضاربت الاقوال في هذا الموضوع بين الكتاب الاغريق واللاتينيين. وكذلك الشأن بالنسبة لأهل البلد فآراؤهم مختلفة في هذا الباب، فبعضهم يذكروه أن قرطاجة من بناء روماني إسمه إدريس(34) كان قد ملك إفريقيا. ويرى الآخرون أن بانيتها ملكة سوريا أو ملكة ليبيا. ولكن كبير مؤرخي البلد يذكر أن مؤسسها هو شعب برسة الذي فر من طغيان ملوك مصر. ولكن أيا من هؤلاء الرواة لم يذكر خبر قرطاجة قبل زمن انحطاط الامبراطورية الرومانية، وكل ما ذكرون هو أن حكام المدن كانوا مستولين على قرطاجنة حتى جاء القوط وطردوهم منها. وقد دمرها سيبيون الافريقي القائد الرومالي الشهير، وذلك حوالي عام ألف وسبعمائة من تأسيسها عندما كان صاحبها هوها ـــ ميلكار. وبعد ذلك خربها جنسيريك ملك الوندال، إلى أن جاء خلفاء محمد فدمروها على النحو الذي سنذكره. فبعد أن دخلوا طرابلس وقابس خرج جميع من كان بهما من السكان الى قرطاجة حيث تجمع نبلاء القوط والرومان للدفاع ضد عدوهم المشترك، وبعد معارك عدة لم تفد في زحزحة سيادة الرومان على قرطاجة بعث خليفة(37) دمشق جيشا قويا الى إفريقية، وبعد أن استولى على عدد من المدن دخل مدينة قرطاجة فنهبها وحمل ما كان بها من الاموال والثورات إلى دمشق، وظلت على تلك الحال إلى أن قام بالقيروان خليفة(38) خارج عن الخليفة السني، فعمر من قرطاجة ما يقدر

33) لأن معنى قرطاج في اللغة الفيفيقية : المدينة.

34) انظر الكتاب الأول. الفصل الثاني والعشرين.

35) على قول ابن الرقيق.

36) عبد الملك بن مروان.

37) المهدي.

38) المنصور ؟

بنصف عشرها، ولكن العرب خربوا هذا الذي عمره بعد ذلك في حروبهم عندما كانوا يقاتلون أمراء تونس. وبعد ذلك أعاد إليها العمران بقدر ما أحد[39] هؤلاء الامراء وأنفق في ذلك أموالا باهظة، إلا أن قبائل الاعراب ما لبثت أن خرجت قرطاجة من جديد حتى لم يبق منها سوى قرية صغيرة تسمى المرسى بها ما يقارب خمسمائة من المساكن ومسجد رائق ومدرسة بناها أحد ملوك تونس[40]، إلا أن هذه البقية من السكان لا تنقصها العزة والانفة، وإن كانوا لا يشتغلون بغير بساتينهم الممتدة على الاطراف المجاورة ولا سيما في اتجاه الغرب والجنوب، وفيها أنواع من جيد الثمار الفائقة الاحجام، فعندما قام شارلكانت بغزو تونس، نزل بهذه الفرضة، وكانت ما تزال تشاهد منها أطلال بنايات شامخة عظيمة وقصور من المرمر الابيض قد استحالت الى خراب وكذا خزان ماء كبير متسع عميق، والاقواس والحنايا التي كانت تحمل قنوات تأتي فيها المياه من مسافة عشرة فراسخ، وتمتاز الاراضي المجاورة بالخصب ولكنها قليلة الاتساع لانها محصورة من جهة الشمال بالجبل والبحر والبحيرة، ومن جهة الشرق والجنوب تجاورها سهول بنزرت وهي في ملك قوم آخرين. وعلى مقربة من قرية المرسى التي ذكرناها توجد قصور وأجنة يأتي إليها ملوك تونس صيفا بقصد الاستجمام. وكل ذلك تركه السكان عندما جاء يغزوهم الامبراطور، الا أن السكان رجعوا بعد ذلك، غير أنهم لا يعرفون الطمأنينة عندما تشب نار الحرب بين تونس وبين حلق الوادي لان الاسبان يصلون في غاراتهم إلى هذه الجهة، وكانوا يحملون من أنقاض قرطاجة مادة يغطون بها تحصيناتهم، وعلاوة على ذلك فإنهم قاموا بقطع جميع أشجار الزيتون وغيرها من أشجار الثمار وذلك في الأراضي الواقعة بين قرطاجة وتونس، وترتب عن ذلك هجرة سكان بعض القرى الفقيرة التي كانت بهذه الاحياء حيث لجأ أهلها إلى مدينة تونس ومدينة بنزرت.

الفصل السادس عشر

ذكر تونس عاصمة الاقليم وذكر حصن حلق الوادي

تونس مدينة عظيمة قديمة بناها العرب الأولون الذين جاءوا إلى إفريقية من بلاد العرب السعيدة تحت حكم أميرهم صاحب إفريقية. كانت في أول أمرها

39) مولاي محمد.

عمارة قليلة، ثم توسعت بما حمل إليها من أنقاض قرطاجة، ذلك لأن العرب أتباع محمد الذين جاءوا في جيش عقبة لما رأوا أنهم غير آمنين في قرطاجة لما يحتمل من انجاد أوربا لمن وقع غزوها عليهم من النصارى تركوها واستقروا في تونس ومكثوا بها عدة أيام. وفي أثناء ذلك شيدوا بها عددا من المباني وزينوها بالعمران، ولكنهم ما لبثوا أن غادروها فأقاموا بمكان يبعد عنها بنحو ثلاثين فرسخا جهة الشرق حيث بنوا القيروان بعيدا عن البحر بأربعة فراسخ على ضفة بحيرة حلق الوادي، وهي واقعة في بسيط من الأرض، وفوق مرتفع مشرق على هذه الجهات من جهة الغرب توجد قلعة غير محصنة ومسجد وبرج عال رائق البناء. ويوجد ربضان كبيران يضم أحدهما(40) أزيد من ألفي دار يوجد عند الباب الشمالي، وبذلك فهو أكبر من المدينة، أما الربض الاخر(41) فيقع جهة الجنوب، وبه ما يقدر بألف دار، وكان به عندما استولى شارلكانت على هذه المدينة مسكن النصارى المرابطين منذ عهد يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها من نسب الموحدين. وكانوا من هؤلاء النصارى المستعربين الذين ذكرناهم عند وصف مراكش، وكان المسلمون يسمونهم بالربضيين لانهم كانوا يسكنون الربض. ويرجع أصلهم إلى العهد الذي مر فيه يعقوب المنصور بتونس، وكان قد أتى بعدد منهم وترك جماعة منهم لعامل المدينة لكي يتخذهم حراسا له. ولا بد من التنبيه إلى أنهم كانوا على صنفين عندما استولى شارلكانت على هذه المدينة : المنحدرون من هؤلاء المستعربين القدماء وكانوا من السادة، لهم حكامهم الخاصون وأحياؤهم التي لا يزاحمهم فيها أحد، وكانوا على قدر من النبل والغنى يعتد بهم الملوك لأنهم طالما اعترضوا هجمات الاعراب، أما الآخرون فهم أخلاط من جميع آفاق النصرانية استقروا في هذه الجهة وهم من الخمارين والبزازين وليس من بينهم سوى عدد قليل من التجار. أما الآخرون فلا يشتغلون الا بالحرب، ولذلك عادوا إلى أوربا بصحبة الامبراطور وانتشروا في عدة أماكن حيث رتب لهم معاشات. ويوجد ربض ثالث خارج باب البحر على مسافة من البحيرة مقدار ما تبلغه رمية البندقية. وفي هذا المكان توجد المخازن ودور التجار المسيحيين الذين يقصدون تونس للتجارة ولا يزيد عدد دور هذا الربض عن الثلاثمائة، ثم إنها من الدور الصغيرة، غير أن مجموع ما في تونس وأرباضها من الدور المسكونة يزيد عن العشرين ألفا. والازقة والساحات في غير

40) باب الصوى.

41) باب المنارة.

انتظام، وقد كان سكان المدينة عند مجيء باربارُوس عددا عظيما، وحيث إن اقتحامها متيسر من عدة جهات فإن قوتها لا تكمن إلا في كثرة سكانها. ومعظم هؤلاء السكان من المشتغلين بالحرف اليدوية، ومن بينهم عدد من الجباكين الذين يصنعون أجود منسوجات افريقيا لان خيوطها أدق وأحسن برما مما في البلاد الاخرى، وفي تونس تصنع تلك العمامات الرفيعة المسماة بالعمامات التونسية وهي تحظى بشهرة واعتبار عند مسلمي إفريقيا جمعاء. وفي وسط المدينة توجد ساحة كبرى تحيط بها المتاجر لذلك تجد فيها الناس بكثرة في جميع الاوقات. وتبقى حوانيت العطارين مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل، والسبب في ذلك أن النساء إنما يذهبن إلى الحمام ليلا. ويتميز سكان تونس بلطفهم ورقيهم، وهم يحدثون طرائف من الاشياء مقبولة لدى الكبراء الا أن اغنياءهم قلة قليلة، وذلك بسبب غلاء القمح الذي يجلب إليهم من بعيد (42) ولا يجود في أرضهم بسبب كسل السكان وقلة نشاطهم لاعمال الفلاحة. ثم إنهم زيادة على ذلك لا يزرعون الا ما جاورهم من الارض ولا يبعدون عنها خوفا من الاعراب. ولا يستثمرون بضواحي المدينة غير حدائق يسقونها بالنواعير التي سبق لي أن تحدثت عنها. ولا يكاد أصحابها يغلون منها عولة أربعة أشهر في السنة. والخبز الذي يؤكل في تونس أبيض جيد لأنه مصنوع من لباب الدقيق. فبعد الزرع في أرجاء تدار باليد، يعاد طحينه مرة ثانية، وبذلك يأتي منه خبز غاية في الجودة(43) يعتبر الاكل العادي لكل من هو على درجة من اليسر. أما عامة الناس فأكلهم من دقيق الشعير، يعجن ويطبخ في الماء ويعمل فيه قدر من الملح ويتناولونه بعد غمسه في الزيت أو السمن. أما فقراء الناس فأكلهم دقيق الشعير دون طبخ يغمسونه في الماء أو الزيت ويمرسونه، ثم يتناولونه مع شيء من عصير البرتقال أو الليمون، وهم يحرصون على حفظ هذا الغذاء وصيانته. وتوجد في تونس ساحة لا يباع فيها غير دقيق الشعير الذي يصنع منه الاكل المذكور. ولا توجد في المدينة ولا في الجهات المجاورة لها رحى تدور بالرياح أو بالماء(44) ولا توجد بها عيون ماء ولا آبار ولا سوق، وإنما توجد بها خزانات تسيل إليها مياه الامطار وهي التي يستعملها الناس سواء لشربهم أو لحاجتهم في المنازل. بيد أن بظاهر المدينة بئرا(45) تجري بها المياه. يأتي بمائها

42) من مدن لوربوس وبيكجي وعنابة.

43) نوع من الشعيرية.

44) لا توجد هنا أرحاء تدار باليد.

45) ظبيان.

السقاءون ويبيعونه في الازقة لان الناس يرونه أقل تلوثا من مياه الخزانات. وتوجد آبار أخرى في الجهات المجاورة ولكنها مخصوصة لدار المالك وقواده. والجامع الاعظم بتونس مسجد واسع، له موارد وفيرة، وله صومعة عالية توجد في أعلاها ثلاث رمانات من النحاس المموه بالذهب شبيهة بالتي في مراكش، وقد سألت بعض الفقهاء عن علة وضع تلك الرمانات فوق الصومعة قد ذكر لي جوابا عن سؤالي أسطورة يقتنع بها الناس كما لو كانت واقعة حقيقة، قال : لما خرج يعقوب المنصور مالك مراكش مستخفيا لا يعلم بسيرته أحد من الناس، خرجت امرأة من أزواجه تحبه حبا شديدا وهي تريد البحث عنه، وكانت حاملا بمولود، وبعد أن جابت مجموع بلاد إفريقيا وجدته بمدينة الاسكندرية، وأقامت معه هنالك إلى أن مات ولم يتعرف عليه أحد. وبعد وفاته أخذت تلك المرأة طريق العودة إلى مراكش وأقامت في تونس للاستراحة، وهنالك تعلق ولد الملك بابنتها وضايقها إلى حد أن أمها اضطرت إلى التظلم لدى السلطان، وقال لها : من يا ترى يستحق ابنتك خيرا من ابني؟ واشترطت المرأة أن يتزوجها وأن يقدم إليها مهرا لا يقل عن المهر الذي قدمه والد البنت إلى أمها، وذكرت أن بنتها أكرم محتدا من ولد الامير. وقد دهش الامير لما سمع كلامهما، ولما وعد المرأة بتحقيق كل مطالبها أظهرت إليه عقد زواجها وعرفت بنفسها وذكرت إليه أن كل ما أهداه إياها المنصور في صداقها قد استعملته في صنع التفاحات الذهبية المنصوبة فوق منار جامع مراكش. وعندئذ وافق الامير على الزواج، ولما كان لا يتوفر على القدر الكافي لصنع تفاحات المسجد من الذهب، اكتفى بصنعها من النحاس المذهب. وكل الافارقة مقتنعون بهذه الاسطورة اقتناعا شديدا. ثم إن أهل الاسكندرية يحيون ذكرى وفاة يعقوب المنصور. ولكنني وقفت على محل دفنه في مدينة المنزلة في مملكة فاس، الا أن يكون أميرا آخر يحمل نفس الاسم من نسب بني مرين كان هو أيضا شهيرا بخصاله ومزاياه، وقد يكون يعقوب المنصور دفن أول الأمر في الاسكندرية، ثم نقل جثمانه منها رجع الى ما نحن بصدده من وصف تونس. يوجد بهذه المدينة عدد آخر من المساجد أصغر من الذي ذكرناه، كما توجد بها مدارس عتيقة معظمها متهدم. الا أن بعض المدارس ما يزال قائما يدرس به الدين المحمدي وينفق عليها من الصدقات، ومعظم دور المدينة مبني بالحجارة أو الأجر والجير وهي في غاية المواتاة مع ظروف هذا البلد إذ أنها ذات سطوح متدرجة بحيث تمكن من تصريف مياه الامطار الى الخزانات، أما السقوف فهي من الجبس المزخرف بالذهب وبالعديد من الالوان، إذ لا توجد في هذه الجهات الاخشاب الكافية لصنع ألواح

السقوف. أما أرضية الغرف فهي معمولة من مربعات صغيرة من الاسمنت أو تبليط مرصع، وليس في الدور على العادة غير طابق واحد، وأبهاؤها باردة نظيفة لأن الرجال يقضون فيها معظم أوقاتهم وهم يتحدثون ويجرون معاملاتهم، وبذلك يتجنبون إدخال أصدقائهم ومستخدميهم إلى داخل الدار حيث توجد نساؤهم. وفي المدينة عدد من الحمامات اكثر راحة من حمامات فاس وإن كانت أقل منها رونقا واتساعا، وليست بها مياه جارية كما هو الشأن في فاس. وبجوار المدينة أجنة واسعة تغل كثيرا من لذيذ الفواكه والثمار، وعدد من ثمار البرتغال والليمون، ويعظم ذلك على الخصوص، في حدائق الامير التي يتعهدها الزراع بالعناية الفائقة. وتحيط بالمدينة على قطر مقداره فرسخان مساحة مغروسة بأشجار الزيتون، تغل ما يكفي السكان من الزيت ويفيض عن حاجتهم ما يحمل منه للبيع في جهات قد تبلغ إلى أبواب مصر، كما يأتي من هذه الاشجار الحطب الذي يصنع منه الفحم لان الحطب نادر في تونس. ونساء تونس متميزات بالحسن والجمال، ولما كان معظمهن من غير ذوات الاحساب فالوصول إليهن غير ممتنع. وهن معتنيات بزينتهن، يضعن براقع وجوههن عند الخروج كما تفعل نساء فاس، ولكنهن يبالغن في التخضيب والزينة. أما الأزواج فليست لهم عليهن غيرة شديدة. وهم يتناولون مستحضرا من الاعشاب(46) باهظ الثمن يلتذ به من تناوله ويثير عنده شهوة النساء، فمن أكل منه أوقية واحدة قضى يومه جذلان فرحان دون أن يخشى عاقبة ما. ويقال إن أهل تونس أخذوا سر هذا العقار من الاتراك. وتبلغ السذاجة بهذه الشعوب إلى حد أنهم ينسبون الى الصلاح كل معتوه تائه في الأزقة والاسواق، فتراهم لا يكتفون بإكرام هؤلاء المعتوهين بل يتعدون ذلك إلى الاحسان لذويهم، ومدينة تونس غير حصينة ولا تحيط بها الا أسوار قصيرة جدا، ولا سيما من جهتي الغرب والجنوب. وتوجد على مقربة من البحيرة دار لصناعة السفن يوجد بها ما يكفي لبناء أربع عشرة سفينة حربية سريعة. في الجانب الآخر من البحيرة، عند ساحل البحر، توجد قلعة حلق الوادي والقنال الذي يتسرب عبره الماء إلى البحيرة.

(46) حشيش.

ذكر أصل ملوك تونس

ذكرنا في الكتاب الثاني من هذا التاريخ كيف أن أحد الأفارقة(48) قاد ثورة القيروان في عهد الخليفة القائم، وذكرنا أن الخليفة أرسل عليه جيشا من بلاد العرب وأن هذا الافريقي انهزم ولقى حتفه. وقد نجا ولداه من بطش العرب، وفر أحدهما الى تونس، بينما فر الثاني الى بجاية. وقد خرج لحربهما يوسف بن تاشفين مالك المرابطين، وبعد أن استولى على أقاليم المغرب، وتبين للرجلين أنهما لن يقدرا على الصمود له، قدما له الطاعة، وقد أقرهما على تلك الايالات مقابل فرض يستمر به الولاء، وبذلك دامت لهما ولأعقابهما الامارة ما بقيت دولة المرابطين. ولما ملك بعدهم الموحدون، زحف يعقوب المنصور الى جهات افريقية وانتزع ملك تونس وبجاية من أحفاد أولئك المتولين. وكان جده(48) قد انتزع في الماضي مدينة افريقيا من النصارى، وكانوا يملكونها منذ وقت طويل. ولما مال نجم أمبراطورية الموحدين الى الافول انتفض أعراب مملكة تونس وحاصروا مرات عديدة العامل الذي عينه عليها ملك المغرب الأقصى وضيقوا عليه الى أن طلب الغوث والانجاد. ومن ذلك أن ملك الغرب أرسل في تلك النجدة عشرين سفينة من السفن العظمى تحمل المقاتلين تحت قيادة عبد الهادي، وكان من كبار قواد إشبيلية ونسبه في المصامدة. وقد انطلق بهذا الجيش من مدينة قرطاجنة ونزل بساحل مدينة تونس، ووجد المدينة، وقد أتى عيث الأعراب على نصف عمرانها، واستطاع بحكمته أن يفض ما بينهم من نزاع وخصص جزءا من مداخيل الامارة لألئك الأعراب عندما تعهدوا بترك الحرية للمدن، ولم ينتقض هذا العهد منذ ذلك الحين. وقد توفي هذا القائد وخلفه ولده(49) لا يقل حكمة أو تبصرا عن أبيه. وقد خلص له أمر هذه الامارة في مدة اضطراب الأحوال بين الموحدين والمرينيين، واغتنم تلك الفرصة فبنى قلعة بأعلى مكان من المدينة، بل انه استطاع أن يوسع حكمه الى طرابلس. وبعد الطواف بنوميديا وليبيا أخضع للتغريم هذه البلاد الى ما جاور السودان، وعندما أدركته الوفاة ترك لابنه كنزا عظيما. وقد اطمأن هذا الأمير(50) الى قوته وماله فتشوق الى امتلاك جميع بلاد افريقيا، وأطمعه في ذلك ما كانت عليه هذه البلاد

47) أبو الغيث.

48) عبد المومن بن علي.

49) أبو زكريا.

50) أبو فارس.

من حال التقاتل والخلاف بين الشيع والأحزاب، فقد استولى بنو مرين على مملكة فاس، ودانت لبني زيان مملكة تلمسان، ولم يبق بأيدي الموحدين سوى مملكة مراكش التي كان يتطلع اليها هؤلاء واولئيك وهكذا تهيأت الظروف لهذا الأمير لكي يحقق بعض عظائم الأعمال، فما أن تم له ملك تونس حتى زحف الى تلمسان، وأرغم أميرها على الاقرار له بالطاعة والعطاء، وكان من وقع ذلك النجاح أن ملك فاس، وكان حينئذ يحاصر مراكش، قد بادر بأن أرسل إليه هدايا عظيمة، وزاد على ذلك بأن اعترف بولائه لاتقاء شره وإثنائه عن مرامه. وبذلك رجع لى تونس بعد أن حاز رسوم النصر واعترف بسلطانه على افريقيا، وقد تقلد ذلك الرسم عن جذارة واستحقاق إذ لم يكن في أمراء هذه البلاد من هو أعظم منه قدرا. وبعد أن عاد الى تونس رتب مراسيم بلاطه ووظائفه على مثال ما عند ملوك مراكش وخلفائها من التقاليد والشارات . فكان أول من تلقب بلقب ملك تونس. وبعد وفاته ترك ولدا(51) لا يقل عنه إقداما وشجاعة. زاد من ممالك أبيه ووسعها. وبعد وفاته صار لملوك فاس من القوة والنفوذ ما جعلهم يحرزون الاقرار بسلطانهم من لدن جميع أتباع محمد في افريقيا. وقد وسعوا امبراطوريتهم الى حدود رأس مسراتة حيث اشتهر ضريح الثمنومتين في الطرف الشرقي من بلاد البربر، وتوسعوا جنوبا الى حدود بلاد السودان، وكانت لهم حروب عظيمة مع الذين تولوا بعد عثمان. وبعد ذلك قام أحد ملوك فاس(52) بمحاصرة تونس، فما كان من أميرها إلا أن فر إلى اصحراء بالأعراب، فساد عليها ملك فاس. ولكن أمير تونس ما لبث أن رجع اليه وقاتله حتى تمكن من هزمه ومن إستعادة إمارته. وبينما الأمر كذلك إذ ثارت عليه مدينة طرابلس وظلت على عصيانها خمس سنين، وبعد ذلك جاء أحد ملوك(53) فاس يقاتل الأمير(54) الذي خلف صاحب تونس، وقد تمكن من هزمه وتعقبه فارا الى قسنطينة وحاصره بها حتى اضطره الى الاستسلام وبعث به ليسجن في قلعة سبتة وكانت حينئذ للمغاربة. وفي هذه الظروف قام أهل جنوة بالهجوم على طرابلس بعشرين سفينة كبرى واثنتي عشرة سفينة حربية سريعة، وبعد أن أخذوها عنوة استرقوا سكانها. ولما بلغ الخبر الى ملك فاس أعطى الجنويين خمسين الف ريال ذهبا مقابل الجلاء عن المدينة وتحرير سكانها من ربقة الاستعباد،

(51) عثمان .
(52) أبو الحسن.
(53) أبو عنان.
(54) مولاي أبو العباس.

إلا أنه أدى نصف ذلك المبلغ بعملة زائفة ظنوها من السكة الطيبة. وبعد وفاة ملك(55) فاس، قام خلفه(56) بتسريح أمير(57) تونس الذي كان والده قد سجنه، وذلك بسبب مصاهرة انعقدت بينهما. وبعد أن عاد صاحب تونس الى إمارته أعاد طرابلس الى الطاعة، كما استعاد ما كان مواليا له من الأقاليم. وأمضى بقية أيامه في سلام. وكذلك فعل من جاء بعد من المتولين من أسرته، الى ان كان عهد المتسمى منهم باسم أبي بكر الذي اغتيل هو وأحد أبنائه عندما كان خارجا الى طرابلس. وكان الذي دبر ذلك الاغتيال هو قريب من عمومته يدعى يحيى، أثار عليه إيالته، لكن ابن عم لح له قام ضد يحيى وغلبه وقتله وساد على تلك الامارة في دعة وأمان. وقد خلفه أحد أبناء(58) يحيى لكنه مات بالطاعون بعد مدة قصيرة. واتفق كبراء الدولة على تقديم أحد أقارب(59) الهالك. وقد قهر الناس بظلمه، وتسبب سلوكه في انتقاض عدد من المدن وقيامها بخلع طاعته واتخاذ حكام يتولون أمورها. وبعد أن توفي هذا الأمير المتعسف خلفه في حكم تونس مولاي محمد والد مولاي الحسن الذي أعاده الأمبراطور (شالكانت) الى إمارته، وبقي فيها الى أن طرده منها بارباروس. وكان مولاي الحسن هذا يزعم بأنه المالك الخامس والثلاثون ممن حكموا تونس من هذه الأسرة خلفا عن سلف في مدة أربعة قرون ونصف قرن وأنه ينحدر مباشرة من نسب أحد ملوك المجوس الثلاثة، وكان يتقلد رمحا بين سيفين، لكل سيف رأس من ذهب، وعلى السيف ثلاثة أهلة، وفوق الأهلة تاج، وعلى التاج نجمة. وقد أطلعني على ذلك ولده(60) في مدينة باليوم وشاهدته على سيف من سيوفه. ويذكر الكتاب من أهل افريقيا فيما أطلعت عليه من كتبهم أن ملوك تونس هؤلاء من نسب هنتاتة وهم فرع من أصل مصمودة واحدة من خمس قبائل كبرى في افريقيا، ويتسمون بالحفصيين. ويذهب آخرون الى القول بأن هؤلاء الملوك ينتسبون الى الخليفة الثاني عمر ولذلك يتلقب الواحد منهم بالأمير، ويدعون أنهم الخلفاء الشرعيون لمحمد. وقد حكم هؤلاء الأمراء مدة طويلة في صقلية إلا أنهم صاروا بعد ذلك يعطون الاتاوة للنورمان بعد أن بدأت أمبراطورية العرب تميل الى

55) أبو عنان.
56) أبو سالم.
57) أبو العباس.
58) أبو زكرياء.
59) أبو سالم.
60) مولاي محمد.

الانحطاط، وصار حكم صقلية الى روجير الثالث، وذلك حوالي عام (ألف) وخمسمائة وخمسة وأربعين. وبعد ذلك صار ملوك تونس يعطون الاتاوة لملوك فرنسا في عام ألف ومائتين وستة وسبعين، وذلك أن سان لويس قام بمحاصرة تونس كما سبق أن ذكرنا، ولما مات في الحصار بادر أخوه شارل ملك صقلية، بإنجاد المسيحيين، واضطر مالك تونس، وهو إما مولاي المستنصر أو أمير آخر إسمه عمر، إذ كان أحدهما على العرش، الى أداء الاتاوة، وبعد ذلك رجع الى بلده، ورجع الفرنسيون كذلك الى بلدهم. وهذا ما أمكن ذكره فيما يخص هؤلاء الأمراء وأصل نسبهم.

ذكر بلاط ملوك تونس وما فيه من الوظائف وما يتبع فيه من المراسيم والتقاليد

الملك في تونس وراثي. يعين الملك منْ سيخلفه في الملك دون مراعاة حق البكورية. ولكنه يقوم بالعهد اليه في حياته، ويأخذ المواثيق على طاعته من كبراء الدولة، حتى إذا توفي والده نصبوه على العرش. ويفعلون مثل ذلك حتى ولو كان الذي سيخلف الملك من إخوانه أو أبناء إخوانه أو أخواته أو من أبناء عمومته، إذ المطلوب أن يكون من نسبه. وأهم الوظائف في البلاط إحدى عشرة وظيفة. أولها وظيفة المنفذ وهو الذي تصدر عنه جميع الأوامر، فهو بمثابة نائب للملك فهو يطلع الملك على كل ما يفعله وينوب عنه في التجهيز للحرب وتسيير شئون الحكم بصفة عامة. والوظيفة الثانية هي وظيفة المزوار والى نظره رجال الحرب على اختلاف مستوياتهم وكذا القائمون بحراسة الملك، وعنه تصدر الأوامر باستخلاص الجبايات. أما الوظيف الثالث فهو وظيف العامل أو السيد الأكبر، وعليه المعول في حراسة قصر الملك وفي ترتيب كل ما يعتزم الملك إنجازه من أعمال، كما ترفع إليه المظالم المتعلقة بالمنازعات والجرائم، فينظر فيها نيابة عن المالك. وصاحب الوظيف الرابع يسمى صاحب تونس، والى نظره الشرطة والقضاء، وإذا أفسد الأعراب في جهة من الجهات خرج لزجرهم في سرايا الجيش، وهو مشرف على حراسة شوارع المدينة وأزقتها ليلا، يسخر في ذلك حراسا من حملة القسي والسهام يزيد عددهم عن مائتين، وإذا تقبض على أحد الجناة أنزل به العقاب. أما صاحب الوظيف الخامس فهو كاتب الدولة الذي يكتب ويجيب عن أمر الملك، وله التفويض في نص ما يرد من الرسائل المستعجلة ما لم تكن صادرة عن المزوار أو المنفذ.

وصاحب الوظيف السادس هو الحاجب الكبير الذي يحضر بجانب الملك المخصص له ويرسل كل واحد من البوابين الى حيث تدعوا الحاجة اليه. ولا يتولى هذا الوظيف الا من لديه الحظوة العظمى عند الملك إذ يباح له الدخول عليه ومكالمته في جميع الأوقات. وصاحب الوظيف السابع هو أمين المال ويسمى صاحب الحرثة وهو الذي يتولى حفظ الواردات بأكملها، ويوزعها بأمر ملكي يوقع عليه المنفذ المزوار. وصاحب الوظيف الثامن هو بمثابة أمين دخل بيت المال، يستخلص جميع الضرائب على الواردات سواء عن طريق البر أو عن طريق البحر، ومقدار الواجب فيها اثنان ونصف في المائة على سلع المسلمين وعشرة في المائة على سلع النصارى. ويوجد عديد من القائمين بضبط الرسوم وقمع الغش في أدائها، إذ يفترض على الأجانب الذين يدخلون أموالا الى المدينة أن يؤدوا عنها ربع عشرها، وإذا هم تأخروا في التصريح بتلك الأموال تعرضوا لتجريدهم منها بأكملها. أما صاحب الوظيف التاسع فهو كبير محصلي الرسوم المفروضة على السلع التي تخرج بحرا من المملكة. أما الموظف العاشر فهو الممون الأكبر الذي يسهر على تزويد دار الملك بكل ما تحتاج اليه، وهو بمثابة رئيس الخدم. أما الموظف الحادي عشر فهو الخازن الأكبر، واليه تقدم البيانات عن الأمور كلها، ومما يجعل لوظيفته أهمية كبرى اشتراكه في ضبط الحسابات الى جانب المنفذ والمزوار. ولم يتخذ الأمراء الحفصيون حجابا لأن الخدمة داخل قصورهم موكولة الى الجواري والخصيان. وتوجد وظائف أخرى عندهم أقل خطورة من هذه ذكرناها مثل وظائف العناية بالخيل أو بالدواب الحاملة للأثقال أو صيانة ثياب الملك أو تربية أولاده أو العناية بمصلاه أو الاشراف على خدم داره. وقد كان عدد الفرسان العاملين في حراسة الأمير يبلغ في الماضي ألفا وخمسمائة كان معظمهم من النصارى المستعربين أو من النصارى الذين ارتدوا، وكان الأمراء يركنون اليهم ويغدقون عليهم الرواتب العظيمة والصلات. وكان لرئيس هؤلاء الحرس، وهو نصراني مستعرب، نفوذ كبير في الدولة فكان يشارك غيره من كبار القواد كلما أرادوا اختيار الأمير الذي سيتولى الحكم، لأنهم أركان الدولة وأعيانها. وكان للملك مجلس يشاوره في أمور الحرب والسياسة، ويتكون من شيوخ عارفين بالأمور والأحوال، يبلغ عددهم مائة وخمسين، وهم في الجيش قواد للحملات. وكان للأمير حراس شخصيون، وهم مائة من النصارى المرتدين المسلحين ببنادق النار. وكانوا يرافقون الملك في حله وترحاله، إلا أن الفرسان من النصارى المستعربين أقرب إلى الملك من غيرهم، وكان للملك حرس من غير هؤلاء

يتقدمون مشيا على الأقدام، وكانوا من الأتراك المسلحين بالبنادق النارية أو القسي، وإذا سار موكب الملك كان بجانبه كبير الخدم حاملا بيده مزراقا مستقيما ولا يبتعد عن ركاب الملك، وفي الجانب الآخر حارس ثان من كبار الخدم وهو حامل بيده درقة، ووراء الملك حارس ثالث راكب متن فرس حامل قذافة للسهام. وكل هؤلاء على أفراسهم، والى جانبهم قواد آخرون ومكلفون بالمراسيم. كان سير الأمراء على هذه الهيئة المرتبة، وهي شبيهة بما عليه ملوك فاس، سواء في سير المواكب أو طريقة أكلهم أو معاملتهم للرعاية وجميع الأجانب، وكانت سكتهم المضروبة قطعا ذهبية تساوي الواحدة منها خمسة من أرباع ريالنا (إيكو) وقطعا صغيرة من فضة قيمة تساوي الواحدة منها ستة دراهم مرابطية. واثنان وثلاثون منها تساوي واحدا من ريالاتنا. وقد ذهب كل هذا المجد الذي بناه أمراء تونس عندما استولى باربروس على دولتهم، فبالرغم من كون الأمير الحفصي مولاي الحسن قد انحاش للأتراك ودخل في امبراطوريتهم هو وولده(61) فإن أمراء تونس لم يستعيدوا ما عرفته دولتهم في سالف عهدها من العظمة والرونق والازدهار، بل إنهم انشغلوا بمعاناة شغب قبائل الأعراب وبمحاولة استرداد المدن التي أخذها منهم الأتراك. ثم إن الأتراك وسعوا مناطق نفوذهم حتى دخلت فيها مدينة تونس فاضطروا الملك(61) عندئذ الى الالتجاء الى حلق الوادي حيث تقرب من فيليب الثاني ملتمسا منه بالحاح أن ينصره حتى يستعيد ملكه مثلما سبق أن فعل شارلكانت مع والده(62).

إستيلاء باربروس على مدينة تونس

حكم مولاي محمد والد مولاي الحسن في تونس مدة ثلاثين عاما. وقد ولد عددا من الأبناء من عدة نساء. وكان أبرزهم عم الناصر وعبد الرحمان والمامون والرشيد وعبد الهادي وحُسين. وقد مات الأول والثاني في قسنطينة، وحبس المامون في القلعة حتى لا يثور على أبيه، وكان الآخرون على حال من الفسوق والعهر أقنعت والدهم بعدم التفكير في اختيار خلف له في الحكم، إلى أن كانت أواخر أيامه فعزم على أن يعين وليا للعهد بصفة سرية أصغر أولاده وهو حسين، وأمه عربية(63) هي ابنة الشيخ إسماعيل وأخت الشيخ ضرار، وقد اختاره اعتقادا بأنه أكثر نباهة من إخوانه الآخرين وبأنه سيحظى بنصرة قبائل

(61) حميدة.

(62) مولاي الحسن.

(63) غزية.

العرب[64] وشيوخها الذين كانوا أشد باسا من غيرهم في هذه المملكة. وبعد موت مولاي محمد أراد ابنه البكر وهو المامون أن يتولى الملك بعد أن وافق سجانه على تسريحه، ولكن أخاه الحسن سبقه إلى تكوين عصبة تنصره وسارع الى قتل أخيه بطلقة بندقية. وقد جمع عليه الزمرة الذين أعطوا العهد على نصرته في حياة أبيه وحمل لقب الملك وهتف الناس باسمه، وكان أخوه الرشيد خارج القلعة، ولما علم الخبر لاذ بالفرار حتى لايتعرض للقتل مثل ما جرى لأخيه الأكبر. وما لبث الحسن أن أمر بالقبض على جميع أخواته وإخوانه وأبنائهم وزوجاتهم فأمر بقتل بعض الذكور وسمل عيون آخرين وأمر بسجن الاناث في أحد الحمامات، أما الرشيد فقد أفلت من متعقبيه ولجأ الى مدينة[65] في نوميديا لقي الترحاب من أهلها وما لبث حاكمها وهو الشيخ عبد الله أن أصهر اليه بإحدى بناته. وقد جمع جيشا قويا من الأعراب وزحف يريد قتل الحسين، وخرج اليه هذا الأخير ومعه الأتراك والنصارى المستعربون في حرس الملك، والتقى الجمعان على مقربة من مدينة تونس. وانهزم الحسن، ولكن رجاله استماتوا في الدفاع عن المدينة ومنعوا الأعراب من دخولها. ولما تبين للرشيد أن مكوثه في الحصار لا يجدي، إذ لم تكن لديه المدافع لضرب المدينة، ولا مطمع فيها بغير ذلك، أمر بإشعال النار في الارباض وفي الأشجار المحيطة بالمدينة، وسرح الأعراب وأخذ طريقه الى مدينة الجزائر عازما على طلب الامداد من بارباروس. وتم له ما أراد حيث رحب به القائد المذكور ووعده بعطاء عظيم وإن كان فعل ذلك وهو يبيت أمر آخر. ولما كان الإقدام على مثل ذلك الشأن يقتضي إبلاغ السلطان الأعظم، فقد استصحبه معه الى القسطنطينية. ولما وصلا اليه صدر الاذن للرشيد بمقابلة السلطان. و لاشك أن مساعي الرشيد كانت ستنجح لولا أنه مر عن طريق بارباروس الذي كان يتطلع الى إلحاق إمارة تونس بأمبراطورية العثمانيين. ومن أجل تحقيق ذلك خرج قاصدا تونس وهو يدعي انه أراد اللحاق بالأسطول تاركا الرشيد في وضعية مسجون بالقسطنطينية. وما أن ظهر الجيش العثماني البحري على سواحل بلاد البربر حتى قرر مولاي الحسين الخروج من تونس وتركها ظنا منه أن أخاه كان في ذلك الجيش لأنه ذهب يطلب العون من القسطنطينية، وقد قيل له إن الثورة لن تلبث أن تقوم في المدينة، ولذلك فر منها ولجأ الى بعض

64) أولاد يحيى.

65) بشارة.

أصدقائه من الأعراب مترقبا ما سيفضي اليه سعي الأتراك. أما بارباروس فإنه وصل الى بنزرت فاسلمت اليه قيادها لأن أهلها كانوا في شقاق مع الحسين، ومن ثمة مر الى مرسى فارين ومنه الى رأس قرطاج، ثم وقف مترصدا بإسطوله قبالة برج حلق الوادي، وضرب بمدافعه في الهواء طلقات متوالية دون ذخيرة إعلاما بالتضامن، ورد من كانوا في البرج بالمثل. ولما سألهم عمن هو محل ولائهم، أجابوا بأنهم يؤيدون الذي يرجع اليه ملك تونس، وكان سكانها قد عرفوا بوصول الجيش البحري، واعتراهم التأثر والحماس في انتظار وصول الرشيد، وكانوا يمقتون أخاه الحسين بسبب ما عانوه من قسوته وطغيانه. وقد نزل الحسن من الحصن وتوجه اليهم ليكلمهم، ولكنهم تنكروا اليه ونهروه، فعظم إستغرابه لذلك الموقف حتى إنه أسرع بمغادرة المدينة دون أن يحمل معه أي شيء، بل إنه لم يتمكن من العودة الى قصره حيث توجد أمواله وأحجاره الكريمة وغير ذلك من جهازه. فعندما كان جيش شارلكانت بإفريقيا حكى لنا هذا الأمير أنه في عجالة خروجه من القصر وضع في صرة من الملف الأحمر مائتين من الخواتم النفيسة التي لا تقدر بثمن ولكنه نسيها عندما قام من منصته وذلك من شدة الذعر والذهول. وكانت ثروة عظيمة لمن وجدوا وما أن خرج الحسن من المدينة حتى بادر المنفذ وعامل القلعة بتسريح زوجة الرشيد وأبنائه وتمكينهم من صلة ملكية ومعاملتهم معاملة الأمراء، كما قاما بتحرير بعض القراصنة الأتراك رجاء ادراك عفو الملك الجديد وهما يحسبان انه قادم في الجيش البحري. وعلى إثر ذلك بعثوا الى حلق الوادي خيولا مزينة بأسرجة فاخرة أعدوها لركوب الرشيد وبارباروس وغيرهما من قواد الجيش، وأوصوا الذين ذهبوا بها أن يطمئنوا القادمين بان المدينة تقدم اليهم ولاءها. ولما نزل بارباروس ذهب توا الى تونس ومعه تسعة آلاف من الأتراك جاء بهم على متن ستين سفينة حربية ملكية. وقد دخل تونس من باب عليوة واخترق الربض ووصل الى باب المدينة(66) ومنه الى الجامع ثم الى القلعة. وقد استقبله أهل المدينة بابتهاج كبير وعبروا له عن امتنانهم له بالمجيء، ولما تبين لهم أن كل الكلام يدور حول سليمان وبارباروس وان لا ذكر للرشيد بدأوا يظهرون الاستنكار، وزاد غضبهم عندما علموا أن الرشيد قد بقي حبيسا في القسطنطينة. ولما انكشفت الخديعة تجمع سكان المدينة في الساحة، يتقدمهم المزوار، وهم عازمون على محاصرة القلعة، وقد أرسلوا على وجه السرعة في طلب مولاي الحسن، ثم حملوا السلاح وبدأوا يقاتلون الأتراك ويعاملونهم معاملة

66) باب الجزيرة.

العدو، ولما رأى بارباروس أنهم بصدد التضييق عليه أمر الفرسان من حملة البنادق بشن الغارة عليهم، وما لبثوا أن اضطروا الى الاستسلام والى قبول الملك الأعظم أميرا عليهم، وقد بادر بارباروس الى تهدئة الناس والى التحالف مع من بتلك الجهات من الأعراب، ثم استعمل هؤلاء في الاستيلاء على بعض المدن، وجعل حاميات تركية بالقيروان وغيرها، ثم ظهر له أن يقوم بتوسيع ميناء مدينة تونس، فاستخدم الأرقاء من النصارى في شق قنال حلق الوادي الذي يمتد من البحر الى البحيرة، أما مولاي الحسن فقد فر الى قوم من أصدقائه الأعراب ومكث عندهم الى ان أرجعه شارلكانت الى مركزه في الحكم.

حملة شارلكانت على تونس

كان لمولاي الحسن صاحب من مرتدي النصارى الجنويين(67)، وكان هذا الشخص محل ثقته. ولما رأى أن سيده مغموم بما حل به من النكبة وإبعاده عن الحكم وهو لا يملك حولا ولا قوة من أجل الرجوع اليه، نصحه باللجوء الى شارلكانت على فرض انه سيرحب بتلك الفرصة السانحة لينتقم من قرصان يقض مضجع المسيحية جمعاء. وقد ظهر لمولاي الحسن صواب ذلك الرأي ولم يلتفت الى حاشيته من الفقهاء الذين بينوا له انه لن ينال رضا رعاياه في يوم من الأيام إذا عاد الى بلده يعززه جيش من النصارى. وهكذا بعث ذلك المرتد الى الأمبراطور يدعوه الى القيام بتلك الحملة ويتعهد له بأن يكون ممن يقرون له بالولاء والتبعية وبأن يلتحق به هو وعدد من أفراد أسرته ومن أصدقائه عندما يصل الى بلاد البربر، كما التزم له بتزويد جيشه بالأقوات وأداء بعض المال لجنوة. وقد قام هذا المرتد بتلك السفارة أحسن قيام، فقد استطاع أن يعظم في عين الامبراطور وأمام مجلس مستشاريه الأهمية التي يكتسيها طرد القرصان بارباروس من مكان قد يدبر انطلاقا منه أعمالا فيها خراب المسيحيين. وهكذا اعتقد الامبراطور بعد اعتبار نجاح بارباروس، ان الله أقحمه هو وأصحابه في مكان سيكون من الصعب الخروج منه. وأصابت الامبراطور حمية الدين المسيحي، وأدركته الشفقة على الأمير الذي غصب ملكه وجاء يتطارح عليه وهو المجبول بطبعه على الرحمة، فقرر أن يخرج بنفسه الى هذه الحملة المقدسة، وأعطى أوامره سرا بأن تعد للحرب سفنه

67) يدعى همّاء

(القاليرات) في موانىء إسبانيا وجنوة ونابولي وصقلية وأن تعد مع سفن الحرب سفن أخرى للنقل ضخام وأن تشترى الأقوات والذخائر وغيرها من جميع لوازم الحرب، وكتب الأمبراطور الى الدون يان ملك إسبانيا بأن يبعث اليه غليونه أي سفينته الشراعية الحربية الكبرى وكذا عددا من قطع أسطوله الحربي، ثم أمر باستكمال ما بقي من الاستعدادلمثل هذه الحملة العظيمة، ولكن الامبراطور لم يتمكن من إجراء أموره في سرية تامة كما كان يريد، بل إن باربلروس علم بتلك الاستعدادات، ولكنه لم يتأكد منها بصفة تامة الا عندما حل بحلق الوادي، في سفينتين حربيتين، راهب فلورانسي مبعوث من ملك فرنسا الى امبراطور الترك (السيد الأعظم) في شأن بعض أغراضه فأخبره باربروس بجميع ما يتعلق بالاستعداد للحملة مؤكدا له أن الامبراطور سيشارك في الحملة بنفسه، وعندئذ بادر باربروس بإرسال مركبين صغيرين الى القسطنطينية أحدهما تلو الآخر بقصد إطلاع السيد الأعظم والباشوات على الحالة التي توجد عليها شئون افريقية وإبلاغهم بضرورة التعجيل بالأنجاد وإلا ضاع جيش البحر وضاعت معه ولايات الترك في بلاد البربر. وكان سليمان في ذلك الحين مشغولا بالحرب في آسيا، وقد القى فيها بمعظم قواته، ولم يكن باشوات القسطنطينية يملكون من الوسائل ما ينجدون به باربروس حتى ولو رغبوا في ذلك، إذ لم يكونوا يتوفرون لا على السفن ولا على الرجال. ولما كان باربروس قائدا متصفا بالشجاعة والشهامة فقد عزم على أن يفرغ ما تبقى له من الوقت في تحصين حلق الوادي وان يمتنع به مدافعا بمن كان معه من كتائب الجند. وأخذ في إعداد السلاح والذخائر والمؤن، واستنفر جميع قراصنة الشرق وكذا جميع من له دراية بالحرب من أهل الجزائر وغيرها من قلاع بلاد البربر، وطير الاعلام الى جميع أمراء افريقيا طالبا نجدتهم ضد عدوهم المشترك، وصور لهم أن ضياع مدينة تونس سيترتب عنه لا محالة ضياع بلاد البربر جمعاء. ولما بلغه ما أبرم مولاي الحسن من العهود مع ألأمبراطور اجتهد في الظفر به حيا أو ميتا. وقام بتوسيع حلق الوادي حتى يحتوي كتائب العسكر التي أراد انزالها به. وأمر بأن يقف بالقنال الذي يؤدي الى البحيرة جميع الجيش البحري ما عدا اثنتي عشرة من سفن الحرب السريعة (القاليرات) أحسن تجهيزها وتركها خارج القنال وما عدا أخريات مثلها في العدد والعدة كان يملكها راسية في نهر عنابة. ولما أكمل ما يلزم للدفاع من الاستعداد ظل يترقب في صبر قاناة ظهور عدده في الأفق. أما الامبراطور فقد انتقل الى برشلونة حيث أمضى شهر ماي

بأكمله، ولما علم أن جيش المشاة القديم المتكون من كتائب الاسبانيين والالمانيين والايطاليين سيصل الى جزيرة سردينية في بداية شهر يونيه ركب البحر في اليوم الثلاثين من شهر ماي على متن سفينة حربية ذات أربعة مجاذيف على كل جهة، وكان اندريا دوريا قد أمر بأن تصنع تلك السفينة خصيصا له في جنوة، وقد ركب مع الامبراطور الإنفانت الدون لويس أخي الامبراطور، وكان قد وصل برا ليشارك في هذه الحملة، كما ركب معه عدد من السادة ونبلاء القوم وعليتهم من الاسبانيين ومن الأمم الأخرى. وفي غضون يومين تم إقلاع مجموع الجيش، وكان شارلكانت يتوفر على أربع وخمسن سينة حربية خاصة به، وعلى سبعين سفينة من السفن الضخام كان من بينها عدد من سفن النقل جاءت من فلاندرا، وهي التي تحمل الخيل والمشاة والذخائر والمؤن، وزيادة على ما ذكر شاركت في هذه الحملة أربع وعشرون من السفن الحربية (الكرافيلات) التابعة لجيش البحر، وشاركت فيها أيضا سفينة شراعية قوية ضخمة (غليون) كان قد أرسلها اليه أخو زوجته ملك البرتغال، ولم يمض على إبحار الجيش سوى وقت يسير حتى هبت رياح عكسية وأبعدت السفن بعضها عن بعض فاضطرها الى الرسو في أماكن مختلفة، أما القاليرات فقد مالت الى ميورقة وبقيت هنالك الى ان اجتمع همل الجيش البحري في مرسى ماون في جزيرة مينورقة، ولما هدأ البحر أخذ هذا الجيش طريقه الى ساردينيا وأرسى في كَياري وفي غيره من مراسي الجزيرة. وعندما حل بها الامبراطور وصل اليه ماركي دوكَوات ومعه ثمان وعشرون سفينة نقل وست وثلاثون من القاليرات الملكية وعدد كثير من أنواع السفن الصغرى، وقد أدخل بذلك سرورا عظيما على شارلكانت، وبينما كان يجري الاستعداد للانطلاق وكانت تشحن على السفن كميات من الفطائر ومن اللحوم المملحة التي تم اعدادها في الجزيرة إذ وصل عبى نصارى فروا من تونس على ظهر قارب، وأخبروا بأن بارباروس منهمك في تحصين حلق الوادي وأنه يسخر جميع من عنده من النصارى بقصد إحكام منعتها وضمان صمودها، وكان ذلك الخبر سببا في تعجيل الذهاب في غد ذلك اليوم. سارت مقدمة الأسطول تنفخ رياحا مواتية، وكانت في الصدارة سفينة أندريا دوريا بمناراتها الثلاث، وما ان افلت الصباح حتى ظهرت قبالة مرسى فارين على بعد ستين ميلا من مرسى كَاياري الذي كان منه الانطلاق. وكان ذلك النجاح مبعث التوجه بالشكر الى الله الذي اشفق على تلك السفن الكثيرة الجميلة التي كانت تظهر وكأنها غابة تتقدم فوق الماء، فقد كان عددها أربعمائة، منها تسعون من القاليرات الملكية وعدد من القوارب والحوازيق التي أتى بها متطوعون من اسبانيا

وايطاليا ومن بلدان أخرى، وكان الى جانب جنود البحر أربعة وعشرون الفا من الفرسان، أربعة آلاف منهم من الاسبانيين وأربعة آلاف من الايطاليين وسبعة آلاف من الالمانيين كلهم من المقاتلين الأشداء المحنكين، وكان في أسطول اسبانيا ثمانية الاف معظمهم حديثو العهد بالتجنيد وقليل منهم سبق لهم ان جربوا الخدمة في الجيش، وهنالك بالاضافة الى من ذكر ألف من البرتغاليين وقع استئجارهم لكي يطلب منه النزول عند الحاجة، وألف آخرون مكلفون بحراسة السفن، أضف الى كل ما ذكر خمس عشرة مائة من الخيل، منها الف يملكها سادة ونبلاء من مختلف الأمم ومنها خمسمائة من مهور إسبانيا. كان المشاة الاسبانيون الذين قدموا من ايطاليا تحت قيادة الماركي دوگوات، وكان الايطاليون تحت قيادة امير صاليون. أما دوق الب فكان يقود المشاة الذين قدموا من اسانيا، وكان الالمانيون الى نظر ماكسيميليان ببيلر بوينا، بينما كان ماركي مونديشار يقود المهور. ولما وصل الجيش البحري الى مرسى قارين، وهو مرسى كبير غير مأمون، ارتطمت السفينة الامبراطورية بحافة من الرمال. ولكن وقع إجلاؤها بما ينبغي من السرعة وذلك بإعمال قوة الأشرعة من جانب وباعمال التجذيف من الجانب الموالي للبر، وقد توجه الأمبراطور من هنالك ودار على رأس قرطاجة وجميع ساحل المرسى الذي تظهر منه أطلال هذه المدينة الشهيرة وكذا حدائق ملك تونس، ثم أعطى أوامر لماركي دوگوات بالذهاب مصحوبا ببعض القاليرات قصد التعرف على ما يجري في حلق الوادي وساحل برج الماء الواقع بين قرطاجة وحلق الوادي على بعد ما يزيد قليلا عن ربع فرسخ منها، وقد توغل في رحلته بقدر مكنه من الرجوع بمعلومات جديدة عن البرج وعن تحصينات حلق الوادي. وفي غد ذلك اليوم تجاوز الأمبراطور منطقة الرأس ووقع الشروع في إنزال الجنود على أحسن ترتيب. وكان الذين نزلوا الى البر قبل غيرهم هم الجنود المحنكون من فيلق فرانسيسكو سارمييننتو، وأنزلوا معهم بعض آلات الحرب وعددا محدودا من الأفراس، وبعد ذلك نزل شارلكانت ونزل معه الإنفانت الدون لويس وكذا جميع النبلاء، وقد وقع ذلك دون أن يعترض الأتراك أو الأفارقة على نزولهم، وكل ما شاهدوه هم بعض العرب الذين كانوا يجرون على طول الساحل يصرخون كما هي عادتهم. وبعد مناوشات قليلة انسحبوا واختفوا بين أطلال قرطاجة وفي جهة برج الماء، وبعد ذلك نزل جميع المشاة الايطاليين، والزم الضباط جنودهم بأن يظلوا في صفوف متراصة حول العلم، وقضوا ليلتهم مجندين متأهبين في ملاجىء على طول الساحل، وفي الغد وصلت

الجيوش القادمة من اسبانيا ووصل فرسان المدفعيين وجميع عدة الحرب وذخيرته، وقام أندريا دوريا بالاستيلاء على برج الماء حيث كانت سبعة آبار أو ثمانية لم تكن مياهها على ما يرام من العذوبة. وقام الجنود بالاستيلاء على قرية صغيرة قريبة من قرطاج كان سكانها قد هاجروها فوجدوا فيها قمحا وزيتا، ومن هذه القرى واحدة في أعلى الجبل وهي برج المنارة وقد أمر الأمبراطور بأن يحتلها ثلاثمائة من الاسبانيين لأنها تشرف على مجموع البلدة، ولم يمض سوى حين حتى نصبت خيام الامبراطور والافانت اللذين لويس فوق ربوة صغيرة واقعة بين قرطاج وبرج الماء، وعسكرت حولها جميع فرق الفرسان والمشاة. وفي هذا المكان بالذات عسكر القديس لويس عندما حاصر تونس. ويتداول أهل المدينة نبوءة مفادها ان ملكا قويا سينزل هنالك وينصب خيامه ويدخل تونس، ولما سمع بها سحرتهم ذبحوا خمسة أطفال وصنعوا من دمائهم عددا من الرقى يبغون بها دفع ذلك البأس المرتقب، إلا ان ذلك كله لم يجد مع امبراطور عميق الايمان بالمسيحية.

تحصين حلق الوادي وما فعله بارباروس بعد نزول النصارى

لما رأى بارباروس ان جميع جيش النصارى قد نزل الى البر أظهر الارتياح وان كان يخفي ذعره من هذه القوة العظمية، وقد أخذ العهود على شيوخ العرب، وأرسلهم لمناوشة النصارى، ولم يكن من قبل قد احتاج الى استدعائهم للمجيء الى تونس، وانما كان يشغلهم بقتال مولاي الحسن وقتال غيرهم من العرب أنصار جده اسماعيل. وقد دخل الكثير منها في خدمته لأنه كان يجزل لهم العطاء حتى يصرفهم عن مولاي الحسن. وكان عدد من الى نظره منهم حينئذ خمسة عشر الفا كلهم من الفرسان، وكان يزيدهم عن أجورهم ما يطيب به خواطرهم. واجه بارباروس بهؤلاء العرب جيش الامبراطور الذي كانت تنضم اليه كل يوم عناصر من الفرسان والمشاة من تونس. وفي اليوم الاول من مناوشتهم جاءوا بعدد من المزامير والطبول وكانوا يصيحون فتهتز لأصواتهم جنبات المعسكر، ولما وقع الصدام لم يسمح الامبراطور لجنوده بالخروج عن صفوفهم لأن الأعداء كانوا يقاتلون وهم مختبئون وسط الأشجار والبساتين ولا يبتعدون عن أطلال قرطاج، وهذا هو السبب في قلة عدد القتلى، إذ لم يهلك في هذا اللقاء سوى بعض الجنود وبعض أفراد الجيش البحري الذين ابتعدوا عن أماكنهم بحثا عن ثمار الأشجار. كان حلق

الوادي قبل أن يحصنه بارباروس عبارة عن برج مربع شبيه بمقر الجمارك، عند مدخل القنال الذي تتسرب عبره مياه البحر الى المستنقع الواقع قبالة مدينة تونس، وطول هذا القنال مقدار رمية قذافة، ولكنه ضيق حتى إن سفينة حربية (قاليرة) لا تستطيع المرور به بإعمال التجذيف. أما المستنقع فطوله ثلاثة فراسخ وعرضه فرسخان، وفي غير ما مكان توجد أرصفة رملية لا يمكن تجاوزها الا بواسطة القوارب على امتداد القنوات التي وقع شقها في اتجاه تيار الماء. وعلى يمين المستنقع، بالنسبة لمن هو متجه الى تونس، شاطىء مستو رملي، وبين الماء والبساتين لا توجد سوى مسافة قليلة، مقدار رمية بالحجر، أو يمتد هذا الوضع الى الجهات المجاورة للمدينة. أما على يسار المستنقع فالطريق وعر شاق ما عدا في الجهة المحاذية لحلق الوادي حيث يوجد بسيط صغير. وقد ارتأى باربروس أن تحصين تونس أمر متعذر إذ تشرف عليها عدة مرتفعات من جهة الغرب، ولو أريد تحصينها لاحتيج الى هدم الأرباض وهي كل زينة المدينة ولا يقبل هدمها السكان، ولهذا جمع أمره على تحصين حلق الوادي ولاسيما من جهة قرطاج، وهي الجهة التي يمكن للنصارى النزول بها إذ لا تتوفر في الجهة الأخرى إمكانيات الماء والأغصان المستعملة لتحويل المجاري وامكانيات الحطب، ويضاف الى الاعتبارات المذكورة أن هذه الجهة غير مأمونة بالنسبة للسفن، ثم ان تقسيم الجيش بين الجهتين أمر غير محمود، وهكذا فما ان علم من الراهب الفلورانسي أن جيوش الامبراطور تتأهب للقدوم حتى أمر ببناء جدار سميك يمتد من البحر الى برج الماء ثم الى المستنقع، ثم أمر بان يبنى في الطرف الأقصى لهذا الجدار حصن مستدير على شكل بستيون بعوارض وبشرفات تنظر الى جميع الجهات، ولما ضاق عليه الوقت لإتمام هذا الجدار ومده الى المستنقع، أمر باقامة سور في المكان الفارغ يصنع من مجاذيف السفن تغرس في الأرض وتربط بأغصان الشجر وتردم بالتراب، وهذا السور أقوى صمودا للمدفعية من الجدار، وبعد ذلك استعمل أكياسا من شعث القنب أخذت من سفن راسية هنالك أصلها من الإسكندرية وأكياسا أخرى من الصوف جيء بها من تونس، لكي يقيم سورا جعل فيه كوات منخفضة جدا يمكن أن تتحرك فيها المدافع، ثم حمى السور من الخارج بخندق ملىء بمياه البحر، وأعطى أمره ببذل الجهد في تحصين الجهة الشرقية لحلق الوادي وذلك باستعمال الأخشاب والتراب وغير ذلك من الأشياء، وعلاوة على ما ذكر أمر باربروس ببناء جسر جد متسع فوق القنال داخل هذه الأسوار وفي مساحة من الأرض بين البحر وبرج حلق الوادي أمر ببناء سور يطل على الشاطىء يتأتى منه الدفاع عن السفن الحربية

الاثنتى عشرة التي له خارج القنال. وفي جهة الغرب كانت عدة سفن صغيرة وقع سحبها الى البر ونصبت بينها عدة مدافع مصوبة الى الأسطول المسيحي، أما السفن الحربية التي في المستنقع فكانت تصوب مدافعها من وراء الأسوار في الأماكن التي تتأتى منها الرؤية. وفي داخل هذه التحصينات جمع باربروس سبعة آلاف من المقاتلين، منهم أربعة آلاف من الأتراك والنصارى المرتدين وألف من الانكشارية وألفان من أهل تونس، ومع هؤلاء جميعا عدد من قواد الجيش وأعيان الناس، وقد زود الجميع بما يلزم من المؤن والمدافع والذخيرة، وكانت القوارب ما بين ذاهبة الى تونس وآتية منها عبر المستنقع، وقد حظر عليه ألا تتعداه وأن تصل الى تونس عبر حواجز الرمال، لأن باربروس كان يحرص على حماية رجاله أكثر مما يحرص على الاحتفاظ بحلق الوادي.

كيف زحف الأمبراطور نحو المدينة
وما كان من لقائه مع العدو

كان الرأي منقسما في مجلس شارلكانت حول ما إذا كان يتعين الذهاب الى تونس قبل مهاجمة حلق الوادي. ولكن العزم استقر في الأخير على عدم ترك هذا الحصن القوي الى الخلف، وبالرغم من أن الاقتحام قد تبينت صعوبته لأن المكان المناسب للهجوم ضيق ومرمل، وبالرغم من أن الاقتناع بان أخذه عنوة لن يتأتى الا بهلاك عدد كبير من الرجال، فقد تقرر ضربه من الخارج والبقاء هنالك عدة أيام. وعلى هذه النية تحركت الجيوش، واتخذ كل مكانه على الساحل تحت برج الماء بعد توزيع المواقع على ما تم الاتفاق عليه. وكان في الصدارة قدماء عساكر الاسبان، وكان وراءهم الالمانيون جهة المستنقع، وظل الاسبانيون الحديثو العهد بالجندية فوق الربوة التي نصبت عليها خيام الأمبراطور ومعهم بعض آليات القتال. أما المشاة الايطاليون فقد وقع توزيعهم على ثلاث فرق، فرقة بقيت في محلة الجيش وفرقة عاملة تحت قيادة الماركي دو فورال كانت على ميمنة قدماء العساكر الاسبانيين فوق قنال كبير كان باربروس قد شرع في تشييده لادخال مياه البحر الى المستنقع وذلك تسهيلا لمرور القوارب التي تأتي من تونس فيتأتى لها أن تصل الى البحر دونما حاجة الى المرور بحلق الوادي. وكان من المتعين تعهد ماء المستنقع حتى يبقى على امتلائه الا ان الوقت لم يسمح باتمام العمل في ذلك. أقدم الماركي على اجتياز القنال وأقام حاجزا من البراميل المملوءة بالرمال، نصبها قبالته بيمنا

يحمى المستنقع ميمنته ويحمي قدماء الجنود الاسبانيون ميسرته، ويحميه القنال من جهة الخلف، وفي الليلة الموالية قام كونت سارنة بالجواز ومعه جنوده من المشاة الايطاليين، وتقدم حتى لم يبق بينه وبين الأعداء سوى خمسمائة خطوة وذلك في موقف بين البحر والمستنقع اتخذ فيه ما يلزم من التحصين. أما ما عدا هؤلاء من الجنود الايطاليين فقد أخذوا مواقعهم فوق القنال الذي سبق أن وصفناه. وفي أثناء ذلك كان ماركي گوات وكان الى نظره قدماء المحاربين الاسبانيين، يتقدم شيئا فشيئا فى حفر الخنادق ويقترب من مواقع العدو، ولما كان هؤلاء واولئك يحصنون مواقعهم بالليل تجنبا لمخاطر النهار، فقد وقع ذات صباح على تبديل حراس محلة كونت سارنة. وبينما كان الجنود يأخذون قسطا من الراحة بعد تعب الليلة الماضية، إذ خرج نفر من الأتراك فجأة من حلق الوادي فقاموا بهجوم عنيف ولم يعودوا الى مواقعهم إلا وقد استولوا على أحد الحصون بعد أن أفنوا من جنوده أربعين

ولما رأى القونت الشجاع ما وقع من الفوضى في صفوف رجاله بادر إلى جمع من استطاع فهاجم الاتراك بشجاعة وتوصل إلى استرداد الحصن وطرد من كان من أعدائه في الخنادق، ولو أنه وقف عند ذلك الحد لأحسن صنعا، ولكنه لما رأى الأعداء قد لا ذوا بالفرار تعقبهم إلى مسافة بعيدة، ولم يكن معه سوى ثلة من الرجال، ولكن الأتراك وقع عليهم الصراخ من القلعة فانقلبوا على الكونت وقتلوه وطاردوا الآخرين إلى أن وصلوا بهم إلى خنادقهم، و لما رأى كل الجيش على أهبة الزحف عادوا إلى مواقعهم ولم يخلفوا غير خسائر قليلة، وبعد ثلاثة أيام خرج الاتراك وهم ثلاثة آلاف من المقاتلين واقتحموا من جهتين محلة الاسبانيين واظهروا شراسة كبرى وتمكنوا من قتل من كانوا نائمين من جنود المحلة كما استطاعوا انتزاع لواءين، ولكن الجنود الآخرين تمكنوا من اخذ السلاح والدفاع بشجاعة حتى جاءتهم الاغاثة من رفاقهم، وعندئذ ردوا الاتراك على أعقابهم وطاردوهم ببسالة حتى إن بعضهم تعقبوا الاتراك في جهة المستنقع وتوغلوا إلى وسط خنادق العدو وهم يهتفون بمجد إسبانيا ويطلبون السلاليم، ولو توفرت لهم وتبعهم خلق اكثر عددا تمكنوا من اخذ حلق الوادي في هذا اليوم، ولما كانوا غير معززين بمعظم الجنود المشاة فان الذين توغلوا بين الأعداء قد وقع الاجهاز عليهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم بشهامة. أما الآخرون فقد تراجعوا تاركين خمسين قتيلا في تلك الساحة عدا ثلاثمائة من الجرحى، وقد هلك في هذا القتال ثمانون من الاتراك ظلت جثثهم على الرمال ولم يتمكن رفاقهم من سحبها، وفي الليلة الموالية قام

الأعداء بسد الممر الذي دخل منه الاسبانيون وذلك بإقامة سياج من الدعامات المغروزة في التراب محمية بخندق صغير ذي عوارض وواقيات، وبينما كان ذلك يجري في حلق الوادي، وكل طرف يقترب بخنادقه من الآخر في واضحة النهار، قرر باربروس، وهو الذي لا يخفى عليه شيء مما يجري في الساحة، أن يكبد النصارى خسائر بأخذهم من كل جانب، وأعطى أوامره، تحقيقا لذلك الهدف، لجميع فرسان قبائل العرب وفرسان أهل تونس أن ينقضوا عليهم مصحوبين بعدد من المشاة معززين بست قطع من سلاح المدفعية وأوصاهم بأن يأتوا عدوهم من جهة حدائق الزيتون، وأمر الذين كانوا بحلق الوادي بأن يخرجوا بستة آلاف من المقاتلين عندما يلتحم الفريقان في القتال، وبأن يتولوا الهجوم على الخنادق، ولكن خبر كل ذلك بلغ الى الامبراطور بواسطة بعض عيونه في مدينة تونس، فأمر بأن تقترب منازل الجنود من وسط المحلة وان يبقى الجنود متأهبين للقتال طيلة الليل وأن تصوب المدافع الى الجهة التي يتوقع أن يكون منها الهجوم، ولما طلع النهار ولم يطرأ أي شيء جديد، أمر الجنود بالرجوع إلى محلاتهم ليأخذوا بها قسطا من الراحة. وما أن شرعوا في التحرك حتى خرج اليهم العرب الذين قضوا الليل متربصين تحت أشجار الزيتون، فهاجموا بجمعهم وضربوا بالمدافع الجنود الذي كانوا بصدد الانكفاء نحو منازلهم، وفي ذات الحين جاءت من جهة المستنقع مراكب محملة بالمدافع فهاجمت النصارى، وتقدم هؤلاء المتوحشون وهم يصرخون، وتوغلوا داخل محلة النصارى بجرأة أزعجت الامبراطور فأمر بالهجوم خفتا، حيث أعاد الجيش إلى حالة تأهب وعزز حراس الخنادق وأمر الدون لويس هورتادو، وهو ماركي مونديشار، بأن يزحف لقتال المهاجمين ومعه مائتان وخمسون من الفرسان الاسبانيين المدججين بالسلاح يحمل كل واحد منهم بندقية فتيلة، وكان وراء هؤلاء الفرسان ستة آلاف من المشاة، الفان من كل أمة، لا يتميز هذا عن ذلك، تقدموا جميعا في فيلقين اثنين، وقد أمرهم الامبراطور بالتقرب من العدو حتى يطلوا على مقدرة الاعداء وطريقتهم في القتال، وكان معظم هؤلاء يرتدون سترات معدة للحرب ويحملون رماحا طول الواحد منها ما بين اربعين وخمسة وأربعين شبرا، في طرفي كل رمح قطعة من حديد، وكانوا يطلقون صيحات تصم لها الآذان، وإذا انقضوا في هجومهم روعوا من لا عهد له بقتالهم. أما شارلكانت فقد سار في إثر الفيلقين ومعه بقية جيشه وقصده أن يشد أزر أولئك المقاتلين، وقد ترك ماركي مونديشار من كانوا معه من حملة البنادق على مبعدة منه، فهاجم العدو بالفرسان

وحدهم، وناوش ببسالة فرسان الاتراك ومن معهم من الأهليين، ومات في تلك المناوشات جماعة من النصارى، وقتل الماركي بيده القائد ساسي وهو من شجعان المرتدين، وكان قائد فرسان العدو، ولكن الماركي تعرض للجرح بالحربة مرتين، وكاد يهلك لولا أن عجل أصحابه بنجدته، وكان منهم من وهب حياته في سبيل انقاده، وقد كان لمرافقه قائد بيدمار(68) دورعظيم في افلاته من هلاك محقق، وكان الامبراطور قد رأى ما حاق بالماركي من المخاطر فبادر إلى نجدته بنفسه ومعه اربعمائة من الفرسان. ولما رآه المسلمون يتقدم بالعساكر من حملة البنادق اخنوا في الفرار وخلفوا وراءهم ثلاثة مدافع، وعندئذ أمر الأمير جيوشه بالرجوع إلى معسكراتها، ولما رأت حامية الحصن ما كانت عليه الخنادق من حسن الترتيب لم تجرؤ على الخروج مكتفية بالضرب بالمدافع من الجهات التي رأت أن تلحق منها أعظم الاضرار، وكان من عادة الاتراك اطلاق رشقات من بنادقهم في آن واحد مرتين في كل يوم، مرة عندما يريدون اقامة الحراسة في بداية الليل ومرة ثانية عندما يريدون تغيير الحراس في بداية النهار. وكانوا يضربون كذلك بمدافعهم لتحدث دويا عظيما. ولكنهم لم يكونوا يحدثون ضررا كبيرا لان النصارى يعملون على اتقائها، وبعد ذلك يقومون بالرد عليها. لقد كان بحق مشهدا رائعا، وكان في سماع هذه الطلقات متعة قد تدوم ساعتين، وفي تلك الاثناء كان شارلكانت يترقب من يوم لآخر وصول امير تونس، وكان هذا الامير يعلم بقدومه دون أن يتمكن من التقدم في طريقه لأن باربروس قد تمكن من الممرات، ولكنه وصل في آخر المطاف، ولم يصطحب معه سوى مائة وخمسين من الافراس، ومع ذلك فقد استقبله الامبراطور استقبالا حسنا، حيث أقام له خيمة فاخرة بجانب خيمته الخاصة، وفي الغد، امر بأن يعرض عليه مجموع الجيش، وكان منظره بحق جديرا بالاعجاب، ومن ذلك ان مجموع الشاطيء ما بين برج الماء إلى مقربة من حلق الوادي كان مليئا بمحلات الصناع والتجار ممن تبتاع عندهم جميع أنواع البضائع وبوفرة لا توجد الا في أكثر المدن عمرانا في العالم، فقد اتى الماركي دولافالي من نابولي بعدد من سفن التجار المليئة بالاقوات والذخائر. وجاءت سفن مثلها من اسبانيا، ففي كل يوم كانت تنطلق من مايوركا وساردينيا وصقيلة ومملكة نابولي زوارق وسفن شراعية صغيرة محملة بالخبز الطري والخمر واللحوم المملحة وبجميع انواع الثمار والبضائع، يضاف إلى ذلك أن الشاطيء كله صالح لاستنباط مياه للشرب بمجرد حفر ثلاثة أقدام أو

68) ألفونسو دي لاكويفا.

أربعة، أما محلات الجيش ومساكنه فكانت كلها في أنسب مكان، محصنة باتقان من كل الجهات، وقد وقف الملك المسلم مما رآه متعجبا، ولم يداخله شك بعد ذلك في امكان استعادة ملكه، ومع ذلك فقد باح بتخوفه من نكث الامبراطور لانه لم يوف له هو بعهده، إذ لم يكن عاجزا على أن يقدم له المال أجرا لجيوشه فحسب، بل إنه تلقى منه قدرا من المال اعطاه لأشخاص امتنعوا عن اتباعه معتذرين بكونهم لا يليق بشرفهم ان يحملوا السلاح في جانب النصارى ضد اخوانهم في الدين، ولكن الامبراطور كان مقتنعا بأن ذلك الامير غير مسئول عما وقع فيه، بل إنه تعرض لعدد من المخاطر، ونجا مما نصب له من الكمائن، وقد استطاع ان يفلت من أيدي اعدائه بسرعة فائقة ممتطيا صهوة جواد بربري، ثم ان باربروس قد استعمل الوعود والهدايا لتشتيت جميع أصدقائه وصرفهم عنه. وبعد هذا كله فقد قاسى الشدائد في سبيل اللحاق بجيش الامبراطور، والواقع أنه كان يثير الشفقة، ثم إنه كان أبيا شجاعا قويا من أعظم فرسان زمانه في افريقيا. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ودودا مرحا، وإذا ما غضضت الطرف عن بعض الرذائل المعتادة في جو البلاطات وجدته واحدا من أعظم أمراء عصره. ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده، منذ الصدمة الكبرى التي جرح فيها الماركي دوموندیشار. فقد اكثر العرب من مناوشاتهم لأن الامبراطور أمن الجيش من الجهة التي بها اشجار الزيتون وامر ببناء جدار أو سترة على امتداد المعسكر ما بين قنال باربروس واطلال قرطاجة، وقد عهد بحراسته للاسبانيين والالمانيين، وبهذا صارت هجومات هؤلاء البرابرة واستفزازاتهم لرجالنا بدون جدوى، وقد مات عدد من الجنود من الجانبين في هذه المناوشات بسبب وجود عدد من الاتراك المنبثين بين السكان الاصليين والأعراب. وقد جرح في احداها الماركي دوفورال بطلقة بندقية ومات بصقلية بعد ان ذهب اليها بقصد العلاج. ثم إن الأتراك المتحصنين في حلق الوادي كانوا يقومون بهجومات ليلا ونهارا تضييقا على النصارى وتنكيلا لهم، وقد قاموا ذات ليلة بهجوم شارك فيه ما يزيد عن أربعة آلاف مجتمعين، قصدوا خنادق الاسبانيين الذين اقتربوا من أسوار باربروس. وكانت تهب عاصفة قوية عندما هاجموا تلك الأسوار فكانت الرياح تعصف بزوابع من الرمال والغبار وتضرب بها أعين النصارى فلا يرون أمامهم، وذلك في ليل شديد الظلمة يتعذر فيه على أحد أن يعرف من بجانبه. ولما جاءت الرياح مواتية للأتراك قدموا أمامهم رجالا يحملون مجارف يزيحون بها الرمال والغبار، وكان في ذلك ازعاج للجنود المسيحيين، ولكنهم

كانوا محنكين بالتجارب، لا يلبثون أن يتجمعوا حول رايتهم فيلتحقون بخنادقهم ليصمدوا في وجه أعدائهم وسلاحهم بأيديهم، وهكذا لم يجرؤ العدو على الدنو منهم بأقل من مسافة رمية قوس، بل اضطر في الأخير الى الانسحاب نحو حلق الوادي وقد فقد عددا من الرجال.

كيف هاجم الأمبراطور قلعة حلق الوادي وكيف أخذها عنوة

وبينما كانت تجرى هذه الوقائع، كان الامبراطور يتنقل من جة الى أخرى وهو يحض على الدفع بالخنادق الى الأمام، ولما كانت تتهدم لأنها تحفر في الرمال أمر بارسال السفن السريعة لجلب حزم الأغصان من الموقع على بعد سبعة فراسخ الى جهة الشرق، وبعد احضارها تولى البحريون والجنود نقلها على أكتافهم الى السور، ولما رأى الامبراطور أن جنوده قد صاروا على مسافة قريبة تمكنهم بسهول من ضرب عرض الحائط الذى كان قد بناه باربروس وان كل شيء قد بات جاهزا لهذا الغرض أمر بأن تصوب الى حصن حلق الوادي ثلاث مجموعات من المدافع، كانت المجموعة الرئيسية مكونة من عشرين مدفعا حنشيا وقد استعملها الجنود الاسبان لضرب حصن الجنود البحريين الواقع بين البحر وبين برج حلق الوادي، وكذا لضرب هذا البرج نفسه وضرب البرج الركني الجديد، وعلى بعد مائة خطوة من هذه المجموعة أمر بنصب ستة مدافع تتولى استعمالها بعض الكتائب من ذات الفيلق وذلك لضرب الجدار الجديد، وعلى الجهة اليمنى من خنادق الايطاليين، أمر بنصب ستة عشر مدفعا أخرى لضرب السور الذي أقامه الأعداء ما بين الجدار وبين المستنقع، وبعد ذلك قام الامبراطور بزيارة الخنادق والمدفعية، ولما هدأ البحر قام بإصدار الأوامر الضرورية للسفن والزوارق التابعة للجيش. وبعد أن حرض الجنود والضباط على القتال انطلق القصف المدفعي بعنف وتتابع يفوق مداهما رجة زلزال. وبالاضافة الى المدافع الموجودة في البر فإن مدافع السفن الحربية التي كانت الى نظر القائد أندريا دوريا قد أخذت هي أيضا تقصف من البحر فتصيب ما بين جهات برج حلق الوادي وركن الجدار وحصن الجيش البحري، أما مدافع السفن التي كانت في ملك الكونت دانكويلار والبابا وتلك القادمة من مالطة وكذلك السفن الأخرى بمختلف أنواعها، فكانت تسدد ضربات مباشرة للسفن الحربية الست التي كان الأتراك قد أرسوها خارج القنال، كما كانت تضرب جميع

أنواع التحصينات الموضوعة على جهة البحر. أما أندريا دوريا فقد قام بواسطة أسطول آخر من القاليرات والسفن الضخام والسفن السريعة بتسديد ضربات جانبية للسفن الست الواقعة جهة الشرق، وكذا لجميع التحصينات التي من هذه الجهة الى غاية المستنقع، أما الكراكة التي من جزيرة روديس، وهي سفينة مستطيلة مرتفعة فوق الماء، فقد كانت تصوب ضرباتها من أعلى لتنال من الداخل جزءا من الجدار الجديد. أما السفينة الشراعية الرتغالية التي من نوع الغليون، فقد كانت تسدد ضرباتها من مكان رسوها فتمر طلقاتها فوق مجموع جيش البحر، أما السفن البرتغالية، وهى سفن ضخام وكراكات لم تتمكن من الاقتراب فقد كانت تضرب حيث تسنى لها أن تفعل. وفي أول الأمر قام الأتراك بإخلاء سفنهم الست، ولما جاءهم الضرب من كل جهة لم يدروا أين يتوجهون، وكان اللون البار باصان ومعه سفن اسبانيا الست والعشرون عند رأس قرطاج على أهبة لأن يهاجم بكيفية جانبية العرب وأهل تونس من المسلمين إذا هم حاولوا مهاجمة المعسكر المسيحي من خلف، وزيادة على ما ذكر كان الجنود الفرسان على أهبة الاستعداد بين السور وأشجار الزيتون، وكانت فرقة منهم برأس قرطاجة، وهذا ما أرهب العرب حتى إنهم لم يستطيعوا أن يحركوا ساكنا طيلة النهار. وفي هذا الجو وقع الهجوم على حلق الوادي بأكثر ما يمكن من الثقة والاطمئنان. وبعد ان استمرت المدفعية في الضرب بلا انقطاع من الصباح الى الزوال تم تحطيم تحصينات واجهة الجدار الجديد، وتهدم جزء من الممشى المستدير ومن برج حلق الوادي، ووقعت تلك الأنقاض على بعض القطع المدفعيُة الموجودة في أصل الجدار ومات من جراء ذلك جنود مدفعيون، ولما رأى الامبراطور أن الثلم التي أحدثت في الجدار تمكن من الدخول دون كبير عناء أمر بأن تعطى ستة سلاليم لكل فرقة من فرق الجنود الاسبانيين المحنكين، وبين لهم أن أمر هذا الغزو يعود بالنفع على أمتهم خاصة، وبأنها الأمة المطالبةأكثر من غيرها باظهار ما لها من المزايا الحميدة، وبعد ان دعا لهم الله والقديس جاك، وكان ذلك اليوم يوم عيد هذا القديس، أقام بعد ربع ساعة بإعطائهم إشارة القتال. وفي بداية الأمر وقع الضرب بمدفع حنشي قصد إتمام الاستعداد، وبعد ذلك نفخ في البوق إيذانا بالهجوم، فاما قدماء الجنود الاسبانيون ومعهم بعض المقاتلين الشجعان الذين هبوا للخنادق ليكونوا السباقين الى الهجوم فتنذ اقتحموا الحصن بشدة. أما الايطاليون فقد اقتحموه من جهة المستنقع، ولما لم يجدوا ،هنالك ثغرة مناسبة تسربوا على امتداد الجدار الجديد ليدخلوا من حيث

دخل الاسبانيون، ولكنهم فشلوا في بعض ذلك أثناء مرورهم، ولما وصل الاسبانيون الى الثلمة المحدثة في الجدار قتلوا الأتراك الذين كانوا يدافعون عنها، ولما رأى الآخرون المتأهبون للقتال في وسط الحصن أن دفاعهم لم يجد شيئا رموا أسلحتهم من بعيد وارتموا في المستنقع، وكانوا ما يقرب من أربعة آلاف يسيرون على طول الرصيف في طريق معلومة بأوتاد، ثم داروا جهة اليمين ولجأوا الى مدينة تونس. أما الفان آخران منهم فقد جازوا القنال وكسروا جسره واتجهوا الى عرّاض، ولم يبق مدافعا عن الحصن الا مائة وخمسون منهم لإشعال الغام كانوا قد وضعوها تحت الأسوار يهلك بها النصارى عند دخولهم، وبقي منهم نحو أربعين نفرا في برج حلق الوادي تم قتلهم عن آخرهم. وقد استطاع الاسبانيون اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بسرعة فائقة قبل انفجار الألغام، ثم أخذوا في ضرب الأتراك وهم يفرون عبر المستنقع فقتلوا منهم عددا وجرحوا عددا آخر، وبعد ان تخلصوا ممن كانوا بداخل الحصن قاموا بتعقب الفارين نحو عراض، وبعد أن قتلوا منهم حوالي ثلاثمائة اضطروا الآخرين الى الالقاء بأنفسهم في المستنقع. وفي أثناء ذلك وصل عدد من جنود النصارى راكبين الزوارق ليطاردوا الأعداء من جميع الجهات، وعندما وصل بعض الشجعان الاسبانيين الى برج حلق الوادي قام أحد الأتراك باشعال النار في برميلين من البارود موجودين في ذلك البرج فأدى الانفجار الى تحطيم الطابق الأعلى واحداث شقوق في عدة جهات، ولكن اللون دييكو دي مانلوسا وهو أخو الماركي، وكذا مارتين الفونسو دي لوس ريوس الذي صار منذئذ القائد الأعلى لعسكر حلق الوادي، قد دخلا عبر الدخان الذي أحدثه الانفجار، ودخل بعض آخرون من الباب التي كانت مفتوحة، وما ان دخلوا وهم ثمانية عشر أو عشرون حتى أشعلت النار في برميل آخر من البارود فأصيب اللون دييكو، احترقت يده وجنبه وجرح بفعل ذلك آخرون، ولم يمنعهم ذلك من المرور فقتلوا من بقوا هنالك من الأتراك ووصلوا الى البرج وقام أحد الجنود الشجعان بوضع علم في إعلاه، وقد هلك في هذا اليوم ألف وخمسمائة من الأتراك أو المسلمين من أهل البلد في حلق الوادي وفي طريق عراض، عدا آخرين قتلوا أو جرحوا في المستنقع، ولم يفقد من النصارى سوى خمسين كان معظمهم من الايطاليين، وقد غنم من الأتراك ثلاثمائة قطعة مدفعية من البرونز، وعدد آخر من القطع المصنوعة من الحديد، وغنم منهم أيضا سبع وثمانون سفينة ذات مجاذف منها إثنتان وأربعون من السفن الحربية السريعة (القاليرات الملكية) من بينها السفينة الرئيسية التي من بروتوند واثنتا عشرة أخريات كان الكفار قد أخذوها من النصارى في مناسبات مختلفة. وما ان

دخل الامبراطور الى حلق الوادي ومعه الانفانت الدون لويس وملك تونس ونبلاء آخرون حتى التفت الى ملك المسلمين قائلا له وهو يبادر بالدخول : هذه هي الباب التي تمكنك من الدخول الى إيالتك. وعندما سمع هذا الأمير قول الامبراطور أطرق برأسه شاكرا له ذلك الفضل العظيم.

كيف زحف الامبراطور لأخذ تونس
وكيف هزم جيوش باربروس

لما استولى الامبراطول على حلق الوادي بكل ما فيه اختلفت الآراء بشأن ما يمكن عمله فيما بعد. فرأى بعضهم أن الغاية المنشودة قد تحققت بالاستيلاء على سفن القراصنة الذين كانوا يضايقون النصرانية ولا ينبغي المضي الى أكثر من ذلك، وإنما المناسب هو الاقلاع والرجوع بعد تحصين حلق الوادي، لأن باربروس الذي خسر سفنه صار في حكم المفلس ولن يلبث أن يضطر الى التخلي عن مدينة تونس والاعتصام بمدينة الجزائر. وزعم أصحاب هذا الرأي أن المسلمين من الأهالي ومن العرب لن يلبثوا أن يوالوا الأمير الحسن، ولما كان باربروس مضطرا الى المرور ببلادهم فإنهم سيمنعونه من غير شك، وقد أضافوا حججا أخرى الى هذه بقصد تحويل الامبراطور عن متابعة حملته. وكان الماركي دوكَوات من بين القائلين بهذا الرأي. ولكن الانفانت الدون لويس ودوق ألب وآخرون من السادة النبلاء كانوا يرون انه لا يجوز للأمبراطور الرجوع قبل انهاء فتوحه، وذلك لما فيه عزه الشخصي ومصلحة الأمم التابعة له. وقد قضى الدوق ليله وهو يناشد هؤلاء وأولئك ألا يحاولوا اقناع شارلكانت بذلك التصرف المنطوي على الجبن. وقد اغتم مولاي الحسن لذلك النقاش والاختلاف حتى إنه قضى ليله دون أن يذوق طعم الأكل أو النوم، ولما جاء الماركي دي كَوات لزيارته في الغد ووجده على تلك الحالة من الحزن والكمد، أبلغه أن ترجمانه(69) قد أبلغه أن الامبراطور عازم على الذهاب دون أخذ مدينة تونس، لكن الماركي طمأنه مؤكدا ان ما تقرر عكس ذلك، وقد وبخ الترجمان على ما صدر منه، فكان في ذلك الخبر مواساة للأمير، وطلب منه ألا يكلم الامبراطور في هذا الموضوع. ولما علم شارلكانت بتلك الآراء المختلفة أمر بجمع السادة النبلاء والقواد في خيمته، فخاطب بلطف أولئك الذين يرون ضرورة

69) ألبارگوميس زغل.

الرجوع، فبين لهم أنه لم يأت لمجد أخذ حلق الوادي وسفن القراصنة، بل انه جاء وفاء بالوعد الذي أعطاه بأن يرجع الى عرشه أميرا غصب حقه وكذا ليفك من الأسر ثمانية عشر ألفا أو عشرين ألفا من الأسرى يتطلعون اليه لتحريرهم. وختم بقوله : إما تحقيق هذا المرام الشريف واما الموت دونه. وخضع الجميع لارادته، وعرض عليه ما يتعين من خدمته. وبعد ذلك تهيأ ما هو مطلوب من لوازم الاستعداد للقيام بحملة تونس، وبعد ان أنهى الأمبراطور حصر أرض قلعة حلق الوادي في مجال أضيق مما كان، وترك بها حامية تتكون من ألف جندي، عهد الى اندريا دوريا بالسهر على جميع ما يتعلق بالأسطول بإعمال الاستعداد للزحف وان يحمل كل جندي في زاده الذي معه ما يكفي لمؤونة ثلاثة أيام، وفي الغد وهو اليوم الرابع منذ الاستيلاء على الحصن، رحل الجيش بأكمله وأخذ في السير على هيئة الزحف للقتال. وكان منظر تلك الفرق الكثيرة وهي تتقدم بذلك النظام البديع رائعا جدا، فعدد الجيش اثنان وعشرون ألفا من المشاة ما عدا الفرسان. وبعد مسيرة قرابة نصف فرسخ أمر الامبراطور بأن ينقلب الجيش كله ويعود الى محلاته. ولبث هنالك ثلاثة أيام أخرى، وبعدها وقع التزود من جديد بالذخائر والمؤن وشحنت كميات منها على زوارق كبيرة تم نقلها من البحر الى المستنقع بدفعها في البر فوق أسطوانات، إذ كان المرور عن طريق القنال متعذرا لأن الأتراك حشروا في قعره عددا من السفن لمنع النصارى من استعماله، وبعد هذا كله أعطي أمر جديد بالانطلاق، ولما وقع استطلاع الطريق التي بين أشجار الزيتون وبين المستنقع وقع الزحف على هيئة الاهبة للقتال ابتداء من صبيحة اليوم العسرين من شهر يوليوز، وكان في الصدارة فيلقان يضم كل منهما أربعة آلاف من المقاتلين، يسيران جنبا إلى جنب، وفي الميمنة الى جهة أشجار الزيتون، كان قدماء الجنود الاسبانيين وعلى رأسهم القائد الملركي دي كوات، وفي الميسرة كان امبراطور سالين على رأس الايطاليين. وقد اقتضى ضيق ذلك النهج أن تكون الصفوف في غاية ما يمكن من الازدحام، أما آليات القذف ومستعملوها فكانت على الجانبين مثل ذراعي فيلق. وفي وسط الكتائب كانت الأعلام والطبول، وحول المجموع كان الجنود حملة الدراق والحراب. وبين الفيلقين كانت فرق من الجنود الالمانيين ومن جنود البحرية يجرون اثنتي عشرة قطعة من قطع المدفعية، وفي مقدمة فيلق الايطاليين كان

مائة من فرسان الملك يسيرون من جهة المستنقع لمنع العرب من التسرب من جهة الجرف الرملي قصد مناوشة المشاة. وعلى مسافة قليلة من ذلك، في وسط الفيلقين، كانت تسير كوكبة متكونة من حوالي أربعمائة من السادة والنبلاء الأعيان وهم مسلحون بأكمل علة، يحملون الراية الأمبراطورية وعلى رأسهم الامبراطور. وعلى بعد مائة خطوة أو مائة وعشرين منها يأتي فيلق آخر متكون من ستة آلاف من الالمانيين يتقدم بهم قائدهم(70)، وهو على عكس الفيلقين الآخرين يمتد على جبهة واسعة غير ممتد الا على عمق قليل، ولذلك كان يحتل وحده ما يقرب من المساحة التي يحتلانها معا، وياتي بعد ذلك الركب الحامل للأمتعة سائرا على طول المستنقع، يحميه من جهة اليمين من جانب أشجار الزيتون الملركي دوموننديشلر، وكان قد عوفي من جراحه، وكان يتقدم ثلاثمائة من الدركيين كانت توجد بينهم وبين ركب الأمتعة بعض قطع المدفعية يجرها رجال بسواعدهم. وكان دوق ألب يقوم بحراسة المؤخرة ومعه بقية المشاة الاسبانيين الذين هم الى نظره، وفرقتان من الدركيين، واحدة تتقدم في جهة أشجار الزيتون والأخرى في جهة البحر. سار الجيش على هذه الهيئة خلال تلك الرمال التي سببت له كثيرا من التعب والإزعاج. وما أن خرج منها حتى عثر على بئر، وكان الجنود قد أخذ منهم العطش والتعب، فلم يتمالكوا حتى تشتتوا وخرجوا من ترتيبهم لكي يرووا غلتهم، وكان ذلك في وقت بدأ فيه ظهور الأعداء بين أشجار الزيتون. ولكن الامبراطور تدخل لكي يحملهم على الالتزام بأماكنهم، ولم يتأت ذلك الا بعد جهد جهيد وبتأثير شخص الأمبراطور نفسه. ولما بلغه أن بلربروس قد يخرج من مدينة تونس لقتاله، سار خطوة خطوة في نظام بديع دون أن يسمح لأي كان بالخروج من صفه لمناوشة العرب الذين ظهروا للعيان، الا ان بلربروس، بعدما وقع له من تضييع حلق الوادي وفناء جيشه البحري، ولما رأى نفسه لا يتوفر على موارد أخرى، كان يطمح، كما هو شأن كبار الشجعان، الى انقاذ ما بقي له والدفاع عن مدينة تونس عاقدا الأمل على ما قد يقع من تقلبات غير منتظرة. ولما علم من جواسيسه بحال قوات عدوه، أمر بجمع قواد عساكره من أتراك وعرب وكذا كبراء المدينة فقلل في أعينهم من قوات الامبراطورية بالنسبة لقواته وحرضهم بخطب رنانة على الاستبسال في القتال دفاعا عن أموالهم وأميرهم ووطنهم، وأطنب في مدحهم وفي ذم النصارى، وفي الأخير حملهم على تجديد الأيمان والعهود بأن يظلوا على الوفاء له،

(70) ماكسيميليان دي بييدرا نوبيا.

وما ان أنهى كلامه حتى شاع بين المجتمعين أن النصر على الأعداء أمر لا ريب فيه، وتعززت تلك الاشاعة بتقديرات حول المعركة ونتائجها، وما يتوقع إثرها من تجديد البيعة للأمير. لكن بلربروس، وهو الحريص على أن يأخذ لكل أمر عدته، إن خيرا وإن شرا، قد أمر بجمع الرؤساء الأتراك في الحصن ليلا وكشف لهم الخطر الذي يحلق بهم بين علوين، وحذرهم من الوثوق سواء بأهل تونس أو بالعرب وقال لهم كيف يمكنهم الفرار جميعا اذا اقتضى الأمر، وقدم لهم خطته القاضية بقتل جميع العبيد النصارى المسجونين في مخابىء الحصن، غير انه قد تصدى لمعارضته في هذا الرأي فتيان(71) من شجعان القراصنة مستنكرين ذلك العمل الظلماني الذي سيجر عليهم المقت من الجميع وسيدفع بهم الى الفقر لأن اولئك العبيد هم كل غنيمتهم. وقالوا بأنه ما يزال أمامهم متسع من الوقت قبل اتخاذ مثل هذا القرار الذي قد لا يلجأ اليه الا في آخر مراحل اليأس والاحباط. ووافق بلربروس على ذلك ثم أمرهم بأن يدبروا شئون أمن أنفسهم وقضى بقية ليله في ترتيب ما ينبغي القيام به في الغد، وبعد ان جند كل الرجال خرج في بداية الصباح بتسعين ألفا من المقاتلين من الأتراك والأهالي عربا وبرابر ومعهم عدد من قطع المدفعية وعسكر في محلة على بعد فرسخ ونصف من مدينة تونس في سهل(72) كثير البساتين وآبار جارية المياه، هنالك رتب جيوشه على أهبة القتال وجعل في مقدمتها تسعة آلاف من الأتراك منقسمين الى فيلقين لا تفصل بينهما سوى أخصاص مهجورة، وكانت مجهزة باثنتي عشرة قطعة مدفعية، وجعل ذلك في مواجهة الفيلق المتكون من قدماء الجنود الاسبانيين، ثم انه جعل في مواجهة الايطاليين الذين كانوا من جهة المستنقع، ألفا من الفرسان العرب الأهالي، وذلك من أجل الدخول في الماء وأخذهم من الجنب. وعلى يمين الفيالق جعل اثني عشر ألفا من الفرسان العرب يكتنف جمعهم عدد من المشاة كلهم من حملة البنادق والقنافات والقسي وذلك من أجل إحتواء الجنود النصارى. وفي المؤخرة جعل بقية من عنده من الجنود الأتراك والأهالي ومن المشاة. وظل على هذه الهيئة يترقب وصول جنود النصارى، ولديه من العزم أكثر مما لديه من الأمل في تحقيق النصر. وكان مولاي الحسن قد بعث برجال من الأهالي الى مدينة تونس ليلقوا هنالك مناشير مكتوب عليها : **اتركوا الأتراك الطغاة عليكم وأقبلوا على ملككم الذي**

71) شيفوت سنان وسنان باي.

72) يدعى قصر عشوي.

يحبكم ويحسن اليكم. وما ان ألقيت تلك المناشير حتى انفعل لها السكان، وأدى ذلك الى تطاولهم بكلام لم يرق بلربروس، وهم بأن يخرج بجنوده شاكي السلاح ليتصدى لكل أمر حادث. وفي هذه الظروف علم شارلكانت بخروج بلربروس وبما عقد عليه نيته، وعلم بالمكان الذي كان نازلا فيه بمحلته، وعلى إثر ذلك ترك الدون لويس في قيادة كتيبته، وانطلق في بعض من رجاله ومعه العلم الأحمر الذي يعرف به حتى أمكنه الاطلاع على واقع عدوه والتعرف عليه، فعاد الى جنوده يحضهم ويحرضهم ويبشرهم أن قد جاء اليوم الذي وعد الله فيه بالانتقام من الكافرين الذين طالما اذوا النصارى وألحقوا بهم الأضرار؛ وبعد أن ألح عليهم في ضرورة التزام الصفوف، أمر باستئناف السير على تلك الهيأة وذلك الترتيب. ولما رأى بلربروس أن جيش العدو آخذ في الاقتراب، أمر العرب بمهاجمته من كل جانب ونفذوا أمره في جو من الفورة والضجيج، وكان من شأن ذلك أن يسبب الذعر والهلع لجيش غير هذا الجيش. ولكن حملة البنادق الحاملين للأجنحة، قاموا بالرد على الهجوم في الوقت المناسب فردهم ذلك على أعقابهم بمثل ما أقبلوا به من السرعة، ولم يجرؤا بعد ذلك على الدنو مرة أخرى، ولما رأى الأمبراطور أنه قد كفيء هجوماتهم الفاشلة، ورأى أن الأتراك لا يتزحزحون عن الموقع الذي به الماء، والحالة أن رجاله قد استبد بهم العطش حتى كان عدد منهم يدخلون المستنقع ويغسلون أفواههم بالماء الملح فيزيدهم ذلك ظمأ وغلة، أمر بأن تتقدم المدفعية، وأعطى كلمة السر، **يسوع المسيح**، فزحف الفيلقان ومقدمة الجيش ضد العدو، وشرعت المدافع في الضرب من الجهتين، ولم يترتب على ذلك سوى أثر ضئيل. وأطلق حملة البنادق الأتراك رميتهم من بعيد، بينما رد عليهم النصارى من مسافة قريبة، وبعد ذلك أخذ رجال الدراعين من حملة البنادق سيوفهم بأيديهم، وتقدموا متبوعين بفيلق حملة الرماح، ولكن الأتراك ولوا الأدبار وتركوا محلتهم مخلفين سبعة من قطع المدفعية، واتخذوا طريقهم في اتجاه مدينة تونس، وأخذ بلربروس ومن معه من القواد يذهبون ويجيئون محاولين عبثا رد أولئك الجنود عن الفرار، ولكنهم اضطروا في الأخير الى اتباعهم، ولما استولى الامبراطور على منابع المياه وعلى ما خلفه الفارون من المدافع، أمر جيوشه بالوقوف، لأن العطش قد قهرهم والتعب قد أنهك قواهم، ولكن الجنود أخذوا في التشتت بحثا عن آبار الماء. ولكن شارلكانت، وهو الرقيب على كل شيء قد رأى العرب يجرون وسط أشجار الزيتون وهم يحاولون القيام بشيء ما، أمر بأن يزحف لقتالهم فيلق الجنود الألمانيين، مخافة

ما قد يقع من الغدر، وهكذا وقع إبعاد أولئك العرب وتشتيت جميع جيش بلربروس، وبعد ذلك كان رؤساء العرب يذكرون لملك تونس على سبيل التزلف اليه، أنهم لم يكونوا عاقدين العزم على الهجوم، ويدعون أنهم منعوا المسلمين الأهالي من القتال. ولكن هذا الملك، وقد كان حاضرا وشاهدا على كل ما وقع وما بذلوه من جهد في إحراز النصر، كان يسخر من أقوالهم. وقد حرص بلربروس على إنقاذ شرفه فأعلن بالتراجع وسار بجيوشه نحو المدينة دون أن يختل نظام جيوشه، وأمر بالوقوف عند أسوارها يرقب المنتصرين ويتعرف على مجموع قواتهم، ولكن العطش وقيظ النهار قد تسببا في انحلال نظام النصارى والأتراك على السواء فكان الجنود يحومون حول الآبار يشربون الماء والدم معا، لأن الأعداء قد ألقوا فيها دما وجثث القتلى، وقد خشي الامبراطور أن يصاب جنوده بالتسمم، فكان يجوب أطراف تلك الجهات ويلقي في الماء بقطعة من قرن حريش البحر وكان يحملها معه معقودة بجدول أخضر. وقد مات في ذلك اليوم ثلاثمائة من بين الاتراك والسكان الأهليين، بينما لم يمت من النصارى سوى ثمانية عشرة من الجنود. ولما جن الليل، تخوف شارلكانت من قيام هذا العدو الغادر ببعض الهجومات، سيما وأن جنوده لم ينسحبوا انسحابا كاملا. ولذلك أمر بأن تجتمع كل فرقة في مكانها المعهود لها وأن تكون على أهبة القتال، وقد أمر بالابتعاد قليلا عن المستنقع ونصب حراسة شديدة طول الليل.

أخـذ تـونـس

أما بلربروس فقد قضى الليل بجنوده تحت أسوار المدينة وهم على أهبة القتال، ولما رأى أن الجنود من الأهالي أخذوا يفرون شيئا فشيئا حيث كانوا يذهبون لتفقد أشغالهم وأحوال أولادهم أمر الأتراك والعرب بأن يستعدوا للقتال في غده وأمرهم بدخول المدينة، ولما كان في الحصن جاءه الخبر بأن معظم السكان قد انسحبوا والتحقوا بالجبال والجهات المجاورة وأن الجميع أخذوا في جمع أمتعتهم قصد الرحيل، استوى في ذلك العرب والسكان الأصليين. وقد أراد أن يمنع ذلك الانحلال، فركب صهوة جواده، ولما وصل الى المكان الذي كان قد ترك به الأتراك والعرب أمر بجمع سائر قواده، وبينما كان يتفاوض معهم حول ما إذا كان الأنسب هو الخروج الى القتال أو الاعتصام بالمدينة والدفاع عنها، وأبرموا أمرهم على هذا الحل الأخير، إذا هو بالأتراك الذين كان قد تركهم بالحصن يصلون اليه؛ ذلك

بأنهم قد رأوه أمر رجاله بشحن ما في بيت المال وفي غيره من النفائس، وبأن يكونوا على أتم الاستعداد، وبأن يضعوا براميل من البارود تحت أقباء التي حبس فيها العبيد النصارى حتى يتسنى هلكهم، ظنوا أنه يستعد للرحيل فجاءوا يتبعونه. وما أن رآهم قد وصلوا اليه حتى صاح بالويل والثبور، نادبا ما حسب أنه قد وقع من ضياع حصنه وبيت ماله ومن تحرير الأرقاء النصارى. فلم يتوان في الانصراف مع بعض أصحابه دون إعلام أحد بشيء. ولما وصل الى باب الحصن كان قد طلع النهار ووجده مغلقا، فبدأ يتسرب اليه اليأس وينتف لحيته، وكان الغضب يتطاير من عينيه وهو ينادي بأسماء مرتدين من النصارى من أصدقائه، وذلك من أجل حملهم على فتح الأبواب، ولكن حظه كان قد انعكس، فما أن خرج الأتراك من الحصن حتى بادر المرتدون الذين تركهم لإشعال البارود وإحراق الأسرى الى فك قيود النصارى وكسر أغلالهم، فعلوا ذلك بدافع الشفقة أو بدافع الطمع، وتحمس له منهم اثنان بصفة خاصة(73) كانوا من المقربين الى بربروس، وكان أحدهما إسبانيا. وحينما كان يجري ذلك سمع مرتد اخر(74) من الاسبانيين وكان حاكم الحصن، ما أحدثه الأسرى من الضوضاء وهم يبحثون عن السلاح بقصد الدفاع عن أنفسهم، فقصد اليهم في قلة ممن كان معه من الرجال، وقتل منهم. ولما رأى أنه لا يستطيع إعادة وضعهم في القيود والأغلال لأن عدوهم كان يقارب سبعة آلاف، أخذ بعض الافراس والمال الذي وجده مشحونا وخرج من الحصن ومعه زوجته وبنته الوحيدة. وكان في ذلك سبب هلاكه. وذلك أن بربروس قد واخذه بكونه فرط في زوجاته وأراد النجاة بزوجته هو، فأمر بقطع رأسه على مقربة من مدينة عنابة، وبعد خروج الحاكم، أقدم الأسرى على إغلاق أبواب الحصن، ولما كان بربروس يصرخ بهم ويطلب فتح الباب أمامه أخذوا يرمونه بالحجارة، بل إنهم صعدوا الى الشرفات وأقاموا علامات للنصارى بإشعال بارود المدافع وبرفع علم كان الأتراك قد غنموه من الاسبانيين قبل سقوط حلق الوادي، وذلك ليتقدموا بجيشهم، بل إنهم أقدموا حتى على إحداث بعض طلقات المدافع، وعندئذ زحف الأمبراطور في اتجاه المدينة، غير أنه كان يأخذ بالحذر، إذ كانت تظهر للناظر فرسان على الجبال التي من وراء المدينة، ويرتفع هنا وهناك غبار كثيف فلا يعلم هل آثاره أشخاص قادمون أم أشخاص ذاهبون، ومع ذلك كان

73) يافراغا ومامي.

74) رمضان.

يشاهد الدخان فوق الحصن ورجال يلوحون بأرديتهم وعلم مرفوع، وكانت تسمع طلقات مدافع وبنادق، ولكن أحدا لم يتصور معنى ذلك كله، وقد أكلت سرية الفرسان التي أرسلت قصد الاستكشاف علم ظهور شيء يلفت النظر، وهكذا تقدم الامبراطور الى أن بلغ أحد أبواب المدينة(75)، وكان بمعيته بعض النبلاء، ولكنهم لم يعلموا بشيء، وقد توجه بالكلام الى قواد المشاة، ومنع عليهم السماح لأي كان بالخروج من الصفوف، ووعدهم بأن يبيح لهم نهب المدينة، وفي تلك الأثناء وصل بعض المسلمين من الأهالي الى سلطان تونس فأخبروه بأن المسيحيين انفلتوا من السجن واستبدوا بالحصن وبأن الأتراك يوجدون تحت أسوار هذه المدينة يهددونهم، وزادوا في الإخبار بأن نصف سكان المدينة قد هاجرها، وأن باربروس قد غادرها عندما رأى ذلك ومعه الأتراك والعرب وأنه عسكر في الجهة المقابلة وهو ينتظر دخول المسيحيين الى المدينة فيتأتى له الانسحاب في أمن وأمان. ولما علم الأمبراطور بهذه الوقائع بادر بأمر الماركي دي غوات لكي يزحف توا في اتجاه الحصن ومعه حملة البنادق من الجنود الاسبانيين الذين في فيلقه، بينما اكتفى الأمبراطور بالاقتراب من الأسوار هو ومن معه من بقية الجيش. أما باربروس فقد تأرجح حينا من الزمن، ولما شاهد المسيحيين يقتربون ورأى أنه غير مطمئن في المحلة التي هو فيها أخذ ينسحب منها وهو في حيق شديدة، ثم تبعه جيشه في ذلك. ولما وصل الماركي ذي غوات الى الحصن استقبل هنالك بابتهاج كبير وأرسل الخبر بذلك الى الأمبراطور، وأعلمه بأن باربروس قد انسحب بخطى حثيثة ولما حل الماركي بالمدينة جاءه بعض كبراء سكانها بمفاتيح أبوابها. وتوسلوا اليه بواسطة الملك طالبين أن يفعل بهم وبأموالهم ما يشاء وألا يُبيح المدينة لجيوشه. وأراد الأمبراطور أن يجامل ذلك الأمير فأمر بجمع قواد الجيش لكي يبحث معهم عن حل يرضيه ولا يغضب الجنود الذين تلقوا الوعد من الأمبراطور بان يستبيح لهم المدينة، ولما لم يظهر لهم حل من هذا القبيل وبدأت تلوح عليهم علامات التذمر أرسل الأمبراطور إلى الأمير بأن ينظر ما إذا كان يريد أن توفر بعض البيوت أو الأحياء، وأن يستباح غيرها لنهب الجنود. وأجابه الأمير بأنه لا يرى موجبا للاكتفاء بحماية أحد من السكان دون غيره، أما الجنود النصارى فانهم لما رأوا أن الحصن قد سقط، وأن الأعداء قد انسحبوا، بدأوا يتسلقون الأسوار في عدة أماكن دون انتظار صدور الأمر بذلك، ولما دخلوا الحصن فتحوا الأبواب لرفاقهم

75) باب درب الحضرة.

فوقع اقتحام المدينة وارتكب في نهبها ما هو معهود في مثل هذه الصدمات من القسوة والانتهاك. ولما رأى ملك تونس ذلك العبث والفساد توسل الى الأمبراطور في أن يأمر بعدم أسر أي واحد من سكان المدينة. ولما أشيع ذلك الأمر بين الجنود أخذ كل واحد منهم في قتل من يلقاه من السكان، وبالغ في ذلك الجنود الالمانيون، إذ لا يتسامحون مع أي كان، وهكذا اضطر أمير تونس الى التوسل بقصد حمل الجنود على تصرف مخالف لما ذكر، وطلب أن يكتفوا بالغنائم وأسر الرجال دون قتلهم. وقد صدر الأمر بتنفيذ ذلك. ولم يمت من النصارى على أيدي الأعداء سوى عدد قليل، ولكن عددا منهم مات أثناء التنازع فيما بينهم على الغنائم. وقتل عدد من الأسرى النصارى الذين تمردوا في الحصن، وقد هلكوا على أيدي إخوانهم في الدين بهدف انتزاع ما كان معهم من الثروات. وبينما كانت تجرى تلك الوقائع توجه الأمبراطور الى الحصن ومعه الاينفانت الدون لويس وملك تونس وآخرون من السادة ونبلاء الحاشية. وقد وقف هنالك على عدد من المدافع والذخائر والمؤن، وأباح ذلك كله للنهب والغنيمة. وفي أثناء ذلك كان الحرس الأسبانيون ومعهم بعض الفرسان يعيثون في الجهة الأخرى من المدينة على مساحة تزيد عن فرسخين فيقتلون وينهبون ويأخذون كل ما وصلوا اليه، فكنت ترى هنا وهناك أكواما ضخمة من جثث النساء والأطفال وقد اختنقوا أو ماتوا بالعطش. وقد أكد لنا ملك تونس أن من ماتوا في ذلك اليوم، وهم يفرون خلال الأجنة والبساتين، يزيد عددهم عن سبعين ألفا من الأشخاص، عدا من قتلهم النصارى، وأن عدد من وقع أسرهم من الرجال والنساء والأطفال يزيد عن أربعين ألفا. وبعد استباحة المدينة للنهب ثلاثة أيام، أخذ الجنود يهدمون الدور وهم يبحثون في أسسها عن الكنوز، ولما شوهد منهم ذلك، صدر لهم الأمر بالخروج لحضور صلاة الملك. فخرج الجنود الى الأرباض والبساتين وهم محملون بالغنائم ومعهم من استرقوهم من الأسرى.

كيف ترك الأمبراطور المدينة لملك تونس وكيف استولى اندريا دوريا على بجاية وبقية ما جرى الى غاية انتهاء الحملة

بينما كانت تجرى تلك الوقائع إذ علم الأمبراطور أن بلربروس اتجه الى عنابة، وكان قد أدخل في النهر بعض السفن الحربية السريعة، فبادر الأمبراطور الى

مكاتبة اندريا دوريا وأرسل اليه عدد من السفن الحربية اللازمة وأعطى الأمر لقائدها بعمل ما في وسعه للقبض عليه، وبعد ذلك سلم أمر المدينة الى الملك واشترط عليه تحرير جميع الأرقاء من أية أمة نصرانية كانوا إذا ما وصلوا الى بلده دون مطالبتهم بفدية، وتمكين النصارى من الاتجار بحرية في مجموع مملكته وتمكينهم من الاقامة بها ومن بناء الكنائس والمعابد ليمارسوا شعائر دينهم، وألا يقبل حلول القراصنة في تونس سواء كانوا من الأتراك أو من المسلمين الأهالي، وألا يسمح بتزودهم بالأقوات وألا تقدم لهم أية معونة كانت، وأن يبقى حلق الوادي ملكا للأمبراطور ولخلفائه الى الأبد، وأن يؤدي الملك وذووه اثنى عشر الف قطعة ذهبية في كل عام للحامية التي بالحصن لأنها تقوم على أمن الدولة، وأن تكون حصيلة جمع أصداف البحر للأمبراطور الى الأبد. وشرط بهذا كله أن يتعهد ملوك تونس، برسم الامتنان بما أسدي اليهم من الجميل والاحسان وبرسم العرفان بالتبعية، بأن يبعثوا في كل عام الى ملك إسبانيا بسبعة أفراس واثني عشر من الصقور؛ وفي مقابل ذلك يكون الأمبراطور ملزما بحمايتهم وبالدفاع عنهم ضد أعدائهم. وبعد تقديم الايمان على تلك التعهدات وتوقيعها من الطرفين أمر الأمبراطور بوضع المدينة تحت تصرف مولاي حسين. ترك له مائتين من الجنود يحمون شخصه ويحمون الحصن الى أن يعود الأمن والهدوء للبلاد. ثم رحل ومعه بقية الجيش وسلك الطريق التي على الضفة الأخرى للمستنقع فقضى ليله في عراض غير بعيد من حلق الوادي، ولبث هنك الى أن تم شحن جميع معدات جيش الفرسان وجيش المدفعية وجميع الذخيرة ثم توجه الى مكان محلته الأولى بين أطلال قرطاجة. وهنالك وصل اليه الشخص(76) الذي أرسله أندريا دوريا لمطاردة بلربروس، فأخبر بأن هذا القرصان قد استطاع في ظرف يومين اثنين أن يستخرج عشر سفن حربية سريعة كان قد أغرقها في النهر، وأن يجهزها مع ثلاث أخريات وزورقين بمن اتبعه من الأتراك ومن السكان الأصليين، ولم يتمكن من مناجزته في المعركة لأن النصر لم يكن مضمونا، وغضب السلطان لهذا الخبر وبادر بإرسال أندريا دوريا في أسطول مكون من ثلاثين سفينة سريعة والفين من الجنود الاسبانيين الى عنابة في الوقت الذي بعث فيه بلربروس في اتجاه مدينة الجزائر ومعه جيشه من الفرسان، وقد وجد أندريا دوريا المدينة مهجورة حيث لجأ سكانها الى الجبال، فاستولى على حصنها وعلى سفن متعددة السطوح كانت راسية هنالك. ولما فكر في الذي خلفه

76) آدم.

وراءه ورأى أنه سيسأل عما فعله لتحقيق هذه الحملة توقف ولم يذهب أبعد من ذلك، وانما عاد الى تونس ولقي هنالك الامبراطور وقد ركب في الأسطول بمجموع جيشه وأمر بأن يحصن حلق الوادي وأن تجلب لذلك الغرض الحجارة والآجر والجير من صقلية لتبنى بها الحصون، وترك عاملا عليها الدون بيرناردان دي ماندوش ومعه ألف من الجنود الاسبان، وترك فيها أنطوان دوريا قائدا على أسطول مكون من اثنتي عشرة سفينة سريعة، وبعد ذلك بعث بجيش إسبانيا البحري وعلى رأسه أخو زوجته الإنفانت الدون لويس، ثم أبحر هو ومعه السفن الأخرى، في اتجاه مهدية التي يسميها المسيحيون افريقيا، وفي أثناء الليل ثارت عاصفة قوية أبعدت السفن بعضها عن بعض وشتتتها في جهات تلك البحار، وقد أرسى الامبراطور ومعه أسطول السفن الحربية السريعة (القاليرات) في ميناء دريبانو بصقلية ثم التحق به الآخرون هنالك، ولما كان فصل الصيف قد ولى فإن الأمبراطور قرر العدول عما كان اعتزمه من متابعة تلك الحملة، واكتفى بتكليف كل من أندريا دوريا وفرناند دوكونزاك بالمضي فيها. وقد انطلقا على الفور على رأس أسطول متكون من ثلاثين سفينة حربية سريعة وخمس عشرة سفينة نقل كان على متنها خمسة آلاف من الجنود الاسبانيين والإيطاليين. ولكن الرياح عاكستهم فلم يتعدوا جزيرة فابيين واضطروا الى الرجوع الى صقلية بعد ان استنفدوا أرزاقهم، وكان ذلك سببا في اجهاض بقية الحملة، ثم ان جيش اسبانيا البحرى قد استولى في طريقه على مدينة بنزرت وعلى مدينة عنابة التي دخل اليها بعض المسلمين الأهالى إثر ذهاب اندريا دوريا، وقد تركوا هنالك حاكما(78) ومعه ألف من الاسبانيين، ستمائة منهم في الميناء وأربعمائة في الحصن. وتابع الأسطول طريقه فوصل الى اسبانيا دون أن يلقى سوءا في طريقه.

ما جرى في مدينة تونس بعد ذهاب الأمبراطور

وقعت تطورات في تونس بعد ذهاب الأمبراطور، ذلك أن باربروس عجل بعد وصوله الى مدينة الجزائر بأعمال أراد أن يحسن بها سمعته فجهز جميع السفن التي استنقذها من عنابة وأخرى استطاع جمعها فانطلق الى منورقة وأخذ مدينة ملون على حين غرة ولم يتأت لها الدفاع عن نفسها، فقد كان الامبراطور أصدر

78) البارو كوميس زغل.

أمو الى حاكم عنابة(79) بأن يرسل أربعمائة من جنوده الى هذه الجزيرة، ولكن هذا الحاكم اعتذر بأنه تلقى خبرا بأن حاكم قسنطينة(80) قادم لمهاجمته وبان مدينته تتطلب دفاعا قويا لا يتأتى معه إفراغها من الجنود. وبعد ضياع مدينة ملون قام باربروس بإفساد كثير في جميع سواحل البلاد النصرانية وغنم عددا من المتاع والعبيد بدون مانع ولا رادع. وقد ذاع خبري هذه الانتصارات فانتفضت عدد من مدن تونس التي كانت قد اسلمت أمرها لمولاي الحسن، واستبد بعضها بشئونها بينما رحبت مدن أخرى بحاميات تركية. فقد ثار في القيروان فقيه(81) يحظى بتقدير الأهالي وتبجيلهم، ولم يقنع بهذه المدينة بل تشوف الى الاستيلاء على مجموع امبراطورية تونس، وهكذا لم يستتب الأمر لملك تونس ولم يعم السلم أرضه بالرغم من كون أندريا دوريا قد أغاثه مرة بالأسطول الامبراطوري من السفن الحربية السرعة وأعاد الى حكمه مدنا انتزعها من الأتراك الذين احتلوها، وسنذكر ذلك عند وصف هذه المدن. وفي أواخر عام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين أدرك ملك تونس، بعد ان أرسل ابنه(82) لقتال محلات ثائرة في جهة عنابة، الأهمية الكبرى التي يكتسيها طرد الأتراك من مدينة الجزائر ومن جميع شواطىء بلاد البربر، وان تحقيق ذلك يتطلب تكوين جيش بحري مثل الجيش الذي تجهز لحملة حلق الوادي. وقد قرر أن يقدم على الأمبراطور ليخاطبه في هذا الموضوع وليقدم له الدليل على احترامه لما يجب عليه إزاءه من الالتزام. وبعد أن عين حاكما(83) على تونس وآخر(84) على الحصن، ترك أحجاره الكريمة في حلق الوادي وكذا جزءا من ماله، ذهب الى صقلية وانتقل منها الى نابولي ومعه حرس متكون من خمسمائة من الأهالي، وقد استقبل استقبالا حسنا حيثما حل وارتحل، بيد أن هذه الرحلة كانت مشئومة عليه. فما أن غادر تونس حتى دخل اليها إبنه(85) وهو يطمح الى الحكم مدفوعا من بعض أعداء (86) أبيه، ولكن العامل ذكره واجبه وبين له من الأسباب

79) ألبارو گوميس زغل.
80) حسان أغا.
81) سيدي عرفة.
82) مولاي حميدة.
83) تمتان.
84) القائد فرح.
85) مولاي حميدة.
86) أبو عمر ومحمد.

ما يثنيه عن مراده ثم طوده تحت طائلة التهديد. ثم احتجب داخل القصور ودور اللهو الواقعة خارج المدينة وهو يحلم بتحقيق ما كان شرع فيه. وقد أشاع بين الناس أن أباه الذي ذهب الى اوربا ليعتنق دين النصارى قد أسره الأتراك وأن حاكم تونس قد ذهب للتفاوض مع حاكم[87] حلق الوادي بقصد اختيار ملك يوافق هواهما وحرمانه هو من خلافة أبيه. ولما انتشرت هذه الاشاعات وما يشبهها في مدينة تونس صدقها الناس لجهلهم، وبدأت تنعقد تجمعات سرية، واتصل بعضهم سرا بابن الملك، فبادر بالقدوم، ولما رأى ميل الناس إليه قصد الى الحاكم يريد التخلص منه. ولما لم يجده هنك قتل بعضا من رجاله، وطاف ببيوت أنصار أبيه لارتكاب مثل ذلك. وتوجه في الأخير الى الحصن وقتل في بابه قائد الحرس ولم يكن قد ارتاب في شيء، ولما تم له الاستيلاء على المدينة قتل حاكمها وبقية الحزب المضاد واتخذ لقب ملك تونس واقتحم القصر منتهكا حرمة نساء أبيه وجواريه، ولما علم أبوه بهذه الحوادث وهو في نابولي استبد به الغضب وطلب من نائب[88] الملك أن يمده بجيوش تعينه على الانتقام من هذا الغدر. وهكذا ابحر ومعه حرسه من الأهليين وكذا ألفان من الايطاليين يقودهم جان باتيستا دو لوفريدو، وبعد أن وصل الى حلق الوادي اتجه الى تونس دون أن يخبر بذلك لا الحاكم ولا الجنود، الجنود، وكان يظن أن ولده لم يكن يتوقع وصوله وأن السكان لن يقاوموه، وبالفعل، فإنهم عندما رأوه قادما بتلك الجيوش، طلع أعيانهم الى الحصن وهم يخشون أن تتكرر مأساة ثانية، فطلبوا من ولده أن يتخلى عن الحكم وألا يقاتل أباه وأن يجنب المدينة ويلات النهب والإفساد. وقد بينوا له أنهم لن يكونوا بجانبه ضد ملكهم وانه لا يليق به أن يغصب الملك الذي لا بد مدركه في يوم من الايام. وقد أجابهم الشاب المعتد المستبد بأنهم مخطئون في ظنهم بأن أباه قد جاء اليهم يضمر الخير في حين انه جاء بأمير نصراني يريد هلاكهم وحرمانه من العرش. فأجابوه : إذا جاء أبوك بالنصراني فنحن على استعداد للموت دفاعا عن أنفسنا، وإذا هو جاء وليس معه سوى المسلمين من الأهالي فإننا لن نحمل السلاح في وجهه، وانسحبوا على نيتهم تلك تاركين الأمير الشاب في حيرة من أمره. وبينما كانت تجري تلك لوقائع كان مولاي الحسن يحث السير في اتجاه تونس تتصدر ركبه كتيبة من خمسمائة جندي من الأهالي الذين كان قد ذهب بهم الى نابولي، ويسير وراءه فيلق

87) الدون فرانسيسكو دي طوار.

88) الدون بيدرو دي طوليدو.

الايطاليين الذين سلروا بمحاذاة المستنقع سالكين الطريق الذي كان قد سلكه الأمبراطور. وفي تلك الأثناء أرسل ولده تجريدة من الجنود لمناوشة أولئك القادمين. اما السكان فقد كانوا يرقبون، وأسلحتهم بأيديهم، أن تسفر المعركة عن انتصار أحد الطرفين. وبعد مناوشات بين المقاتلين الأهليين من الطرفين، تراجع أنصار الأمير الشاب نحو المدينة ولم يتقدم من بداخلها لأغاثتهم وان كانوا قد التحقوا بهم. وبينما كانوا يدخلون المدينة جميعهم نظر اليهم أحد رؤساء(89) الفريق المؤيد للملك فرأى انهم مختلطون بعضهم ببعض وأن أهل تونس لم يقاتلوا قط، فظن أن جنود الملك قد انضموا الى الأعداء فعجل بإخبار الأمير بذلك، فأمر بأن يذهب اليهم بقصد ارجاعهم واستمالتهم اليه. وكان في ذلك سبب هلاكه. فما أن رأى السكان فيلقاالجنود النصارى يتقدم اليهم والجنود الأهالي من أنصار الملك ينسحبون حتى صدقوا ما زعمه الأمير الشاب بشأن مقاصد أبيه، فهاجموا جميعهم وأعانهم العرب الذين كانوا بالمرصاد، فلما سنحت الفرصة حملوا حملة شعواء وهم يصرخون كعادتهم فأحدثوا ارتباكا فر صفوف فيلق الايطاليين وأثخنوا فيهم في عدة جهات، فقضوا على معظمهم بالقتل أو الأسر، وفي من بقي منهم الى حلق الوادي في اسوإ حال. أما قائد(90) المحلة ورؤساء الفرق فقد مات جميعهم في المعركة، أما الملك فقد أسر في المستنقع وجيء به الى تونس وأدخل السجن. وبعد يومين عرض عليه ولده أن يختار الموت أو العمى. واختار العمى فأطفأوا عينيه بوضع طست من المياه المحرقة أمام وجهه. ولما سكنت الأحوال بالمدينة خرج الأمير متوجها الى بنزرت وكانت قد وصلت الى حصنها حامية من الجنود الأتراك. وفي أثناء ذلك وصلت الى حلق الوادي كتيبة قوامها خمس عشرة مائة من الاسبانيين وقائد محلتهم الفونصو بيفاس بعثه نائب(91) الملك في نابولي بعد ما سمع خبر تلك الهزيمة، وكان مع تلك الفرق بعض المحالفين وبعض المستعربين. وقام حاكم(92) حلق الوادي بنصرة عبد الملك أخي مولاي الحسن، وأدخله الى تونس في يوم عيد، وكان أهلها في غفلة من أمرهم، وقد دخل الى المدينة متنكرا لا يعرفه أحد، وساعده أشياعه المنبثون في أماكن عديدة على

89) حميد.
90) يان باتيست دي لوفريدو.
91) اللدون بيدرو دي طوليدو.
92) فرانسيسكو دي طوار.

الدخول فجأة الى الحصن، واستولى عليه بعد ان قتل حرس الباب فقبض على الابن البكر(93) حميدة وكف بصره، وحمل لقب ملك تونس ولم يدم ملك عبد الملك هذا سوى ست وثلاثين يوما، إذ أصابته علة في اليوم الثاني والعشرين وهلك بعد ذلك بخمسة عشر يوما، وفي ذلك الوقت القصير قام باداء الجزية للامبراطور وقدم ستة آلاف دوكا لحامية حلق الوادي، وقام أيضا باطلاق سرح أخيه مولاي الحسن وأعاد اليه جهازه ونساءه، ولكنه سرحهن الى آبائهن ولم يرد لمس إحداهن لأن ولده فعل بهن كل ما سولت له نفسه. وكان مولاي الحسن يقول، وهو يحكي مغامراته، إن خدم أخيه نهبوا الدار عندما كان طريح الفراش لمدة خمسة عشرة يوما، وانهم جعلوه شبه المحبوس، وكلما دخلوا عليه ظن أنهم سيذبحونه. وبعد وفاة عبد الملك طلب أهل تونس أن يتولى عليهم أحد أبناء مولاي الحسن وكان مقيما بحلق الوادي، ولكن الحاكم رفض مطلبهم ونصب على العرش أحد أبناء عبد الملك واسمه محمد(94)، وقد استقبله الشعب بابتهاج كبير، ولكن مدة حكمه لم تتجاوز أربعة أشهر. وفي أثناء ذلك وصل مولاي الحسن الى حلق الوادي واقتيد منه الى جزيرة صغيرة تسمى طبرقة تقع بين عنابة وقرطاجة، وكان الجنويون قد بنوا فيها حصنا بقصد صيد المرجان، ورحل منها الى سردينيا ثم الى نابولي ثم الى روما ومنها الى اوكسبورك حيث نظر اليه الأمبراطور بشفقة كبيرة وقد رآه محروما من بصره ومن ملكه ومن أمواله، وكان من جملة تعاسته أنه كان يشكو أن حاكم حلق الوادي قد سرق أمواله وأحجاره الكريمة التي تركها وديعة عنده لما ذهب الى نابولي، وقد أمده الأمبراطور بكل ما كان في حاجة اليه وواساه باحياء أمله في مصير أفضل مما كان عليه. أما ولده(95) فقد طرد من المدينة ومن معظم أرض المملكة وصار ينتقل من مكان الى آخر يطلب النجدة من العرب وغيرهم من الأمم، ولما كان في جلفة استدعاه بعض سكان تونس وهم متذمرون من الحاكم، فابحر اليهم على متن زورق من النوع الذي يستعمله القراصنة ونزل في مدينة المونستير والتحق به بعض العرب من أشياعه وتوجه الى تونس بمن استطاع جمعهم حوله من الرجال، فدخلها فجأة حتى إن الأمير الشاب قد وجد عناء شديدا في فراره الى حلق الوادي فاستولى على المدينة وعلى الحصن وأجهز بقسوة على جميع من كانوا مخالفين له حتى انه ألقى ببعض كبرائهم وهم أحياء الى القناجر لتفتك بهم. فبات بعد ذلك

93) سعيد.

94) مولاي محمد.

95) حميدة.

في هدوء وهو يملك تونس، ودام له أمرها الى عام ألف وخمسمائة وسبعين، فانتزعها منه حاكم(96) الجزائر غدرا بتواطؤ مع بعض سكانها، وهي ما تزال الى اليوم في ملك الأتراك.

الفصل السابع عشر
قمارت

مدينة قديمة تقع على ثلاثة فراسخ من تونس الى جهة الشمال، قريبا من أطلال قرطاج. يذكر مؤرخو هذا البلد أنها كانت تسكنها الرومان. وهي محاطة بأسوار عالية كثيرة السكان، يشتغل أكثر أهلها برعاية الأجنة والبساتين يحملون ثمارها وما تنبت من خضروات ويقول الى مدينة تونس لبيعها. وتكثر في هذه الجهات حقول مزروعة بقصب السكر ويبيعه منتجوه مقسطا الى أهل تونس ولا يصنعون منه السكر كما يفعل غيرهم في جهات أخرى. فعندما أخذ الأمبراطور مدينة تونس نهب الاسبانيون هذه البلدة وفر أهلها عند نزول الجيش، وكان اسمها في القديم فلاشيا حسبما يذكره ابن رشيد وهو كاتب افريقي.

الفصل الثامن عشر
المرسى

مدينة صغيرة في المحل الذي كان به مرسى قرطاجة، بناها أحد خلفاء(97) القيروان بعدما هدم أتباع محمد مدينة قرطاج، ولكنها تعرضت للخراب بعد ذلك على أيدي عرب آخرين في حروبهم مع ملوك تونس. وكان سكانها في وقت نزول شارلكانت في تلك الجهات أناس مساكين من الفلاحين والصيادين والصباغين، وقد كانت بضواحي المدينة بعض البساتين وبعض دور الاستجمام كان ملوك تونس يخرجون اليها للاستمتاع بلطف هواء الصيف. وقد وجدها جنود الأمبراطور خاوية فنهبوا ما فيها، ثم عادت اليها العمارة فيما بعد وإن كان سكانها في غير مأمن وثيق إذا ما وقعت الحرب مع أهل حلق الوادي. ويوجد بين أطلال قرطاجة وبين أطراف البلدة سكان لا نرى داعيا للتعرض لذكرهم.

96) أولج علي.
97) المهدي.

الفصل التاسع عشر

أريـــان(98)

مدينة صغيرة، بناها الرومان على بعد فرسخ واحد من تونس، من جهة الشمال ما تزال جدرانها قائمة. وتشاهد في عدة جهات منها تماثيل وعاديات أخرى. ويوجد خارج المدينة عدد من أشجار الخروب وأشجار أخرى تؤتي ثمارا جيدة جدا. وسكانها من فقراء الفلاحين والبستانيين، فروا من بلدهم أيضا عند قدوم الأمبراطور، وقد تم نهب مدينتهم ولكنهم عادوا اليها فيما بعد.

الفصل العشرون

عـراض

مدينة صغيرة هي أيضا، تقع على الطريق التي تؤدي من حلق الوادي الى تونس شرقي المستنقع. بناها الرومان. وهي وان كانت صغيرة قد اشتهرت بحمامات جارية المياه. كانت مستعمرة(99) رومانية عندما دخل أتباع محمد الى افريقيا ففتحوها ونهبوها ودمروا جانبا من أسوارها قبل أن يهجروها. وقد أعاد ملوك تونس بعد ذلك بناء أسوار القلعة وعاد اليها السكان ولكنها لم تصل في العمران الى سابق عهدها. ولما أخذ الأمبراطور مدينة تونس جاء الى هذه البلدة وعسكر بها، ولكن سكانها قد هجروها، ثم عادوا اليها ولكنهم ليسوا في أمن تام من عساكر حلق الوادي، وكلما وقع قتال وجدوا أنفسهم عاجزين عن مواجهتهم حتى ولو في داخل الحصن، وهي لا تبعد عن تونس الا بفرسخين اثنين.

الفصل الواحد والعشرون

نـبلـه(100)

مدينة صغيرة بناها الرومان على ساحل البحر على بعد أربعة فراسخ من تونس من جهة الشرق وكانت تسمى في القديم نيابوليس أو المدينة الجديدة حسب

98) كانت تسمى أبيديرانا.

99) كوريانا.

100) أونابس.

زعم سكانها، خربها خلفاء محمد عندما دمروا قرطاج وغيرها من مدن هذه الجهة، وظلت مهجورة زمنا طويلا الى ان سكنها ناس من الفقراء، ثم هجروها عند مجيء الامبراطور. وقد عادوا اليها الآن لأن الأراضي المجاورة تغل كثيرا من الكتان لأنها تسقى بعدد من الجداول الجارية، وهم يعيشون على هذه الغلة وعلى صيد السمك ولكنهم على حال لا تخفى من الفاقة. وقد وضع بطليومس هذه المدينة عند خمس وثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة عرضا.

الفصل الثاني والعشرون
الحمامات

مدينة بناها ملوك تونس منذ وقت غير بعيد في خليج يحمل اسمها، وإن كان اسم محمد ينطق تحريفا حمامات. وهي على بعد سبعة عشرة فرسخا من تونس بطريق البر، الى جهة الشرق، أما عن طريق البحر فهنالك ما يزيد عن ستين فرسخا من حلق الوادي : فمنه الى رأس أبولون حيث يدور شاطىء البحر على هيأة هلال ثم يمتد بعيدا جهة الشرق على خليج قرطاجة الى رأس عطارد(101)، وهنالك قلعة، وبعدها يشكل البحر خليجا تقع عليه هذه المدينة، وهذا ما جعلها بعيدة من تونس عن طريق البحر وقريبة منها عن طريق البر. وسكانها ناس فقراء من صيادين وغسالين وفحامين يرمقون العيش وينوؤن بثقل الضرائب المفروضة عليهم.

الفصل الثالث والعشرون
القليبية

قلعة مبنية على الساحل بين تونس والحمامات، فوق صخرة تدعى رأس عطارد.(102). يوجد بها ميناء لائق بالسفن الحربية. سكانها شجعان أعداء ألداء لأهل تونس نظرا لما لحقهم منهم من الشرور العظيمة، وقد نهبها لاسبان ثلاث مرات إبان حرب مولاي الحسن لأن أهلها كانوا موالين للأتراك، ومع ذلك فانهم لا يترددون في التمرد كلما سنحت لهم الفرصة، وهذه المدينة حصينة بموقعها الطبيعي

101) أورأس الزعفران.

102) أورأس بوكرو.

يضاف الى ذلك أن أسوارها مدعمة بالتراب. وفي أول مرة دخلها الاسبانيون بقصد نهبها دافع عنها أهلها ببسالة فقتلوا أو جرحوا رجالا من أشجع المهاجمين، ولكنها أخذت عنوة في آخر الأمر، ومات في ذلك القتال أربعمائة من الأتراك ووقع في الأسر عدد من الناس. أما في المرتين الأخريين فلم يظهروا مقاومة لأن المقاتلين من أتراك وغيرهم علموا بما سيحدث فخرجوا من الحصن وتركوا الأهالي دون مدافع، وقد وضع بطليموس هذه المدينة عند ثلاث وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين درجة وعشر دقائق عرضا واسمها عنده كوروني. ويزعم آخرون انها كلوبي وهي الآن في حوزة الأتراك

الفصل الرابع والعشرون

إهريقلية

مدينة صغيرة مهدمة، تقع على بعد عشرين فرسخا من تونس، وهي على الساحل فوق أكمة. ويذكر مؤرخو البلد انها من بناء الرومان، كانت مستعمرة لهم فلما جاء خلفاء محمد خربوها، وقد استمات أهلها في الدفاع عدة أيام، ولكنهم تغلبوا عليها في آخر الأمر ودمروها بعد ان أبادوا سكانها، ولم تعمر بعد ذلك. وما زالت أطلالها تظهر للعيان بين تونس وسوسة، ويزعم بعضهم أنها كانت تسمى اسبى، وهي التي جعلها بطليموس عند خمس وثلاثين درجة وعشرين دقيقة طولا وثلاث وثلاثين دقيقة وعشرين دقيقة عرضا.

الفصل الخامس والعشرون

سوسة

مدينة يزيد عدد سكانها عن خمس عشرة مائة. تقع على الساحل في مكان جميل مرتفع قليلا من جهة البر مما يجعل جميع دورها تشاهد البحر. وهي محصنة بأسوار جيدة، وفي أعلى مكان بها مشرف على البر يوجد حصن يحيط به خندق وساحة. وينسب أهل البلد بناءها للرومان، ويزعمون أنها كانت في ماضيها مزدهرة كثيرة السكان وانها سياكول التي جعلها بطليموس عند ست وثلاثين درجة طولا واثنتين وثلاثين درجة وعشرين دقيقة عرضا. ولما دخل خلفاء محمد الى افريقية وأسس عقبة مدينة القيروان ظلت سوسة مقر سكناه، وهي تبعد عنها باثنى عشر فرسخا على طول الساحل، وما يزال قصره بها قائما ومعه عدد من الدور المعتبرة

وجامع فخم رائق كان قد أقام بناءه، وأرض سوسة غنية بزيوتها وتمورها وتينها وغير ذلك من الغلل والثمار، ولكن تربتها قليلة الخصب لا تعطي من الحبوب غير الشعير، أضف الى ذلك أن العرب في هذه البوادي يغيرون على سكانها فيجدون مشقة في فلح تلك الأراضي، وهذا هو السبب في كون معظمهم يشتغلون بالملاحة ويذهبون للاتجار في الإسكندرية وغيرها. ومنذ وصل اليهم القراصنة الأتراك واحتكوا بهم أخذوا يشتغلون بالقرصنة فيجوبون سواحل إيطاليا بزوارق وسفن شراعية صغيرة، وعندما استولى باربروس على القيروان وتونس وهي لا تبعد عنها سوى بخمسة وثلاثين فرسخا على طريق البر أسلموا اليه قيادهم بغضا لأهل تونس من جهة وبدافع ما اشتهروا به من النزق وحب التقلب من جهة أخرى. ولما طرد الأمبراطور باربروس من تونس، بعث من صقلية بجيش بحري عظيم لغزو هذه المدينة لأنها امتنعت عن الخضوع لمولاي الحسن.

حملة الماركي دوطيرنوف على سوسة

ما أن عاد الأمبراطور من غزو تونس حتى بادر الأتراك الى الاستحواذ على جزء عظيم من المواقع الموجودة على الساحل. ولما كان ملك تونس عاجزا عن طردهم منها فقد استنجد بالأمبراطور، وقام هذا الأخير بإصدار أوامره الى نائب الملك في صقلية فبادر بانجاد ملك تونس بالجنود والسفن اللازمة للقيام بذلك الغرض. وقد عهد بتنفيذ تلك الحملة الى ماركي دو طيرنوف وهو من نبلاء صقلية، فقام بتكوين أسطول من أربع عشرة سفينة بحرية، عشر منها من صقلية وأربع من مالطة، ومعها أربع سفن ضخمة كان على متنها ألفان من الجنود الاسبانيين وبعض الجنود الصقليين، واتجه الجميع الى سوسة. وقام ملك تونس من جهته بارسال جيش عن طريق البر قوامه سبعة آلاف فارس من الأهالي أو من العرب وجعل ولده على رأسهم. ولما وصل الجيش البحري قبالة مدينة سوسة أنزلت السفن الحربية من كان على متنها من الجنود المشاة في مكان بعيد قليلا عن المدينة، في فرضة من جهة المغرب يكونون فيها آمنين من ضربات مدافع العدو، أما السفن الضخمة فقد ظلت بعيدة من الشاطىء بسبب الأرصفة الرملية الموجودة على طول هذا الساحل. ولما تأهب الجيش للمعركة في طمأنينة، ودون أن يزعجه أحد، انطلاقا من المدينة، تقدم وعسكر في سهل واقع جهة الحصن، وهنالك أخذ الجيش الحليف في ترتيب المعركة، وبعد نصب متارس ودروع، جعلوا فوقها أربعة من المدافع وأخذوا يضربون بها واجهة السور الملاصق للبرج الرئيسي

ولكن ذلك القصف لم يكن له تأثير يذكر. وكان بإمكانهم أن يهاجموا المدينة وأن يقتحموها، وبعد ذلك يقومون بمهاجمة الحصن الذي لاذ به بعض الأتراك والمرتدين، ولكنهم تجنبوا ذلك لأن الجنود لو دخلوا المدينة لانشغلوا بالنهب فيخرج اليهم الأتراك والأهالي من الحصن فيذبحونهم في الدور كما فعلوا في شرشل، ومع ذلك فقد أعطي الأمر باقتحام المدينة حتى قبل أن تكون الثلمات المحدثة في السور كبيرة بما فيه الكفاية، وكان جنود الجيش المتكون من الأهالي قد انتشروا حول المدينة ووضعوا فوق رؤوسهم أغصان زيتون حتى يتمكن النصارى من تمييزهم عن غيرهم، ودام الحصار مدة طويلة دافع أثناءها الأتراك والمرتدون عن الثلمة المحدثة في السور دفاعا شديدا وذلك برمي الحصى وكتل الحجارة من فوق البرج، وقتلوا بذلك اللون دييكو دو كاستيليا قائد المعسكر ولوب دوميلو قائد احدى السفن الحربية المالطية وعددا من النبلاء والجنود، فاضطر النصارى الى الانسحاب والاقرار بالنصر للأعداء، وكانوا قد استنفدوا ما حملوا معهم من ذخيرة الحرب، ولم يبق معهم من الأقوات ما يكفي الى حين وصول زاد جديد، فقرروا ركوب البحر والعودة الى صقلية. ولما وصل الخبر الى الأمبراطور قرر أن يكلف اندريا دوريا بتلك الحملة، فضم الى سفنه الحربية السريعة سفن نابولي ومالط وصقلية فتجمع له منها ثلاث وأربعون، وحمل عليها الجنود الاسبانيين المشاة، ولما نزل بساحل مدينة تونس انتزع حصن القليبية من الأتراك وأخذ مدينة سوسة ومدينة المنستير ومدينة صفاقس، واستسلمت مدينة افريقية لملك تونس، فجعل فيها حامية من قبله. وسرعان ما عادت كل من القليبية وسوسة والمنستير الى التمرد والعصيان ورحبت بالأتراك. أما افريقية وصفاقس فقد استبدت كل منهما بأمرها وطردت الموالين للملك واستقبلت الأتراك. وظل الأمر على ذلك الى عام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين، وفيه خرج ملك تونس للغزو بسواحل تونس ومعه ثلاث وأربعون سفينة حربية سريعة والجنود الاسبانيون المشاة التابعون لمملكة نابولي، وقد تمكن من اخضاع المدن المذكورة وإعادتها الى طاعته. وما ان عاد اندريا دوريا حتى تمردت كل من سوسة والمنستير فطردتا ابن الملك واستسلمتا للدارغوت، ولكن اندريا دوريا عاد في العام الموالي فدخل المنستير عنوة كما سنذكر فيما بعد، ولما رأى أهل سوسة ذلك قاموا بطرد الأتراك الموجودين في حصنهم، واسلموا قيادهم ولكنهم سمحوا فيما بعد للأتراك بالعودة، وما تزال تابعة لهم الى يومنا هذا.

الفصل السادس والعشرون

المنستير

مدينة قديمة بناها الرومان على الساحل على بعد أربعة فراسخ من سوسة الى جهة المشرق. تحيط بها أسوار منيعة عالية، ودورها رائقة البناء، وموقعها موقع ممتاز. تتكسر عندها أمواج البحر وتحيط بها أجنة وبساتين بها أعداد وفيرة من أشجار الزيتون، ولذلك فأهلها يغلون كميات كثيرة من الزيت والفواكه. تربتها قليلة الخصب لا تصلح لزراعة القمح ولذلك فأهلها لا يأكلون سوى خبز الشعير. وهم اليوم في فقر مدقع لكثرة ما قهرهم إخوانهم من الأهليين أو الأتراك أو من المسيحيين منذ استيلاء باربروس على تونس، وذلك لأنهم تمردوا على الملك غير ما مرة ونهبتهم جيوش البحر التي جاء بها شارلكانت، وقد استولى عليها اندريا دوريا أول مرة عام ألف وخمسمائة وتسعة وثلاثين، وترك بها فرقة من الجنود الاسبانيين بأمر من الأمبراطور، بقصد تعزيز شيعة ملك تونس، وعندئذ جمع هذا الملك ما أمكنه من الرجال وزحف بهم يريد القيروان، وآصطحب معه تلك الفرقة من الجنود الاسبانيين وعددا من قطع المدفعية، ولما كان على بعد ثلاثة فراسخ من المنستير تركه جميع الرجال الذين أصطحبهم من الأهالي ووالوا أعداءه ولم يبق معه سوى النصارى، فاضطر الى الالتحاق بهؤلاء وانسحبوا بشجاعة وذكاء عبر سهل مرمل، وان كانوا قد واجهوا أكثر من مائة ألف رجل ولم يكن عددهم يتعدى ألفين. وعلى إثر ذلك ركبوا البحر في اتجاه ايطاليا بينما استعاد الأتراك مدينة المنستير.

كيف استولى دارغوث على سوسة والمنستير وكيف طرده منها اندريا دوريا

وفي عام ألف وخمسمائة وتسعة وأربعين قضى أندريا دوريا فصل الصيف وهو يبحث عن دارغوت الذي كان يلحق أضرارا عظيمة بالنصارى بواسطة أسطول مكون من أربع وعشرين سفينة قرصنية، ولكن هذا القرصان الشهير كان يتحرك بذكاء جعل ادراكه صعب المنال، بيد أن أندريا دوريا كان يجوب بأسطوله المتكون من ثلاث وثلاثين سفينة حربية سريعة مجموع سواحل تونس حيث أجبر سوسة والمنستير وافريقية وصفاقس وحصن القليبية على الدخول في طاعة الملك

وأسلم زمامها لابنه(103) ثم عاد لقضاء فصل الشتاء في بلاد النصرانية، وعند بداية الربيع خرج لمطاردة دارغوت ومعه السفن الحربية السريعة التي في ملك البابا ودوق فلورانسا وبعض فرق الجنود الاسبانيين من جيوش نابولي ولومبارديا وصقلية. وكان دارغوت قد استعاد أثناء فصل الشتاء كلا من سوسة والمنستير وصفاقس بعد ان أغرى سكانها بطرد ملك تونس وأخذ على حين غرة مدينة افريقية وترك فيها أحد أقاربه (ابن أخيه أو ابن أخته) ومعه أربعمائة من الجنود وخرج هو للقيام بأعمال القرصنة في البحر بأسطول قوامه ستة وثلاثون سفينة شراعية، ولما انطلق اندريا دوريا من صقلية مع جميع السفن الحربية نزل برأس عطارد ونهب حصن القليبية، ثم انطلق من هنالك قاصدا مدينة افريقية، ومر بالقرب منها وهو على متن سفينته القيادية بقصد التعرف عليها واستكشافها وعندئذ أطلق عليه الأتراك طلقة مدفعية فقتلوا خمسة من رجاله كانوا في مؤخرة السفينة. وعلى إثر ذلك ابتعد حتى صار أبعد من مرمى المدافع وعقد اجتماعا مع قواد السفن فتقرر في ذلك الاجتماع أن يتم الاستيلاء على تلك المدينة قبل أن يزداد فيها دارغوت تحصنا، مع الحرص على ألا يؤدي ذلك الى قطع العلائق مع السلطان الأعظم، لأن عملهم إنما هو موجه ضد قرصان لا يحفظ السلام ولا يحترم الهدنة ويحدث فسادا كثيرا. ولما كانت هذه الحملة تتطلب عددا أكبر من الجنود وكان القيام بها يستدعي إعلام نائب الملك في نابولي وصقلية، فقد تقرر أن يتم التوجه الى حلق الوادي وأن يقع الاستيلاء أثناء المرور على مدينة المنستير، وكان دارغوت قد ترك بها أتراكا لحمايتها، ولما كان الوصول اليها لقي الجنود صعوبة في النزول لأن الأتراك والأهالي وعربا معينين لهم قاوموا ذلك النزول وكانت بين الفريقين مناوشة عنيفة. ولكن الجنود الذين بادروا بالنزول في أول الأمر تلقوا دعما خفف عنهم من الآخرين بواسطة الزوارق، وصاروا يتقدمون شيئا فشيئا، ولما تم نزول جميع الجنود اضطر الأعداء الى الانسحاب من الميدان. ولما تأهب المشاة للقتال على فرقتين وقع الشروع في انزال المدفعية والتهيؤ لضرب المدينة، ولكن سكانها بادروا برفع علم أبيض، وطلبوا التفاوض معهم، ولكن تعذر الوصول الى أي اتفاق إذ رفض المهاجمون منحهم أي شيء ما عدا الحياة. وتوبع في ذات الوقت الضرب بالمدافع. وقد توقف أحد الفيلقين ليعترض طريق العرب، ولما أحدثت ثلمة في السور دخل الآخرون الى المدينة ولم يلقوا مقاومة شديدة بينما انسحب النساء والأطفال على مرأى من جيش البحر ولاذ الآخرون

103) مولاي بوبكر.

بالحصن. وبينما كان الجنود يعملون يد النهب في المدينة قام قوادها(104) تحسبا لأي غدر أو مؤامرة، باحتلال ممرات الحصن وأنذروا الذين بداخله بضرورة الاستسلام إذا أرادوا النجاة بأرواحهم، ولما رفضوا الاستسلام شرع في ضربهم من جهة البر بواسطة مدفعين بينما كانت السفن الحربية السريعة تضرب من جهة البحر. ولما أحدثت ثلمة في سور الحصن، ولو أنها كانت ثلمة غير مواتية، شرع في الصعود اليها بالسلالم ومن فوق دعامة الحائط الممتد من المدينة الى الحصن، وقد دافع الأعداء عن أنفسهم دفاعا مستميتا، ولما قتل الحاكم والأتراك وعدد من الأهالي يزيد عن الأربعين انسحب الآخرون الى البرج الرئيسي، واستسلموا هنالك ووقع استرقاقهم، وفي أثناء ذلك بعث أهل سوسة من ينوب عنهم لدى اندريا دوريا وطردوا الحامية التركية ووقع معهم الصلح وصاروا من شيعة ملك تونس، وسنذكر بقية هذه الحوادث عند وصف مدينة افريقية. وعلى كل حال فقد استعاد الأتراك في آخر الأمر هذه المدينة وجميع المدن الأخرى الواقعة على الساحل، وتوجد فيها اليوم حاميات تابعة لهم.

الفصل السابع والعشرون

طبلبة

مدينة بها سبعة من الكوانيين، بناها الرومان على الساحل، على بعد أربعة فراسخ من المنستير من جهة الشرق. كانت فيما مضى غنية كثيرة السكان نظرا لاتساع الأراضي المجاورة لها ووجود عدد كثير من أشجار الزيتون بها تعطي كميات وفيرة من الزيت، وهي تجاري في ثروتها كلا من سوسة والمنستير ومدينة افريقية. وقد ألحقت بها الحروب أضرارا عظيمة حتى انها صارت مهجورة من السكان بسبب غارات العرب عليها. ولا يسكنها اليوم الا بعض الزهاد يستمدون كل شيء من الغرباء الذين يقصدونها حيث يقدمون اليهم في مأوى كبير ما هم بحاجة اليه، وذلك ما يجعلهم في مأمن من العرب وملوك تونس والأتراك، فهم عندهم محل قبول ومعاملة سواء. وقد جعل بطليموس هذه المدينة عند ست وثلاثين درجة وخمس وخمسين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وأربعين درجة عرضا، واسمها عنده افروديزيا.

104) الدون گارسيا دي طوليدو والدون ألبارو دي بيكا.

الفصل الثامن والعشرون

مدينة افريقية

مدينة كبيرة دمرها في عصرنا هذا شارلكانت، كما سنذكر فيما بعد. وكان الرومان يسمونها ادروميت، وجعلها بطليموس عند ثلاثين درجة وأربعين دقيقة طولا واثنتين وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا، ولما جاء الخليفة الفاطمي[105] الذي كان بالقيروان حصنها وسماها المهدية، وهي في بنائها كجزيرة على رأس طرف من الأرض داخل في البحر وذلك على بعد أربعة فراسخ من طلبلة الى جهة المشرق. وكانت تحيط بها أسوار من الجهة المتصلة بالبر، وكان في هذه الجهة حصن مبني في جدارها وهو سميك الى حد الشريط الناتىءالذي في أعلاه، سمكه أربعون قدما، تحيط به ستة أبراج متباعدة بعضها عن بعض، سميكة هي أيضا، بارزة خارج السور بأربعين قدما الى حد مرمى السهام من الجزء المقوس. وكان في أعلى الحصن جداران ينظر أحدهما الى المدينة وينظر الآخر الى خارجها، وبين هذين الجدارين وبين خواء الأبراج كانت غرف الحاكم وغرف الجنود. وكانت الأبراج الأربعة التي في الوسط مربعة الشكل وكان البرجان المواليان للبحر مستديرين عاليين. ولها جميعها أبواب صغيرة مغطاة بصفائح من الحديد، وهي قليلة الارتفاع حتى أن من يريد الدخول اليها يتوجب عليه أن ينحني، وهذا ما جعل كل برج بمثابة حصن قائم بذاته. وفي البرج المربع الثاني من جهة المشرق كان الباب الرئيس، ولا يوجد قط غيره باب من جهة البر، وكانت تعلو هذا الباب قبة معتمة تقع تحت البرج، فيها ستة أبواب متتابعة مغطاة بصفائح من الحديد، والأبواب الثانية بالنسبة للداخل من الخارج مصنوعة من صفائح سميكة من الحديد بعضها في بعض بلا أدنى قطعة من الخشب، وعلى تلك الصفائح صورت بالبرونز الناتىء أسود رابضة متقابلة اثنتين اثنتين، ولم تكن تلك الأبواب مسطحة بل كانت منحنية من الخارج، وكانت تخريماتها من حديد وفضاء ارتفاع كل منها يبلغ من العلو حوالي ثمانية أقدام تحت البرج على قدر علو هذا الجدار، وثمة جدار اخر أقل علوا كان بمثابة نطاق زائد، سمكه اثنا عشر قدما، وفيه تسعة أبراج مصممة بدقة كبيرة بحيث تماثل كل ثلاثة منها اثنين من أبراج الحصن، وفي أوسطها باب جانبي ينظر الى جهة المشرق، كان محيط المدينة خمسة آلاف وثلاثمائة قدم، وعلى مسافة ثلاثين

105) المهدي.

قدما يوجد برج من الأبراج، وتوجد دار صناعة السفن في شرقيها وقرب جامع كبير رائق البناء لصيق بالسور. وفي أقصى شماليها مرتفع فوقه برج على البحر يتأتى منه رصد كل شيء فيه، وفي داخل المدينة مرسى مغلق يكون الدخول اليه من بوابة مفتوحة في السور، وفي داخله كانت تحفظ القاليرات وغيرها من السفن الصغيرة، أما السفن الكبرى فكانت ترسو في مرفأ أمين، وفي قبالة المدينة الى جهة الجنوب تلال عامرة بالأجنة والبساتين ودار الاستجمام، أما من جهة الشرق فكانت بساتين وأجنة تسقى من بعض الآبار، والأراضي المزروعة يحدها جبل ممتد من الشرق الى الغرب من ورائه أرياف شاسعة يسرح فيها العرب شتاء نظرا لما كان يتوفر فيها من مراع صالحة لقطعان المواشي حول مستنقعات تتكون هنالك، وكانت هذه المدينة على قدر كبير من الأزهار لما كانت تحت حكم الرومان، ولما استولى عليها وعلى قرطاجة خلفاء محمد جعلوها دكا، ثم أعاد المهدي بناءها وبنى السور الذي تحدثنا عنه، فجعلها مقر عرشه وكان على يديه تعميرها وازدهارها، وبعد موته قامت بافريقية ثورات عظيمة، ولما انحطت امبراطورية خلفاء القيروان، قلم بعض قراصنة صقلية بالاستيلاء على هذه المدينة وأطلقوا عليها اسم افريقية، واستولى عليها النصارى بعد ذلك الى ان غزاها ملك من المغرب الأقصى من سلالة الموحدين، ولم تخرج منذئذ من حكم أتباع محمد الا عندما وقع انتزاعهما من دارغوت. وكان الكونت بيدرو نافار قد هاجمها قبل ذلك ولكن المسلمين الأهالي دافعوا عنها ببسالة وردوه على أعقابه خاسرا. كان سكان هذه المدينة متصفين بالخفة وعدم الاستقرار، وقد ثاروا غير ما مرة على ملوك تونس، واستبدوا بأمرهم فترة من الزمن الى أن جاء دارغوت فأخذ مدينتهم. وسنأتي لذكر ذلك.

من هو دارغوت وكيف استولى على مدينة افريقية

أصله من حصن صغير بآسيا يقع قبالة جزيرة رودس في الاقليم الذي يسميه الأتراك اليوم مانطيشا، كان أهله أتراكا من أتباع محمد، فقراء من البدو، ولذلك دخل في خدمة خير الدين باربروس منذ طفوته. وقد اعتاد على ركوب البحار علة سنين حتى صار من أعظم رؤساء السفن في بحر المشرق واكتسب خبرة في معرفة الجزر والمراسي والفرضات الموجودة في البحر المتوسط، ولما صار باربروس بعد سقوط تونس قائد أسطول السلطان الأعظم عين دارغوت رئيسا للقراصنة، وقد استطاع بسفن لا يتعدى عددها اثنتي عشرة أن يلحق أضرارا جسيمة بالنصارى، إذ كان يجوب مياه السواحل الايطالية حيث نهب عددا من

المدن مما جعل الأمبراطور يأمر أندريا دوريا بمطاردته بجميع السفن السريعة التي كانت الى نظره، وقد عهد بهذه المهمة لقريبة يانتان دوريا فتمكن من اللحاق به في جزيرة كورسيكا، وكان يظن أنه آمن هنالك من كل شر، وكان دوريا قد أبحر في اتجاه معاكس لاتجاه الرياح فلقيه وغنم منه ثلاثة عشر زورقا وهي مجموع أسطوله، وقبض عليه ووضعه في القيد داخل سفينة أندريا دوريا محبوسا أربعة أعوام، وقد تألم هذا القرصان للإهانة الشديدة التي ألحقت به، واغتاض على الخصوص لكون الذي قبض عليه فتى شابا أمرد، وقد فاه في سورته بكلمات نابية سمعها يانتان فكاله من اللكم واللطم ما يكاد يهلكه به لولا تدخل بعض قرابته، وقد وصل بلربروس الى تولون ومعه الجيش البحري للملك الأعظم، فأرسل من يكلم اندريا دوريا في أمر افتداء دارغوت من الأسر مقابل ثلاثة آلاف دوكا. وما أن فكه حتى زوده بسفينة ذات اثنين وعشرين مقعدا، وعينه قائد على جميع القراصنة. ولما رجع جيش البحر الى القسطنطينية جمع دارغوت عشرة سفن قرصنية من جلفة ومن صفاقس وأخذ في طرق سواحل البلاد النصرانية ودخل خليج نابولي فأخذ مدينة كاستيلماري ونهبها واستولى على سفينة سريعة من جزيرة رودس وذلك في قنال ميلين على مسافة أربعة فراسخ من جزيرة نابولي، وقد تمكن معظم من كانوا بهذه السفينة من الفرار. واستمر طيلة السنة يجوب مياه هذه السواحل ولم يلق في طريقه عائقا، حتى طلب الأمبراطور من أندريا دوريا أن يحاول القبض عليه بجميع الوسائل. فقام في السنة الموالية بجمع ثلاث وأربعين من سفن الأسطول الملكي الحربي السريع، وانطلق يبحث عن دارغوت في سواحل بلاد البربر كما سبق أن ذكرنا عند وصف مدينة المنستير، وقد قضى دارغوت فصل الشتاء في جلفة، ولما أحس بأنه غير مأمون في مينائه اختار أن يأوى الى مدينة المهدية، واهتم بالاستيلاء عليها، وكانت حينذاك مستبدة بأمرها، وقد خلع أهلها طاعة ملك تونس ورفضوا الاعتراف بالتبعية لصاحب القيروان، وقد قاموا بطرد قرصان نزل بها باسم السلطان الأعظم وأخذ في إقامة حصن يتخذه مقرا لحكمه عليها، وقد صمم دارغوت على ذلك القصد وخرج في شهر فبراير ومعه ست وثلاثون سفينة ذات مجاذيف، نزل بمدن من هذا الساحل وأثار السكان ضد ولد ملك تونس المقيم بها حتى طردوه منها، وبعد ان تمكن من حصون هذه المدن اتفق مع صديق له من أهل مدينة افريقية على أن يدبر استقباله في هذه المدينة عندما يقدم عليها بسفنه ووعده الاغتناء مما سيغنمونه من النصارى، وقد توصل هذا الشخص الى تهييء مقابلة بين كبراء تونس وبين دارغوت، وجاء اليه في وفد مكون من اثني

عشر رجلا، ولكن دارغوت لم يتمكن من اقناعهم بكل ما يريد حيث وافقوا على استقباله بصفته صديقا لا غير، يقدمون اليه كل ما يحتاجه دون أن يجوزوا دخول المدينة لشخصه أو لأي أحد من الأتراك... رجع الى صفاقس، ولما رأى أن الاستيلاء على المدينة من هذه الجهة أمر مستبعد، ألح على صديقه في أن يدبر له الدخول من فتحات المدافع التي بالسور من جهة البحر بين جهة الجنوب وجهة الشرق. وبعد ثلاثة أيام جعل ذلك الموالي رجالا من حزبه في الأبراج الموالية لتلك الجهة، وجاء دارغوت من صفاقس عند بداية الصباح للتعرف على الموقع الذي يكون منه الدخول، وأنزل ستمائة من الأتراك ارتقوا من هنالك الى المدينة، ثم اتبعهم ببقية جيشه، فأخذوا سكان المدينة على حين غرة، واستولى على الأبراج المجاورة ونَفَخَ في الأبواق معلنا النصر، وأطلقت مدافع السفن وتقدم برجاله الى ان وصل ورش صناعة السفن، ولما سمع السكان تلك الضجة، أخذوا أسلحتهم وقاتلوا ببسالة دفاعا عن حريتهم، وأسفر القتال عن هلاك أربعين من الجانبين، وفي النهاية تبين للسكان أنهم كانوا ضحية غدر وخديعة وان عدد الأتراك يزداد ساعة بعد ساعة، وأذعنوا لقبول دارغوت أميرا عليهم لا كمواطن وحسب. وبادر دارغوت الى الاستيلاء على القلعة، وبعد ان مكث هنالك بضعة أيام في التهيىء لغزو جديدج وترك ابن أخيه (أو أخته) ومعه أربعمائة من الأتراك، وأمره يقتل الشخص الذي دبر دخوله الى المدينة مخافة أن يدبر خيانة أخرى، أما هو فقد انصرف بسفنه للقيام بأعمال قرصنة في سواحل البلاد النصرانية وأخذ معه بعض كبراء السكان ليكونوا لديه بمثابة رهائن.

كيف استولى قواد الأمبراطور على مدينة افريقية

ولما بلغ خبر ذلك الى أندريا دوريا خرج باحثا عن دارغوت بالأسطول الذي خرج به في السنة الماضية وعلى متنه قدماء الجنود الاسبانيين فمر بسواحل بلاد البربر وتعرف على أحوال الحصون والقلاع وأجرى اتصالات بالعرب الذين وعدوه بتقديم المعونة من أجل طرد القراصنة من مآويهم وبأن يقاتلوا ضد الأتراك، ثم ذهب الى حلق الوادي ليكلم الحاكم(106) هنالك، واستولى في طريقه على مدينة المونستير وأجبر مدينة سوسة على الاستلام، كما سبق أن ذكرنا. ولما وصل أندريا دوريا الى حلق الوادي أرسل على وجه الاستعجال واحدا من قدماء قواد ملك

106) بيريس دي فيركاس.

تونس ليجس نبض صاحب القيروان، فعاد اليه بتعهد هذا الأمير بأن يضمن الامداد بالأقوات ويشارك في القتال إذا قر العزم على طرد ذلك القرصان من محلته، ورجع أندريا دوريا الى دريباتو بتلك المواثيق وأخبر بها نائبي الملك[107] في نابولي وصقلية، فقدم اليه نائب الملك في نابولي جميع ما يحتاج اليه في هذه الحملة من الرجال والمدافع والذخائر. أما نائب الملك في صقلية فقد أراد أن يشارك في هذه العملية نظرا لأهميتها بالنسبة لمجموع صقلية، ولذلك التحق بمرسى دريبانو حيث كان موعد لقاء الجيوش البحرية، ولما وقع الاستعداد وقع الانطلاق في اليوم السابق لعيد القديس يوحنا، ثم أرسلوا في جزيرة لافابيان. ومن هنالك أرسل نائب الملك[108]، وكان قد كلف والده بالقيادة في محله، سفينة حربية سريعة الى حاكم حلق الوادي لإجباره على اللحاق به في وجهته. وفي يوم عيد القديس يوحنا انطلق الجيش البحري من جزيرة لافابيان، وفي يوم الجمعة الموالي له أرسل بسواحل بلاد البربر شرقي مدينة افريقية. وفي غد ذلك اليوم بدأت فرق المدفعيين تنزل بواسطة الزوارق الصغيرة والفرقاطات وبدأت في التأهب للقتال على الساحل لحماية إنزال الأقوات والذخائر، ثم وقع حفظها في محرز بني على هيئة حصن. ولما تم تنفيذ كل شيء دون تعرض لعرقلة من جانب العدو، تشكل فيلقان، قوام أولهما كتائب جنود نابولي، وقوام ثانيهما كتائب من جنود ملبين وصقلية ومالطة، كما تشكل ذراعان واقيان من حملة البنادق وقفوا في جهة البر، وبعد ذلك أخذ الجميع في ا لزحف نحو التل الذي ذكرنا انه مغطى بالكروم واقع على مسافة ستمائة قدم من المدينة، وقد تركوا بيرنار صوليير ومعه فرق من جنود صقلية بقصد حراسة محرز المؤن والذخيرة وحماية نزول ما بقي من العدة والجنود، وعند اقتراب الفيلقين من التل شرع حملة البنادق من الجنود الدراعيين في مناوشة بعض الأتراك وبعض الأهالي الذين كانوا يضربون من وراء سياجات أجنة الكروم، لكن الجنود قاموا بهجوم شديد ضدهم وطردوهم الى غاية وصولهم الى المدينة، ثم وصل معظم الجيش ووقف وراء التل ليتقي ضربات مدافع الأعداء، وأخذ قواد الجيش في إصدار الأوامر بحفر الخنادق ونصب المدافع وعمل كل ما يلزم للقتال، وفي تلك الأثناء وصل حاكم حلق الوادي، وتم نصب بطارية في اتجاه الحزام المصطنع وصوب جانب الجدار الذي يسد المضيق الذي ذكرناه أعلاه، وبذلك تأتى ضرب المدافعين عن الأبراج، ولما تم إحداث ثلمة كافية في الجدار أرسل

107) الدون بيدرو دي طوليدو وخوان دي بيكا.

108) الدون خوان دي بيكا.

خمسة من الجنود للتحقق منها ما بين ساعة الزوال وبين الساعة الواحدة بعده. وقد ظن أن ذلك هو وقت قيلولة العدو بسبب شدة حرارة الصيف. ولما وصلوا الى جدار الحزام المصطنع وأرادوا الصعود فوقه رآهم الحراس، فاضطروا الى التراجع، ولكن واحدا من بينهم كان قد تسلق عاليا وتدلى الى الداخل حتى تمكن من الاطلاع على الثلمة فرأى أنها واسعة يستطيع الجنود أن يتسللوا منها من حراسة الى أخرى الى أن يبلغوا الباب حيث توجد قبة يمكن الاعتصام بها، وحيث يتأتى، انطلاقا منها، إلغام السور الثاني، الا ان مرتدين خرجا من المدينة في تلك الأثناء وذكرا لنائب الملك(109) أنه لا ينبغي اتباع ذلك الرأي لأن الأتراك تحصنوا من هذه الجهة بخنادق كبيرة وأسوار جيدة وان الجنود الذين يتسللون اليهم من هنالك مصيرهم الهلاك. وقد رأى قواد جيش النصارى أن بإمكانهم الاستيلاء على بعض أبراج الحزام الأمامي الذي من جهة الغرب ليتسنى لهم القيام انطلاقا منها بضرب جدار الحصن، ولذلك قرروا القيام ليلا باقتحام السور الأمامي من جهة الثلمة التي أحدثت ومن الجهات الأخرى باستعمال السلاليم، وعينت لذلك الهجوم فرق من جنود المدفعية وجنود من البحرية وعهد لبعض الصناديد بالتصدر عند الزحف، وفي صبيحة يوم الجمعة بدأ الهجوم، قبل شروق الشمس بساعتين، وكابد المتصدرون قتالا طاحنا عند السور وفي ثلمة الحزام الأمامي، وجرح عدد من الرجال من الجهتين، ولما كانوا يحاولون التسلل من جميع الجهات واجهوا عددا من الحواجز والعوارض والخنادق على امتداد السور، فتعذر عليهم بسببها الجواز، ووقع أن سقط بعضهم في الخندق الواقع بين الحزام الأمامي وبين الحصن فهلكوا، ووقع أحدهم في الأسر. وبينما كان جنود هذه التجريدة يقاتلون وسط تلك المحن إذ التحقت بهم الكتائب الأخرى لتعزيزهم، فنصب جنودها السلاليم وبدأوا يصعدون عليها في الوقت الذي دخل فيه جميع الأتراك والأهالي في صفوف الدفاع، فكابد المهاجمون عناء بما قوبلوا به من ضربات المدافع والقذافات، بل وحتى باستعمال الحجارة، وزاد في الطين بلة أن السلاليم كانت أقل طولا مما ينبغي أن تكون. فكان الجنود فوقها معرضين لضربات الأعداء دون أن يستطيعوا القيام بشيء يذكر. ولما رأى قواد الجيش تلك الحال أمروا بسحب السلاليم، وظن الجنود أنهم مأمورون بالانسحاب هم كذلك، فعادوا الى الاحتماء بالخنادق وتبعهم في ذلك كل الآخرين الذين كانوا يقاتلون عند الثلمة المحدثة في

109) خوان دي بيگا.

السور. ولا شك أن الخسارة كانت ستكون أعظم لو انهم لم يبادروا بالانسحاب، بيد أنهم، والحالة هذه، قد فقدوا أربعة عشر جنديا من المشاة وجنديا من البحرية إضافة الى ثمانين جريحا والى الجندي الذي ذكرنا أنه وقع في الأسر لأن الأتراك لم يقتلوه لأنهم أرادوا أن يستنطقوه، وبعد هذا الفشل رأى الرؤساء أن من الأنسب مهاجمة المدينة من جهة أخرى، ولما كان قد وقع استهلاك قسط من الذخيرة فقد أرسل على عجل الى نابولي وصقلية وحلق الوادي في طلبها وفي الاستزادة من المدافع والأنجاد، وأرسل المرضى والجرحى مع المبعوثين لجلبها، ولما وصل الخبر بأن دارغوت آخذ في تجنيد الناس من جلفة وصفاقس وغيرهما وانه يحاول استمالة العرب، جمعت المحلة في حيز محدود وقع تحصينه من الجهة الموالية للبادية بخندق عظيم وحواجز من الطين والاخصاص نصبت خلالها مدافع حنشية ومدافع صغيرة أخرى. وقد جيء عند ذلك من حلق الوادي بمدفعين حنشيين ومدفع ثعباني ومدفعين كبيرين وكميات من البارود والذخيرة مما ارسل لجلبه القبطان سيكال وسفينتاه الحربيتان، وأما انطوان دوريا فقد جلب من صقلية مدافع وذخائر وأتى بالجنود الاسبانيين الذين كانوا هنالك في حراسة حصون الجزيرة، ووقعت المبادرة بنصب مدافع على بعد مائتي خطوة وراء المدافع الأولى وحفرت خنادق جديدة على مسافة مائتي خطوة أمام الخندق الذي يمتد من بحر الى آخر، وحفرت في جنباتها خنادق صغرى يتسنى منها الضرب في حماية تامة، وأمر كبير المهندسين بحفر خندق مغطى على هيئة نفق منجم حتى يتسنى منه الوصول الى السور الأمامي تحت سقف مزدوج، وقد قصد بذلك نسف السور أو تفجيره بالألغام، ولكن ذلك كان بدون جدوى لأن الأتراك كانوا يضربون الجهة التي يأتي منها الضجيج واستطاعوا احداث ثقوب في تلك الألواح بضربات البنادق والمدافع الصغيرة، فتمكنوا بذلك من قتل بعض الجنود، وقتل المهندس نفسه قبل أن يتمكن من اتمام عمله، وعملت أيضا وقاءات نقالة من الخشب غشيت بالجلودووضعت بمهارة ودقة على عجلة يديرها من بداخلها من الجنود دون أن ينكشفوا للعيان، وعندما اقتربت من السور رماها الأتراك بشهب نارية فأحرقتها بعد قتل أفراد كانوا بداخلها. وفي هذه الأثناء مات مولاي الحسن ملك تونس بالمحلة . وكان قد حرص بالرغم من فقدان البصر على أن يكون بجانب نائب الملك في صقلية، واصطحب معه في هذه الرحلة ولديه(110). مات من الحمى

110) مولاي محمد ومولاي أبو بكر.

وعمره ستة وستون عاما وذلك في كوخ متواضع مبني فوق التل. وكان هذا الملك شديد السمرة ولكنه كان جميل الهيئة، حكيما شجاعا ذا انتقام من الذين شايعوه. وبعد موته حمل الى القيروان ودفن هنالك حيث مدافن الملوك من جسنه. وفي أثناء ذلك وصلت الى محلة الجيش إنجادات متنوعة من كل الآفاق، فيها مدافع ودخائر ومقاتلون، وقد أسهم فيها كل من جمهورية جنوة ودوق فلورانسا ونائب الملك في نابولي إضافة الى ما كان يبعث به من الانجادات في أوقات متوالية فيرناند فيكا ابن نائب الملك في صقلية، وبهذا لم تشك المحلة من نقص شيء احتاجت اليه.
وبينما كان العمل جاريا في حفر الخنادق ونصب المدافع، كان العدو يغتنم فرصة استراحته فيخرج من حين لآخر لمضايقة العمال وإزعاجهم، وكان في كل مرة يضطر الى الانسحاب. وذلك ما فت في عزم السكان الذين ندموا على عدم مغادرة المدينة كما فعل بعضهم عندما رأى الجيش يتقدم نحوها، وكان الحاكم(111) يعللهم بالأمل في وصول الانجاد ويذكر لهم أن دارغوت لن يترك المدينة تضيع مع ما لها من الأهمية، وكان يحملهم على العمل ونساءهم وأولادهم ليلا ونهارا، ولم يكن ما منّاهم به عبثا. ذلك أن دارغوت لما سمع باستيلاء النصارى على سوسة والمنستير ومحاصرتهم لهذه المدينة، شرع في تجييش الجيوش وجمع المقاتلين من كل الآفاق، فأرسلهم برا واخذ هو يقترب من المدينة بسفنه عن طريق البحر، وقام ليلا بإنزال ثمانمائة من الجنود الأتراك ثم أمر سفنه بالعودة، والتحق بجيشه الذي كان في طريقه الى المدينة وذلك بعد أن أرسل تحت ستار الظلام سباحين ماهرين يخبران حاكم المدينة بأنه عازم على مهاجمة المحلة في يوم عيد القديس جاك وذلك ليكون مستعدا للهجوم من جهته. وقد اطمأن سكان المدينة لذلك الخبر، وقبل الموعد المضروب بيوم واحد تقدم دارغوت ليلا بجميع جيوشه وكمن بها وراء جبل يقصده النصارى عادة لجلب أغصان الأشجار التي يبنون بها الخنادق. وقضى ليله قرب برج هنالك حيث كانت فيما مضى دار كان المهدي يخرج اليها للاستجمام. وكان قوام جيش دارغوت ثمانمائة من حملة البنادق الأتراك وثلاثة آلاف من المقاتلين الاهالي، وعند بداية الصبح أمر أهل جلفة بأن يكمنوا في الجهة الأخرى من الجبل المقابلة للمدينة بين أشجار الزيتون في شعب بأسفل الجبل، فانبطحوا على بطونهم لكي لا يظهروا للعيان، أما غيرهم من المقاتلين الذي أصلهم من تلك الجهات، وكان من بينهم بعض حملة البنادق، فقد أمرهم بالمناوشة المعتادة للعدو حتى أبواب محلته، وكانوا يحاولون استدراج النصارى للوقوع في كمين. وعند طلوع

111) حاج رايس.

الشمس خرج النصارى الذين يجلبون أغصان الشجر من الغابة تحرسهم على ما جرت به العادة فرقة من المشاة، فبدأ المقاتلون المسلمون من الأهالي المختبئين وسط أشجار الزيتون يضربونهم. وكان مع النصارى مسلم من حاشية ملك تونس كان يقترب مرارا من اخوانه المسلمين الذين في الحزب الآخر دون أن يمسوه بأذى، وقد اقترب منهم هذه المرة ليرى ما إذا كان قد جد عندهم جديد، فرآهم متوثبين ممتلئين ثقة وحماسا، فداخله الشك في أمرهم، فأشار للاسبانيين بالتوقف، وجاء الى نائب الملك فأخبره بتوجساته وأبلغه أن من رأيه العدول ذلك اليوم عن الخروج لجلب أغصان الشجر قبل التأكد مما إذا كانت النجدات لم تصل بعد الى المحاصرين، وهو أمر لن يلبث أن ينكشف، ولكن قواد الجيش رأوا أن من الضعف أمر الجنود بالانكفاء والدخول بناء على مجرد تلك التخوفات. وهكذا ترك نائب الملك في صقلية أمر حراسة المحلة والخنادق لابن نائب الملك في نابولي، وخرج بنفسه ومعه ثلاث فرق من المشاة وعدد أكبر من الرواد والجنود الذين لا يحملون السلاح، وذلك بقصد جلب أغصان الشجر، واتخذ الطريق التي تمر وسط أشجار الزيتون، كان معه ولده واثنان من أولاد ملك تونس والرجل الذي تحدثنا عنه من أهل البلد المسلمين وكذا بعض الفرسان. وبعد أن رتب فيلقين في شكل مربع ضم جميع المشاة ودراعين من حملة البنادق على الجناحين، دخل بين أشجار الزيتون ثم شرع المكلفون بقطع الأغصان في انجاز عملهم. وكان للدارغوت حراس مترصدون في مبنى بأعلى الجبل، وكانوا يرقبون انطلاقا منه حركات النصارى وسكناتهم، ولما رأى دارغوت النصارى يقتربون ابتهج لذلك وأمر جنوده بالتأهب للقتال وحظر عليهم الظهور للعدو قبل صدور الأمر لهم منه بذلك. ولم يكن يظهر كما سبق أن قلت سوى مقاتلين من سكان هذه الجهة يناوشون بالضرب من خلال أشجار الزيتون ثم ينسحبون نحو الكمين. وقد لاحظ نائب الملك أنهم كانوا على حال غير معهودة من الإقدام والجرأة، فلم يستكن الى كثرة جنوده، بل أراد أن يطلع بنفسه على جميع الجهات التي توجد بها أشجار الزيتون، فقاد حملة البنادق من ذراع المسيرة وتعقب الفارين الى ان وصل الى الكمين. وهنالك خرج للانقضاض عليه أهل جلفة بكثرة، ولكن الجنود النصارى الحاملين للقذافات هجموا عليهم وتمكنوا من ابعادهم بضربات القذائف وحملهم على التراجع والانحياش الى فيلقهم. ولكن حملة القذافات من الذراع الثانية الذين طاردوهم من الجهة الأخرى توغلوا في الهجوم حتى تعذر عليهم الانسحاب. وذلك

لأن كتيبة أخرى من المقاتلين الأهليين قد انقضوا عليهم حتى اشتبك بعضهم ببعض وهم يحملون السلاح، وكان المسيحيون في تراجع مستمر نحو محل وقوف جموع فيلقهم. وفي تلك الأثناء أشهر الذين كلفوا بقطع الأغصان أسلحتهم وهاجموا المسلمين ببسالة تسهيلا لانسحاب مقاتليهم الذين بلغ عدد الهالكين منهم أربعة عشر جنديا من المشاة وملازما من البحرية. وما أن شاهد دارغوت رجاله وقد خرجوا من مكمنهم حتى تقدم بسرعة مقتحما سفح الجبل ومعه رجاله من الأتراك في هجمة قوية شديدة، وفي نفس الآن بادر الفرسان الستون باطلاق أعنة أفراسهم نازلين في هجمة على النصارى. وعندئذ أمر نائب الملك بتجريد كتيبة من حملة القذافات لتقوم بمناوشة الأتراك، وقد أفلحوا في ذلك أول الأمر لأنهم كانوا يضربون من أسفل الى أعلى فيرون أعداءهم منكشفين أمامهم بينما كان الأعداء يضربون من أعلى الى أسفل فلا يتأتى لهم مثل ذلك الامتياز. وقد قتل حاكم(112) حلق الوادي في هذا الصدام بضربة قذافة تحت ثديه أصابته وهو يمر أمام الفيلق يريد انجاد ذراع الجناح الأيمن من الجيش. وقد قام الأتراك بهجوم على هذا الذراع فصدهم النصارى صدا كبيرا تمكنوا بفضله من سحب جثة الحاكم فوضعوه مستعرضا على متن فرس وغطوه بسترة رمادية حتى لا يعلم الجنود بمقتله فيصيبهم الهلع والذعر. وقد قام جنود الدراعين من حملة البنادق بأعمال قتالية مدهشة، وقد استطاعوا بفضلها منع العدو من التقدم والاقتراب من محلة جيش النصارى. ولما فرغ نائب الملك من تحميل ما قطع من أغصان الشجر للذين كلفوا بحملها أخذ في الخروج بجيشه الى فضاء مكشوف مبتعدا عن أشعار الزيتون جاعلا حملة الأغصان في وسط الجيش وحملة البنادق في حراسة المؤخرة، وسار على هذه الهيئة المتميزة بحسن الترتيب متجها الى معسكره. وبينما كانت تجري هذه الوقائع في الريف خرج حاكم المدينة حسبما صدر اليه من الأوامر، بمجرد ما ظهرت له أعلام الأتراك. وبالرغم من كون المدافع المنصوبة في هذه الجهة قد أحدثت مقتلة فظيعة في العدو، فقد تجرأ مائتان منهم على التقدم وتثبيت أعلامهم بقرب الخندق. ولما تبين لهم أن عدد الحراس قد صار ضعف ما كان عليه، ورأوا بعض الضباط والجنود ساقطين على الأرض أسرعوا الخطى في الرجوع الى المدينة. وعندئذ بادر ولد نائب الملك في نابولي، وكان له الاشراف على أمر الخنادق، باللحاق بنائب الملك في صقلية قصد تسهيل انسحابه. وبعد فترة من مناوشة العدو دخلوا جميعا

112) لويس بيطاس دي بيركاس.

الى المعسكر، وقد تعقبهم الأتراك الى هنالك، وتمكنوا من اقامة علم من أعلامهم فوق برج صغير كان في حقل مغروس بالكروم وبدأوا يضربون منه الجنود النصارى الذين في الخنادق، وقد تمكنوا من جرح جنود كانوا بأحد الحصون حيث كان مدفعان. وأغاظ ذلك جنود النصارى فخرجوا من خنادقهم وتوجهوا توا الى التل الذي وقف فوقه الأتراك بقصد طردهم منه، وقد تم لهم ذلك بعد أن قتلوا من الأتراك ما يزيد عن خمسين وجرحوا آخرين. ولما رأى دارغوت أن حملته قد فشلت، جمع رجاله وعسكر في مكان يرقب منه محلة النصارى وذلك في عقبة جبل الزيتون. ولكنه تضايق بضربات المدافع الخنشية المصوبة اليه من وراء التحصينات، وأصابه اليأس من القدرة على إنجاد المدينة فرحل في اتجاه صفاقس. وقد هلك في هذا اليوم مائة وثمانون من الأتراك والمسلمين الأهالي وجرح عدد منهم يزيد عن ثلاثمائة، أما القتلى من النصارى فكان عددهم ستة وسبعين من بينهم حاكم حلق الوادي ومقدم الرواد وملازم من جنود البحر. وأما الجرحى فعددهم أربعة وثمانون أصيبوا بضربات بنادق ولقي معظمهم حتفه متأثرا بجروحه. وبعد انسحاب دارغوت عقد قواد الجيش اجتماعا، ولما تبين لهم أن الثلمة التي أحدثوها في السور يصعب الصعود منها للمدينة لأن الأتراك اغتنموا بفرصة الوقت الذي سنح لهم فاصلحوا وعززوا تحصيناتهم من تلك الجهة، أمر بنصب بطارية أخرى على بعد مائتي خطوة من الأولى ونصب فوقها اثنين وعشرين من المدافع الفخام وبدأوا باستعمالها في ضرب الجدار الأمامي والبرجين وواجهة السور بينهما من جهة الشرق، ولما أحدثت فيها ثغرة صغيرة خرج من المدينة مسلم من أصل أندلسي وأخبر النصارى بأن جدران برج الجهة المنصوبة اليها المدافع سميكة ما عدا في أعلاها حيث يتصل بالجدار الواقع بين التحصينين إذ كان هنالك سلم يرقى به الى مواقع الدفاع، فإذا دمر جانب منها في هذا المكان سهل تحطيمها أو تحطيم السلم المؤدي اليها على أقل تقدير، وعلى إثر التوصل بهذا الخبر صدر الأمر بتنصيب بطارية أخرى في تلك الليلة، ونصب فوقها مدفعان وشرع ابتداء من الصبيحة في ضرب البرج من الجهة التي نصح بها ذلك المسلم، ولم يمض سوى وقت قليل حتى وقع خرقه وتحطيم جزء كبير منه وكشف داخله والسلم الذي يصعد به الى الأعلى. وكان مما أخبر به أنه يوجد في أسفل السور من الداخل حفرة يزيد عمقها عن عنزتين وأن الأتراك يظنون أن النصارى قد يدخلون من جهتها، ولذلك وضعوا فيها عدة سياجات شائكة من الحديد وثبتوا في الأرض أوتادا طويلة حادة الرؤوس محروقة الأطراف، وأخبروا أيضا بخندق طويل واسع عميق على مسافة من السور عليه ممر

وحواجز لمنع من دخل اليه من الخروج، وانه قد وقع تدمير عدد من البنايات حول هذا الخندق لتكون ساحة كبرى تنتهي اليها جميع الطرق المؤدية الى الأبراج أو الى غيرها من الأماكن، وأنه وقع إحداث خروق في جدران الدور المحيطة بها حتى يتسنى المرور من دار الى أخرى من غير انكشاف للعدو. وكانت كل هذه الأخبار صحيحة. وقد اتفق قواد الجيش، بعد عدة مشاورات واعتبارات، على نصب بطارية أخرى لضرب جهة من السور تتكسر عندها أمواج البحر على مقربة من البرج الركني الذي ينظر الى الشرق، لأن ذلك المسلم أخبر بأن السور في هذه الجهة أقل علوا ومتانة يسهل إحداث ثلمة فيه والصعود منها نظرا لما يحاذيها من الأرداف الرملية إذ لا مخاطرة في الدخول من جهته. وبعد إبلاغ هذا القرار الى أندريا دوريا الذي وافق عليه بسهولة، أزيلت التجهيزات الموجودة على ظهر السفينتين الحربيتين الأقدمين ونصبت فوقهما بطارية ومتارس فتحت فيها كوات للمدافع. وبعد ذلك جعلت عليها فرقة من حملة البنادق بقصد حراستها، وتم جرهما وجر فرقاطتين معهما ليلا الى المكان الذي أريد أن يقع الضرب منه، ووقع إحكام تثبيتها بمرساتين من جهة البحر وأخريين من جهة السور، وبعد ذلك شرع في ضرب طرف السور الذي تحدث عنه المسلم المخبر، وكان الضرب من المدافع التي وضعت على مصطبة في البر ومن التي وضعت على القاليرات ولكن الجنود البحريين الذين كانوا قائمين على الضرب بالمدافع من الجهتين تضايقوا تضايقا شديدا بالهجوم المضاد من قبل الأعداء، حيث وقع في صفوفهم عدد من القتلى والجرحى. ومع ذلك فقد واصلوا الضرب بضراوة كبيرة حتى انهم استطاعوا في وقت وجيز تدمير جزء كبير من السور وما اتصل به الأبراج، وأما الأتراك فقد ضيق عليهم الخناق، ولم يتمكنوا من انتزاع إي خندق من هذه الجهة. وكان العلاج الفوري الذي عولوا عليه هو إقامة متراس من السياجات السميكة يمتد من الثلمة التي أحدثتها بطارية البر الى الثلمة التي أحدثتها بطارية البحر، وذلك لكي يستطيعوا التنقل من طرف آخر، وذلك بنية إزالته عند الاقتضاء، ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك المشروع، وكان العجز عنه سبب خسرانهم، فقد تبين للضباط والجنود النصارى أن المدافع أحدثت في السور فتحة كافية، ومع ذلك لم تتوقف المدافع عن الضرب بل استمرت بقصد منع العدو من إقامة تحصينات جديدة. وفي الصباح الباكر من اليوم العاشر من شهر شتنبر التحقت الفرق المكلفة باقتحام المدينة بخنادقها سرا منكسة أعلامها حتى لا تثير شكوك الأعداء، وذلك بعد أن تركت فرقا أخرى في حراسة المعسكر واحتلال الخنادق التي من

جهة البر. وفيما بعد الزوال بدأ أندريا دوريا في تطويق المدينة من جهة البر مستعملا جميع سفنه الحربية السريعة، وأقبل الجنود على صلوات الاعتراف وتناول القربان ليفوزوا بالغفران العظيم الذي بعث به اليهم قداسته في هذا اليوم، وبعد أن تضرعوا لربنا ولأمه السعيدة جعلوا كلمة السر بينهم اسم الداعية وهو القديس الأكبر في اسبانيا، وعند سماع البوق وانطلاق ضربة مدفع حنشي إشارة لبداية الهجوم اقتحم الجنود المدينة من ثلاث جهات بقصد ارباك العدو، فقد اقتحمها فرسان مالطا ومعهم بعض فرق الجنود من جهة البطارية القديمة الواقعة في ناحية الغرب، واقتحم آخرون من جهة البطارية الجديدة المقابلة لها، واقتحم آخرون من جهة البحر متسللين على طول جدار البرج، داخلين في الماء، أما الذين لم يتمكنوا من المرور في الطريق المحدثة بتحطيم البرج فقد دخلوا من الثلمة المحدثة من جهة البحر. وقد بادر الأعداء الى الدفاع عن أسوارهم، وكان دوي المدافع قد أحدث ذعرا شديدا عند الطرفين حتى ان أحدا لم يعد يأبه لصوت الرعد أو للرعب الذي توحي به العواصف، فقد تعرض النصارى لوابل من ضربات النبال والقذائق التي كانت تقع على الرمال فتثير غبارا يحجب رؤية كل شيء، فكان ذلك سببا في سقوط أكثر من ثلاثمائة من الجنود في صفوف النصارى قبل أن يصلوا الى الترعة، وأصيب أحد كبار الضباط بضربتين من قذافة في فخذه، ولكن بسالة الجنود الاسبان تغلبت على نيران الأعداء وقصفهم، حتى انهم كانوا يمرون فوق جثث رفاقهم وهم يصعدون الى الترعة، وبعد مواجهة مقاومة عنيدة تمكنوا من بلوغ برج الركن الشرقي ومن اقتلاع العلم التركي وتثبيت علمهم، وقد تعذر الدخول من الجهة الأخرى بسبب الحفرة السحيقة الموجودة بجانب السور، وكان قد اخبر بها المسلم الذي ذكرناه، وقد وصل بعض الجنود النصارى الى المتراس الذي أقامه الأتراك وقتلوا هنالك تركيا حاول منعهم من الدخول، ومروا فوقه والتحقوا بالآخرين الذين دخلوا من باب البحر، وكان بعضهم قد مروا منها من قبل وتمكن حامل لواء من تثبيت رايته فوق أحد الأبراج. واستطاع جنود من المشاة ومن البحريين أن يبلغوا الى السور بواسطة زوارق صغيرة وأن يتسللوا من خلال كوات المدافع وفتحات الأبراج. وقام الأعداء بدفاع يائس لا عن المدينة والأسوار فحسب بل حتى عن الأزقة والدور، ولما رأى الأتراك أن المدينة قد سقطت بأيدي النصارى اعتصموا بالحصن وببناية الجمارك قبالة الباب، وكانوا يضربون من ملاجئهم بالبنادق والسهام فيلحقون أضرارا بالنصارى الذين كانوا يقاتلون في الأزقة، وقد أصابوا نقيبا إسبانيا بضربة بندقية في رأسه فأردوه قتيلا. ولما رأى الملك أنه قد حمي

وطيس المعركة بداخل المدينة أمر بدخول حملة القنافات من الفرق التي كانت خارج المدينة، سيما وان أحدا لم يحرك ساكنا من جهة البادية، وبذلك تمت هزيمة الأعداء. وفي هذا اليوم قتل سبعمائة من الجنود المسلمين من أتراك وأهليين وقد ظهر هؤلاء في القتال أكثر من أولئك. ووقع في الأسر عشرة آلاف من مختلف الأعمار رجالا ونساء، وكانت الغنائم كثيرة جدا من أثاث وأموال وأحجار نفيسة. وهلك من النصارى أربعمائة وجرح منهم أكثر من خمسمائة. وكان من أعيانهم اللون فيرناندو دي طوليد قائد كتيبة نابولي، وقد جرح بضربة قذافة في فخذه الأيمن، وذلك بعد ان اجتاز المتراس الذي نصبه الأتراك، ومات فيرناندو لوبو قائد كتيبة لومبارديا، وقد هلك بضربتين من بندقية، وكانت اصابته في فخذيه. ومات كل من القبطان موري رويلا والقبطان نتوماراكا، وقد أصيب كل منهما بضربة بندقية، وهلك صنديدان من فرسان مالطة هما اولوا ومونروا، مات أولهما بسبع عشرة تخنة ووجد الآخر ميتا دون أن يصاب بجروح، ومات في المعركة أيضا سيد يكنو رقيب اللون جان دي مينلوسا وأخو القبطان موري رويلا، وكان أحدهما حامل لوائه والآخر رقيبه، ورقيب الفونسو بيمانتيل، وحملة أعلام كتائب كل من أمادور ودو كناماريا وبريسيكنو وفرسان مالطة وكذا عدد آخر من الرقباء والضباط، ومات فيها أعيان من الأتراك وأهل افريقية ومنهم القائد علي. أما عامل المدينة والقائد محمد فقد وقعا في الأسر، ولما تحقق النصر في هذه المعركة أمر ابن نائب الملك في نابولي بدفن جميع النصارى الذين لقوا حتفهم في أحد الخنادق فلا يراهم الأعداء ولا تشفى منهم صدورهم. وأمر بأن يحمل الجرحى الى الدور التي كانت في المعسكر، وبعد ذلك تم تكريس المسجد الجامع باقامة صلوات كبرى تشريفا للعذراء، وقدمت آيات الشكر للرب على هذا النصر العظيم.

ما وقع في هذه المدينة منذ احتلالها وكيف أمر الأمبراطور بتدميرها

بعد احتلال هذه المدينة أظهر نائب الملك في صقلية عناية كبرى بتنظيف الترعة المحيطة بها وبترميم أسوارها، ثم ترك فيها ولده اللون ألباريا حاكما عليها، وترك له ست فرق من الجنود المشاة الاسبانيين وعددا من المدافع والذخائر، ثم أبحر هو ببقية العدة والجند متوجها الى صقلية ووصلها سليما سعيدا بنصره بعد ان خرج بعشرين من سفنه البحرية السريعة باحثا عن جيش دارغوت البحري، وبعد ان تلقى مغرم جربة وصفاقس وقرقنة، ذلك أن صاحب جربة بعدما علم بانهزام

دارغوت الحمس لحماية الاسبانيين ومعونتهم لطرد ذلك القرصان من بلده، ووعد مقابل ذلك بأن يفك أسر عدد من النصارى الذين كانوا بتلك الجزيرة وبأن يؤدي مغرما للأمبراطور. وزاد في وعده أن يقدم ما يلزم من المواد لبناء حصن أو حصنين حيث يتعين نزول الحامية الاسبانية، وأبدى استعداده أن يقدم في الضمان أحد أبنائه رهينة وأن يقدم معه لذلك الغرض بعض أعيان السكان. ولكن لم يتحقق شيء من ذلك. وقد أرسل الأمبراطور حاكما على المدينة التي فتحها مؤخرا الدون سانشي دي ليب، ودخلها في أواخر شهر يوليوز. ولما شاع أن السلطان الأعظم قد نقض الهدنة التي كانت بينه وبين الأمبراطور وأنه مرسل جيشا بحريا لاستعادة هذه المدينة، بقي فيها فيرناندوفيكا ابن نائب الملك في صقلية بمعية الدون سانشي حيث رأى ان الانسحاب لا يشرفه مع وجود هذه الشائعات. ولكن الجيش البحري الذي بعث به السلطان الأعظم إنما أعطي له الأمر باحتلال جزيرة مالطة وبأن يعيث فسادا في بوكيا بايطاليا وفي صقلية، وكان أول قدومه على كوطرون حيث أنزل بعض الكتائب وقام بمناوشات ضد جنود الحاكم هنالك، ثم واصل طريقه في اتجاه صقلية فأخذ عنوة حصن اكوستا وأضرم فيه النار ثم سار حتى نزل في جزيرة مالطة، ولما عجز عن القيام بشيء يستحق الذكر بسبب مقاومة فرسان هذه الجزيرة المشهورين بشجاعتهم احتل جزيرة قوصرة فدمر حصنها وعشرين من مدافعها، وبعد أن قتل حاكمها دخلها عنوة فقضى على جميع من كان بها ما بين قتيل وأسير، وأقلع من هنالك قاصدا طرابلس من بلاد البربر فاستولى عليها حسبما سنذكر ذلك عند وصفها، وفي أثناء تلك الأحداث لم يغادر ابن نائب الملك في صقلية المدينة المفتوحة مؤخرا، ولما علم بأن الجيش البحري للسلطان الأعظم قد عاد الى الشرق، عاد هو الى صقلية تاركا الدون شانسي حاكما عليها، وقد قام هذا لسيد بعدة حملات على سكان الجهات التي توالي ملك القيروان، وعاد من معظمها محملا بالغنائم، فوزعها على الجنود لتكون بمثابة أجر لهم إذ مضى عليهم وقت طويل دون أن يبعث اليهم بشيء، وربما ساورهم الشك في كون الحاكم يحتجن ذلك الأجر لنفسه، وقد تجرأ بعض رؤوس الفتنة على حمل السلاح وتحريض غيرهم من الجنود على الانتفاض، فطردوا الضباط وهموا بقتل الحاكم لولا أن عجل بركوب سفينة ابتعد بها عن المرسى. وعندئذ قدموا قائد سرية مكان الحاكم وقدموا قوادا آخرين ليخلفوا رؤساء السفن، وقدموا مأمورا(113) أعلى ليتولى تنفيذ كل ما قد

113) أنطونيو دي أبونتي.

يصدرون اليه من الأوامر. وفي إثناء ذلك أرسل اللون سانشي بعض رجاله على متن زورقه ليعتذروا ويبلغوا للمنتفضين انه مستعد لبيع كل ما يملك لؤدي لهم أجورهم في انتظار أوامر الأمبراطور. ولما لم يجد فيهم ذلك نفعا رحل متوجها الى صقلية ثم توجه من هنالك الى بروكسيل للقاء الأمبراطور. وفي غيابه حاول نائب الملك في صقلية اقناع الجنود بالجنوح الى السلم، وكتب الى الأمبراطور بأنه إذا لم يستطع إخضاعهم بالإقناع فسيضطر الى اخضاعهم بالإكراه، وذلك بأن يمنع أن تحمل اليهم الأقوات. الا أن ذلك لم يمكن بما كان يتصوره من السهولة، لأن قائد الجنود كان يفضل الموت على أن يسلم نفسه اليه، وقد أرسل جنديا الى الأمبراطور ليخبره بكل ما كان يرتكب في حقهم طالبا منه أن يرسل اليهم حاكما آخر يتولى عليهم غير نائب الملك في صقلية واللون سانشي اللذين يتعذر التفاهم معهما. وعندما تلقى الأمبراطور تلك البعوث لبث وقتا من الزمن قبل ان يجيب، لأنه كان منشغلا بما هو أهم من ذلك من جلائل الأمور ولأنه يظن أن نائبه في صقلية سيجد حلا لذلك المشكل لا محالة. غير ان نائب الملك في صقلية قد أنذر بنفسه بأنه ينبغي التصدي لذلك الأمر في أقرب الآجال حتى لا يترتب عنه ما لا تحمد عقباه. وفي أثناء ذلك كانت الحامية تعمل كل ما في وسعها للحصول على الأقوات لمّا رأت أنها لم تعد تصل اليها من صقلية، وكان تدبير أمرها في شئون الادارة والعدل والتسيير يتم على يد حاكمها على أحسن ما يرام، فمن ذلك أنه قام بتجهيز سفينة كانت راسية بالميناء وبعث بها الى صقلية وعلى متنها خمسون من الجنود، وقد استطاعوا أن يأسروا في سواحلها سفنا محملة بالقمح وجاءوا بها الى المدينة من غير إساءة الى أصحابها، ثم ان هذا الحاكم بعث أيضا الى كبير(114) سادة مالطة بأن يرسل اليه الأقوات مقابل ثمنها فاستجاب لطلبه، وفعل مثل ذلك مع ملوك القيروان، وكان بالاضافة الى ما ذكر يخرج في خمسين من أصحابه المسلحين بالبنادق فينهب قرى المسلمين من أهل البلد وكذا دواوير العرب فيعود بعدد من العبيد والماشية، فنشر الرعب في كل مكان، ومن أراد أن يأمن شره أدى اليه المغارم، فكان يؤتى اليه كل أسبوع بالأقوات الى السوق التي كانت تقام خارج المدينة، وبذلك صار من المستبعد إخضاع أولئك المتمردين تحت وطأة الجوع، وقد قام ليون ستروسي امام كابوي وقائد أسطول ملك فرنسا بمراودته سرا على أن يسلم المدينة مقابل وعود عريضة، وقد رد عليه بقوله : إنها ملك

114) يان أوميديس.

للأمبراطور وإن الاسبانيين القائمين بحراستها لن يرتكبوا ما يخالف خدمة أميرهم، وكان هذا القائد أخا لبيير ستروسي الذي كان يقاتل باسم ملك فرنسا الى جانب أهل مدينة سيان ضد دوق فلورانسا وحزب الأمبراطور، وكان يتمنى أن يستولي على تلك المدينة ليقوم انطلاقا منها بأعمال قرصنة. وكذلك كان الشأن عندما قام نائب الملك بإرسال من يعيد الطمأنينة الى نفوس أولئك الجنود إتقاء لجميع الأخطار، ولما رأى الأمبراطور أن الدون سانشي لن يصلح لتلك المهمة حتى لو حمل اليهم المال نظرا لما فرط منهم من إهانته، عينه قائدا لقاليرات نابولي، وعين في مكانه الدون فيرناند داكونيا وكان حينئذ في أنفيرس، وقد عجل بالرحيل وهو مأمور من الامبراطور بأن يدخل إلى المدينة بأي طريقة ممكنة، وأن ينزل بالمتمردين عقابا شديدا يجعلهم عبرة لغيرهم جزاء على وقاحتهم وأن يراعي في ذلك ما يقتضيه المقام حتى لا ينفر الجنود نفورا لا رجعة فيه وهو يريد إصلاحهم، وقد عهد اليه بأن يقوم، بعد إعادة الطمأنينة إلى القلوب، بتدمير ذلك الحصن وبأن يعود إثر ذلك مصحوبا بجميع كتائب الجيش ومعداتها من مدافع وذخائر الى صقلية. وسبب ذلك أن بقاء الحامية في تلك المدينة كان يكلف نفقات باهظة والحال أن مشاغل الامبراطورية متعددة في جهات أخرى، فكان من المناسب تدميرها حتى لا يعود إليها الاعداء، وقد أعطيت للدون فيرناند سلطة خاصة تخوله العفو عن الجنود إذا بدا له ما يقتضي ذلك، كما منح تخويلا آخر موقعا من الامبراطور يستطيع بمقتضاه أن ينزل العقاب إذا اقتضت الضرورة. ثم إن الامبراطور قد كتب لكل من حاكم نابولي وحاكم صقلية(115) واندريا دوريا بأن يتشاوروا جميعهم في هذا الأمر، وبأن يمدوا الدون فيرناند بجميع ما قد يحتاج إليه، بيد أن نائب الملك في صقلية، وكان مهتما بهذا الأمر أشد الاهتمام، قد تفاوض مع بعض الجنود من حامية المدينة على أن يقوموا بالقبض على مرتكبي العصيان أو أن يقتلوهم، ووعدهم مقابل ذلك بجوائز عظيمة من قبل الامبراطور، وقد وجد هؤلاء الفرصة سانحة، إذ سئمو طول الاستمرار في عصيان الامير، وقد حملوا السلاح وارتكبوا ما لم يرتكبه غيرهم لا بالوعد ولا بالوعيد، وكادت أن تنجم عن ذلك فضيحة كبرى لولا لطف خاص من السماء. فقد وصل الخبر إلى زعيمهم(116) بما بيتوه وبادر بإرسال مأموره الأكبر ليتحقق جلية أمرهم، وقد أشهروا السلاح

115) الكاردينال باتشيكو ولوان دي بيگا.

116) أنطونيو دي أبونتي.

ورفعوا العقيرة بالقول : وليحي الامبراطور، وليمت الخونة، وفي تلك الاثناء هبت ريح حارة لافحة محرقة أجبرت الجنود على ترك صفوفهم وتغطية رؤوسهم واللجوء إلى مساكنهم وإلى خزانات المياه، وفي ليلة ذلك اليوم نفسه قام اثنان من كبرائهم، وهما اللذان استهالهما نائب الملك في صقلية، بقتل المأمور الأكبر المحرض على العصيان وقتل رؤوس الفتنة من المتمردين، وبذلك عاد السلم واستتبت السكينة، وقد أخبروا نائب الملك في صقلية،(117)، فبادر بإرسال قائد(118) حرسه بهدف الدخول إلى المدينة والتظاهر بإعمال الحساب مع الجنود لمعرفة ما يجب لهم من الاجور تمديدا لآمالهم في انتظار وصول الحاكم الدون فيرناند داكوكنا، ولم يفته إنزال العقاب بالجناة، فأمر بأن يرسل اليه انطونيو ابونتي وغيره ممن تم القبض عليهم، ولكي يضمن وصولهم في أمان امر قائد السفينة الحربية التي ستجيء بهم بأن يسلمهم لحاكم اول مدينة ينزل عندها في صقلية، وكان من حسن حظهم أنهم عندما وصلوا إلى حصن علقمة وسُلموا لحاكمه، جاء الاتراك بجيشهم البحري وهاجموا الحصن في تلك الليلة، وطلب المساجين من الحاكم أن يمكنهم من السلاح لكي يعينوه في الدفاع عن المدينة، ولم يستجب لهم، ووقع الاستيلاء على المدينة واسترق جميع سكانها ومن بينهم أنطونيو ابونتي الذي مرض في القسطنطينية ومات بها، ولما علم نائب الملك في صقلية بما وقع لم يتوجه إلى المدينة، وإنما أمر الموالين له بأن ياتوا إليه بكبار الجناة ممن بقي هنالك من المتمردين، ولما وصلوا إليه أمر بشنقهم في باليرمو وفي غيرها من مدن صقلية.

ولنعد إلى خبر فيرناند داكوكنا، فبعدما وصل إلى نابولي واجتمع بالكاردينال باشيكو ومع اندريا دوريا الذي كان هنالك بسفنه الحربية السريعة، واصل طريقه إلى صقلية ووجد ما ذكرناه قد تم، وبينما كان على أهبة الجواز إلى إفريقيا توصل برسالة من قائد حرس نائب الملك في صقلية الذي كان يحكم في المدينة يحثه فيها بالتعجيل بالمجيء إذا حمل معه ما يكفي من المال لأداء أجور الجنود وبذلك يصلح كل شيء، وإذا لم يكن معه ما يكفي من المال، فإن وصوله قد يؤدي إلى أسوأ العواقب، سيما وأن المدينة لا تتوفر على ما يكفي من الذخائر أو المؤمن لتستطيع الدفاع عن نفسها. وبعث له مع حامل الرسالة قائمة بما يفتقده من الحاجات منذرا بأن الجنود ليسوا على ما يرام من السكينة وانهم لن

117) خوان أوسوريو إيفيگا.

118) خوان أوسيريو دي كينونيس.

يتورعوا عن إثارة الشغب إذا لم تتم الاستجابة لمطالبهم، ولما بلغ الحاكم هذه الرسالة إلى نائب[119] الملك في صقلية، لم يكن معه من المال ما يكفي لارضاء الجنود أو لشراء ما يلزم من الحاجات، ولذلك استقر الرأي على تقديم النصح للأمبراطور بأن يسلم تلك المدينة لفرسان مالطة يعوضهم بها عن طرابلس التي استعادها منهم الأتراك، إذ لا داعي لتدميرها، وعندئذ بعثوا برسالة في هذا الشأن إلى الامبراطور وبقي الحاكم بصقلية ينتظر الجواب، وجاء رد الامبراطور وفيه، بناء على انعدام الإعداد لحماية ذلك الموقع وعلى أن الشروع في تدميره ينطوي على مخاطر حيث ان الجيوش البحرية التابعة لفرنسا ولمدينة الجزائر توجهت لكورسيكا ومنها كانت قادرة على الوصول إلى تلك المدينة في مدة يوم ونصف يوم، وأن تلك الجيوش تترقب في كل يوم وصول جيوش الشرق والحالة ان قوات الامبراطور عاجزة عن مقاومتها، صدر الأمر للحاكم بأن يتوجه إلى مالطة ويفاوض تنظيم فرسانها على أن يسلم إليهم هذه المدينة وإن يتعهد باعطائهم أربعا وعشرين ألف دوكا سنويا لتغطية مصاريف الحامية بها، وأن يتنازل لهم عن جزء من الاسلحة المدفعية والذخائر الموجودة بها، وكان رئيس[120] هذا التنظيم وهو من جنس الاسبان قد مات في ذلك التاريخ، وقد قدم خلفا له شخصا فرنسيا إسمه كلود دولا سينكل وهو سفير في روما، وكانت السفن الحربية المالطية قد توجهت لنقله من أوستي، وكانت في طريق رجوعها بمسينا، وقد ذهب الحاكم[121] للقائه وتسليمه رسالة الامبراطور، وكلمه في تلك القضية بحضور بعض الفرسان، ولكنه طلب من الحاكم أن يرحل معه إلى مالطة ليعرض المسألة على مجلس تنظيم الفرسان، وركب الحاكم في اتجاه مالطة، وعرضت القضية هنالك على المجلس عدة مرات، ووقع الاتفاق على أن يتوجه الفارس ستروسي ومعه فرسان من مختلف الالسن للوقوف على تلك المدينة والتعرف في عين المكان على ما قد تكلفه حمايتها والاحتفاظ بها كل عام، وكان ستروسي قد تخلى عن قيادة السفن الحربية الفرنسية لخلاف وقع بينه وبين القائد العام للجيش، وصار الآن قائدا لسفن تنظيم فرسان مالطة، وقد كتب الحاكم إلى قائد[122] الحامية في المدينة يامره بأن يطلع ستروسي على كل شيء، وبأن يخفي

119) خوان دي بيگا.

120) خوان أوميديس.

121) إلدون فيرناندو.

122) خوان أوسوريو دي كينونيس.

عليه مع ذلك ما كانت تعانيه من نقص في المؤن وعدة الحرب. ولما تعرف ستروسي على حالة ذلك الموقع وعاد إلى مالطة انقسم اعضاء مجلس الفرسان فريقين، فريق الموالين للأمبراطور، وكان يرى أن التنظيم الديني ينبغي أن يأخذ على عاتقه الاحتفاظ بتلك المدينة، وفريق المناوئين له، وكان يرى إلا يخفف عبئها على الامبراطور، وذلك حتى لا تسوء علاقات التنظيم بفرنسا، وربما قدر هذا الفريق أن تحمل تلك المهمة لن يفيد الملة في شيء وبالتالي لن يفيد تنظيمهم، ولذلك عارضوا فكرة الحماية، وكانت لهم الغلبة على الفريق الآخر، فكان الجواب أن تنظيم فرسان مالطة لا يستطيع الاحتفاظ بمدينة بهذه الاهمية. وقد بين لهم الحاكم(123) ردا على جوابهم بأن للامبراطور حقا على التنظيم، فهو الذي أقامه حيث هو قائم ولولاه ما استطاع أن يبقى في الوجود، وعلى ذلك فلا يجوز إغضاب مثل هذا الامير العظيم، وبعد مناقشات واعتراضات وقع الاتفاق على أن يبعث الى الامبراطور من يشرح له اسباب الرفض، وقد رأى الحاكم نفسه مجبرا على الأذعان لقرارهم. وهكذا أرسل فارسان: إسباني(124) وفرنسي(125)، وأمرا ببذل الجهد في الاعتذار للامبراطور، وبأن يطلبا منه، إن إقتضى الامر، أن يتعهد بمزيد من المال للقيام بحماية المدينة، ولما علم الامبراطور بأنهم كانوا على استعداد لقبول اقتراحه. في آخر المطاف نزولا عند رغبته، أبدى شهامته بعدم اكراههم واعطى أوامره بتدمير ذلك الموقع. كان الفارس ستروسي يفاوض الامبراطور بواسطة نائب الملك في صقلية، وقد كان له ميل إلى هذا الأمير في تلك المفاوضات، غير أنه رأى ما آل إليه امرها من الطول والتشعب، فعاد إلى التصالح مع ملك فرنسا بطلب من الملكة ومن القائد العام للجيش، وبهذا الصدد عوم، بلا علم من الآخرين، سفينة كان قد أمر بصنعها في مالطة وجهزها بمجذفين من سفينتيه الاخريين واقلع بثلاثها متوجها إلى مدينة المرسى متظاهرا بالبحث عن غنائم ينفق منها حيث لم يعد ينتظر رفده من أي أمير. وفي ميناء هذه المدينة التحق به فيرناند داكوكنا وقدم إليه رسالة من نائب الملك في صقلية يطلب منه فيها الالتزام بما وقع عليه الاتفاق من القيام بحملة لأخذ جربة بسفنه البحرية وسفن التنظيم الديني وسفن صقلية والكتائب التي سيأتي بها الدون فيرناند، وذلك لأن أشياخ تلك الجزيرة عرضوا تسليمها للامبراطور، ولكن

123) الدون فيرناندو.
124) ألفونسو دي صوليس من مدينة سالامنكا.
125) تيسسير.

الفارس ستروسي كان قد بدّل ولاءه، واجاب بأنه لما لم يتمكن من الدخول في خدمة الامبراطور فإنه أراد الخروج للبحث عن نفقته. ولما رأى الدون فيرناند أن لا فائدة ترجى بعد ذلك عاد إلى مالطة، وهنالك علم بمقاصد ستروسي، وما لبث أمره أن انكشف للجميع، فقد وصل في تلك الليلة نفسها الى غرب جزيرة مالطة من جهة حصن شانت إيلم، وأرسل من هنالك رسالتين إلى الحاكم(126) احداهما موجهة إلى نائب الملك في صقلية والاخرى موجهة إلى الدون فيرناند، وقد منّى هذا الاخير بكلام وخاطبه بمجاملات ولكنه أكد عزمه على الخروج للبحث عن الثروة حيث لم يتسنَّ له أن ينضم الى خدمة الامبراطور، ولما تلقى الدون فيرناند تلك الرسائل بادر باخبار نائب الملك في صقلية برحيل ستروسي وبأنه ذهب إلى بعض أقاربه في ميناء هرقل، وأنه سلك طريق الجزر بثلاث سفن رديئة بحيث يسهل اللحاق به سيما وأنه قد صرح بعدائه. ولم يعد أمره خفيا على أحد. غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، واستطاع أن يصل إلى أخيه، لكنه لقي حتفه بعد أيام قليلة وهو يحاول استكشاف جزيرة تدعى السقرلين، وبذلك انتهت آماله ومراميه.

رجع إلى خب افريقية. لما رأى الدون فيرناند الاخطار المحدقة بالمدينة بسبب تذمر الجنود، وقدر أن ستروسي لا بد أن يكون أدرك جوانب النقص في حمايتها عندما جاء لتفقدها وأنه لذلك طمع في الاستيلاء عليها، ولذلك قال لنائب الملك في صقلية بعد رجوعه إليها : لما كان الامبراطور قد كلفه بأن يمده بالمال وغيره من الاشياء التي تحتاج إليها المدينة فالمرتجى منه أن ينفذ ذلك الأمر لأنه يرغب هو أيضا في الذهاب إليها ليستجيب بدوره لرغبة الامبراطور. وكان قدر ما تأخر أداؤه للجنود واحدا وثلاثين راتبا، ومجمل ما تحصل فيها ست عشرينات ألف دوكا لم يعط منها سوى سبعة وعشرين ألفا، من مال وأقمشة. ومع ذلك فقد ذهب بها على متن خمس قاليرات في ملك صقلية جيدة التجهيز تحسبا للقاء العدو، وقد توجه إلى افريقية وذهب من مرسى دريبانو بأربع سفن ضخام ليشحن فيها المدافع وعدة الحرب والجنود اذا ما تمت تسوية تلك النازلة، واصطحب معه جميع الضباط الذين كان الجنود قد طردوهم ليعيدهم الى مناصبهم ويستخدمهم اذا اقتضى الامر، وقد استقبله الجنود باحسن مما كان يتوقع أملا في الحصول على المال والفوز بعفو الامبراطور، وحيث لم يكن يتوفر على كل ما كان يلزم من المال فقد كان عليه أن يتصرف تصرفا ذكيا حتى لا يطلع الجنود على حقيقة أمره. وقد عمل في

126) كريسطوفل داكونه.

أول الأمر على كسب ثقة ذوي النفوذ من بينهم، وأعطى الامر للضباط ليقتدوا بسلوكه، كل في فرقته. ثم أمر بأن يلتحق كل بمحلته، وبدأ بالتوجه الى فرقة الدون سانشي التي يفترض فيها أن تكون فرقته هو، فبين للجنود شدة احتياج الامبراطور الى المال للقيام بالحروب العظيمة التي دخل فيها، وانهم سيرضونه ويفرحونه اذا هم قنعوا بنصف ما لهم بذمته وأنه سيؤدي لهم بالمال الناض بعد خصم المستحق في قيمة ما تلقوه من الاقوات. وقد فوجئوا بكلامه قليلا في أول الأمر، ولما كانوا حريصين على نيل عفو الامبراطور وضمان الامان لانفسهم فقد قبلوا عرضه في النهاية. وهكذا تكلم مع الفرق واحدة تلو الأخرى، وبعد ذلك ذكر لهم أنهم مطالبون، تنفيذا لامر الامبراطور، بتدمير ذلك الحصن، وعليه فسيكون من المخاطرة المحققة أن يضيعوا وقتهم في حسابات طويلة لما لكل واحد وما عليه، والحال أن جيوش البحر التابعة لملك فرنسا ولسلطان الترك قريبة منهم تستطيع ان تباغتهم في تلك المدينة وقد بدأوا تحطيم تحصيناتها. ولما كانوا قد حصلوا على عفو الامبراطور بالتخلي عن نصف ما كان لهم بذمته فقد أبوا إلا أن يوافقوا على هذا الاقتراح الأخير واشترطوا أن ينجز لهم الأداء في أول مرسى يصلون إليه بصقلية، وكان قبول هذا العرض شاقا على النفس، إذ بعد كل التنازلات التي قدموها طلب منهم أن يخاطروا بالباقي، ومع ذلك فقد اذعنوا لقبوله في الاخير. وبعد أن تلقى كل واحد منهم دوكا واحدة على وجه التسبيق تابعوا عملهم الذي كانوا بدأوه قبل مجيئه بوضع الالغام، وقد أمر بتنفيذه ليلا ونهارا رجال البحرية والجنود، ولما تم العمل أمر الجنود بالصعود إلى السفن وشحنت المدافع والمؤن والذخائر وترك ضابطا موثوقا به وزمرتين من الجنود بقصد إشعال النار في تلك الالغام والحرص على الا يبطل فعل أي منها، وأخذت السفن تغادر مرساها، وكان عدد الالغام التي وضعت تحت الاسوار والابراج الرئيسية أربعة وعشرين، وكان لكل لغم فروع عدة تمتد تحت أساسات البناء، ومن أجل تفجيرها جميعا عمل ما سأذكره هنا :

عين جندي عند مدخل كل حفرة لغم وأمد بباع ونصف من الفتائل كلها من سمك واحد وطلب من الجنود أن يقوموا بإشعال نارها عند سماع أول طلقة مدفع، وعند سماع الطلقة الثانية ينحدرون جميعا ويدخلونها في الجعاب الكبيرة المعدة لذلك الغرض ويحملونها الى مداخل حفر الالغام بحيث يتم إدخال شبرين من الفتيلة في البارود، ويبقى مقدار اثنين آخرين في الخارج ورأسهما مشتعل، والغاية من هذا الترتيب أن يتم الانفجار في آن واحد، وقد أمر كل جندي من هؤلاء أن يتفقد فتيلة صاحبه بعد أن يضع هو فتيلته في محلها. وأمر رئيسهم بأن

يسهر على تنفيذ كل تلك المراحل بأقصى ما يمكن من الدقة، إذ لو وقع بالصدفة ان انفجر لغم قبل الالغام الاخرى لادى على أرجح تقدير إلى ردم بقية الالغام ولبطل مفعولها، ولتعذر تحقيق ما هو مطلوب من تدمير تلك الحصون تدميرا كاملا لا يقوم صرحها بعده. وبعد أن نفذ الجنود ما طلب منهم ركبوا الزوارق وابتعدت السفن عن الساحل تجنبا للاخطار. وأول الالغام التي انفجرت تلك التي من جهة الغرب وما لبثت ان شوهدت الابراج التي من جهة البر وهي تتطاير في الهواء واحدا بعد الآخر انتهاء بالتي في جهة الشرق. هذه الابراج التي بناها المهدي وأبدى فيها براعة الصنعة والاتقان وانفق في بناءها المال العظيم وقد قيل عنها لشدة متانتها إنها بنيت بالحديد، وقد عظم الخراب في كل جهة في لحظة واحدة حتى بدا وكأن أطراف ذلك الصرح يدك بعضها بعضا. واندرست معالم تلك المدينة حتى أنكرهاأهلها، وكان ذلك الميناء خسارة على عدد من السفن التي جاءت اليه فيما بعد وقد انفجرت كل الالغام ما عدا التي تحت برج قرب باب البر وقد نزل الحاكم من سفينة الى البر لاجل تفجيره، فما لبث ان انفجر وتطاير بمفعوله في الهواء البرجان اللذان عند مدخل الميناء وانكشفت تحتهما اسطوانات ضخمة من المرمر وضعت تحتهما، إذ لو عمل أساس هذان البرجان من عناصر متنوعة لتآكل الاسمنت بتأثير الامواج، اما عمق الاساس فقد بلط بصفائح كبيرة من المرمر، ولما وقع تدمير هذه المدينة على نحو ما ذكر كره الحاكم أن يترك فيها رفات عدد من الصناديد والشجعان والضباط الذين ماتوا في القتال عندما أريد الاستيلاء عليها، وكانوا قد دفعوا بمسجدها الأعظم، فاستخرج رفاتهم، ووضع في صندوقين كبيرين، واحد فيه رفات الموتى من تنظيم فرسان مالطة والآخر به رفات الموتى من الآخرين. وبعد ذلك رحل متجها إلى صقلية، ولم يقض في هذه المدينة سوى ثلاثة عشر يوما، وفي أول ميناء حل به أدى أجور الجنود. وبهذه الوسيلة تخلص الامبراطور من العناء الذي كان فيه، إذ لو تركت تلك المدينة لوقعت في أيدي الكفار، ولو داوم على حمايتها لكلفته نفقات مرهقة. فقد تحولت إلى انقاض عندما أرسل الجيش الفرنسي من يأتيه بخبر حالها، ولم يعد بإمكان دارغوت ولا الاتراك استعمالها كما كانوا يتمنون، للاعتداء على المسيحيين في سواحل نابولي وصقلية. وقد تم بعد ذلك دفن رفات اولئك الشجعان والضباط في كنيسة جبل ريال الموجودة على مقربة من باليرمو، وأمر نائب الملك أن يوضع فيها هذا النصب التذكاري الذي أنشأه الدون فيرناند بنفسه وأرسله إليه :

قضى الموت بنهاية حياة من يضمهم هذا القبر، لكنه لم يقض على قيمتهم الخالدة، فقد أدرك هؤلاء الابطال بإيمانهم مقاما في السماء، وملأوا رحاب الارض بشجاعتهم، فالدم الذي نزف من جراحهم يموتوا موتة واحدة قد خول لهم حياتين في مقام الخلود.

تلك كانت نهاية مدينة كانت من الشهرة بمكان، ولقد أطلنا في ذكرها بما زاد عن المعتاد لان حوادثها وقعت في عصرنا هذا وكان لنا فيها نصيب،فإضافة إلى ما تعرضنا له من ذكر تأسيسها فقد تيسر لنا أن نكتب أخبار نهايتها كذلك.

الفصل التاسع والعشرون

صفاقس

إن ما يقرب من ستمائة كانون، تتساكن في هذه البلدة الواقعة على الشاطىء والتي تبعد عن العاصمة بنحو ستة وعشرين فرسخاً جنوب شرقي البلاد ويذهب بعض المؤرخين الى أن الرومان هم الذين أسسوها، لكنه بات من الأرجح أن فضل التأسيس يرجع إلى القرطاجيين.

كانت صفاقس مدينة مزدهرة إلا أن سكانها هجروها بمجرد ما دخلت إليها الجيوش العربية، فأصابها الإفلاس والدمار، لكنها سرعان ما استعادت نشاطها وحيويتها، ورجع إليها أهلها وأعيد تعميرها. كانت تسمى قديماً تبارورا، وقد حدد بطليموس موقعها في ثمانية وثلاثين درجة طولاً واثنتين وثلاثين درجة وعشرين عرضاً.

يكاد نشاط أهل المدينة يكون مقصوراً على صيد الأسماك، إلا أن بعضهم يشتغلون بالنسيج، وآخرون منهم يضربون في البحار. ليس السكان أغنياء، ومع ذلك فإنهم قانعون بما لديهم، معتزون بأنفسهم، غذاؤهم من الشعير، يصنعون منه خبزهم وحساءهم.

مضى البحّارة من الأهالي يشاركون، إلى جانب الأتراك، في عمليات القرصنة ونهب شواطىء البلدان المسيحية، كما أن بعض الصفاقسيين رحلوا الى مصر وتركيا لممارسة التجارة، إلا أن الأهالي يعانون اليوم أشد المحن من طرف السلطات الحاكمة بتونس، ويتعرضون لسوء المعاملة من طرف السكان العرب.

ويرجع ما يلاقونه إلى تمرُّدهم المزمن على النظام وإلى تواطئهم مع القراصنة، لأنهم يوفرون لهم الملجأ ويمدونهم بالمساعدة كلما دعوهم إليها.

بعد احتلال تونس من طرف الإمبراطور كارلوس الخامس، رفض أهل صفاقس الخضوع لأية سلطة، لكنهم التمسوا حماية مولاي محمد ابن ملك تونس، عندما دخلت إلى مينائهم عشرون سفينة حربية، موفدة من طرف ملك صقلية، لاستخلاص الجبايات من قائد جربة. لكن حماية الأمير لهم لم تدم الا قليلاً، حيث استولى الأتراك على المنطقة ولا زال سلطانهم مبسوطاً عليها.

الفصل الثلاثون

الأُرْبَسْ

حسب الأخبار المتواترة لدى أهل البلاد، فإن الرومان بنوا مدينة الأربس الواقعة في سهل جميل، على مسافة ستين فرسخاً، جنوب تونس في اتجاه نوميديا وليبيا. المناطق المجاورة لها خصبة للغاية، وتموّن تونس ونوميديا بزروعها وبها يوجد أجود ما في افريقيا من أراض رعوية.

عندما حلت جيوش الوندال بهذه المنطقة، حاصروا المدينة، وقد تحصَّن فيها النبلاء من الرومان، لكن الاربس سقطت بأيدي الغزاة، فنهبوها ونشروا فيها الفساد والخراب، وظلت فترة كبيرة من الزمان، خاوية على عروشها، لا يشهد على سالف مجدها الا ما صمد من أطلال أبنيتها العتيقة، المشيدة من الحجر والمرمر، والتي نقشت عليها كتابات بالأحرف اللاتينية. وأذكر من بين أطلالها، أسوارها وقلعتها.

أعيد تعمير المدينة، وترابط بها الآن قوات تابعة لملك تونس، للحفاظ على الأمن، ولحماية المنطقة من أعراب نوميديا الذين تجلبهم المراعي لأنعامهم، ثم يبرحونها في الشتاء، محمَّلين بكميات هامّة من القمح.

ويلفت نظر الزائر، قنال من المرمر، يمرُّ بين قصر الوالي وحارتين آهلتين بالسكان، وتنساب فيه مياه تحرك عددا من المطاحن، وتنبع من عين دانية من المدينة.

يقوم اقتصاد الأربس على الفلاحة والنسيج، ويدفع السكان ضرائب هامة إلى ملك تونس، إلا أنهم يتكاسلون ويتطلعون إلى تقلب الأحوال السياسية.

إن هواء المنطقة ممتاز، وهذا ما يجعلها صحّياً أجود من غيرها.

الفصل الواحد والثلاثون

باجــــة

باجة مدينة عتيقة. أسسها الرومان على منحدر جبل في الطريق الرئيسية المؤدية إلى قسطنطينة، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من البحر وثلاثة وأربعين فرسخاً غرب تونس. يقول أحد المؤرخين العرب في شأنها، إنها بنيت على أنقاض مدينة سابقة.

تحيط بباجة أسوار عالية، وبداخلها توجد قلعة محصَّنة عززها ملك تونس منذ سنوات قليلة، بقلعة أخرى مزودة بأربعة عشر مدفعاً، تأوي عناصر الحامية التي يترأسها وال، وقد كلِّفت بالحفاظ على النظام، لأن سكان باجة متهورون، يتحينون الفرص للاندفاع وراء العصيان.

تقع باجة في منطقة فلاحية جيدة، تموّن تونس وما حولها بالمنتجات الزراعية، ويذهب أهل تونس إلى القول إنه لو كانت ببلادهم منطقة أخرى مثلها، لكانت كميات الثروات الفلاحية أكثر وزنا من الرمال الموجودة في البلاد.

ومع ذلك، يلاحظ أن أهل باجة في الفقر يتخبطون، لأن حكام تونس يثقلون كاهلهم بالضرائب، والأعراب يشنون عليهم غارات متتالية لنهب محصولاتهم الزراعية وأموالهم، دون أن تتمكن السلطة الحاكمة من ردهم عن غيهم أو القضاء عليهم. من أجل ذلك، فقد الفلاحون حماسهم ومضوا يهملون أعمالهم، فتقلص إنتاجهم واضمحلت مداخيلهم.

الفصل الثاني والثلاثون

عين زميــت

تقع هذه البلدة على مسافة اثني عشر فرسخاً من العاصمة التونسية وعلى بعد عشرين فرسخاً من باجة، بناها ملوك تونس واختاروا موقعها بمنطقة لم تكن مزروعة ولا اهلة، قصد تعميرها، لكن الأعراب تذمروا من هذا الاختيار وخافوا على خرية الرعي بالمنطقة. كان الملك مولاي محمد يخشى تمردهم، فوعدهم بتدمير المدينة، غير أن أسوارها وأبراجها لا زالت قائمة، ولا ينقص منازلها إلا سقوفها.

هذا وتملك قبائل أولاد بلييل، جل أراضي المنطقة.

الفصل الثالث والثلاثون

القصبة

شيد الرومان هذا الموقع في أرض عراء، على بعد ثمانية فراسخ جنوب تونس. هاجمتها القوات الإسلامية عدة مرات وألحقت بها أضراراً جسيمة، وقضى عليها الأعراب بصفة نهائية، لكن أسوارها المبنية من الحجر لا زالت ثابتة.

تحيط بالقصبة من كل جهة، أراضي فلاحية شاسعة، وتزدهر بها تربية المواشي، لكن الحقول غير محروثة، لأن العاهل التونسي لا يتوفر على القوة اللازمة ليقصي عنها الدخلاء من الأعراب الذين استوطنوها وأخذوا يفرضون سلطانهم على المنطقة بأكملها. وحتى لو فرضنا أنهم سمحوا للاهالي بزرع حقولهم، فإن التونسيين لن يقدموا على ما ينبغي من جهود لأنهم متكاسلون ويرفضون العمل الشاق، ذلك ما جعلهم يهملون الأرض، فتركوها ومشايتهم عرضة للاعراب.

الفصل الرابع والثلاثون

القيروان

القيروان مدينة كبيرة، أسسها عام 52 هـ، عقبة بن نافع، في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان. تقع في سهل شاسع الأطراف ويؤكد المؤرخون العرب، أنها أجمل المدن التي بناها المسلمون بإفريقيا. تحيط بها أسوار من اللبن، وبها عدة أبراج. إنها تبعد عن سوسة باثني عشر فرسخاً وعن تونس بثلاثة وأربعين فرسخاً.

أذكر من بين آثارها، مسجدها الجامع الذي بناه عقبة، يُلَقِّن فيه أصناف المعرفة، نخبة من كبار العلماء والشيوخ، واتخذه ملوك تونس مقبرة لهم، لأن القيروان كانت أولى حاضرة إسلامية بنيت بإفريقيا. هذا وقد بناها عقبة لأسباب استراتيجة واتخذها المسلمون قاعدة عسكرية تنطلق منها عملياتهم الحربية، كما استخدموها مكانا لتأمين كنائزهم وغنائمهم الحاصلة من غزواتهم المتكررة في بلاد البربر ونوميديا، وما انتهى الى أيديهم من ثروات قرطاج.

المناطق المجاورة للقيروان قاحلة، لا تنبت فيها زروع ولا غلل، ويضطر أهاليها الى جلب حاجياتهم الضرورية للعيش، من المدن الشاطئية التي توجد أقربها الى القيروان، على مسافة أربعة عشر فرسخاً.

يشرف على المدينة جبل يبعد عنها بأربعة فراسخ، كان آهلاً بالسكان في عهد الرومان، ويشهد على ذلك ما بقي في جنباته من آثار منازلهم. تكسوه غابات من الخرُّوب وتنبع فيه مياه كثيرة، في حين، ليس في القيروان عين ولا بئر ولا يخترقها نهر، وليس بها سوى صهاريج لتجميع مياه الأمطار، يوجد بعضها خارج الأسوار، تورد منها الأنعام، ويتقاطر عليها أعداد هائلة من الناس، فتجف قبل شهر يوليوز، لا سيما وأن أعراب نوميديا يقصدونها بدورهم، فيتفاقم القحط والعطش بالمنطقة.

يتوافد طلاب المعرفة على القيروان من كل مناطق إفريقيا، مثلهم كمثل الطلاب الفرنسيين الذين يحجون الى باريس أو الطلاب الاسبان الذين يقصدون جامعة سلامانْكا، وكل فريق من هؤلاء وأولئك، يعتز باغترافه العلم من هنا أو هناك. إلا أن الأعراب لم يقلعوا عن شن غاراتهم المتتالية عليها، فالحقوا بها وباقتصادها أضراراً جسيمة، كانت عاملاً أساسياً في نقص المواد الغذائية ونشر المخمصة، كما تسببت في أفول نجمها حيناً من الدهر. أما الذين لا يزالون يقطنون بها، فإنهم صناع يعانون داعية الفقر، يقتاتون بريع دباغة جلود الغنم التي يصنعون منها ملابس للوجهاء ورؤساء القبائل.

ظلت الضرائب في عهد الملك مولاي الحسن(1) تثقل كاهل الأهالي، ولعل سخطهم على أحوالهم هو الذي دفعهم للترحيب بالحامية التركية التي حلّت بالمدينة، على إثر استيلاء خير الدين بربروس على مدينة تونس. ولما تمكنت قوات الامبراطور الاسباني من إقصاء خير الدين عن المدينة، بايع السكان إمام مسجد عقبة، وطلبوا منه أن يكون عليهم ملكاً، حتى لا يقعوا تحت نفوذ أمراء تونس. عندها، قام الامام ببسط سلطانه على المناطق المجاورة للمدينة، وتعزز ملكه بمناصرة القبائل له، فأصبح يحمل لقب ملك القيروان.

وسعى ملك تونس الى التحالف معه وتوحيد صفوفهما لمحاربة القوات المسيحية الغازية، فتصاهر معه، إذ زوج أحد أبنائه بإحدى بنات الإمام.

---

(1) مولاي الحسن، أحد ملوك (عهد) انحطاط الدولة الحفصية. تولى الملك عام 1525. في عهده، تم احتلال تونس من طرف قوات الامبراطور كارلوس الخامس (1534/6/15) وأبرم مع النصارى معاهدة صلح ووافق على اتخاذهم أولياءه. وفي عام 1535 استولى خير الدين بربروش على تونس، وأجلاه النصارى عنها، وراح مولاي الحسن يتعاون معهم ضد الاتراك، ثم نبذوه. فأخذ يستنجد بهم ويستنصرهم. لم يرض ابنه أحمد سلطان بسياسته، فهجم عليه وفقأ له عينيه وبقي مولاي الحسن مع ذلك يناصر المسيحيين الى أن مات، وهم يضربون الحصار على مدينة مهدية، عام 1551 (المترجم).

إلا أن ملك القيروان، رغبة منه في صيانة ملكه وضمان أمن البوادي، راح يتعاون مع الجنود العاملين تحت لواء الامبراطور المسيحي، ويمدهم بالمواد الغذائية ويعزز صفوفهم بالجنود، ليساعدوه على طرد درغوت الحاكم التركي، الذي كان محاصرا بالعاصمة التونسية. من أجل ذلك، أخذ درغوت يحيك الدسائس ضده وألّبَ عليه فئة من الفقهاء وجماعة من السكان، وتسلل إلى القيروان ليلا، فاغتال ملكها، ثم أعلن عن ضم المدينة إلى السلطات التركية(2).

وتجدر الاشارة إلى أن عبد الله الثاني، آخر ملك في دولة بني الأغلب(3)، شيد على مقربة من القيروان، بلدة لإسكان الفائض من النازحين إليها، وقد كثروا بعد استيلاء العرب على صقلية.

وبهذا يتم الحديث عن حواضر الإقليم الداخلية.

الفصل الخامس والثلاثـون

زَغْـوَان

زَغْوَان إسم يطلق اليوم على جبل قفـر يوجد على بعد فرسخ واحد(4) من مدينة تونس، بين جنوبها وشرقها. رغم علوّ هذا الجبل وطقسه البارد، فإنه كان في الماضي آهلاً بالسكان، إذ لا زالت آثار البنايات فيه قائمة، وهي تحمل كتابات لاتينية منقوشة على الحجر. ومن بين الآثار الباقية، أذكر القصور وخلايا النحل المبثوتة في كل جهة، ومطمورات لاختزان الشعير.

كان القرطاجيون يجلبون منه الماء إلى مدينتهم بواسطة قناة مرفوعة. إنه الجبل البارز والوحيد الذي يتقدم نحو البحر في هذه المنطقة. أما ما بقي من إقليم تونس، فإنه أراضي شاسعة، إذ تنفرج هناك سلسلة الأطلس وتفتح المرور بدون صعوبة، نحو إقليمي الزّاب ونوميديا.

---

(2) وقع هذا عام 1557، يوم 27 دجنبر، وبذلك وضع درغوت حداً لهيمنة الطريقة الشابية. (المترجم).

(3) آخر ملك في دولة بني الأغلب، هو ابن عبد الله الثاني وقاتله هو أبو مضر زيادة الله الثالث، بإجماع العديد من المصادر العربية. (المترجم).

(4) المسافة بينهما أكثر من ذلك.

الفصل السادس والثلاثون

الـــزّاب

يقع إقليم الزاب جنوب إقليم تونس ويمتد إلى إقليم نوميديا. توجد به عدة مدن وقرى، أكبرها مدينة المزاب، وهي عاصمته. وبما أني سأتطرق إلى هذا الإقليم في سياق الحديث عن نوميديا، فإني أرجئ التعرض إليه بتفصيل في هذا المقام، وألاحظ أن رغم خضوع الزّاب إلى نفوذ ملك تونس، فإنه ينتمي إلى بلاد البربر التي تتشكل منها ربع بلاد إفريقيا.

الفصل السابع والثلاثون

إقليم طرابلس

يحد هذا الاقليم غرباً، إقليم تونس، ويحده البحر جنوباً، انطلاقاً من مصب نهر تريتون[5]، ذلك المصب الذي توجد به مدينة تسمى الآن قابس، ويمتد من هناك إلى حدود مسلاتة، ويدخل فيه سيرث الصغير، وتحده في أقصى جنوبه، نوميديا وليبيا، وهما منطقتان صحراويتان. أما من جهة الشرق، فإنه يمتدّ إلى حدود إقليم بنتابوليس كما يسميه اليوم أهل البلد.

إن معظم جهات هذا الإقليم صحراوية قافرة، لكن فيها بعض القرى يقطنها البرابر، وسياتي الحديث عنها وعن غيرها من المواقع الشاطئية، في أحد الفصول اللاحقة.

الفصل الثامن والثلاثون

قـــابـــس

كاباي، التي يسميها أهل البلد قابس، مدينة كبيرة وعريقة في القدم، إذ أنها من بين المدن الأولى التي شيدها الرومان بإفريقيا. تقع هذه المدينة على شاطىء خليج يمتد من صفاقس إلى جربة، وتؤمن سلامتها أسوار عظيمة تحرسها قلعة جميلة مشيدة على مقربة من مجرى جدول ماؤه حارّ. أما موقعها الجغرافي، فإن بطليموس حدده على خط عرض من ثمانية وثلاثين درجة وأربعين دقيقة.

---

(5) يسميه العرب وادي قابس. (المترجم).

ازدهرت قابس في عهد الرومان، ولما سقطت في أيدي جيوش القوط أقاموا بها حامية، ولما دخلها المسلمون، أصابها الدمار، ولا سيما بعد أن أصبحت تابعة لنفوذ مملكة القيروان، ولم تسترجع مجدها السالف رغم إعادة تعميرها، لأن الأعراب كانوا يوالون عليها غاراتهم وينهبونها، فباتت خالية مهملة ردحاً من الزمن.

يتألف معظم سكانها حالياً من السود الذين يتعاطون إلى صيد الأسماك والفلاحة، إذ توجد بالمنطقة واحات عديدة، أثمارها تجف قبل الأوان ولا تحتمل التصبير كأثمار نخيل نوميديا. أما بقية الأراضي، فإنها رملية، ولا تنتج إلا قليلاً من الشعير، حتى أن الأهالي يتغذون بجذور حلوة(6) يستخرجونها من الأرض ويأكلونها بعد طهيها، كما يفعل الهنود بالبطاطيس.

أما اليوم، فإن قابس صارت تابعة لحكم الأتراك، شأنها شأن مدن الإقليم قاطبة، وكل المدن الشاطئية، وترابط بها حامية تابعة لسلطة والي طرابلس.

الفصل التاسع والثلاثون

محــــرس

إنها قلعة شيدها منذ عهد قريب ملوك تونس بمدخل خليج قابس، لحمايته من غارات القراصنة المسيحيين الذين تعودوا نهب مدن وقرى الشاطىء. سكانها فقراء، لا يملكون أرضا ولا أنعاما، يشتغلون مع القراصنة الأتراك أو يمارسون الصيد، وبعضهم نسّاجون أو يصنعون الطرابيش. لغتهم هي البربرية، مثلهم مثل سكان جزيرة جربة، ولا يتعاملون سوى مع أهل جربة، التي لا تبعد عن محرس الا بثمانية عشر فرسخاً.

الفصل الأربعون

حديث عن أهالي جزيرة قَرْقَنّة المرتبطة باليابسة

تقع هذه الجزيرة أمام صفاقس، وبها عدة قرى صغيرة يقطنها برابر فقراء ولكنهم أشرار. أرض الجزيرة كلها صلداء، تتكسر عليها الامواج بشدة حتى انه

(6) تلك الجذور هي البطاطا الحلوة الشائع إنتاجها في كثير من بلدان افريقيا وآسيا وأميريكا اللاتينية وحتى في جنوب بعض أقطار أوربا الواقعة بجانب البحر المتوسط. أما عن الهنود، فإن المؤلف يقصد بهم الهنود الحمر. (المترجم).

يصعب على السفن أن تدنو منها. إنها تابعة لجربة، وتشاركها مصيرها.بعض البرابر من سكان قَرْقَنَّة، بحارة، تربطهم بالأتراك صداقة كبرى ويرافقونهم في عمليات القرصنة.

ظلت قَرْقَنَّة زمناً طويلاً خاضعة لسلطة المسيحيين. وفي عام 1510، بعد أن هزم الكونت بيدرو النفاري سلطات جربة، عاد إلى طرابلس، ثم غادرها على رأس أسطول يتألف من ستين وحدة، ويحمل ثمانية آلاف جندي، وقد أقسم بأنه سيلحق بالعرب أشد الأضرار، إلا أن عاصفة هوجاء هبّت في البحر، وأتلفت معظم وحداته وكادت سفينته تغرق بدورها، فولى عائدا إلى طرابلس، وجهز ثلاثين مركباً، حمل على ظهرها خمسة آلاف رجل وأبحر مرة أخرى لنفس الغاية، فداهمته عاصفة أخرى وأغرقت عشر سفن وعدداً كبيراً من الجنود. أما الذين نجوا من الهلاك، فأصابهم الجوع والعطش، ونزلوا بجزيرة قرقَنة التي كانت وقتها خالية، لأن أهلها قادوا أنعامهم لمراعي داخل البلاد. لم يجد النصارى ما يتزودون به من مؤن، فشرعوا يبحثون عن الماء الصالح للشرب، إلى أن عثروا على ثلاثة آبار، فسقوا منها ثم رحلوا.

وفي يوم 21 فبراير، استأذن أحد كبار الضباط الكونت في النزول من جديد بالجزيرة، لتنظيف الآبار والتزود منها بالماء، فأذن له بذلك. واصطحب الضابط معه أربعمائة وخمسين من خيرة الجنود، وشرعوا ينظفون الآبار، وأقاموا حولها بعض المنشآت العسكرية، لتحميهم من أي هجوم مفاجىء. وفي المساء، قام الكونت بزيارة تفقدية إليهم، ثم سمح لهم بالمبيت في عين المكان، بإلحاح منهم.

أثناء عمليات تنظيف الآبار، تعرض أحد الجنود للتوبيخ، ولم يكتف الضابط بالكلام، بل اقتلع شعر لحيته، فغضب الجندي، والتحق تحت ستار الليل، بجماعة من العرب كانوا قد لجأوا إلى جانب من الجزيرة، وأطلعهم على رغبته في اعتناق الاسلام، وتسليمهم كل المسيحيين الذين يحرسون الآبار.

رحب أولئك العرب بالجندي، فقادهم إلى الآبار، وهناك قتلوا الحراس الذين كانوا نائمين، ثم تسللوا إلى المنشآت التي تحصن فيها بقية الجنود، وأبادوهم جميعاً إلا ثلاثة منهم، أرسلوا أحدهم أسيرا إلى ملك تونس، والثاني الى حاكم جربة، وبقي الثالث يعاني من آلام الجراح، وسط جثث رفقائه. وفي هذه الأثناء، وصل الى عين المكان، عشرون جندياً من الوحدة المرابطة، كانوا قد ذهبوا من قبل، نحو

الأسطول البحري، ليأتوا بالمؤونة لرفقائهم، لكنهم اختبأوا عندما سمعوا أصواتاً مشكوكاً فيها.

بعدما فتك العرب بالجنود المسيحيين، أطلقوا النار للتعبير عن فرحتهم ثم انسحبوا. أما الجريح، فإنه التحق بأصحابه وأخبرهم بما حدث. عندها، نزل إلى الأرض بقية الجنود، وكان معهم الكونت بيدرو النفاري الذي وقف متحسراً على جثث النصارى، ثم أمر بالإبحار فوراً وتوجه إلى جزيرة كابري التي تبعد عن مدينة نابولي بثلاثين فرسخاً فلم يصلها إلا بعد أن قاسى المحن، وتبعثر أسطوله، ولم يبق له أثر يذكر.

الفصل الواحد والأربعون

جزيرة جربة(7)

كان القدامى يسمون هذه الجزيرة، منيسة، وهو اسم كان يطلق أيضاً على مدينة بها. تناول بطليموس الحديث عنها، فقال إنها تقع في نقطة التقاء خطي الطول والعرض، بتسع وثلاثين درجة بالنسبة للأول، وإحدى وثلاثين درجة بالنسبة للثاني، وكان يسميها لطفجنة(8).

ترتبط جزيرة جربة باليابسة، وأراضيها رملية ينبت فيها التمر والزيتون والعنب وغير ذلك من الفواكه، ولا يتجاوز محيطها ستة فراسخ. أما من الناحية العمرانية، فلا يوجد بها، في هذا العهد، سوى مداشر صغيرة وقليل من القرى. تربة حقولها خفيفة، لا يمكنها أن تنتج سوى قليل من الشعير، على أساس سقيه، وهو عمل لا يتأتى إلا بصعوبة لأن الآبار عميقة جداً، وهذا سبب قلة الخبز بها، وقلة وجود المواشي في ربوعها.

بنى ملك قطالونية في جربة عندما كانت الجزيرة في تعداد ممتلكاته، قلعة محصنة توجد على الشاطيء، وهي مقر الحاكم، وعلى مقربة من هذه القلعة، توجد بناية ينزل بها التجار الأتراك والأعراب والنصارى بمناسبة سوق أسبوعي يقام هناك، يأتيه السكان من ربوع الجزيرة، والعرب المقيمون بالشواطئ. تباع فيه

(7) مرمول يسمي جربة وقرقنة وجزرا صغيرة حولها، جزر الاجلاف. (المترجم).
(8) تسمية غريبة عند بطليموس، إذ أنها مؤلفة من اسمين عربيين. (المترجم).

المنتجات المختلفة، وتنقل منه إلى تونس والأسكندرية، جلود الأبقار والأصواف والزبيب وغير ذلك.

ولا أخفي أن المسلمين ألحقوا بجربة أضراراً جسيمة كما فعلوا بطرابلس وقابس اللتين كانتا في ملك الرومان، وقد كان بالجزيرة مدينتان كبيرتان، هما منيسة وغيرة، لا زالت أطلالهما صامدة، وفي سنة 1284م، احتلتها قوات مسيحية تابعة لمملكة أراغون، بقيادة الأميرال روجي اللوري، وظلت سنين طويلة تحت لواء النصارى.

لما وصل اليها روجي اللوري، في اليوم الثاني عشر من شهر شتنبر 1284م، أرسى سفنه بجانب البرزخ الذي يربطها بالبر، وذلك لمنع العرب القاطنين بها من مغادرتها، وللحيلولة دون توصلهم بالإمدادات من خارجها، ثم انزل بها جنوده ليلا، في غفلة عن سكانها، ونهب العديد من مداشرها. وعندما أصبح النهار، أذهل العرب بما شاهدوه، فلاذوا بالفرار عبر الحقول، ظانين أنهم سينجون بأنفسهم. وهكذا تمكن النصارى من احتلال الجزيرة بدون معركة، وقتلوا الكثير من أهاليها ثم أسروا فريقاً آخر ودان لهم الباقي من السكان، بالولاء والطاعة. بعد ذلك، شيد روجي قلعة على البرزخ وترك فيها حامية، ثم رجع إلى صقلية.

بينما كان النصارى عاكفين على بناء القلعة، بلغ إلى علم روجي أن أحد قواد البرابر القاطنين بجبال إقليم طرابلس، يحشد الجنود لمهاجمته، فأوقعه في كمين، ثم أسره ونقله إلى مدينة ميسين بصقلية حيث وضعه رهن الاعتقال، وظلت الجزيرة عهداً طويلاً تحت سيادة روجي، الذي خلف عليها قبل وفاته، ابناً له يحمل نفس الاسم.

في عهد روجي الثاني، أوفد ملك تونس جيشاً يقوده أحد العلماء ويتألف من النصارى الذين اعتنقوا الاسلام بتونس، ومن العرب، للهجوم على القوات المسيحية المستولية على الجزيرة، فقام ذلك الشيخ بتحريض سكان الجزيرة على النصارى، فحاصروا القلعة مدة ثمانية أشهر. إلا أن روجي المسيحي استنجد بملك صقلية، فأمدّه بستة بوارج وبعض السفن، ففكت الحصار عنه. فر الشيخ بعد ذلك، وأنزل روجي عقابا شديدا بكل من تواطأ مع ملك تونس، ثم استرجع السيادة على جميع أطراف الجزيرة. لكن، بعد وفاته، قام أهل جربة بالتمرد على أخيه دون كارل، الذي تولى شؤون الجزيرة، وعمره أربعة عشر عاما.

كان ولا زال يستوطن جربة قبيلتان، إحداهما تدعى قبيلة أولاد معاوية والثانية تدعى قبيلة أولاد مستونة، لهجتهما بربرية، ممزوجة بكلمات عربية. إن وجهاء[9] قبيلة أولاد معاوية كانوا طيبين، يتعاملون مع النصارى ويبادلونهم الصداقة. أما باقي أفراد القبيلة، المعروفين ببني الدرقي، فإنهم يختلفون عنهم في كل شيء، وقد تحالفوا مع أولاد مستونة لمحاربة النصارى في عدة مناسبات.

ذات مرة، حاصروا القلعة، وساعدهم على ذلك ملك تونس الذي أوفد إليهم بعض المحاربين، إلا أن دون كارل مضى يطلب الإسعافات من ملك صقلية[10] ومن ملك نابولي[11] فأرسلا إليه خمس بوارج محملة بالجنود، تمكنوا من فكّ الحصار المضروب عليه. بعد ذلك، رحل كارل إلى صقلية وقد عيّن شمعون دومنتلان حاكماً على الجزيرة.

مات كارل وانتقلت الى أخيه روجي الثالث، ممارسة السيادة على جربة، فدشن عمله بإشعال نار الحرب بين القبيلتين المتساكنتين بها، معلناً تأييده وتحيزه إلى بني مومن. وتلقى من ملك صقلية تعزيزات من الجنود والعتاد، يقودها جايم كستلار الذي لم يكد يطأ أرض جربة حتى شرع يهاجم العناصر التي كانت تقاوم تواجد بني مومن، إلا أنه لقي حتفه، وانهزمت قواته، وفقدت خمسمائة جندي.

أيقظت هذه المعركة همم أولاد مستونة، وألهبت دماءهم، فأبلوا البلاء الحسن في حربهم ضد النصارى وضد بني مومن، وأمام تفاقم الحالة، استنجد روجي بالبابا وبملك نابولي، لكنهما لم يهتما بطلبه. عندها، توجه الى ملك صقلية، فقبل مده بما يحتاج اليه، على شرط أن تموّل العمليات الحربية من موارد جزر خليج قابس[12]. وافق روجي على هذه الشروط، وتنازل عن جزيرة قرقنة وقصرها الى ملك صقلية، كبرهان على صدقه وضمانة مسبقة.

تنفيذا لهذه المعاهدة، أمر ملك صقلية بتجهيز أسطول يتألف من ثماني عشرة سفينة، وعين على رأسه أحد[13] نبلاء مدينة مسينة. بعدما نزل الغزاة بجربة التي

---

(9) يدعون بني مومن، حسب مترجم النص الاسباني. (المترجم)
(10) المدعو فردريك الثاني.
(11) المدعو روبير.
(12) هي جربة وقرقنة وما يجاورهما.
(13) يدعى بلغيرو دياتي، حسب مترجم النص الاسباني. (المترجم).

أصبح النصارى يسمونها «جزيرة الاميرال» رغبوا في قسط من الراحة، لما تحملوه، هم وخيول فرسانهم، من متاعب، خلال عبور البحر.

رابطت هذه الجيوش في غير نظام، ولما علم العرب بأحوالهم، اجتمعوا وحشدوا قواتهم — ولم يشاركهم في ذلك رؤساء بني مومن الذين التجأوا إلى القلعة — ثم انقضّوا عليهم وأبادوهم ولم ينج منهم سوى عشرة فرسان. أما نبيل مسين، فإنه وقع أسيراً وهلك من النصارى يومئذ، ما يزيد عن ألفين وخمسمائة من الجنود المشاة وأكثر من ستين فارساً.

عندما استرجع العرب السيادة على جربة، التمسوا من ملك تونس أن يرسل اليهم تعزيزات لضرب الحصار على القلعة. إلا أن نبيل ميسين افتدى، فأرسل السفن فارغة إلى ملك صقلية، الذي هاله الأمر، وهبّ إلى إرسال قواته البحرية بقيادة الأميرال رامون مونتانير لفكّ الحصار عن القلعة التي مكث بها شمعون مونتلان.

كان الأميرال رامون ذا خبرة واسعة، فاستطاع إخماد الثورة بالجزيرة، وأطلق على العصاة مائتي فارس من قوات بني مومن، وشرع يحارب قوات الشيخ التي كانت تتألف من أربعمائة فارس وثمانية آلاف من المشاة، وحالفه النصر في عدة مواقع، فلم يجد الشيخ بدأ من الجلاء عن الجزيرة. ولم يغب الشيخ الا أياماً قليلة حتى عاد إلى ميدان الوغى، على رأس ثمانمائة فارس زوده بهم ملك تونس، إلا أنه لم يستطع عبور البرزخ الرابط بين اليابسة والجزيرة، لأن الأميرال أقام حصارا حولها، واستولى على ست من بين السفن العشرين التي تألف منها أسطول الشيخ.

أمام هذه التطورات، أبرم الأهالي مع النصارى هدنة، للرحيل إلى اليابسة، ولبث الشيخ منعزلا، فسعى إلى التصالح مع أعدائه والإنضواء تحت ولايتهم، لكن النصارى رفضوا طلبه نظرا لما تسببه لهم فيه من خسائر. وعندما استتب الهدوء بالجزيرة، أرسل ملك صقلية إليها عشرين سفينة حربية، محملة بمائتي فارس وألفين من المشاة، تحت قيادة كرّادو لانسا. وما أن حل هذا القائد بالجزيرة، حتى استسلم إليه الشيخ، وعلى إثر ذلك، قاد كرّادو حملة ضد المستونيين الذين كانوا يتوفرون على عشرة آلاف من المشاة، وبعض الفرسان، وقد حشدوا النساء والأطفال في قلعة عتيقة تقع بالمكان الذي كانت فيه قديماً مدينة غرّة. أما القوات التي خرج بها كرّادو إلى القتال، فإنها كانت تتألف من مائتين وعشرين دركيّا،

وثلاثين فارساً وألفين من المشاة، فهزموا القوات العربية كاملة، ثم اقتحموا قلعة غرّة وأسروا ما يقرب من اثني عشر ألف نسمة، من نساء وأطفال.

عاد كرادو بعد هذه المعركة إلى صقلية وقد ترك بالجزيرة حاكمها مونتانير، ليرعاها باسم ملك صقلية. لكن أهل جزر خليج قابس الذين نجوا من المعركة السابقة، انضموا إلى قوات عربية وذهبوا لغزو صقلية.

في هذه الأثناء، اندرجت دفة الحكم في تونس إلى أمير عربي[14] ظل يدعي أنه من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن لسوء حظه، تألب عليه سكان بعض الأقاليم، فاضطر إلى إبرام هدنة مع مونتانير، لمدة أربع عشرة سنة، على أن يدفع كل عام، ضريبة قدرها خمسة آلاف دبلون من الذهب، إلى ملك الأراغون الذي كلف مونتانير بمهمة التفاوض، نيابة عنه وعن ملك صقلية؛ وراح مونتانير ينفق ريع الاتفاقية في تمويل العمليات الحربية لصد هجمات العرب عن القلعة.

كان الأمير العربي يتوفر على جيش مُكَوَّن من المرتزقة النصارى، فيهم الفرسان والمشاة، ويؤطرهم في القيادة العليا ضابطان، أحدهما يسمى برنادان دوفونس وهو يحمل فريقه علم الأراغون، والثاني يسمى ريمون دومنتكاد، ويحمل فريقه علم مملكة صقلية.

لم تكد تنتهي مدة الهدنة المبرمة بين الطرفين، حتى جاهر الجنود المسلمون، من قوات الأمير، بما ظلوا يعانونه من طغيان وإهانة من طرف الضابطين المسيحيين، وتضامن معهم سكان جربة وصفاقس وقرقنّة للتنديد بقوات الاحتلال وأعربوا عن استعدادهم لاستئناف القتال ضد الغزاة، في ظل نظام ملك تونس، فأمدّهم العاهل التونسي بتعزيزات حربية، فضربوا الحصار على القلعة وحاميتها.

تناهى إلى علم ملك صقلية، ما أصبحت عليه الأحوال بالمنطقة، فقرر أن يرسل إليها، رغم الاضطرابات السائدة في مملكته، أسطولاً يتألف من عدة وحدات حربية، أسند قيادتها إلى الأميرال دون ريمون دوبيرالدي، ثم أمره بتزويد الحامية بالعتاد الحربي والمواد الغذائية.

عندما نزلت قوات صقلية بالجزيرة، دخل فريق من جنودها إلى القلعة، وشرع فريق آخر يحارب العرب الذين اضطروا الى الجلاء عن مواقعهم. وفي خضمّ هذه الأحداث، أطلت على جربة وحدات حربية تابعة لمملكة جنوى ومملكة

(14) يسمى ابن يحيى، حسب رواية مترجم النص الاسباني.

نابولي، واستولى جنودها على سفن مملكة صقلية وغنموا عتادها الحربي وباعوه الى القوات العربية[15]، الأمر الذي أرغم الأميرال دون ريمون الى الفرار الى صقلية، وقد كلف بيدرو السرقسطي بالدفاع عن القلعة.

استأنف العرب القتال، وحاصروا القلعة وهم يوالون عليها هجماتهم العنيفة حتى استسلمت لهم حاميتها. إذ ذاك، دخلوا إليها وفتكوا بكل نزلائها، ثم رجموا بالحجارة حتى الموت الحاكم بيدرو السرقسطي وابنه.

منذ ذلك الحين، أخذ سكان جزيرتي جربة وقرقنة يعيشون تحت لواء الاسلام ولبثوا خاضعين للمملكة التونسية إلى أن أعلنوا عن استقلالهم وانفصالهم، وحطموا البرزخ الذي كان يربط جربة بالبرّ.

بذلك استيقظت نعرة النزاعات القبائلية بين السكان، وغاصوا في سالف خلافاتهم، ومضوا يتقاتلون من أجل الحكم والزعامة، وشاعت فيهم موجة من الاغتيالات وأخذ أعيانهم يسقطون صرعى، وبعث في أوساطهم أكثر من عشرة أمراء في وقت وجيز، يتنافسون على القيادة في الجزيرة التي انعدم فيها الأمن والاستقرار.

بينما كانت الأمور تجري على غير هدى في هذه المنطقة، كانت رياح الخلافات تهب على مملكة نابولي، حيث نشبت نزاعات حادة بين الملكة جان وملك الأراغون الذي دعته الملكة المذكورة للإشراف على شؤون مملكتها، فلم يحصل بينهما اتفاق أو تفاهم، ذلك ما حمل ملك الاراغون على صرف اهتمامه وعنايته إلى المغامرات الحربية، وداعبته من جديد، فكرة احتلال جربة مهما كان الثمن.

لذلك، بنى قاعدة بحرية في موقع غير بعيد من الجزيرة، لمراقبتها عن كثب، ولمنع توصل أهلها بالإمدادات الخارجية. وبعد أن فرغ من بناء القاعدة، حصنها وضرب حصاراً على جربة. تحركت مرة اخرى مشاعر ملك تونس، فهبّ إلى إغاثة أهلها، بإرسال جيش قوي لمحاربة النصارى. إلا أن الجيش التونسي تكبّد خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد، وتمكنت القوات المسيحية من احتلال الجزيرة التي رابطت فيها فترة طويلة، إلى أن انتفض السكان انتفاضة كبرى، فأرغموا المسيحيين على الجلاء.

(15) حدثت قبل ذلك انشقاقات في صفوف المسيحيين، خصوصا بين المملكات الثلاث، صقلية، نابولي وجنوة (المترجم)

رجع الفونسو قائد النصارى إلى صقلية، وأعاد تنظيم القوات البحرية، ثم شن غارة خاطفة على ميناء تونس، واستولى على بعض السفن التي كانت راسية به، ثم ولى عائداً بغنيمته الى صقلية، مع فكرة القيام بهجوم واسع على المملكة التونسية في وقت لاحق، غير أن الاضطرابات التي هزت أركان مملكة نابولي، دفعته إلى العدول وقتها عن ذلك الهجوم.

هذا وسنرى في الفصول القادمة، ما هي الأحداث التي وقعت بجربة، فيما بعد.

سبق لنا القول إن الكونت بيدرو النفاري استولى على مدينة طرابلس، ورغب في بسط نفوذه على جربة التي لا تبعد عن طرابلس الا بخمسة وثلاثين فرسخاً، وظن أن العملية سهلة للغاية، فتوجه إلى مضيق القنطرة[16] بأسطول يتشكل من ثلاث عشرة وحدة بحرية، ثم أوفد إلى القنطرة ثلاثة رجال حاملين علما أبيض ويتحدثون بالعربية، ليعرضوا على الأعراب الأمن والسلام. لكن الأهالي الذين كانوا على علم باحتلال طرابلس، ظلوا على جانب كبير من اليقظة والاستنفار. ولما تراءت لهم السفن المسيحية في عرض البحر، وهي تتجه نحو الجزيرة، ازدادوا حذرا. وعندما دنت سفينة الرسل الثلاثة منهم، أطلقوا عليها النار، فمات أحدهم، وفر الآخران، وأعلن السكان كافة أنهم لن يسمحوا للعدو بالنزول في الجزيرة وأنهم مستعدون للموت، دفاعا عن أرضهم، هم ونساؤهم وأطفالهم، لكن الكونت لم يحفل بإنذارهم، وتابع طريقه لمشاهدة البرزخ[17]، فلم يعثر له على أثر، لان أهل الجزيرة حطموه من قبل. خاب أمل الكونت، فأرجأ عملية الغزو الى وقت آخر، ثم ولى عائدا الى طرابلس وهو يعض أنامله من الغيظ، تحدوه رغبة الإنتقام من البرابر.

وصل الكونت الى طرابلس في اليوم التاسع من شهر غشت، فاستعرض قواته التي كانت تتألف من خمسة عشر ألف جندي، وترك بالمدينة ثلاثة آلاف تحت قيادة الضابطين سمانييغا وبالامينو. أما الآخرون، وهم اثنا عشر ألف جندي، فإنهم ركبوا السفن وبقوا على ظهرها في الميناء، مدة ثلاثة وعشرين يوما، لأن البحر كان هائجا.

---

(16) القنطرة مدينة تقع جنوب جربة، على شاطئها. (المترجم)

(17) كان هذا البرزخ كالجسر، يربط الجزيرة بالبرّ، ويسميه مرمول جسراً. (المترجم)

في هذه الاثناء، ظهر في عرض البحر، خمس عشرة سفينة حربية كبرى مسيحية، كان من بين ركّابها، دون كارسيا الطليطيلي وأحد إخوته، وهما من أنجال دوق الألب، يرافقهما عدد كبير من النبلاء الإسبان، وقد قدموا لمشاهدة غزو جربة، وكان على متن تلك السفن أيضاً، الضابط دييكو دو فيرا، قائد فرقة المدفعية، على رأس ثلاثة آلاف جندي أخذهم من الوحدات الإسبانية التي كانت ترابط بمدينة بجاية. إلا أن هؤلاء النبلاء الذين أصابهم العياء والملل من جراء رداءة أحوال البحر، رغبوا في النزول الى البرّ، ليستريحوا ويسترجعوا نشاط أجسامهم، فمكثوا في طرابلس الى اليوم السابع والعشرين من الشهر، حيث أبحرت في نفس اليوم نحو جربة، كل الوحدات المجتمعة.

وصلت السفينة الاستطلاعية الى الجزيرة قبل الأخريات، لأنها كانت خفيفة وسريعة، وكانت ترافقها سفينتان أخريان، ودنت الوحدات الثلاث من الجهة التي كان فيها البرزخ، ثم انتقلت الى موقع آخر، على مقربة من برج قديم، واختفت وراء الصخور.

وعندما جن الليل، نزل بهذا المكان، جنود بعض السفن الأخرى، قادمين على متن زوارق مجدافية، لأن السفن الكبرى كانت تخشى أن تصاب برصاص العرب، وقد تحتم على الغزاة أن ينزلوا بمكان بعيد ما عن اليابسة، فأخذوا يمشون في الماء ولا يحملون معهم إلا أسلحتهم.

أصابهم العياء، وتبللت ملابسهم، فأقاموا على مقربة من البرج المذكور حفلا دينيا. وعندما طلع النهار، نزل الى البرّ، دون كارسيا الطليطلي، على فرس رمادي اللون، يرافقه خادمان كان أحدهما يمشي على يمينه، والثاني على شماله، وكان عمّه المعتوه يرافقه، فدعا له وطلب من مساعديه أن يزيداه سلاحا آخر. لكن دون كارسيا رفض تدخل عمه في ما لا يعنيه، مؤكدا أنه أتى الى الجزيرة الى خوض المعارك وأنه قادر على كل المجابهات، ثم نزل عن فرسه ومضى يرتب الجنود، واستغرقت هذه الترتيبات وقتا طويلا، تحت شمس محرقة، وقد أصاب العساكر الظمأ وراحوا يفضلون كوب ماء على التفاح الذي وزع عليهم قبل النزول الى البرّ.

انتصف النهار، وبدأت جحافل الجنود تتحرك مشيا على الأقدام، وعددهم خمسة عشر ألفا، تتقدمهم فرقة المدفعية ويحمل عضوان من أفرادها، صقرين وبلزين. كانت المسيرة شاقة والرمال حارّة، لقطع مسافة فرسخ ونصف. اشتد بهم العطش وأصابهم العياء، خصوصا منهم أولئك الذين كانوا يجرّون المدافع أو

يحملون على أكتافهم، براميل البارود، فمنهم من سقط ميتا، ومنهم من غادر صفّه، تحت بصر قوادهم العاجزين. أماّ الضابط السامي، المدعو فيونيلو الذي كان يقود الطليعة، فإنه لمس عدم قدرته على حل هذا المشكل، وكان أول من تقاعس، وتبعه في ذلك، دون دييغو باشيكو الذي كان في الخلف، فعمت الفوضى صفوف الجيش وامتلأت الأرض بجثث الأموات منه.

هنالك، عكف دون ݣارسيا على إثارة حماس الذين وهنوا، قائلا بأن الماء موجود تحت النخيل القريب. وواصل الجيش بمشقة الأنفس تقدمه فوق الرمال حتى دخل منطقة كثيفة النخيل، كان يهيمن عليها صمت رهيب، لأن النصارى لم يصادفوا في الطريق لا عربيا ولا صديقا ولا عدوا. عندها، أحس قادة الجيش بالخوف، رغم حنكتهم، ومع ذلك، مضوا يمشون وهم مذعورين فلم يجدوا إلا آبارا بين حطام بنايات عتيقة، وقد ترك الأعراب حول الآبار، لغاية في نفس يعقوب، أحبالا وجرّات لاغتراف الماء، ثم اختبئوا غير بعيدين من المكان، وهم يتشكلون من ثلاثة آلاف فارس.

بلغ العطش بالنصارى درجة قصوى، فلما رأوا الآبار، تزايدت البلبلة في صفوفهم وتقاطروا عليها، يتسابقون نحو الماء، يريد كل واحد أن يرتوي قبل صاحبه. في هذه الاثناء، خرج فرسان الأعراب من مخابئهم، وانقضّوا على النصارى الذين لم يحفلوا بالخطر الذي داهمهم، لأن العطش فعل فيهم ما فعل. وما كنت تسمع أثناء الهجوم عليهم إلا صراخ الأعراب كعادتهم وقد كانت نبالهم تصيب أهدافها بدقة. أثناء المعركة، كان دون كارسيا يتنقل من مكان الى آخر، يخطب في الجنود ويلهب حماسهم ويحرضهم على الصبر، فالتف حوله العديد منهم، ثم قام بهجوم منسّق على الأعراب الذين اضطروا إلى التقهقر حينا، لكنهم سرعان ما استجمعوا، وأعادوا الكرّة، فسقط العديد من النصارى قتلى أو جرحى، ولقي دون كارسيا مصرعه وقد اخترقت جسده عدة نبال، في حين أخذ الجنود الآخرون يفرّون في اتجاهات مختلفة.

حاول الكونت بيدرو النفاري جمع شتات ما بقي حيّا من الجنود، لكنهم رفضوا متابعة القتال، فتخلى هو عنهم أيضا وأخذوا كلهم وقتها يبحثون عن الملجأ، في جوّ من البلبلة لا مثيل له، إذ أن حتى الحراسة الخلفية التي كان من واجبها أن تؤمن لهم سلامة الرجوع الى سفنهم، أصابها الذعر وعكف كل واحد من عناصرها يقول يومئذ أين المفرّ. ومن حسن حظ هؤلاء الجنود، فإن الأعراب لم يطاردوهم، إذ

لو تعقبوهم، لكانت الخسائر أكثر جسامة في صفوف النصارى. وربّ قائل من ادعى أنهم شاهدوا أعرابيا على فرس، يرتدي خودة لمّاعة، يخاطب الجنود المسيحيين باللغة الإسبانية، ويشجعهم على الثبات، لأن الأعراب في نظره لا يتقنون الفنون الحربية. لعل ذلك الأعرابي هو أحد الثلاثة الذين انسلخوا عن عقيدتهم المسيحية.

عندما بلغ الجنود الفارُّون الى الشاطىء، كانوا على سوء الاحوال، جسميا ومعنويا، متأثرين بالعياء والعطش، حتى إن كثيرا منهم أصيبوا بالجنون.

فقد النصارى ذلك اليوم، ما يزيد عن ألف وخمسمائة جندي، مات منهم الثلثان بالعطش، علما أن الأعراب أسروا عددا منهم. والاعتقاد السائد هو أن الذين قتلوا بكثرة، كانوا من بين الجنود الاولين الذين تهافتوا على الآبار.

أشرف الكونت بيدرو بنفسه على إجلاء الجنود الباقين، على متن زوارق مجدافية حتى وصلوا الى السفن الكبرى التي كانت راسية بعيدا من موقع الانزال، وترك في البر ثلاثة آلاف جندي على أن يبحروا بدورهم غداة ذلك اليوم. وراح فريق منهم يبحث عن دون كارسيا، وهم لا يعلمون أنه لقي حتفه.

لما طلع الجنود الى سفنهم، لم يجدوا ماءا صالحا للشرب، لأن النساء استعملنه لغسل الملابس، وتناوله الخدم لمآرب أخرى، وقد أمسى النصارى قبل ذلك، يعتقدون أن الجزيرة ستندرج تحت نفوذهم.

عاد الأسطول الى طرابلس وعلائم الحزن العميق والخيبة العارمة تهيمن على الكونت وجنوده. وهناك تشتّت شمل الأساطيل المسيحية ورجعت كل وحدة الى قاعدتها.

بعدما احتلت جيوش الامبراطور كارلوس الخامس مدينة تونس، لجأ حاكمها التركي درغوت(18) الى جربة، وأخذ يضايق النصارى ويذيقهم من المحن ألواناً، حيث ضرب حصارا شديدا، في انتظار وصول قوات تركية، ليشن عليهم هجوما واسعا. عندما علم الامبراطور بأحوالهم، أمر أندري دوري بالتوجه نحو صقلية، وأن ينزل بجربة الجنود والعتاد والمؤونة، وأن لا يدّخر جهدا لأسر درغوت.

---

(18) عندما نزلت جيوش كارلوس الخامس بتونس واحتلت القلعة الواقعة بحلق الواد، عام 1535، يوم 15 يونيو، كان حاكم تونس هو خير الدين بربروس، أما درغوت فإنه كان يهيمن على المنطقة الواقعة بين القيروان وجربة وطرابلس. (المترجم)

أبحر أندري دوري إلى جينوى ومنها رحل إلى نابولي، على رأس أسطول يتشكل من إحدى عشرة وحدة محملة بالجنود، ثم عرج على صقلية، وأضاف إلى أسطوله إحدى عشرة سفينة أخرى محمَّلة بالمؤونة والعتاد الحربي، وغادر باليرمو يوم فاتح أبريل، وأنزل بجربة الجنود والمؤونة والعتاد. هنالك علم أن درغوت يوجد في البرّ، فذهب إلى صفاقس سعيا وراءه، إلا أن أعرابيين أطلعاه أن التركي يوجد على رأس أسطول صغير، بحوض القنطرة. ابتهج المسيحيون بالنبأ، إذ أن حوض القنطرة يشكل أجود مكان لمحاصرة درغوت والقضاء على قواته. من أجل ذلك عاد أندري دوري إلى شواطىء القنطرة.

صادف الضابط النصراني في طريقه سفينتين تركيتين محلّتين بالبضائع، فاستولى عليهما وركابهما. ولما أطلّ على ممر القنطرة، تراءت له سفن درغوت، التي كان بعضها مسلحاً، والبعض الآخر غير مسلح. حين رأى درغوت أسطول النصارى أمر بشحذ الجنود الأتراك والأعراب، وهو يجهل خطورة الحالة بدقة، ثم تقدم للدفاع عن حوض القنطرة، وأطلق بعض الطلقات المدفعية على وحدات أندري دوري الذي أمر سفنه في الحين بالاحتماء وراء الصخور. أما درغوت وجنوده، فإنهم مضوا بعد ذلك يقيمون الحواجز على الشاطىء، وشيدوا سدودا من الحجر الكبير ودعموها بالمدافع.

أمام هذه التطورات السريعة، بعث أندري دوري الى كل من ملكي صقلية ونابولي يطلب منهما تعزيزات عسكرية، وبعث رسولا لنفس الغاية، الى الدوق بيدرو الطليطلي الذي كان مرابطا بنابولي والى خليفة الملك بصقلية. وبعد أيام من ذلك، أبحرت الامدادات المطلوبة، وكان من بين الجنود، مولاي أبو بكر، ابن ملك تونس(19)، الذي أوفده أبوه لاطلاع أندري دوري على رغبة أبيه في القضاء على درغوت وتعاونه مع الامبراطور، وليطلب منه كذلك ربط الاتصال بشيخ الجزيرة.

كان أندري دوري شديد اليقظة، شديد الحرص على ألا ينفلت درغوت، فراح يجوب شواطىء الجزيرة ليل نهار، ويحجز السفن التجارية التركية التي تقترب منها، ثم أرسل سفينة لاستكشاف عمق البحر بالقرب من القنطرة واختيار المكان الأفضل لإنزال الجنود، ووضع العلامات الضرورية لإرشاد قواد السفن.

(19) الحسن. ا

كان درغوت يرقب هذه التحركات، وأدرك مقاصد أندري دوري. من أجل ذلك، أمر مائة من رماته بالابحار والقيام بمناورات لاشغال القوات المسيحية، في حين، أناط بركاب زورق صغير بمهمة الذهاب لاقتلاع العلامات التي غرسها كشافة النصارى على الرمال، وحشد الأتراك والأعراب من سكان الجزيرة، ودعاهم لحفر وتهييء ممر للسفن، لتنفذ عبره الى عرض البحر، في كتمان تام.

ونجحت حيلة درغوت، فبرح الجزيرة على سفنه المحمّلة بأكثر من ألفي جندي، في حين لم تصل بعد الإمدادات التي طلبها أندري دوري. وفي عرض البحر، صادف درغوت بعض القطع التابعة لبحرية مملكة صقلية، فحجزها، وسقط بين يديه ابن ملك تونس، فأرسله أسيرا الى السلطان، وبقي الامير التونسي معتقلا بتركيا الى أن مات.

تلقى أندري دوري الخبر غداة فرار درغوت، بخيبة كبرى، فقام بجولة حول الجزيرة، ثم استولى على بعض السفن التجارية التركية والعربية، وأرسل مبعوثا الى نابولي وصقلية، ليخبر ملكيها بعدم حاجاته الى المساعدات. وبقي درغوت ذائع الصّيت في الأوساط التركية والمسيحية على السواء. إلا أن عاهل إسبانيا أمر الدوق ميدينة ـــ سيلي، خليفة الملك بصقلية، بالهجوم على طرابلس، للاقتصاص من العرب الذين يعرِّضون المسيحيين إلى أشدّ المحن، انطلاقا من تلك المدينة.

الدوق ميدينة ـــ سيلي برح صقلية على رأس البحرية الايطالية، خلال شهر يناير عام 1560، ورابط بمالطا في انتظار تحسن أحوال البحر، ثم أبحر يوم 10 فبراير، ووصل الى جزيرة قرقنّة. إلا أن الرياح غيرت اتجاهها وبدا لقائد القوات البحرية أن السفن لم تستطيع الابحار إلى الجنوب، عندها دنا شيئاً ما من شواطىء جربة ورسّى سفينته في موقع آمن، وطلب من بقية الوحدات أن تحدو حدوه لكن كان للسفن الصغرى خصاص بالماء، واعتبر المسيحيون أنه من السهل بمكان، أن يتوجهوا إلى خليج بوغرارة، جنوب القنطرة للتزود به. كانت الأحوال الجوية رديئة، واضطر الدوق ميدينة ـــ سيلي وبعض مرافقيه، إلى قضاء الليل في برج قريب من القنطرة. وفي الغد، رجع الدوق إلى خليج بوغرارة، وأنزل جميع الجنود الى البر للتزود بالماء، غير أن بعض الضباط أعربوا عن تخوفاتهم من هجوم مفاجىء عليهم. وتفادياً لكل خطر من هذا القبيل، تشكل فيلق منهم وحط بمرتفعات تبعد بمائة خطوة عن البحر.

توجه نحو الآبار ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي، لان عناصر الجيش الآخرين لم يصلوا بعد الى عين المكان. ولم تمرّ إلا دقائق حتى بعث من النخيل أعراب مسلحون، وهم يهللون ويكبرون كعادتهم، وقد أمر الدوق بعدم إطلاق النار، قبل التزود بالماء. إلا أن الاعراب اقتربوا جدا من المسيحيين، فأضحى من الضروري إطلاق النار عليهم، فردّوا بالمثل، واضطربت الكتائب المسيحية، فسحب أحد قواد النصارى وحداته، في حين، مضى الدوق يحث جنوده على التشبث بالنظام، وعاد الهدوء الى نصابه.

لكن في المساء، رأى المسيحيون أعدادا هامة من الرماة العرب تتوجه نحوهم، وعلموا أن القرصان درغوت كان مرابطا بالجزيرة بجيش يتألف من مائتي فارس تركي ومن ثمانمائة من المشاة، علاوة على عشرة آلاف أعرابي.

بدأ الهجوم على جناحي النصارى، لكنهم صمدوا وتوقف القتال بعد سبع ساعات على إثر انسحاب المهاجمين، وتمكن النصارى إذاك، من التزود بالماء، وأمست كتائب الطليعة خلفية، وكتائب الخلف تحتل مواقع الطليعة.

بلغ عدد الضحايا من بين النصارى سبعة قتلى وثلاثين جريحا، أما ضحايا العرب، فكان عددهم مائة وخمسين، بين جريح وقتيل. وفي الليل، انسحبت القوات المسيحية في نظام وتوجهت الى جربة.

غداة ذلك اليوم، أطلت على مشارف القنطرة، ثمانية سفن حربية، منها أربعة لدوق فلورانسا، واثنتان لإمارة موناكو، وواحدة لمملكة صقلي، والثامنة لأندري دوري، ونزل بالبرّ بعض الضباط وجنودهم، وأخذوا يتناقشون بشدة في موضوع لمن ستكون باكورة الشرف في القتال، فعمّت الفوضى صفوفهم. بينما هم على هذه الحال، إذا بالمسلمين يباغتونهم بهجوم مفاجيء وعنيف، فقتلوا منهم وأسروا أكثر من ثمانين جندياً، من بينهم خمسة ضباط إسبانيين.

انتاب الدوق حزن عميق بسبب فقدان جنوده، وتألم لوقوع الضباط الاسبانيين في الأسر فأرسل عيونا استطلاعية الى جربة لينقلوا له أخبارها، فعلم أن درغوت كان هناك، وأنه ترك بعض الاتراك بالقلعة، قبل أن يتوجه إلى طرابلس، لقطع الطريق على السفن المسيحية التي تموّن النصارى بما يحتاجون إليه بالمنطقة، وقد استولى على بعض المراكب المسيحية وأسر ركابها.

كان الجو رديئاً، ومضت رياح قوية تهب في البحر، وأضحى أندري دوري على أسوء حال، وتفشت الامراض في صفوف الجنود، فرأى الدوق أن الحكمة

تقتضي عدم مواصلة الطريق الى طرابلس، وإرجاء العملية الى وقت مناسب، لا سيما وأن أمير القيروان الذي وعد النصارى بتعزيز صفوفهم، لم يظهر لحد ذلك الوقت. كل هذه العوامل تظافرت لاقناع الدوق بالعدول عن غزو طرابلس، وبضرورة احتلال جربة غير البعيدة من قواعده.

والجدير بالذكر أن أمير القيروان انتظر مدة طويلة قدوم الجيوش المسيحية بشواطىء إقليمه، لكنه ملّ الانتظار وانسحب الى القيروان.

وجد الدوق بعد العملاء العرب الذين عرضوا عليه خدماتهم المتمثلة في تجنيد أربعمائة فارس لحراسة الممرّات المؤدية الى جربة، مقابل مكافأة مالية. وهكذا أبحرت القوات المسيحية باكرا صباح اليوم العاشر من شهر مارس، ووصلت ليلا إلى عرض القلعة، وبقيت راسية أمامها أربعة أيام لم تستطع خلالها أن تدنو من البرّ، نظرا لهيجان البحر.

عندما هدأت العاصفة، نزل الجنود في مكان يسمى جيغري، واعتبارا لكثرة البحيرات بعين المكان، أقاموا جسرا خشبيا ونزلوا الى البرّ، ثم تكتلوا حسب جنسياتهم، وتمت الترتيبات في السابع من شهر مارس.

لم يظهر للمسيحيين أي عربي بالمنطقة، لكن وفد عليهم في نفس اليوم رسولان من شيخ الجزيرة، المدعو مسعود، ليطلعاهم أن الشيخ قدم يومه من تونس، وأن أهالي الجزيرة بايعوه ليكون ملكاً عليهم، وأن الأتراك تنازلوا له عن القصر الواقع بالقلعة، وأنه يدين بالولاء لملك إسبانيا، ويلتمس من الجيوش المسيحية أن تبرح الجزيرة وأن تتوجه الى خليج القنطرة ومنه الى طرابلس وأنه مستعد لتزويدهم بالمؤونة.

استمع الدوق باهتمام الى كلام المبعوثين، لكنه أعرب لهما عن عدم رضاه لانه لو تلقى هذه المعلومات قبل إنزال الجنود، لاستجاب لطلب الشيخ وبما أن الجنود يوجدون بالبرّ، فإنهم سيواصلون زحفهم حتى يصلوا مكانا فيه الماء الصالح للشرب، وعندها، يمكن الدخول في محادثات مع ملك الجزيرة.

بعد يوم من ذلك، زحفت الجيوش المسيحية نحو مكان يسمى أسدروم، يبعد عن القلعة بأقل من فرسخين، وبه أربع عشرة بئرا. قام بعض عناصر الجيش باستكشاف الآبار، فوجدوها مهدمة، فأصلحوها.

عاد المبعوثان لدى الدوق، وأخبراه بأن الشيخ يرغب في اللقاء به على عجل، لكن الدوق أخبرهما بأنه يجب تنصيب الخيم قبل ذلك، وتهييء خيمة لائقة بمقام الشيخ. نقل المبعوثان الخبر إلى الشيخ، ثم عادا مرة أخرى وقالا للدوق إن الشيخ يريده في أمر هام وأن عليه أن يتقدم نصف المسافة بفارسين، وسيفعل الشيخ مثله للقاء به، فرد الدوق المبعوثين قائلا بأنه ينبغي للشيخ أن يزوره متى شاء، مادام معلنا عن ولاءه لعاهل إسبانيا.

لم يكد المبعوثان يختفيان وراء النخيل الذي كان على بعد ميل من هناك، حتى طفقا يصرخان كعادة العرب، وانبثقت أعداد هائلة من الأعراب كانوا مختبئين في عين المكان واصطفوا في شكل هلال للقتال. عندها، قام الدوق بترتيب جنوده وأعدهم للمعركة، ثم أخذوا يزحفون في اتجاه الشرق، في أرض عراء، البحر على يسارهم، والنخيل على يمينهم.

كانت كتائب «فرسان مالطا»(20) في مقدمة الجيش، يقودهم ضابط سام بدرجة لواء، ومعهم بعض قطع المدفعية، ويأتي من خلفهم الجنود الألمان، تتبعهم فرقتان فرنسيتان كانتا في خدمة ملك إسبانيا، ومن ورائهما، كانت الوحدات الإيطالية بمدافعها، بينما كان الإسبان يشكلون الكتائب الخلفية ببنادقها ومدافعها. وكان يتقدم هذا الجيش كله، فرق يقودها على اليمين الضابط برونا، وعلى اليسار، الضابط دون لويس أزوريو.

أمر الدوق هذه القوات بالتوقف، فوقف «فرسان مالطا» بنجانب الآبار، ودنا الإطاليون على اليسار، والإسبان على اليمين. كانت تمتد على يسار هذه القوات، سلسلة من الصخور غير عالية، تتوغل في البحر وكانت بعض التلال المتفرقة تحادي القلعة.

انتصب دون لويس اوزوريو بفرقته على إحدى التلال، وعلى عدة أمتار منه، انتصب أربعون رماة على تل آخر. وما هي إلا لحظات حتى بدأ الأعراب يطلقون عليهم النار وهم يصرخون، لكن الدوق أمر جنوده بعدم الرد عليهم، مبينا لقواته أن هدفه هو إجلاء الاتراك عن المنطقة، دون إصابة أهلها بالأذى. احتدمت المعركة، واشتد دوي الرصاص. كان الأعراب يعدون بعشرة آلاف جندي، فأرغموا الرماة

---

(20) «فرسان مالطا» طائفة دينية مسيحية، تعرف كذلك بطائفة القديس يحيى القدسي، تأسست عام 1070، ولجأت إلى جزيرة رودس عام 1309، بعد استيلاء الاتراك على مالطا، ثم عادوا الى مالطا عام 1530 بمساعدة من الاتراك، وعلى إثر انهزام المسيحيين في طرابلس (المترجم).

المسيحيين على الانسحاب، وقد مات منهم بعض العناصر، مقابل عدد أكثر في صفوف الأعراب. إلا أن الأعراب واصلوا القتال إلى معسكر النصارى، فازدادت المعركة ضراوة، وكانت الغلبة للنصارى، وتراجع الأعراب، وقرر دون لويس عدم مطاردتهم، ثم أعاد ترتيب قواته التي فقدت بعض القتلى والجرحى، ورمم تحصينات المعسكر، وتوقفت العمليات الحربية عشرة أيام، تمكن المسيحيون خلالها من التزود بالماء وتنظيف سفنهم.

بينما كان الجنود المسيحيون متجمعين في معسكرهم، أقبل عليهم مبعوث من شيخ الجزيرة، وأخبرهم بأنهم لن يعتبروا أعداء إذا رغبوا في الاستمرار بموقعهم دون التحرك، أما إذا كانت رغبتهم هي الاستيلاء على القلعة، فإن الشيخ يستسمحهم إعطاءه مهلة يوم، حتى يتمكن من إجلاء النساء والأطفال الموجودين بالقصر. وافق الدوق على طلب الشيخ، وأرسل بعد يومين من ذلك، فرقة من الجنود لتطلع على حالة القصر ثم توجه إليه بنفسه، ولما عاد الى المعسكر، أمر بضرب الحصار على الميناء لمنع الأتراك المقيمين بالجزيرة من الفرار. وتقاسمت مختلف الوحدات المسيحية مهام تشييد تحصينات على مقربة من القلعة والميناء.

أثناء انشغال النصارى بهذه الأعمال، أبحرت من تركيا وحدات حربية يقودها بيالي باشا، بطلب من درغوت. عرّجت هذه الوحدات على مالطا وقرقنة وصفاقس حيث استقت آخر المعلومات الواردة من جربة.

بعث الأتراك سفينتين استطلاعيتين الى المنطقة وبعدما نقلتا إليهم أن كل الجيوش المسيحية توجد بخليج القنطرة للتزود بالماء، تركوا السفن المسيحية تمرّ، وهم مستترون في جهات أخرى، ثم رسّوا سفنهم في الموقع الذي برحه المسيحيون وقضوا فيه الليل. ولما طلعت شمس اليوم الموالي رأوا جيمع الوحدات المسيحية في عرض البحر، وقد علم النصارى أن الأتراك يتأهبون لمهاجمتهم بالجزيرة. أما الداعي الى ابتعاد السفن عن جربة، فهو أن قواد الجيش لم يرغبوا في قتال الأتراك برّا، لكنهم تركوا في الجزيرة، الكتائب الإسبانية مع قائدها دون الفارو، وأبحروا في جو من الفوضى. ثم شعروا بالذعر وعمتهم البلبلة عندما تراأت لهم المراكب التركية التي دنت منهم بسهولة واستولت على سبعة وثلاثين قطعة بحرية بجنودها وركّابها، وعلى التحصينات الخارجية التي أقيمت حول القلعة. بعد ذلك، استقطب اهتمامهم، تسع سفن احتمت وراء الصخور، وارتبطت كل واحدة بأخرى بالسلاسل، وشكلت حاجزا عاق حرية تنقل السفن التركية، وبدأ الجانبان يتراشقان بنار

المدفعية والرماية، وفقد الطرفان عددا كبيرا من الضباط السامين، والمراكب الصغيرة، وألفا من الجنود، وعددا من الشخصيات البارزة.

تمكن المسيحيون المحاصرون في القلعة، من إحداث ثغرة في القوات التركية، وتسربوا الى أحد معسكراتها فغنموا ذخائر هامة، بعدما قتلوا عددا من الأتراك. إلا أن العدو أعاد السيطرة على مواقعه وشدّد الحصار على بقية جنود الوحدات النصرانية حتى لمسهم النصب واللغوب، والجوع والعطش، وراحوا يشربون ماء البحر بعد تقتيره، وهمّ الكثيرون منهم بالاستسلام الى الأتراك. إلا أن دون الفارو قرّر أن يموت بطلا أو أن ينتصر، فخرج الى المعركة، وانهزمت كتائبه ووقع هو في قبضة الأتراك.

غداة ذلك اليوم، استسلم النصارى كلهم للباشا، فأسرهم وحطم جميع التحصينات باستثناء البرج، وأشرف على ترتيبات إقامة درغوت وجنوده بالجزيرة، ثم أبحر الى إسطامبول، معرجا على طرابلس التي لقي فيها استقبالا رائعا، فعرض على أهلها من كان في موكبه من أبرز الأسرى، مثل دون الفارو، دون سانشي، دون برانغيل وجماعة هامة من نبلاء فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ومن لفّ لفّهم.

الفصل الثاني والأربعون
عن مدينة زوارة الواقعة بإقليم طرابلس

إنها مدينة شاطئية تقع على مسافة سبعة عشر فرسخا جنوب جزيرة جربة، تحيط بها أسوار قبيحة المنظر، يسكنها أناس فقراء، حرفتهم إنتاج الجير والجبس اللذين يبيعونهما بطرابلس، أو يمارسون الصيد البحري أو يشاركون في عمليات القرصنة التي يقوم بها الأتراك.

أسس الأفارقة قديما بلدة زوارة وظلت مزدهرة بفضل مينائها الذي كانت تتوافد عليه السفن التجارية من كل مكان. وحسب بطليموس، فإنها تقع على اثنين وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة من خط الطول، وإحدى وثلاثين درجة وثلاثين دقيقة من خط العرض ويسميها بوزيدون. أصبحت هذه المدينة خرابا لأول مرة في تاريخها، على أيدي جنود عقبة بن نافع، وتعرضت بعد ذلك لكثير من عمليات الدمار. يسيطر عليها الأتراك اليوم، لكنهم أثقلوا كاهل سكانها بالضرائب حتى أصبحوا بؤساء وتحولت هي الى بلدة قبيحة.

الفصل الثالث والأربعون

لبـدة

تحيط أسوار عالية متينة مبنية من الحجر الضخم بمدينة لبدة التي يعطيها الناس أسماء مختلفة ويوقعها بطليموس على إحدى وأربعين درجة وثلاثين دقيقة من خط الطول، وإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة من خط العرض. بناها الرومان ويروي المؤرخون أنها كانت قديماً جد آهلة بالسكان وأن السفن الأوربية كانت تقيم بها رواجا تجارياً هاماً، فأصابها الخراب بعد دخول جيوش عقبة إلى افريقيا لاول مرة. وقد أعيد تعميرها بعد ذلك، وظلت تابعة لنفوذ أمير القيروان، إلى أن أتى الى افريقيا، جيش عربي آخر لاخماد نار الفتنة التي أشعلها أحد المتمردين بالمدينة، فدمرها عن آخرها، وعلى أنقاضها، بنى مدينة طرابلس الحالية، ولا زالت بعض آثار لبدة قائمة.

الفصل الرابع والأربعون

طـرابلـس

يذهب بعض المؤرخين إلى أن بناء طرابلس القديمة يرجع إلى الرومان، في حين يزعم آخرون أن الفنيقيين هم الذين بنوها، تخليدا لذكرى مدينة تحمل نفس الاسم، كانت توجد بالشام.

ظلت طرابلس العتيقة خاضعة للوندال حتى جاء العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وضربوا حولها حصارا شديدا طال ستة أشهر، فاضطر أهلها الى هجرها والنزوح إلى قرطاج، فدخلها العرب بجهالة ونهبوها. وبهذا الصدد، يؤكد المؤرخ الافرقي ابن الرقيق، أن أغلبية السكان لقوا حتفهم في معاركهم ضد العرب، وأن الذين نجوا من الموت نقلوا أسرى أو عبيدا، الى مصر والجزيرة العربي.

بعد حين من الدهر، اختار الافريقيون سهلا رمليا وبنوا فيه مدينة جديدة أطلقوا عليها اسم طرابلس، وأحاطوها بأسوار عالية وجميلة ولكنها هشة. يوجد بأرباض المدينة الجديدة، واحات وافرة النخيل، إلا أن تربتها لا تنتج شعيرا ولا قمحا، فظل الخبز بسبب ذلك، يباع بثمن غال، وكثيرا ما كان يفتقد في الاسواق.

يروي المؤرخون أن البراري الواقعة جنوب طرابلس، كانت قديما خصبة، تنتج القمح والشعير، إلا أن مياه البحر غمرتها كما غمرت غيرها من أراضي الساحل التونسي، لان سطحها كان منخفضا بالنسبة لمستوى البحر. ويضيف هؤلاء المؤرخون قائلين إن الاراضي الرملية الموجودة حاليا بجوار طرابلس، ظلت فلاحية خلال حقبات من الدهر، وأن طرابلس القديمة كانت تقع شمال طرابلس الحديثة، غير أن البحر مضى ينقصها من أطرافها مع تعاقب الأيام، ولا غرابة أن نشاهد اليوم بقايا أبنيتها تحت مياه البحر.

باتت طرابلس تتسم في الماضي، برواج تجاري هام، ترجع عوامله الى متاخمتها لنوميديا وبلاد تونس، كما أنها تنفرد فيما كانت عليه من ازدهار، بين جميع المواقع الحضرية الموجودة على الشواطىء الممتدة بينها وبين مدينة الاسكندرية. كانت طرابلس أهم قبلة يتوجه اليها التجار القادمون من مالطا والبندقية وصقلية. مساجدها الجميلة ومعاهدها العلمية وفنادقها العديدة وساحاتها العمومية وأزقتها وشوارعها، جعلت منها مدينة منسقة التعمير، تفوق مدينة تونس بهجة ورونقا. غير انها كانت عديمة الآبار والعيون، وكان أهاليها يسقون من ماء الأمطار التي أمست تتجمع في الصهاريج.

من الوجهة السياسية، كانت طرابلس تنضوي تحت عرش ملك تونس، ثم انتقلت الى عرش ملك فاس، ولبثت على هذه الحال، الى أن تنطع أميرها، وطغى، فتمرد عليه السكان وأطاحوا به، ثم بايعوا مكانه أحد أشراف المدينة(21)، وأناطوا به مهمة تدبير أموالها وتأمين سلامة كنوزها، فحكم المدينة بنزاهة وتواضع وحكمة. إلا أن الأمير المخلوع، أوفد إليه جيشا يقوده أحد ثقاته، فتآمر أهل المدينة على هذا القائد العسكري، ودسوا له السم في طعامه، فلقي مصرعه، ورجع الجيش يجرّ ذيول الفشل والخيبة. إلا أن ملك فاس أبى أن يتّعظ، فعين على طرابلس أميرا آخر، غير أن السكان دبروا إليه مؤامرة على يدي أحد أصهاره، فقتله، وأجمع السكان على مبايعة أحد الضباط كان قد انعزل عن الدنيا قبل ذلك، وعكف على العبادة والتصوف، يسمى أبا بكر. ومضى هذا الاخير قابضا بمقاليد الحكم بطرابلس الى أن هوت في أيادي النصارى بقيادة الكونت بيدرو النفاري.

---

(21) يسمى أبا كامن.

في سياق وصفنا لمدينة باجة، قلنا إن الكونت بيدرو قرّر أن يجلي جيشه الذي كان يرابط بها، بسبب وباء الطاعون الذي انتشر بها، وبعدما برحها، ذهب لضرب الحصار على طرابلس، وأوفد في نفس الوقت، الضابط دييغو دوفلانسيا الى مملكة نابولي لجمع المواد الغذائية والعتاد الحربي. وكانت الجيوش التي يقودها الكونت تتألف من أكثر من ستة عشر ألف جندي، رابطت كلها بضعة أيام في جزيرة غوزة القريبة من صقلية، في انتظار دييغو دوفلانسيا. وما أن عاد هذا الأخير من مهمته، حتى أمر الكونت بالإبحار نحو طرابلس.

تألف أسطول النصارى من خمسين مركبا شراعيا ومرّ بمالطا، ومن هناك، شاهد الكونت، كوكبا سيارا يتجه من الغرب الى الجنوب، فتفاءل به وواصل الطريق ثم أوقف السفن على أربعة فراسخ من سواحل إفريقيا. وبما أن البحر لم يكن عميقا بتلك المنطقة، بعث ضابطا بندقيا يدعى فيونيلو، في مهمة استطلاعية، قرب الميناء والشواطىء.

اجتاز الضابط البندقي مشارف المدينة بحرا، ودنا كثيرا من الميناء، فعرف السكان أنها سفينةلأعدائهم، وقد علموا قبل ذلك، ما مضى يبيّته الكونت لغزو مدينتهم، فانطلقوا يحشدون الجنود في جهات مختلفة ويقيمون الحواجز ويدعّمون التحصينات ويستعدّون للطوارئ، خصوصا وأن بعض التجار الجنويين نقلوا اليهم أنباء الاستعدادات الجارية في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وصقلية لاحتلال المدينة

لم يمض يوم حتى بدأت القوات المسيحية تنزل بالميناء، فواجهها المسلمون بطلقات نيرانهم، لكن المدمّرات البحرية اقتربت من المدينة وأخذت تقصفها بشدة حتى أخمدت أجهزة دفاعها. على إثر ذلك استولى الخوف على المسلمين وصاروا يفرون في كل اتجاه، غير أن الرماة المسيحين تصدوا لهم في عدة أماكن.

ثم قسّم الكونت القوات الى أربع فرق تتألف الواحدة منها من ألفين جندي، ووعد قواد وجنود كل فرقة بأنهم سينالون نصيبهم من الأسرى والعبيد والغنائم الأخرى.

وبدأ الهجوم على المدينة حوالي الساعة التاسعة صباحا، شارك فيه من جانب النصارى ما يزيد عن أحد عشر ألف جندي، غير أن السكان استبسلوا في الدفاع عن المدينة، فكان الجرحى والقتلى يتساقطون بكثرة من الجانبين. في خضمّ المعركة، تسلّقت أفواج من المسيحيين أسوار المدينة، لكن الأهالي كانوا لهم

بالمرصاد، فذهبوا يحصدونهم حصدا، وقتلوا منهم عددا هامّا من الشخصيات وكبار الجنود.

طال القتال، وأصاب العياء هؤلاء وأولائك، وأخذت المعارك تتوقف وحدها. كان الجو حارّا، والعطش شديدا، فتمكن أصحابنا من إطفاء عطشهم بماء الصهاريج التي كانت خارج الأسوار. وفجأة، استطاع الجنود أن يفتحوا أحد أبواب المدينة، فدخل إليها المسيحيون، والتجأ الأمير المتصوف الى القصر، بمعية أهله وحاشيته، واعتصم آخرون بالمساجد، وتحصن بعض المدافعين في الأبراج حيث واصلوا المقاومة بشجاعة كبرى. خلال الليل، اقتحم المسيحيون المساجد، وقتلوا أكثر من ألفين من المسلمين، واستسلم حماة الأبراج.

غنم النصارى العديد من الأسرى، وكميات هائلة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، واستسلم الأمير وحاشيته مع الحصول على الوعد بالحفاظ على حياته. لكن عندما دخل الكونت بيدرو الى القصر، أسر الشيخ وأسرته، واستولى على ما فيه من كنوز.

في هذه المعارك، فتك النصارى بأكثر من ستة آلاف مسلم، ثم رموا بعض جثثهم في آبار المساجد، وبعضها في البحر، وأحرقوا البعض الآخر، ثم أسروا أكثر من خمس عشرة ألف نسمة، وحرروا مائة وثمانين إيطاليا، ووجدوا في المدينة خيرات هامة، مع العلم أن الأعراب نقلوا الى جهات أخرى، حمولة ما يزيد عن خمسة آلاف رأس من الإبل.

أصاب المدينة الدمار والخراب، ولم يبق منها قائما، سوى القصر الذي حصّنه المسيحيون، كما رمّموا قصرا صغيرا آخر كان على مقربة من الميناء، وتركوا فيه جالية هامة مع فرقة من الرماة وفرقة من مدفعية الميدان.

وفي عام 1528، أمر الأمير كارلوس بإطلاق سراح الشيخ الذي كان يسير الحكم بالمدينة، ثم دعاه الى العودة اليها، وتعميرها بسكان من الدول المسيحية المتحالفة معه، ولا سيما من أفراد طائفة القديس يوحنا، المعروفة «بفرسان مالطا»، والذين انتزع منهم الأتراك جزيرة رودس، عام 1523. بعد ذلك، أصبح أمر طرابلس مسندا الى أفراد هذه الطائفة المسيحية، فاستأجروا جيشا من المرتزقة للدفاع عنها لكي تبقى تحت سيادتهم.

كانت طرابلس برونقها ودخائرها تنافس مدينة تونس. ويؤكد المراقبون أن تونس كانت تضاهي طرابلس بعمرانها وسكانها، في حين، كانت طرابلس تتباهى

بكنوزها، وذهبها وفضتها وأحجارها، التي تجمعت لدى سكانها بفضل الرواج التجاري الذي كان ينعشها. كان بطرابلس أكثر من مائة وخمسين معملا للنسيج، تصنع فيها الثياب الحريرية وملابس البحارة، وأقمشة مختلفة، وكانت تباع في المدينة مختلف أنواع التوابل والعطور. كانت أحواضها البحرية مجهزة لاصلاح السفن وصناعتها. وفي عرض بحرها، كان الكونت يحجز عدة سفن تجارية تركية محملة بأنفس البضائع وأغناها. وفي طرابلس، خطر ببال الكونت، أن يقوم بغزو جربة، ذلك الغزو الذي انقلب الى كارثة شنيعة بالنسبة للمسيحين.

على إثر استيلاء الامبراطور على مدينة تونس، جهز السلطان سليمان عام 1551 أسطولا وأسند قيادته الى سنان باشا. ومضت هذه القوات البحرية تقوم بعمليات النهب على الشواطىء الإيطالية، انتقاما من المسيحين الذين نقضوا معاهدة الهدنة باحتلالهم تونس.

كان درغوت وصالح الرايس يوجدان ضمن هذه القوات، فأمرا بإحراق قصر بصقلية ونهب الجزيرة غوزة، ثم توجها إلى طرابلس. وفي يوم 4 غشت 1551، نزلت القوات التركية برأس أنجيل قرب الميناء وبما أن طرابلس كانت تحت سيادة فرسان مالطا، وكان حاكمها فرنسيا تابعا لنفس الطائفة، يسمى كامباري، وقد زوده الامبراطور بالجيش والعتاد، فبعث اليه سنان باشا يطلب منه الاستسلام مقابل سلامة حياته وحياة المسيحيين الآخرين. لكن كامبري ردّ على التركي بالرفض، بدعوى أن الرئيس الأكبر[22] للطائفة هو الذي نصّبه قائدا وحاكما على المدينة.

أمام تصلب كامباري، بدأ سنان باشا يقصف المواقع المسيحية، وألحق بها أضرارا جسيمة بعد يومين. وفكر كامباري في الاستسلام، لكن رفقاءه منعوه من ذلك، مادامت في نظرهم، أسوار المدينة ثابتة، والنصارى يتوفرون على مدخرات هامة من العتاد الحربي والمواد الغذائية، وجنودهم في حالة جسمية ومعنوية جيدة. لكن كامباري لم يسايرهم رأيهم أمام ضغط الأتراك على المدينة وأصر على التفاوض معهم. ويروي بعض النقّاد أن أحد النبلاء الفرنسيين إسمه أرامون، كان يوجد ضمن حاشية سنان باشا، وكان وسيطا سريا بين قائد القوات التركي وكامباري،

---

(22) يعني كارلوس الخامس، إمبراطور إسبانيا (المترجم).

وأقنعه بالتفاوض من أجل تسليم المدينة، فحدد معه شروط الاستسلام، وتم كل ذلك في ظل الكتمان.

عندما دخل الأتراك الى المدينة التي استسلمت لهم، لم يقتلوا أحدا من النصارى، لكنهم جردوهم من ممتلكاتهم وأمتعتهم، ولم يمسوا بأذى الفرنسيين التابعين لطائفة القديس يوحنا، وعاملوهم بالحسنى، وسهروا على تنظيم نقلهم الى مالطا على متن سفينتين من أسطولهم، ومعهم كامباري، ثم رافقوهم حتى وصلوا الى الجزيرة.

بعد ذلك، وجه سنان باشا نداء الى أعضاء الطائفة الذين لبثوا معتصمين بالقصر الثاني، يدعوهم الى الجلاء عنه، لكنهم ردوا عليه قائلين إنهم إسبان، يفضلون الموت على الحياة في ظل العبودية، وأنهم لن يسلموا له القصر إلا إذا وعدهم أمام جميع قواد الجيش، بأنه سيسهر على نقلهم الى مالطا، بأسلحتهم وأمتعتهم. فاستجاب سنان لطلبهم، ورحل أولئك المسيحيون الى مالطا، دون أن يصابوا بأي سوء.

تسلم أمير(23) تاجورة مفاتيح القصرين من سنان باشا وتعهد بالحفاظ على أمن وسلامة طرابلس، باسم السلطان سليمان الأعظم، الخليفة العثماني، كما تعهد بإسناد أمرها الى خلفه الذي قد يعين لهذه المهمة. وبعد ذلك، برح سنان باشا المدينة.

وهكذا تسلم العرب مدينة طرابلس التي باتت في ملك المسيحيين أربعين سنة وعدة أيام، أي منذ احتلالها من طرف الكونت بيدرو النفاري. وزاد رغوت(24) في تعزيز تحصيناتها، إذ بنى بُرجا منيعا بالقرب من الميناء، وبرجا آخر بداخلها ودعم الأسوار. منذ ذلك العهد، والأتراك يرابطون بها، والأعراب يستوطنونها.

يسمى بتوليموس مدينة طرابلس «لبيدة الكبيرة» وحدد موقعها على خط الطول بإحدى وأربعين درجة وخمس وعشرين دقيقة، وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة.

---

(23) أمير تاجورة، هوالعثماني مرتجى الذي تولى ولاية طرابلس بعد إجلاء النصارى عنها. (المترجم)

(24) أسندت ولاية طرابلس الى درغوت، بعد وفاة مرتجى، من عام 1353 الى عام 1555، وهي السنة التي توفي فيها درغوت، أثناء عملية إنزال القوات التركية بمالطا. يوجد ضريح درغوت بطرابلس، وقد شيد حوله الوالي العثماني اسكندر باشا، مسجدا يعرف باسم «جامع سيدي درغوت». وكان ذلك عام 1602. (المترجم)

الفصل الخامس والاربعون

قصر أحمد

إنها مدينة صغيرة بناها على الشاطىء عربي يسمى أحمد، وتقع شرق طرابلس، على مسافة فرسخ واحد منها. تم بناء هذا الموقع بعد تدمير طرابلس القديمة. كانت آهلية بالسكان، لكن الأعراب خرّبوها، ولم يبق منها إلا بعض آثار أسوارها وبيوتها. تسمى اليوم الصهريج

الفصل السادس والأربعون

سديقة

بناها المسلمون الاولون الذين حطوا بإفريقيا. كانت قديما آهلة بالسكان، لكن الأعراب ألحقوا بها أضرارا جسيمة، ولم يقطن بها اليوم إلا نفر من الصيادين الفقراء، وقد أعلنوا عن ولائهم لحكام طرابلس. وتقع هذه المدينة شرق قصر أحمد، ويقول بتوليموس أنها توجد على خط الطول بثلاث وأربعين درجة وخمس وعشرين ثانية، وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة ويطلق عليها إسم تريبري.

الفصل السابع والأربعون

قصر حسان

لم يبق من هذه المدينة الواقعة على جانب البحر، شرق طرابلس، إلا بعض الآثار، يقول بطليموس إنها تقع على خط الطول بأربعين درجة وأربعين دقيقة،وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة، وكان يعرف باسم براسي. بنى هذا القصر، جيش عقبة، بعدما قام بتحطيم طرابلس القديمة، وذلك لأن المسلمين، بعد غزوهم لهذه البلاد التي مضى الرومان والوندال ينازعونهم ملكيتها، اهتموا بتأمين سلامتها فشيدوا على سواحلها عدة مواقع محصنة للدفاع عنها. لكن العرب الذين قدموا من بعدهم، في غزوة ثانية، نهبوها. أما اليوم، فإننا نشاهد آثار منازلها القديمة وبقايا أسوارها، ولا يسكنها إلا نفر من الفقراء، يتعاطون الى الأعمال الفلاحية، في الحقول المجاورة.

الفصل الثامن والأربعون

سرمان

لا تحيط أسوار بهذه المدينة الكبيرة التي تعج بالسكان، والتي تقع على مقربة من طرابلس القديمة. سكانها برابر، ينتمون الى قبائل هوارة. ويوجد بها عدد كبير من النخل الجيد، لكن لا ينبت حولها قمح ولا شعير، لانها تقع في أرض رملية. إنها تابعة لولاية طرابلس.

الفصل التاسع والأربعون

الغار

إنها قرية شاطئية مفتوحة، توجد قريبا من طرابلس. وتقع حسب بتوليموس، على خط الطول بثلاث وأربعين درجة وخمس وعشرين ثانية، وعلى خط العرض، بإحدى وثلاثين درجة وعشرين ثانية. سكانها برابر كانوا قديما تابعين لحاكم تاجورة، عندما كانت طرابلس في ملك النصارى. يوجد بجوارها، عدد كبير من النخل ذي التمر الجيد، وحقول تنتج الشعير، ويعيش سكانها بالصيد وبما تنتجه الارض.

الفصل الخمسون

زاوية بني يربوع

توجد هذه المدينة أيضا على مقربة من طرابلس، وبدون أسوار، يسكن فيها نفر من المرابطين النساك، يحيط بها كثير من النخل، ولا ينبت فيها إلا قليل من الشعير لأن تربتها ليست صالحة للفلاحة. كانت تحظى باحترام الجيوش الاسلامية، اعتبارا لسكانها المتدينين.

الفصل الواحد والخمسون

زنزور

مدينة ساحلية كبيرة توجد شرق طرابلس، على بعد أربعة فراسخ منها، ليس بها أسوار وتتميز بمعاملها المتخصصة في النسيج وبضواحيها الغنية بالتمر والرمان والسفرجل وفواكه أخرى، لكنها لا تنتج إلا قليلا من القمح والشعير. وعندما كان المسيحيون يملكون طرابلس، كان أهل زنزور يبيعون لهم منتوجاتهم، خصوصا يوم السوق.

الفصل الثاني والخمسون

عمروس

مدشر مفتوح يقع على مسافة فرسخين من طرابلس، داخل الأراضي، ويوجد به عدد كبير من النخل وينتج فواكه مختلفة كثيرة، وشيئا قليلا من الحبوب. كان سكانه يبيعون منتوجاتهم الى نصارى طرابلس.

الفصل الثالث والخمسون

تاجورة.

بادية شاسعة الأطراف، تبعد عن طرابلس شرقا بنحو أربعة فراسخ، فيها عدة قرى، وبساتين خضراء، ونخيل متمر. في جوف هذه البادية، يوجد مسجد كبير وقلعة محصنة بناها الأتراك في عهد حديث، وبها أيضا عدد من المنازل. ليست هذه البادية كلها صحراء قاحلة، ولكن يوجد في بعض ربوعها، نخيل جيد وأشجار مثمرة، ويتم سقيها بالماء المستخرج من الآبار بواسطة الناعورات.

عندما سقطت طرابلس في أيدي النصارى، لجأ العديد من سكانها المدنيين الى تاجورة ، ولما تمكن ضابط تركي، اسمه مرتجى، من بسط نفوذه على البادية، أصبح يطلق على نفسه لقب الملك، ومضى يشن هجمات، بين الفينة والأخرى، على غزاة طرابلس. لذلك، عندما انتزع سنان باشا طرابلس من النصارى، نصبه عليها واليًا مدى الحياة.

إن أهل تاجورة شداد غلاظ، اللصوصية حرفتهم الأساسية، يسكنون في أكواخ تحت النخيل، ويقتاتون بدقيق الشعير والبازين، وباتوا تابعين لوالي طرابلس منذ وفاة مرتجى، ويسكن أيضا بقرى المنطقة، عدد هام من الفرسان والرماة البواسل الذين ظهرت شجاعتهم، في الغارات العنيفة التي كانوا يشنونها على غزاة طرابلس. لكنهم ثاروا على مرتجى عام 1567[25]، لأنهم رفضوا مواصلة دفع الجبايات التي أثقلت كواهلهم. وعلى إثر تمرّدهم، قام مرتجى بحملة لردعهم، فاستسلموا، وحكم عليهم بإتاوة هامة، أعادتهم إلى احترام سلطته.

---

(25) وقع خطأ في التاريخ عند مرمول، لأن مرتجى توفي قبل ذلك. (المترجم)

الفصل الرابع والخمسون
مسلاتة

إقليم يقع على شاطىء البحر، يبعد عن طرابلس شرقا باثني عشر فرسخا. كان الأولون يسمونه السيرت الكبرى، وحسب بطليموس، فإن أهم مدينة فيه، كانت هي كالوم مكولة، التي تقع على خط الطول بثلاث وأربعين درجة، وعلى خط العرض بثلاثين درجة وخمس وأربعين دقيقة، والتي تسمى اليوم مسلة، وهي تابعة إداريا لطرابلس وخاضعة سياسيا الى ملك تونس، كانت مسلاتة تستقل بذاتها كلما تضعضعت سلطة ملوك تونس.

أهل هذا الإقليم أغنياء، لكثرة ما لديهم من النخيل وشجر الزيتون، وقراه(26) آهلة بالسكان، يوجد من بينهم أكثر من ستة آلاف مقاتل. كان يحكمهم شيخ فقيه، يقرر السلم والحرب، لكنهم أصبحوا اليوم خاضعين لنفوذ حاكم تركي. وبعد أن يمرّ الانسان بعسراتة، وهي آخر قرية في الاقليم، يجد على جانب البحر قرية السباق التي كان لها إسم آخر عند القدامى، ويجد كذلك قرية نون التي كان القرطاجيون يقيمون فيها حفلا دينيا.

يتساكن بشواطىء هذا الإقليم العرب والبرابر، وفي قلبه، توجد قرى ومنازل على حدود نوميديا.

الفصل الخامس والخمسون
مسراتة

رغم أن هذا الإقليم يعد من ملحقات طرابلس، وبالتالي تابعا لمملكة تونس، فإنه في الواقع قلما كان يدين بالطاعة لملوك تونس، الذين كانوا مرغمين على استعمال القوة لاستخلاص الخراج، زد على هذا أن الاقليم يبعد عن طرابلس شرقا بنحو ثلاث وثلاثين فرسخا، ويسكنه قوم ميالون إلى الشغب والقتال.

كان القدامى يسمون هذا الاقليم سيرنايك(27)، ويطلقون عليه أيضاً لقب بنتابوليس، أي ذوالمدن الخمس(28). تمتد مصراتة على طول شاطىءالبحرالمتوسط الذي

(26) حسب مترجم النص من الاسبانية الى الفرنسية، فإن القرى هي : اللرد، والسديق، وعسراته، وسكازمة وبئر غو.

(27) ويسمى اليوم عند الجغرافيين العرب : «برقة» (المترجم)

(28) وهي حسب المترجم الفرنسي : سيرنية، أبولونية، أبرولومايدة، أرسيونة. وأخيرا بيرنيس.

يسمى الشاطىء الليبي. توجد على الشاطىء، كل مراكزه الحضرية، وإذا انطلقنا من الغرب، نجد بلدة السودي التي يقول عنها بتوليموس أنها توجد على خط العرض بسبع وأربعين درجة وكانت تسمّى أنتوملاس، ثم تليها بلدة قنطرة الصابي أو الملاليح، ثم زانار أو ميناء ديارتي، ويلي بعده برج هيرقل، وقلعة كركور، ورأس تيجون، ثم أرض بريهي التي حددها بتوليموس على خط الطول بسبع وأربعين درجة وعلى خط العرض بإحدى وثلاثين درجة. أما إذا ابتعدنا عن هذا المركز ومشينا طوال الساحل الذي يسمى بنتابلوس، فسنجد بلدة البريقة أو بيرينيس التي سماها الأولون إسبيريد، ثم يأتي مصب نهر اللاطون الذي يسمى اليوم مليل، ثم توكرى، ثم بتوليموس، وتأتي بعدها زدرة، ثم لونغيفاري، ثم قصر أعراس، وأبولونية، وميناء بونإندر، وفورسيلي، وفاثار ورأس الزفير ثم درني التي تقع شرقا على حدود ليبيا المرمرية التي يسميها العرب صراط البريقة.

سكان هذا الاقليم كلهم أثرياء، ويتجرون مع النصارى، إذ يشترون منهم المنتوجات الأرورپية ويروجونها عبر أقطار السودان مقايضة بالعبيد والمسك وسنور الزباد(29) التي يأخذها النصارى ويعرضونها في الأسواق التركية وتدر عليهم أرباحا هامة.

أهل مصراتة يمتازون بخشونتهم، ولديهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل، بما فيهم برابر الجبل، ويعيشون باستمرار في حالة حرب مع جيرانهم العرب. لذلك ظلوا يحملون أسلحتهم على الدوام، تحسبا للطوارئ أو لتكريس استقلالهم عن سيطرة ملوك تونس وحكام طرابلس لكي لا يدفعوا إليهم الجبايات. وفي يومنا هذا، يدخلون في عداد رعايا الأتراك الذين يحتلون الشاطىء كلّه. في المناطق الداخلية، نجد مدنا مثل سيرين وأركيد وكيريدة ونابولي وعددا من المداشر.

الفصل السادس والخمسون

الطوارق

يستوطن هذا القوم من البرابر منطقة كبيرة يتجاوز محيطها عشرين فرسخا، وتقع في جوف البلاد، على تخوم نوميديا، وتتميز تربتها بخصوبة نسبية، ولئن كانت الأراضي رملية في معظمها. أما إنتاجها الفلاحي، فإنه يقتصر على القمح والتمر.

(29) حيوان وحشي يستعمل جلده فروا (المترجم).

الطوارق أناس معروفون بخشونتهم وغلظتهم، يقطنون أكواخا من الجريد أو مصنوعة من أغصان الأشجار، وينتسبون الى الفدرالية القبائلية التي ينتمي إليها أهل مسلاتة. سياسيا، ظلوا تابعين لسلطة الحاكم التركي مرتجى، ويجب الإشارة الى أن تمردهم على السلطة المتحكمة فيهم، تزامنت مع ثورة أهل تاجورة، عام 1567، حتى أن كلا من محمد باي والي الاسكندرية وشالوك والي طرابلس، حاربا في آن واحد، هؤلاء وأولئك العصاة، لصدهم عن غيّهم. إلا أن العمليات الحربية استغرقت أكثر من أربعين يوما، لعدم معرفة الجنود بتضاريس المنطقة، وانتهت باستسلام الطوارق مع قبولهم أداء إتاوة قدرها ثلاثة آلاف مثقال. يعتبر هذا الاجراء عقوبة قاسية نظرا لأحوالهم الإقتصادية المزرية وظروفهم الرديئة.

الفصل السابع والخمسون
جبل بني يفرن وجبل نفوسة

هذان جبلان كبيران، يتاخمان إقليم صفاقس وجربة، داخل البلاد بعشرة فراسخ، من جهة الجنوب، ويوجد فاصل بينهما وبين صحراء نوميدياه قمتاهما عاليتان، والجو السائد فيهما بارد، جوانبهما صلداء والمنطقة المجاورة لهما قاحلة لا تنتج إلا قليلا من الحبوب. سكان الجبلين، برابر مجبولون على حب العمليات الحربية ويتسمون بالشجاعة وباستعدادهم للقيام بأي شيء، يشايعون المذهب الحنبلي، مثلهم كمثل سكان جربة، ويتعاطفون مع الدولة الصفوية الحاكمة ببلاد فارس لأنها على مذهبهم، وذلك ما جعل بعض فقهاء الإسلام يرمونهم بالبدعة، إذ أن المذهب الحنبلي يدين بالشيعة المناوئة لابي بكر وعمر. والجدير بالذكر، أن جميع الشعوب الافريقية كانت في عهدها الاول بالاسلام، متحزبة لعلي بن أبي طالب، ولبثت على مذهب الشيعة الى أن استطاع بعض الفقهاء والشيوخ نشر مذهب السنة المتعصب لأبي بكر وعمر، في ربوع إفريقيا، غير أن أهالي صفاقس وجربة والجبلين المذكورين أعلاه، رفضوا الانسلاخ عن مذهبهم، ومضوا يكتمون عقيدتهم، وذلك خوفا من تعرضهم للعقاب من طرف الفقهاء، كلما ذهبوا الى تونس أو غيرها، بحثا عن العمل.

من مميزات سكان الجبلين، أنهم متمسكون بحريتهم الخاصة، ومتشبثون باستقلالهم الذي يستبسلون في الدفاع عنه، كلما ظهرت لهم في البلاد نزعات انفصالية، وتلك هي طبائعهم اليوم، ولئن رضوا بأن يقدموا الاتاوة الى الاتراك في

عهدنا هذا، فلانهم يسمحون لهم بالاتجار في جربة وغيرها من المواقع الساحلية المنضوية تحت نفوذهم.

الفصل الثامن والخمسون

إقليم جريان

إنه عبارة عن سلسلة من الجبال الشديدة البرد، تمتد على طول أربعة عشر فرسخا، من شرقها الى غربها، وعلى خمسة فراسخ. تقع هذه الجبال جنوب الاطلس ،تفصلها عن طرابلس سهول كبيرة رملية، طولها ستة عشر فرسخا، تتخللها واحات غنية بأثمارها، وتنتج كميات هامة من الشعير، وفي بعض السهول والهضاب، ينبت كثير من شجر الزيتون ينتج كميات هامة من الزيوت، تسوّق في الاسكندرية وغيرها. علاوة على ذلك، فإن المنطقة تنتج أجود ما في العالم من زعفران ينقل الى أسواق اليونان وتركيا ومصر.

يخضع سكان هذه المنطقة الى حكام طرابلس، ويدفعون لهم سنويا جبايات يفوق مبلغها أربعة وعشرين ألف مثقال، لأن مداخليها من الزعفران هامة، وليس فيها مدن ولا حصون، ولكن يوجد بها مائة وثلاثون قرية بربرية، يسكن أهلها في بيوت رديئة، ذلك ما جعلهم لا يطيقون التواجد مع العرب، ولا يتحملون الانضواء تحت لواء ملوك تونس، إلا أنهم اليوم يعدون من رعايا الأتراك ويعترفون بمشروعية والي طرابلس.

الفصل التاسع والخمسون

جبل بني وليد

إنه جبل من جبال الاطلس الكبير، يسكنه برابر أشداء، حريصون على الحفاظ على حريتهم حتى أنهم لايعترفون بأي حاكم من حكام البلاد، وقد تحالفوا مع برابر المناطق الجبلية المجاورة، لتدعيم دفاعهم وتقوية صفوفهم. توجد بأراضيهم وحات تعطي أثمارا جيدة وحقولا تعطي إنتاجا هاما من الشعير. يقام عندهم مرة في الاسبوع سوق كبير يتوافد عليه مختلف قبائل المنطقة، ويؤمه الأعراب كذلك، فيبيعون للبرابر، الأنعام والأصواف والسمن، ويشترون منهم منتوجاتهم الفلاحية.

يتواجد بمنطقة جبل بني وليد، زهاء مائة وخمسين قرية، يسكن فيها أهل بني جريد في جوّ يسوده الأمن، وهم لا يخشون أي اعتداء عليهم من الخارج، لأن

الممرات والمسالك صعبة للغاية، ولأن فيهم ما يزيد عن عشرين ألف رجل يحملون السلاح ويحسنون الرماية. اصطدموا مع الأتراك في معارك عديدة، وانتصروا عليهم في كثير من المناسبات. ومع ذلك، فإنهم لا يمانعون في دفع إتاوة إلى ولاة طرابلس، لأنهم في حاجة الى التعامل معهم قصد التجارة، غير أنهم لا يسمحون لأي كان. إن يلاحقهم داخل أراضيهم.

بهذا الحديث، نكون قد أنهينا عرضنا عن جبال المنطقة ولا يبقى لنا سوى صحراء برقة، الواقعة في أقصى شرق بلاد البربر.

الفصل الأخير
صحراء برقة

على حدود إقليم مصراتة، تبتدىء صحراء كبرى يسميها العرب صحراء برقة، أو صحراء العاصفة، ولو كان بعضهم من الذين تعزب عنهم حقيقتها، يسمونها صحراء البركة، لكنهم يخطئون، إذ بإبدال الكاف قافا، تصبح الكلمة تعني عاصفة رعدية مصحوبة بالبرق، ويؤوّل آخرون هذه اللفظة، فيعبرون أنها تعني الممر، كما يقال ممر سيرت، ولكن في ذلك أيضا، تحريفا للمعنى، لأن عرب إفريقيا يسمون هذا الممر، صراط برقة، أو ممر العاصفة، وهو الطريق الواصل بين بلاد البربر ومصر.

تمتد صحراء برقة من رأس رشالتين الى رأس جلوق الواقع على الحدود القديمة للاسكندرية، وهي مسافة تقدر بأربعمائة فرسخ، كما أن عرض برقة، من شاطىء بحر ليبيا إلى حدود نوميديا، يقدر بستين فرسخا. برقة بلاد قاحلة جافة، وليس فيها أرض تزرع، وتتعرض من حين لآخر الى عواصف هوجاء. كانت خالية من السكان قبل مجيء العرب إليها، ولكن عندما استولى أقوياؤهم على المناطق الخصبة، بقي في صحراء برقة بؤساؤهم، حفاة عراة، يتضورون جوعا وعطشا ويحترقون بقيض اللظى، لعدم وجود أي منطقة مسكونة هناك، ولا ينبت فيها ما يصلح للعيش. وكان الصقليون يبيعون إليهم المواد الضرورية للحياة، كالقمح وغيره، وكلما تعذر على هؤلاء الأعراب أن يدفعوا الثمن نقدا، اضطروا الى رهن أولادهم، ثم ينطلقون الى عمليات النهب في نوميديا للحصول على المال وغيره، قصد افتداء أولادهم. إنهم أكبر اللصوص في الدنيا وأكثرهم خدعا ومكرا، إذ ظلوا يجردون المسافرين من أمتعتهم ومن ثيابهم، ثم يعلقونهم من أرجلهم الى أن

يأخذوا يتقيؤون وحتى يكادوا يلفظون أحشاءهم، عسى نقود نكون فيما يتقيؤونه. كانوا في بعض الأحياء ينسلخون عن دينهم ويعتنقون المسيحية لاسترجاع أولادهم، وقد رأينا بصقلية، بعض من تنصّر من هؤلاء الأعراب.

وبهذا الفصل الخاص بصحراء برقة، ننهي الكلام عن جميع أقاليم وبلدان البرابر. وفي الكتب المقبلة، سنتحدث عن نوميديا، وليبيا، وبلاد السودان، وعن الحبشة العليا والحبشة السفلى وعن مصر.

نهاية الكتاب السادس

الكتـاب السـابع

نـومـيـديـا

الفصل الأول

نوميديا

كانت هذه المنطقة من القارة الافريقية، تسمى قديما نوميديا، وذاع صيتها عبر التاريخ، وأصبحت اليوم تسمى بلاد الجريد، أي بلاد التمر والنخيل، وقد سبق لنا أن ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب، أن نوميديا لم تكن تحظى بما كانت تحظى به بلاد البربر من شهرة، وتحدثنا عنها بصفة إجمالية وركزنا على ما يستحق الذكر، وها نحن في هذا الفصل، نتطرق الى أقاليمها ومدنها وسكانها.

تمتد نوميديا من السوس الاقصى الى آخر جهة من صحراء الظهرة شرقا وجنوبا وتحادي جبال الاطلس في الشمال الغربي. تعيش في هذه المنطقة أمم مختلفة، منها الزناتة والبربر في الأقاليم المطلة على المحيط الأطلسي، وتمتد قبائلهم الى الحدود المصرية. كان الاغريق يطلقون على شعوب هذه المنطقة، إسم البونيقيين، ثم أصبحوا يسمون النوميديين، وأكثرهم عددا، يقطنون اليوم غرب نوميديا، ومنهم أمم أخرى، مثل المصامدة والهلاليين والصنهاجيين، الذين يعيش أفرادها في شكل تجمعات وتكتلات. وإذا ما انتقلنا نحو التخوم الشرقية، نجد أقوامها يسكنون البيوت مثل البرابر، ونجد كذلك الأعراب الرحل الذين يسكنون الخيم. ويوجد في جنبات المنطقة كلها، أقوام من البربر الرحالة، وهم أولو بأس شديد ولهم شهرة كبرى. تتألف ثروة أهالي نوميديا، من التمر والأنعام وليست لهم أرض فلاحية، إلا أن التمر يغنيهم عن الحبوب، إذ يجنون منه كميات هائلة، ومن أجود ما في إفريقيا من تمر. ويلاحظ أن جودة هذا التمر، هي أعلى من غيرها إذا كان من نخيل الجهات الشرقية مع بلاد نوميديا، ولعل هومروس قصد هذا التمر، عندما ذكر أن في هذه المنطقة شجرة اللوط، لا يأكل المرء من ثمرها حتى يفقد ذاكرته ومعرفة أصله، ولا يفلح أحد في استذكاره ماضيه إلا بمشقة الأنفس، كما حدث لرفاق الليس(1).

يجوب الاعراب صحراء الظهرة طولا وعرضا ويقومون بغزوات في بلاد البربر، كلما سولت لهم أنفسهم ذلك، ويستخلصون موارد عيشهم من غنائم اللصوصية والنهب، الأمر الذي حمل ملوك مراكش وفاس وتلمسان وتونس، على تشييد قلع محصنة ترابط فيها حاميات، على الممرات والمسالك التي يعبرها الأعراب، وتُشكل حزاما أمنيا ضد تحركاتهم.

---

(1) الليس (Ulysse) أحد أبطال أسطورة الالياذة، التي ألفها هومروس، وإليه تنسب حيلة «فرس طروادة». (مترجم)

توجد في نوميديا نباتات غريبة، أذكر أهمها وهي بالتتالي : الفربيون، القطران، الترفاس، شجرة الطلح، أداد والشرناك. الفربيون(2) شجر ينتنج فاكهة حباتها خضراء وضخمة أشبه ما تكون بالمنّ، وقد يتجاوز طول الحبة الواحدة ذراعا، ويمكن لعرش واحد من الشجرة أن يحمل أكثر من عشرين حبة. عندما تنضج هذه الفاكهة ويشقها الانسان، يخرج منها سائل أبيض كاللبن، لازج كاللصاق، ويتحول الى صمغ. بعدما تجف الحبات، يقطعها أهالي المنطقة ويحتفظون بها في أقربة من الجلد.

أما القطران، فإنه يوجد على نوعين بجبال الأطلس الكبير، وخصوصا في الجهات المطلة على نوميديا. النوع الأول منه، يوجد ملتصقا بالحجر، في أعماق المستنقعات التي تفوح منها رائحة كريهة كرائحة القطران. أما النوع الثاني، فإنه يصنع من شجر الصنوبر الذي يقطع البربر أغصانه إربا إربا، ثم يضعون ما يقطعونه، في فرن عميق ومستدير، في أسفله يوجد ثقب مفتوح على حفرة كالوعاء. بعد ذلك، توقد نار طفيفة وتغلق فوهة الفرن، وتشرع الحرارة في تقطير قطائع الصنوبر، ويتحول سائلها الى قطران يتسرب الى الحفرة منها يستخرج ويصب في أقربة من الجلد.

الترفاس جذور تشبه الكمء، لكنه أضخم حجما منه. ينبت الترفاس في رمال البلدان الحارة وله قشرة بيضاء، ويعثر عليه في المواضع التي تنتفخ فيها قشرة الارض وتتشقق. قد يبلغ حجم الواحدة من الترفاس، حجم برتقالة كبيرة. يقول بعض الاطباء في شأنه، إنه يطفىء العطش. توجد منه كميات هامة في نوميديا، والاعراب يأكلونه بكثرة، إذ يشوونه على مشواة أو يصنعون منه حساء. طعمه لذيذ، ونجده كذلك في رمال غابة معمورة بالمغرب.

ينبت كذلك في نوميديا وليبيا وبلاد الزنوج، شجر ضخم شائك يسمى الطلح، يشبه الصنوبر في ورقه ويسيل منه صمغ كالملاط. لذلك، يقوم بعضهم فيشوب الصمغ بالملاط، لأن لهما لونا واحدا، ورائحة واحدة.

(2) الفربيون شجرة تعد من النباتات اليتوعية التي تفرز لبنا حادا، وتعرف هذه الشجرة عند العوام، باسم أم اللبينة، ويسميها المصريون : «اللبانية المغربية»، وذلك حسب ما ورد في كتاب « تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب»، مؤلفه مجهول، وقد قام بتحقيقه، رونو وكولان.
ولعل هذا الاسم يرجع الى العالم والطبيب أفورب الذي اكتشف النبات خلال جولته بالمغرب، رفقة الامبراطور جوبا الثاني في مستهل القرن الأول الميلادي. (المترجم)

يتميز طلح نوميديا بما تحمله أوراقه من خطوط بيضاء كأوراق الزيتون الوحشي وما يدخل في فصيلته من أشجار. أما أوراق طلح ليبيا، فإنها تحمل خطوطا بنفسجية، في حين يتميز طلح افريقيا السوداء بخطوط سوداء، ويسمي الزنوج هذا الطلح، بالعلق، ويستخدمون خشبه في صناعة بعض الأدوات.

يباع خشب طلح ليبيا في مختلف بلاد الزنوج، ويصلح لعلاج مرض نابولي.

الشرناك(3) ينبت بالأطلس الكبير، وخاصة في مناطقه الغربية المطلة على نوميديا. ويبدو أن جذور الشرناك تهيج الغريزة الجنسية عند الرجال. فإن الكبار والفساق يتناولونها، ويدعون أنه إذا بال أحد عليها انعظ لحينه. ويقول الجهال من سكان الأطلس، أن الفتيات إذا بلن عليها، فقدن بكارتهن وانتفخ بطنهن، وهذا أمر غريب يصعب تصديقه.

في ختام الحديث عن النباتات، بقي أن نقول شيئا ما عن نبات مر للغاية، يسميه العرب : أداد. إنه نبات سام الى درجة أن ثلاثين أو أربعين نقطة من مائة المقطر، تكفي لقتل إنسان في ظرف ساعة.

الفصـل الثانـي

السوس الأقصى ـــ بلاد إدا وْبْنْوت، وبلدان أخرى متاخمة لنوميديا

تبتدئ الجهات المسكونة في غرب نوميديا، على شواطىء المحيط الأطلسي، من رأس أغير (قرب أكَدير) وتمتد الى رأس نون. وتسمى هذه الجهة من نوميديا، السوس الأقصى، الذي يحده المحيط غربا، ورمال ليبيا جنوبا(4) إقليم درعة شرقا، وسوس البربري شمالا. وأهم المناطق المسكونة، بربرية.

يعيش البربر تحت نظام القبائل أو التكتلات البربرية. أول هذه القبائل تسمى إدا وزكري، التي توجد بجانب صحراء الظهرة(5). وتسمى دولتهم، دولة هلالة التي يوجد بها كثير من المدن والقرى. يملك سكان الظهرة عددا كبيرا من

---

(3) الشرناك، يسمى كذلك البيش، ويسميه أهل البادية من العرب البلعلع وبالبربرية إكَنطر. ورد هذا في كتاب «تحفة الاحباب في ماهية النبات والاعشاب». (مترجم).

(4) مرمول يسمي الصحاري الممتدة من المحيط الى البحر الاحمر، صحراء ليبية، وكان قدماء اليونان يطلقون إسم ليبيا، على جل المناطق الافريقية التي تقع شمال السودان، (مترجم)

(5) حسب الخرائط الحالية، فإن قبيلة إدا وزكري لا تنتمي الى تكتل هلالة البرابر. (المترجم)

الخيول والأغنام، لأن المنطقة جيدة وتنتج كميات هامة من الحبوب، وتنتج في بعض جهاتها، الحوامض وفواكه أخرى مثل فواكه أوربا.

تتخلل هذه المنطقة قصور منغلقة ـــ يستحيل معرفة عدد سكانها، وكلهم بربر ـــ وقلع محصنة يوجد أهمها بإدا ونضيف على بعد عشرين فرسخا من تارودانت، وفي الظهرة وبإدا وكنسوس وأركان. يتشكل سكان هذه المواقع من تجمع كبير يسمى القسيمة(6). كل هؤلاء البرابر يحاربون الى جانب أهل هلالة، ويملكون خمسة آلاف فرس ولهم ثلاثون ألف جندي من المشاة وهم من أجود المحاربين بإفرقيا كلها.

الفصل الثالث
اشتوكة

اشتوكة منطقة يوجد بها عدد من المدن والقصور، من بينها أربعون مجموعة سكنية بربرية، أهمها تسمى تاركز، يشرف عليها قصر مشيد على هضبة يسكن به شيخ القبيلة. تتخلل الصخور هذه المنطقة الخصبة التي تنتج الشعير على الخصوص، ويملك سكانها قطائع هامة من المعز الذي يشكل أهم مورد لثروتهم. وينتمي برابر المنطقة الى قبائل مصمودة، ويسكنون كلهم بالقصور، وأهم المدن والقصور توجد لدى إيدونزال، وإدا وبعقيل، والرمسوكة وهلالة وهي أقوى قبائل المنطقة.

الفصل الرابع
قرى وادي نــون

شيدت هذه القرى عبر وادي نون، في اتجاه المحيط، وتوجد على مقربة السواحل الأطلنتية. سكانها برابر ينتمون إلى قبائل إدا وزل(7)، التي يوجد عدد من أفرادها في المناطق الواقعة بين بلاد الجريد والظهرة، وأكثرهم نزحوا من الضهرة ليستوطنوا وادي نون، فرارا من عمليات النهب التي يمارسها برابر يلقبهم القوم

---

(6) اختلط الامر على مرمول في أسماء التجمعات البربرية، إذ أن قسيمة قبيلة جنوب أكدير وشماله، وتتاخم حدود شوكة (مترجم).

(7) إدا وزل تقع شمال نون، وشمال واد سوس. أما القبائل المحادية لضفاف نون، فهي : اسبوعية، آيت أحمد، آيت النوس، ازوافيت، ايت لحسن، اولاد بوعيطية. (المترجم)

بالبرابش لأنهم جمَّالة، ويقولون إنهم من الأوداية وصنهاجة. إن المنطقة هذه، قاحلة، لا ينبت فيها إلا قليل من الشعير وشيء من التمر الرديء لا يسمن و لا يغني من جوع. لذلك، ترى السكان غير مرتبطين بنظام و لا يعرفون داعي الاستقرار، فيرحلون إلى جهات أخرى، سعيا وراء أقواتهم، فيمارسون التجارة مع مملكة ولاتة التي يوجد بها رأس نون، الذي أطلق عليه البرتغاليون «رأس لا»، يعنون بذلك، ألا خير فيه، وهم يتشاءمون منه لأن السفن التجارية التي ترسوا بجواره، فلما تعود سالمة. أما الأعراب الذين يضربون في هذه المنطقة، فيسمون الرحَّالة، وينشرون الرعب أينما حلّوا، حتى أن البرابر لا يتجرَّؤون كثيرا على مصادفتهم، ويفضّلون البقاء في قراهم ومداشرهم، والإعتصام بجبالهم.

الفصل الخامس
تيسّت(8)

تقع هذه المدينة العتيقة بغرب الظهرة وقد بناها البرابر في المنطقة التي يوجد فيها البرابيش والأودية وصنهاجة. منازلهما مبنية من الحجر ويقطن بها ما يقرب من خمسمائة كانون، لكنها خالية من كل رواج تجاري وليست فيها شرطة. والجدير بالذكر، أن الأعراب وغيرهم من المستوطنين بهذه المنطقة، يدينون بالولاء إلى الملوك الشرفاء.

تحيط بتيسّت، مساحات رملية، باستثناء بعض الواحات التي تنتج التمر والزيتون والذرة، وبذلك يقتات الأهالي، وتيسّت هي كذلك مقر الوالي الذي عينه ملك مراكش، ووضع تحت تصرفه، حامية للسهر على سلامة السكان وحمايتهم من هجمات الأعراب الذين كانوا من قبل، يفرضون عليهم إتاوة هامة. أما في هذا العهد، فإنهم أخذوا يمارسون التجارة مع أهل منطقة جزولة والأوداية، ولم يعودوا يخشون التنقل نحو زبنائهم في موطنهم. لكنهم أميّون، غير أن النساء اشتهرن هنا بحفظ القرآن وبإلمام بشؤون الدين، فيعلّمن الأطفال الكتابة والقراءة ويقمن بتلقينهم مبادىء دينهم. وعندما يبلغ الأولاد الذكور سنّ الرشد، يتخلّون عن الدراسة ويقبلون على التجارة أو على الأعمال اليدوية.

---

(8) ربما يقصد بها قرية أسّا، وهي على مقربة من واد درعة وتابعة لإقليم كَليمين. (المترجم)

إلى جانب القيام بالتدريس، تنكب النساء هناك على غزل الصوف والأوبار، لكن النساء الأخريات لا يشتغلن، لذلك، ترى الفقر يعمّ البيوت، و لا يتوفر القوت إلا للقليل من السكّان، ولو كان بعضهم يملك قطيعا من الشياه أو المعز أما الفلاحون، فإنهم يربطون الحصان مع الجمل لحرث الأرض، لأنهم لا يملكون البقر.

وأخيرا، نقول إن بشرة الرجال سمراء، وبشرة النساء بيضاء، ونشير إلى أن منطقة نون توجد بين تيسّت والبحر.

الفصل السادس
وَدّان

وَدَّان بلدة كبيرة ليست لها أسوار، تقع على حدود صنهاجة، سكانها فقراء، لكنهم يتميزون بخشونتهم وعنفهم، لا يملكون ما يقتاتون به سوى قليل من التمر، يكادون يخرجون عراة من جراء الفاقة، و لا يبرحون بيوتهم إلا قليلا، نظرا لما بينهم وبين جيرانهم من عداوة وبغضاء، فيخشون أن يتعرضوا لبطشهم. يتدرّبون على عمليات الصيد، يقنصون النعامة واللمت فيأكلون لحومهما، ويتعاطون إلى تربية الأمعاز، لأنهم يتغذون بألبانها. لونهم إلى السواد أقرب منه إلى السمرة، ولا محيد لهم عن الولاء لأعراب الأودابة، المهيمنين على الصحراء التي تشمل البلدة وتمتد إلى تخوم مملكة ولاتة التي يخضع أميرها الزنجي نفسه إلى نفوذ هؤلاء الأعراب، فيدفع لهم إتاوة سنوية. وبالمناسبة، نشير إلى أن هؤلاء الأعراب يتوفرون على جيش من ثمانين ألف مقاتل.

يتوفّر بعض سكان وَدّان على خيول ولو كان عددها قليلا، والغريب أن تلك الخيول تشرب لبن الإبل بدلا من الماء، وأخذت تتبع النوق لترضعها كلما أحسّت بالعطش.

كنا في هذه البلدة مع الشريف محمد، ملك سوس، الذي كان يتأهب لشنّ هجوم، مع الأعراب، على الزنوج وغيرهم من أقوام الصحراء. وفي تلك الأثناء، علمنا أن الملك البرتغالي، خوان الثاني، تعاقد مع حاكم البلدة، ليشتركا في عمليات التجارة بمدينة أرغوين، الموجودة غربا، على مسافة ستين فرسخا من ودان.

الفصل السابع
إفران

إفران عبارة عن مجموعة عمرانية تتألف من أربع مدن مسوّرة، يرجع بناؤها إلى قدامى النوميديين، بين المدينة والأخرى مسافة فرسخ على وجه التقريب. أقيمت المدن الأربع على إحدى ضفتي جدول صغير، تنساب مياهه في الشتاء، وتنضب في الصيف. وتتجه المدن كلها نحو الجنوب، في اتجاه مدينة تاغوست الواقعة بالظهرة، وتتناثر المداشر والواحات خلال المسافات الفاصلة بين المدن.

يوجد بإفران وحدات للشرطة، بسبب توافد النصارى إليها في مهمات تجارية، كما يتوافدون على مينائها كارفيس لاقتناء المنسوجات وغيرها من البضائع التي يبيعونها في ولاتة وتنبكتو وغيرهما من المواقع في بلاد السودان، ويأتون منها إلى إفران لعرض الجلود والشموع والأرز والسكر.

يتقن بعض سكان إفران، صناعة الأواني النحاسية، إذ يستخرجون نحاسا رفيعا من أحد جبال الأطلس الصغير المطل على الجنوب، وهو جبل إيسين. ونظرا لأهمية المنطقة، اتخذ فيها ملك سوس قصرا يقيم فيه الوالي، الذي يستلم النحاس المستخرج، ويسمّى الصيني، ثم يوزعه بالقسط على الصناع. وألفت نظر القارىء إلى أن سكان المنطقة، برابر اعتنقوا الطريقة الجزولية.

يقام بإفران سوق أسبوعي يحج إليه الناس من قبيلة هلالة، وأعراب زناكة، للتزوّد بما يحتاجون إليه، فتعرف المنطقة رواجا اقتصاديا يستدري منه سكانها أموالا تمكنّهم من العيش حسب أذواقهم، وتكون موردهم الوحيد لأنهم لا يملكون أراضي فلاحية. بشرتهم سوداء، مثلهم كمثل أهل ودّان وتاغوست.

يوجد مسجد جميل بأحد مدن إفران، وبه قضاة وعلماء، لأن السكان أقاموا بأنفسهم نظاما وقوانين لحياتهم الخاصة والعمومية.

الفصل الثامن
أقّا

تتشكل مجموعة أقّا من ثلاث قرى منغلقة على نفسها، متقاربة بينها، تقع في صحراء نوميديا، على تخوم ليبيا، في منطقة يمتلكها بنو هلال، الذين دخلوا

إفريقيا في عهد القائم بالله، أحد خلفاء القيروان. ولما استقرّ هؤلاء الأعراب بإفريقيا، تأثر بعضهم بأسلوب حياة أهلها، فراحوا يشيدون المنازل على نمط بيوت البرابر، واندمجوا في أوساطهم، إلا أن البعض الآخر من بني هلال، آثروا حياة البداوة والترحال على حياة التمدّن والاستقرار، وصمّموا على مواصلة نعت إخوانهم بأنهم أعراب لا غير، لكن هؤلاء وأولئك، ذهبوا يعتقدون ويشيعون أنهم من أصل إفريقي، متجاهلين أنهم أقبلوا من صحاري الجزيرة العربية، وأنهم قوم أميّون لا يفقهون.

لبثت أقّا حينا من الدهر، دار غنى وازدهار، يرفل أهاليها في رغد العيش، لكنها انقلبت إلى دار فقر وكساد، بسبب الفتن الداخلية والاقتتال بين السكان، فتدخّل رجل صالح من المرابطين، واستطاع أن يضع حدّا للتطاحن بين الاخوة، وعاد إلى أقّا كل الذين هاجروها من قبل، وبايعوا ذلكم المرابط بالإمارة عليهم، فتوارث أبناؤه الحكم فيها، تحت رعاية الملوك الشرفاء.

يعاني اليوم أهالي أقّا كثيرا من داهية الفقر التي تطغى على سكان القرى بالخصوص، الذين لا يملكون فتيلا و لا قطميرا، اللهم إذا استثنينا كميات ضئيلة من التمر الذي يجنونه من نخيلهم الضعيف، فيبادلونه بقليل من القمح أو الشعير الذي يأتي به البرابر من المغرب.

كان أعراب أولاد أرتامينة يتحركون في الصحراء المحادية لأقّا، ويتوغّلون في تخوم تيسّت ويفرضون الإتاوات على الأهالي، لكن معظمهم لقوا حتفهم في المعارك التي شنّتها قوات السلطان أبي حسون.

الفصل التاسع
درعة

تشكل درعة إقليما هامّا من أقاليم نوميديا، وترجع تسميته بدرعة، إلى النهر الكبير الذي تتفجر عيونه بين جبال الأطلس الكبير، وتتدفّق مياهه في اتجاه الجنوب نحو هسكورة، ومنها يسير نحو ليبيا،(9) حيث يشكّل عدة بحيرات يقصدها الأعراب بإبلهم.

(9) راجع تعليقنا رقم 4، . (المترجم)

يبلغ طول نهر درعة زهاء تسعين فرسخا(10)، لكن عرضه قصير. توجد على ضفاف هذا النهر عدة قرى ومدن، في الجهات المرتفعة عن مجراه، لأنه يفيض في فصل الشتاء، ويقل ماؤه في الصيف، إلى درجة يمكن عبوره على الأقدام في عدّة جهات. أما إذا اشتد الحرّ، فإن الماء يتبخر، وما يتبقى منه في المواضع العميقة، يصبح مُرّا.

في شهر أبريل من كل سنة، ترتفع مياه النهر وتغمر الأراضي الفلاحية فتخصبها، ويحرث الناس ويحصدون، أما إذا انعدم فيضان درعة، فاعلم أن القحط سيضرب المنطقة لا محالة، لأن الأرض لا تنتج شيئا. ويغص إقليم درعة بالقرى والقصور المبنية من الحجر أو الطوب. أما السقوف، فإنها من جدوع النخل التي يصنع منها خشب غير متين.

توجد واحات هامّة على جانبي النهر يتوارث السكان الانتفاع بها ويقتسمون غلالها، وتأتي بأثمار جيدة وسميكة تصبر أكثر من غيرها في جهات أخرى، وتشكل أهمّ مورد لدى السكان. يوجد كل ذكر من النخل بجانب أنثى منه، والنخلة الذكر لا تعطي إلا الأزهار والأغصان، في حين أن النخلة الأنثى هي التي تعطي التمر لذلك، عندما تتفتح الأزهار، يجب أخذ عريش من الأزهار المذكرة وتلقيح الأزهار الأنثى، وإلا، فإن الغلة ستكون هزيلة، والنواة غليظة. أما بعد التلقيح، فيأتي التمر جيدا، سميكا ونواته صغيرة، وطعمه لذيذ، ويكوّن الغذاء الأساسي لأهل المنطقة، خلال شطر هام من السنة.

تختلف أثمان التمر باختلاف أصنافه، لكن أردء الأثمار تستعمل علفا للخيول والإبل، بدلا من الشعير. وعلى الإجمال، فإن الناس يتغذون كذلك بدقيق الشعير الذي يصنعون منه أطعمة مختلفة، و لا يأكلون خبز القمح إلا بمناسبة الأعياد والأفراح. ليست لهم شرطة، ويتساكن معهم عدد هام من اليهود التجار والصياغين. إن أهم المحاور التجارية مع أقاليم درعة، تمر بالطرق المؤدية من فاس إلى تمبكتو ومريتانيا، ويذهب التجار إلى المدن الرئيسية للإتصال بوكلائهم، إذ توجد بهذه المدن متاجرهم ومستودعاتهم ومزاراتهم. يصنع تجار درعة كميات كبيرة من النيلة، يشتريها منهم تجار فاس وغيرهم من تجار المغرب، بالمقايضة مع بضائع أخرى. ويلاحظ أن ثمن القمح في درعة غال، لأن الأعراب يجلبونه من مملكة فاس ومملكة مراكش، وبعدما يبيعونه في أسواق درعة، يشترون كميات هامة من التمر.

(10) طول درعة، زهاء ألف كيلومتر، أي 250 فرسخا. (المترجم)

لا يتوفّر أهل درعة إلا على قليل من الخيول التي يغذونها بأردإ الأثمار مع قليل من العشب، كما يملكون قليلا من الأمعاز التي تتغذى بنوايات التمر المطحونة، فتسمن الشيات وتكثر ألبانها. أما الناس فإنهم يتناولون لحوم المعز والجمال الهرمة، لكنهم يربّون قطائع من النعام كما يفعل ــ القشتاليون بالبطّ ــ إلا أن لحم النعام كريه الرائحة، عسير الهضم ولازج، وخصوصا منه لحم الفخد.

والجدير بالذكر، أن نساء درعة، على جانب كبير من الجمال، لا تُقلل بدانة أجسامهن منه شيئا. زد على هذا، أنهن يتحلين بالطيبوبة والاستقامة، ويتقبلن بصدر رحب، ما يفرض عليهن من معاناة من طرف الرجال.

يوجد هناك، في ملك أيمان العديد من السكان، إيماء وعبيد، تم استقدامهم من المناطق النائية، أو ولدوا في عين المكان، هذا علاوة على الخدم من بيت الحراثين. أمّا بشرتهم جميعا، فإنها سمراء، وقلما يوجد البيض من بينهم.

تحد منطقة درعة غربا، منطقة سوس وجزولة، وتحدها شرقا، منطقة سجلماسة، وجنوبا، بلاد السود وصحراء ليبيا، وشمالا، تتاخم جبال الأطلس الكبير التي تطل على مملكة مراكش.

كانت هذه المنطقة إلى عهد قريب، موزّعة بين قائدين كبيرين، كل منهما مزوار، يتصرف وكأنه أمير. ولما تولّى الشرفاء السعديون الملك، عيّنوا عليها واليين، أحدهما يقيم بفم زكيد، في الجهات العليا، والثاني يقيم بتينزلين، في الجهات المنحدرة. يتوفّر كل وال على جيش من الفرسان لاستتباب الأمن في المنطقة وللدفاع عنها ضد غزوات وهجمات أعراب أولاد سليم، الأقوياء والمترفين، والذين يقصدون تمبكتو مرّة في السنة من أجل التجارة. أمّا الأعراب الذين كانوا يفرضون وجودهم على الدرعيين ويسلبون منهم الإتاوات، فإنهم ينتسبون إلى أولاد عمران، وهم احد تكتلات أولاد منصور؛ كما كانت قبائل معقيل، تفرض عليهم الإتاوة، وهي تعد من القبائل المهابة، إذ لها عدة مداشر وجيش عرمرم قوي، وكان قواد هؤلاء وأولئك، يعيشون كالأمراء ويحظون باحترام كبير لدى الأفارقة، لأنهم يمتلكون الأراضي الشاسعة ويستخلصون الإتاوات من سكان نوميديا.

يقوم هؤلاء الأعراب برحلتين، فتراهم في الشتاء يجوبون الصحراء، وتراهم في الربيع، يتنقلون عبر نوميديا وتدفعهم أقدامهم حتى مملكة فاس. في بعض الأحيان، يستخدمهم الشرفاء، وفي حين آخر، يتصرفون حسب أهوائهم.

بعد هذا العرض عن درعة، بصفة إجمالية، سنتطرق فيما بعد، إلى مدن الإقليم.

الفصل العاشر
تيسّنت

كانت مدينة تيسّنت عاصمة لإقليم درعة، ويرجع الفضل في تشييدها إلى البرابر النوميديين. كان اقتصادها مزدهرا وقد شهدت رواجا تجاريا هامّا مع السودان والأقاليم البربرية المجاورة وغيرها من المناطق. كانت تصدّر إلى أوربا معادن النحاس الأحمر والنحاس الأصفر والرصاص والتبر الذي كانوا يأتون به من السودان، كما كانوا يصدرون العبيد. وكان هذا الذهب يسمّى عند أهل البلد بالنقناقي ونشير إلى أن ذهبا آخر أجود منه كان ينقل من تغزة إلى مراكش، وتستغرق مدة رحلة القوافل، زهاء ستة أشهر.

كان سكانها على مذهب السنة، فتسلط عليهم الأعراب المتشيعون إلى مذهب آخر، وحاربوهم عدة مرات، فألحقوا بتيسنت الخراب والدمار، ولم يبق منها اليوم قائما إلا بعض آثار مبانيها.

الفصل الحادي عشر
بني صبيح

تعتبر بني صبيح أهم مدينة بالاقليم، وتقع على جانب نهر بمنطقة رملية، يحيط بها سور بسيط وتنقسم إلى شطرين، لأن سكانها انقسموا إلى طائفتين متنافرتين، كانوا يشهرون السلاح فيما بينهم، خصوصا وقت عمليات السقي التي كانت تثير بينهما خلافات دموية. ومع ذلك، كان أهلها يتصفون بالشجاعة والأمانة والتسامح الديني، يكرمون الغريب ويستضيفونه دون مقابل، ويرضون بما يقدمه لهم من نقود عند مغادرته المدينة. كانوا كذلك على مذهب مخالف لمذهب الأعراب، وكان كل واحد منهم يحاول إقناع الأعراب باعتناق مذهب المدينة، فيغريهم بالمال، وكانت هذه العملية تتجدد كل يوم، مادام الاختلاف الديني قائما.

عندما أصبحت هذه المدينة خاضعة إلى الملوك الشرفاء، انتهت فيها الاختلافات الدينية. ويسهر اليوم على الأمن فيها، حامية تتألف من الجنود

المسلحين بالبنادق ومن الرماة، تحت قياد الوالي المقيم بها، باسم ملك مراكش. وتسهر تلك الحمية كذلك، على حماية المدينة من غارات أعراب بني سليم الذين تعودّوا من قبل، بسط سلطانهم عليها.

الفصل الثاني عشر
كيتصوة

تقع هذه المدينة الكبيرة على أقل من فرسخ من نهر درعة، وقد شيدها منذ زمن بعيد، برابر نوميديا، ويوجد بجوارها، قصر بني على هضبة صغيرة. سكانها برابر، لكنهم يتحدثون برطن افريقي، ويعرفون بأنهم «دراوة»، وعددهم يشكل ما يزيد عن ثلاثة آلاف أسرة، متفرقين على عدة طوائف، تحمل كل طائفة لقبا خاصا، وكثيرا ما يكون هذا اللقب، لقب إحدى الأسر المنضوية تحت الطائفة، أو لقب الجهة التي يترحّل فيها أفراد الطائفة.

كان أعراب أولاد سليم يسلّطون سيوفهم على أهل المدينة ويفرضون عليهم الاتاوات السنوية، لكن ملك مرّاكش بسط نفوذه على المنطقة، وأقام بالمدينة حامية تتألف من مأتي فارس وثلاثمائة من الرماة وبعض جنود المدفعية.

تنتج هذه المدينة وما حولها، كميات هامة من التمر والنيلة وعرق اللؤلؤ الذي يصنع منه الأهالي مادة تصلح لغسل الصوف، فتزيدها بياضا ولمعانا وتعطيها لونا شبيها بلون الصدف.

الفصل الثالث عشر
تيزرين

تقع هذه المدينة بجانب نهر درعة، وتختفي بناياتها تحت النخل الكثيف والباسق. يبلغ عدد سكانها زهاء أربعة آلاف نسمة، يقطنون كلهم في القصور، وتشملهم حماية ملك مراكش، إذ ترابط بالمدينة قوات تتألف من مائة فارس ومأتين من الرماة بالبنادق والنبال.

تنتج المدينة التمر والشعير، ويتوفّر أهاليها على قطائع هامة من الأمعاز.

الفصل الرابع عشر
تَكَمَادَرْت

تقع هذه المدينة على مسافة قريبة من الحدود الليبية، وعلى بعد عشرين فرسخا من اكتاوة. يقدر عدد سكانها بألف وخمسمائة نسمة وكلهم دراوة.

تحيط بالمدينة أسوار قبيحة المنظر، ويوجد بجوارها قصر مشيد بقمة جبل. يتميز أهلها بالكبرياء والأنفة، لأن فيهم الأدباء والعلماء، وهي مسقط رأس الشرفاء الذين يحكم اليوم بفاس ومراكش ملوك من سلالتهم. اما المنطقة، فإنها غنية بجودة تربتها، وتنتج القمح والشعير والتمر، وفيها مراع لمختلف الأنعام. تسهر على الأمن فيها ضد الأعراب حامية ترابط بالقصر، وتتألف من جنود من مختلف الأسلحة. تخضع كل من تكمادرت وتانجموست إلى والي تيمزكيت لأن هذه المدينة هي قاعدة الاقليم.

الفصل الخامس عشر
تنجداد

تقع هذه المدينة على جانب نهر، بين النخيل، من منطقة فلاحية خصبة، تنتج التمر والقمح والشعير، زيادة على النيلة وعرق اللؤلؤ، اللذان يوجدان بكثرة هناك ومس نوع جيد، يتهافت عليهما التجار من كل جهة. ويوجد بالمدينة سوق كبير توجد فيها مختلف المنتوجات، يأتيه التجار من افريقيا ومن أوربا، لبيع التياب الصوفية، والأقمشة القطنية وبضائع أخرى. ونشير إلى أن عددا من التجار النصارى والبرابر، استوطنوا المدينة، وقد مكثنا نحن فيها يومين رفقة والي مكناس، وشاهدنا ازدهارها، ولاحظنا أن الأمن سائد بها، أكثر مما هو عليه الحال في غيرها من المدن والأقاليم.

الفصل السادس عشر
ترغالة

تعتبر هذه المدينة من أهم مدن الاقليم. وبها يوجد زهاء أربعة آلاف كانون وملاح تسكن فيه أربعمائة أسرة يهودية. تقع ترغالة بجانب نهر درعة، على مقربة من قصر يقيم فيه الوالي الذي يمثل ملك مراكش، على رأس قوات تتألف من أربعمائة

فارس وخمسمائة رام، أنيطت بهم مهمة حراسة القوافل التي تنقل التبر من تغازة إلى ترغالة حيث يصهر ويوزن ويوضع عليه الطابع، ومن تم يرسل إلى مراكش عبر كتيوة.

توجد ترغالة بين النخيل، أرضها خصبة، تنتج كثيرا من القمح، وفيها المراعي لانواع الأنعام، ذلك ما جعل مستوى معيشة السكان جيدا.

كان هنا وال من سلالة الشرفاء المزواريين الذين لبثوا يتمتعون بحظوة كبرى لدى السكان، اسمه حمّو بن علي، جاهد إلى جانب الشرفاء السعديين، ومهّد لهم السبيل إلى بسط نفوذهم على المنطقة، فحظي بعنايتهم وتقديرهم ومنحوه صداقتهم.

الفصل السابع عشر
تنزلين

إنها أكبر مدن اقليم درعة، وتقع على بعد عشرة فراسخ من تيسرغات، شمالا. تحيط بها أسوار متينة ويسكن بها أكثر من ستة آلاف نسمة، وتتميز بقصبتها الهائلة التي تأوي الوالي وكبار شخصيات المدينة. أما الحامية المرابطة بها، فإنها تتألف من مائة فارس ومائتين من الرماة. تستنتج هذه المدينة كثيرا من القمح والشعير والتمر ويملك سكانها الاغنام والابقار، ويرفلون في رغد العيش، ولئن كانوا يخشون غارات الجبليين.

كان يسكنها أحد المزواريين الدرعيين قبل أن تصبح خاضعة إلى الشرفاء.

الفصل الثامن عشر
تمْكَروت

تقع تمكَروت على بعد عشرة فراسخ من تكَمادرت، وعلى جانب نهر درعة. يوجد بها قصر في حالة جيدة، يسكنه الوالي، ويرابط بالمدينة جيش يتألف من أصحاب الرماية والمدفعية وبعض المشاة.

تعتبر تمكَروت أهم مدن دراوة وأقدم مدينة بالاقليم. إنتاجها من التمر لا يستهان به.

الفصل التاسع عشر

تبرنوست

يطلق اسم تبرنوست على قلعة توجد بالقرب من الحدود مع ليبيا، لمراقبة تحركات أعراب الصحراء وحماية المنطقة من غاراتهم عليها. لا يسكن في هذه القلعة إلا العساكر الذين يسمون بالمخازنية.

بنى الشرفاء السعديون هذه القلعة في السنوات الأخيرة، وتوجد حولها بعض الحقول التي تنتج القمح والشعير، ونخل مثمر، ويملك أصحاب الحقول عدة رؤوس من المعز.

الفصل العشرون

أسّا

انه كذلك اسم يطلق على قلعة تقع في منطقة متاخمة لصحراء الضهرة، وقد شيدها الشريف محمد عندما كان ملكا على سوس. ترابط بها وحدات عسكرية تتألف من الفرسان والمشاة، مهمتها التصدّي إلى أعراب الصحراء المعروفين باسم الزرقان، ونشير إلى أن هذه المنطقة هي باب الدخول إلى نوميديا من هته الجهة.

تتألف موارد أسّا من التمر والمعز وقليلاٍ من الشعير.

الفصل الواحد والعشرون

فم ازكيد

تعد فم ازكّيد إحدى المدن الهامّة بإقليم درعة، وتعتبر حصنا منيعا في وجه جزولة. يسكن بها ما يقرب من ألفين من الأشخاص، ويوجد في أرباضها أربعمائة منزل.

فم ازكّيد مدينة عتيقة، يقيم بها وال على رأس جيش هام من الرماة والفرسان، لمواجهة برابر جزولة الذين يشنون عليها غاراتهم، ولحمل السكان على دفع الضرائب المستخلصة عن أرباحهم من التمر والقمح والشعير والأغنام.

الفصل الثاني والعشرون
إقليم سجلماسة

يحمل هذا الاقليم اسم عاصمته، يخترقه نهر زيز الذي ينصب من بين جبال الأطلس الكبير، فيمر بغرس العيون، وكنانة والمداغرة والرتب، ومن هنا إلى إقليم سجلماسة، يتخلل النخل وينتهي في صحراء الضهرة، حيث يصب في بحيرة كبرى.

يمتد إقليم سجلماسة على مسافة طولها أربعون فرسخاً ونيِّف، وأهله برابر ينتمون إلى قبائل زناتة وزناكة وهوارة المتاخمين لبلاد المرابطين.

كان هذا الاقليم قديماً يتمتع بحكم ذاتي، ولم استتبّ الأمر إلى المرابطين، ضمّوه إلى سيادتهم. واستولى عليه الموحّدون من بعدهم. ولما أصبح الملك بأيدي بني مرين، استولوا عليه، لكن الأهالي ثاروا عليهم، وقتلوا الوالي المريني الذي نُصِّب عليها فانتقم المرينيون منهم بقتل أمير سجلماسة، المسمى يوسف، وهدّموا المدينة عن آخرها كما خرّبوا ما كان في الاقليم من قرى هامة. إلا أن سكان الاقليم تراجعوا عن موقفهم، وأعلنوا عن ولائهم الى المرينيين، فسمحوا لهم بإعادة بناء بعض القرى والقصور المحصنة.

وعلى العموم، يوجد بإقليم سجلماسة، ثلاثة مواقع حضرية هامّة، زيادة على قاعدة الاقليم، وتلك المواقغ هي بالتتالي : تنكنت(11) التي يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة يوجد من بينهم بعض الصناع والتجار، وهي أقرب المواقع لمدينة سجلماسة، ثم تبوعصامت التي تقع جنوب تنكنت وتبعد عنها بثلاثة فراسخ وهي أكبر القرى، وأكثرها سكاناً، وأهاليها أدباء ومتحضرون، يقطنها عدد هام من التجار، المواطنين والاجانب، كما يسكنها اليهود وأكثرهم صناع.

أما البلدة الثالثة، فتسمى مامون، تكتظّ بالسكان، منهم عدد هام من التجار اليهود والعرب، ولذا، فإن لها أهمية كبرى.

في كل من المدن الثلاث، يوجد حاكم، لأن السكان متغطرسون، لا يحترمون الجار، ولا يخشون الا القوة، وكثيرا ما يندفعون الى العصيان، ويقومون بأعمال تخريبية، فيتلفون قنوات الماء، وآلات السقي، ويقطعون الاشجار، ينهبون بعضهم البعض بمساعدة الأعراب، ويضربون النقود الخاصة بهم، فيسبكوا الدبلون من

11) (لعل هذه المدينة هي الرساني حاليا) (المترجم).

الذهب الرديء/ويسكّون/ كذلك النقود من الفضّة الخالصة. كان قسط من الموارد يذهب/ الى صناديق الحاكم، مثل الخراج المفروض على اليهود أو مداخيل ضرب السكة. لكن الأعراب كانوا يستخلصون من التجار، الرسوم الجمركية، ويتنقلون من أجلها إلى غرس العيون، وكان عددهم أكثر من ستة آلاف فارس وخمسين ألف من المشاة.

أما اليوم، فإن إقليم سجلماسة خلص للشرفاء السعديين. أهل الأقليم أناس أفظاظ، ولا يستثنى فيهم من هذه الصفة إلا القليل، الذين يتاجرون مع السودان، فيأتون منه بالذهب والعبيد، مقابل بضائع مغربية يبيعونها هناك. غذاؤهم الأساسي هو التمر وقليل من القمح.

تزخر المنطقة بالعقارب التي لا تخلو منها المدن والقرى، ولا يوجد فيها أثر للبرغوث. تكون الحرارة مفرطة في الصيف، فتلهب أعين الناس وتنتفخ بسببها. عندما تنضب مياه النهر، يضطر القوم الر شرب مياه الآبار المالحة.

يهدد أعراب الصحاري مواقع الأقاليم بغاراتهم، فاتفق الأهالي على تشييد سياج واق حوله، يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا، ويتّحدون لدفع الخطر عنهم، لكن سرعان ما يرجعون الى خلافاتهم بمجرّد ما يأمنون من الأعراب، ولا يبالون بصيانة السياج، فيندثر في كثير من الجهات، ويتسرّب اليهم الأعراب من جديد، فيسودون في البلاد.

يتاخم إقليم سجلماسة غربا، إقليم درعة، وشرقا، إقليم الرطم المحاذي لنهر زيز، وجنوبا، اقليم الضهرة وشمالا، جبال الأطلس الكبير المطلة على غرس العيون، بمملكة فاس.

الفصل الثالث والعشرون

سجلماسة: عاصمة الاقليم

سجلماسة مدينة قديمة، ترجع بعض الروايات بناءها إلى أحد الضباط الرومان، الذي قدم من موريتانيا واستولى على نوميديا بأكملها وزحف بجنوده حتى وصل الى المكان الذي يعتبر مدخل نهر زيز الى هذا الاقليم، وبنى مدينة ماسة، ثم سماها «سجلّو ماسة»، التي تعني في اللغة اللاتينية «خاتم النصر». والى جانب ذلك، تُردّد روايات أخرى ليست قابلة للتصديق، أن الأسكندر ذا القرنين هو

الذي شيدها لاستشفاء المرضى والمعطوبين من جنوده، ونحن نعلم ان الاسكندر لم يقدم إلى افريقيا البربرية.

تقع مدينة سجلماسة في سهل بجانب زيز، ولها أسوار عالية وجميلة ما زالت آثارها قائمة. كانت هذه المدينة زناتية، قبل أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين وكانت غنية، تمرّ بها القوافل الرّاحلة الى السودان أو القادمة منه، وكان يوجد بها كثير من المساجد والمدارس، وفي كل حي كانت تتدفق المياه في النافورات والسقايات، وكان الماء يجلب إليها من النهر بواسطة ناعورات خشبية تدور، فتمتلىء أوعيتها بالماء، ثم تصبّه في قنوات تفرغه بدورها في مستودعات مرتفعة، ومنها يصبّ في قنوات أخرى تمرّ عبر المدينة.

إن الهواء هنا يبقى طيبا وصحياً، رغم الحرارة المفرطة التي تجتاح المنطة في الصيف، ورغم الرطوبة العالية التي تنجم عنها، ورغم المرض الذي ينفخ العيون والحمى التي تصيب بعض الناس والتي يتم الشفاء منها بالحمية في بضعة أيام.

ان الحكام المرينيين الذي توالوا على المدينة كانوا طغاة، ولم يصبر السكان على ما ظلوا يعانونه من شدّة وقسوة، فثاروا على أحد الولاة وقتلوه، وكان ردّ فعل المرينيين عنيفا، إذ دكّوا المدينة دكّا، بعد أن أرغموا أهلها على الجلاء عنها، فهاجروا الى المواقع الثلاثة التي ذكرناها في الفصل السابق.

الفصل الرابع والعشرون
اقليم الرتب أو الرطم

يحاذي هذا الاقليم نهر زيز، ويتاخم اقليم المداغرة جنوبا واقليم سجلماسة شمالا، طوله عشرون فرسخا، وتوجد به عدّة قرى ومداشر يسكنها قوم من البرابر ينتمون الى قبائل آيت غريس، لكنهم لا يتحدثون بلهجة الغريسيين، وعلاوة على ذلك، يتصفون بالبخل والخوف والجبن، حتى لو اجتمع مائة رجل منهم، لا يستطيعون أن يغلبوا عشرة رجال من الأعراب، وهذا ما شجّع الأعراب على استعبادهم واستخدامهم بالمجّان، في الأشغال الفلاحية وغيرها.

يطل هذا الاقليم من ناحيته الشرقية، على جبل جذْب، أما في غربه، فلا توجد الا منطقة رملية يحط فيها أعراب أولاد المنبهي البالغ عددهم ألفي نسمة كلما عادوا من ليبيا، فينصبون الخيم، ويتحينون الفرص لابتزاز أهالي الاقليم، اذا ما تبيّن لهم ان السلطات الحاكمة غير قادرة على منعهم من ذلك.

الفصل الخامس والعشرون
اقليم مدغرة

يوجد هذا الاقليم طوال زيز، شمال الاقليم السابق ذكره، ويتاخم اقليم كنانة شمالا، في المنطقة المؤدية الى مملكة فاس. تقع معظم قراه ومداشره بجانب النهر، وأهمها بلدة هلالة مقرّ الحاكم العربي المنتمي الى قبائل المداغرة.

ونشير في هذا الصدد الى ان هذه القبائل انقسمت الى شطرين، شطر منها يحمل السلاح ويحرس التخوم ويحمي القرى والمداشر، والشطر الآخر آثر الحياة في البوادي وقد تناثرت خيمهم عبر الاقليم لمراقبة القافل والراحل، وليس بوسع أي أحد لا ينتمي الى الاقليم، أن يدخله دون رخصة. لذلك، يتعرّض المدغريون الى المسافرين والى القوافل، واذا ما لاحظوا أن قافلة لا تحمل اذنا بالمرور، جرّدوها من أمتعتها.

لكن السلطات المركزية بعثت بحامية الى الاقليم، لحماية المواطنين من الأعراب المنبهيين ولضمان أمن الطرق والقوافل.

الفصل السادس والعشرون
كنانة

تشكل كنانة إقليما آخر من أقاليم نوميديا، يخترقه نهر زيز، ويحده الأطلس الكبير شمالا، واقليم المداغرة جنوبا، توجد به عدة قرى ومداشر، كان أهلها قديما خاضعين للأعراب ولحكام غرس العيون، أما غيرهم من الأهالي، الذين كانوا يقطنون شمال الاقليم، فكانوا يتمتعون بحريتهم ويبسطون سيطرتهم على الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة، يستخلصون مكوس المرور من التجار والقوافل.

يوجد بشمال كنانة ثلاثة قصور محصّنة هامّة، أحدها صرح هائل يقع في قمّة جبل، يشرف على الطريق، حرّاسه يتداومون على مراقبة المرور في الأسفل، ويتقاضى كل واحد منهم ربع مثقال على كل حمل من أحمال القوافل. أما الحصن الثاني، فانه يبعد عن الأول بأربعة فراسخ، جنوبا، ويقع على منحدر جبل سكانه أغنى من سكان الحصن الأول وأكثرهم نبلا وأفضل منهم أخلاقا، في حين أن الحصن الثالث يقع على مسافة بضعة فراسخ من الثاني، ووسط الطريق الرئيسية،

غير بعيد عن مجرى النهر. أما ما عدا ذلك من القرى والقصور، فان أهلها غلاظ لا أخلاق لهم.

كنانة فقيرة من الناحية الفلاحية، وقلما تجد فيها حبّا ونباتا، لكن أهلها يملكون قطائع من الأمعاز، لا تخرج من كهوفها في فصل الشتاء، لأن القوم يسكنون بالمناطق الجبلية التي تكثر فيها الصخور، والمسالك الصعبة والضيقة والملتوية، حتى انه يمكن لرجلين فقط أن يعرقلا مرور جيش بأكمله. ويمتدّ الممر الرئيسي الخطير، عبر الأطلس، على مسافة طولها خمسة عشر فرسخا.

الفصل السابع والعشرون
السويهلة

السويهلة مدينة صغيرة محصنة على مقربة من الحدود الموريتانية وعلى مسافة أربعة فراسخ من اقليم سجلماسة، وقد بناها الأعراب وجعلوها مستودعا لادخار أمتعتهم ومؤنهم ولتأمينها أثناء غيابهم. يمرّ نهر زيز قرب هذه المدينة قبل أن يصب في صحراء الضهرة، وحولها لا يوجد أي نبات، ولا أي مصدر لموارد العيش، بل المنطقة كلها حجارة ورمال سوداء، تزيد المكان حزنا وغبنا.

الفصل الثامن والعشرون
مدينة تفلالت(12)

عندما شيّد البرابر هذه المدينة في سهل من الرمال، بنوا داخلها قصرا كبيرا وأحاطوها بالأسوار. يسكن فيها اليوم ما يزيد عن ألفي نسمة، سوادهم الأعظم من البرابر، وينسبون كلهم الى المدينة، فيطلق عليهم اسم فلالة.

أهل هذه المدينة أثرياء ومؤدّبون، ينتج نخيلهم أجود ما في نوميديا من الثمار، ويملكون العديد من رؤوس الابل وغيرها من الأنعام. ويجد المرء في أسواقها أجود الجلود المستوردة من ليبيا وغيرها من جلود الجاموس كما يجد الثياب الزاهية المصنوعة من الحرير والصوف، والزرابي والأغطية الرفيعة وبضائع أخرى. يتوارد عليها التجار من شتّى الآفاق وحتى من أوربا. الا ان البضائع المستوردة لا تدخل المدينة

(12) أصبحت تفلالت فيما بعد تسمى قصر السوق ثم صارت في السنوات القليلة الماضية، تسمى الرشيدية. (مترـ

الا بعدما يؤدي أصحابها رسوما جمركية تذهب الى صناديق الملك. وأشير الى أن تمر تفلالت هو الذي يباع في المتاجر الاسبانية، لان الملك السعدي كان يحرص الا يصدر الى الخارج إلا تمر هذه المدينة.

تتاخم تفلالت صحراء الظهرة، أما الطريق الرابطة بينها وبين فاس، فانها تمرّ عبر جبال الأطلس الكبير. كان كل من أعراب أولاد سليم والأعراب الزرق يتقاسمون سيطرتهم عليها فيما مضى حتى أنهم تمكنوا من تنصيب حاكم عليها من جانبهم، غير أن أوضاع المدينة تغيّرت بعدما أقصى عنها الملك السعدي أولئك الأعراب، ودخل اليها مظفّرا بعد أن قصفها بالمدفعية، وقد تقدم لنا ذكر هذه الأحداث في الفصل الرابع من الجزء الثاني من كتابنا هذا.

الفصل التاسع والعشرون

اقليم طاطا

يسمى هذا الاقليم باسم أهم حاضرة فيه وهي طاطا. تكاد مساحته تعادل مساحة اقليم درعة، ويتاخم ليبيا واقليم تفلالت. أما الأهالي فانهم يسمّون طاطا، ويرطنون لهجة تتألف من مزيج من الكلمات العربية والبربرية لكنهم يتصفون بسمو الأخلاق والشجاعة، يملكون كثيرا من الخيول التي يغذونها بالتمر بدلا من الشعير.

تقع مدينة طاطا وسط النخيل وتحيط بها قبائل سكتانة وقبائل آيت واوزكيت (12)وكل عناصرها يدينون بالولاء لملك مراكش.

الفصل الثلاثون

فركلة

فركلة منطقة يعمّرها قوم من أجلاف البرابر، لا يعرفون للأخلاق معنى ولا للانسانية مدلولا، ينتسبون الى قبيلة آيت غريس، وقد شيدوا قراهم طوال نهر صغير، يمرّ على مسافة قريبة من الأطلس الكبير، تقدّر بأربعة وثلاثين فرسخا جنوبا، وتبعد عن اقليم سجلماسة، بعشرين فرسخا.

(13) طاطا تقع بالسوس الأقصى، تحيط بها قبائل فيجا، وإينداوزل وسكتانة شمالا، وآيت أوبلال وآيت مريبط جنوبا. أما تجمع قبائل واوزكيت فانها بعيدة عنها، وتقع شمالها. هنا أيضا لا نعرف لماذا اختلط الأمر على مرمول، حيث وضع إقليم طاطا بسجلماسة، أو جعله متاخما لها. (المترجم)

أراضي هذه المنطقة لا تصلح للفلاحة، ولئن كانت تنتج أصنافا من الفواكه. تسقى أشجارها من ماء النهر، ولا يملك الأهالى الا قليلا من الأغنام والأمعاز.

تمسي هذه المنطقة، بين الفينة والأخرى، مسرحا لغارات أولاد الروقي، اولئك الأعراب الذين يهاجمون أيضا منطقة دادس.

ومع ذلك، فان أهل فركالة اشتهروا بشجاعتهم، ويوجد من بينهم فرسان برهنوا عدة مرّات على أعمالهم البطولية التي تكون الداعي الى كبريائهم وأنانيتهم والدافع الى اعتزازهم بأنفسهم.

الفصل الواحد والثلاثون

تِيزْرَايْن

يعني لفظ تيزْرَايْن، باللهجة البربرية المحلية، المدينتين، ويطلق هذا اللفظ على أجمل منطقة في نوميديا. ويوجد بها ست مدن وخمس عشرة قرية تتوالى مواقعها على طول نهر صغير ينصب من الأطلس الكبير ويتجه نحو الجنوب.

تبعد هذه المنطقة عن الجبال بعشرين فرسخا وعن فركالة بعشرة فراسخ. عندما اجتازتها وحدات من جيش المسلمين وهم على مذهب ديني يخالف مذهب الأهالي، انتقموا منهم بتخريب اثنتين من مدنهم، لا زالت آثارهما قائمة ولئن كنا نجهل اسميهما.

ان برابر تيزراين أكثر غنى من برابر فركالة، وأحسنهم خلقا وأدبا، وأكثرهم وداعة واحسانا؛ أراضيهم خصبة، حقولهم تنتج الحبوب، ونخيلهم يعطي كثيرا من التمر، ولا يتعرضون لغارات أعراب الصحراء، مع أنهم تفرعوا عن نفس الاصل الذي تفرّع عنه أهل فركالة.

الفصل الثاني والثلاثون

تُدغة(14)

تدغة منطقة تقع على بعد عشرين فرسخا من الأطلس الكبير وخمسة عشر فرسخا من اقليم سجلماسة غربا. توجد بها أربعة مدن وعشر قرى. أهالي

(14) تدغة نهر مفتوح عن واد غريس (المترجم)

تدغة لصوص وقطاع الطرق، ينتمون الى قبائل آيت غريس، أراضيهم غنية تنتج التمور والخوخ والأعناب والتين والرمان وفواكه أخرى يوجد مثلها فى أوربا. ورغم ذلك، فان الأهالي يتخبّطون في الفقر، بعضهم فلاحون، وبعضهم رعاة.

يجوب هذه المنطقة طوال السنة، أعراب أولاد حمرون الذين قويت شوكتهم، فراحوا يحتلون الصحاري المتاخمة لتدغة وقد تعوّدوا منذ عهد قديم، على إخضاع هذه المناطق الى نفوذهم وفرض الاتاوات على أهاليها، ولكن المنطقة أصبحت اليوم تابعة للسعديين.

الفصل الثالث والثلاثون

تبلبالت(15)

تقع هذه المدينة في جوف صحراء نوميديا، تبعد عن الأطلس بسبعين فرسخا، وعن اقليم سجلماسة بأربعة وثلاثين فرسخا من جهة الجنوب. وغير بعيد من تبلبالت، توجد ثلاث قرى، يحيط بها النخيل ذي التمر الجيد، لكن المنطقة تعاني من قلّة الماء ولا تعيش بها حيوانات أهلية. أما السكان، فانهم يصطادون النعام ويتغذون بلحومها أو يبيعونها الى السودانيين.

أهل تبلبالت فقراء ويخضعون لأعراب أولاد حمرون الذين يحتلون الصحاري المجاورة، يقيمون بها في الشتاء، ويبارحونها في الصيف، حيث يذهبون الى بلاد الجريد التابع لمملكة فاس.

الفصل الرابع والثلاثون

أمّ العفن

أم العفن تسمية لقصر منيع قبيح المنظر بناه الأعراب في منطقة خالية جرداء، في الطريق الرئيسية الرابطة بين درعة وسجلماسة. بُني القصر بأحجار سوداء كالفحم، يقيم فيه حرّاس يستخلصون باسم ملك مراكش، ضريبة المرور المحددة بربع مثقال لحمل جمل، ويجب على كل يهودي يمرّ من هناك، أن يدفع ضريبة ربع مثقال، كما كان الأمر في عهد الحاكم الأعرابي قبل احتلال الموقع من طرف قوات تابعة للسعديين.

(15) أصبحت اليوم تسمى تبلبالة، وتقع في الصحراء الجزائرية. (المترجم)

الفصل الخامس والثلاثون

أم الحدج

انه اسم لقصبة بناها الأعراب في صحراء نوميديا، يحفظون فيها مدّخراتهم من المؤن والأمتعة المختلفة، وتقع هذه القصبة على مسافة يوم من سجلماسة. ان المنطقة المحيطة بها جرداء، ليس فيها إلا الحجارة والتراب، قاسيّة جافّة، مستوحشة على الدوام.

الفصل السادس والثلاثون

بني كَومي

بني كَومي منطقة شاسعة من بين المناطق القاحلة التي تتميز بها صحراء نوميديا. وتشتمل هذه المنطقة على بعض جبال الأطلس ووادي كير وتنتهي ببحيرة يسميها بطوليموس، بحيرة كيلونيديا، ويحدد موقعها بثلاث وأربعين درجة وعشرين دقيقة على خط الطول.

تنتج بني كَومي كميات هامة من التمر، لكن أهاليها يعانون الفقر، ذلك ما يرغمهم على النزوح الى جهات أخرى، وخاصة مملكة فاس، حيث يعرضون خدماتهم على أهل البلاد، ويوّفرون الكثير من رواتبهم، فيشترون الخيول من الأسواق، ثم يبيعونها بدورهم الى التّجار الذين يذهبون الى السودان.

توجد بهذه المنطقة، ثمانية قصور وخمس عشرة قرية، تقع كلها على مسافة خمسة عشر فرسخا من سجلماسة، وتوجد في اتجاه واحد، من الجنوب الى الشرق.

تجوب هذه الديار الخالية، جحافل أعراب اشتهروا باللصوصية والمكر والخداع، ولا عجب أن تكون تسميتهم بأولاد السّراق، اسم يحمل مسماه، لأنهم ينشرون الرعب والفساد في الأرض بأعدادهم الهائلة التي تتضمّن أربعة آلاف فارس أو يزيدون، فاستأثروا بنفوذهم على البلاد. ولئن كانوا يقضون الشتاء في الصحراء، فانهم يرحلون في الصيف في اتجاه الشمال، قاصدين الاسترزاق لدى ملوك تلمسان، فيضمّوهم بصفة مؤقتة الى جيشهم. مقابل أجور معينة، للمشاركة في العمليات الحربية. وعلمنا أنهم في هذه الأثناء، يحاربون الى جانب الأتراك، وفي بعض الأحيان، يثورون عليهم، ويشهرون السلاح في وجوههم.

الفصل السابع والثلاثون
مزالق بوعنان

تطلق عبارة «مزالق بوعنان» على قصرين في صحراء نوميديا، يقعان على جانب نهر كبير، ويبعدان عن سجلماسة بمسافة يومين، تقطنهما جماعة من العرب الفقراء، ليس لهم قمح ولا شعير، ويتغذّون بقسط يسير من التمر أو مما يسرقونه على الحدود.

الفصل الثامن والثلاثون
القُصَيْر

انها مدينة صغيرة، بناها البرابرة قديما في صحراء نوميديا، جنوب سلسلة الأطلس الكبير التي تبعد عنها بسبعة فراسخ. يوجد بهذه المدينة منجم للرصاص، يستغلّه الأهالي، إذ يستخرجون الرصاص، ثم يصفونه من الكبريت، ويصنعون منه الكحل الذي يبيعونه بفاس، وذاك موردهم الوحيد لسدّ حاجياتهم.

وتجدر الاشارة الى ان منطقة القصّير غنية بمناجم مماثلة، كما هو الأمر بغيرها من المناطق التي تشابهها.

الفصل التاسع والثلاثون
بني بصري

هذه مدينة أخرى تقع على مسافة غير بعيدة من جنوب الأطلس الكبير. وقد شيد بها البرابر ثلاثة قصور، تنبع بجوارها عدّة عيون تسقى منها الحقول التي تنتج الفواكه ومختلف الخضر، لكن لا بنبت فيها قمح ولا شعير وليس فيها نخيل. ان أهم مورد السكان هو ما يدرّه عليهم استغلال منجم للحديد.

لا يوجد بهذه المدينة إلا قليل من المداشر، ويخضع أهاليها إلى حكّام دبدو والى الأعراب المتواجدين بذلك الاقليم.

الفصل الأربعون
كَبِّيض

تقع كَبِّيض على بعد ثلاثة أيام من اقليم سجلماسة جنوبا، وهي عبارة عن ثلاث مدن وعدد من المداشر، توجد كلها على ضفاف نهر كبير، أهلها برابر خاضعون لنفوذ الأعراب، وليست لهم حقول للحبوب، وإنما يملكون شيئا من التمر.

الفصل الواحد والأربعون

فكّيك

تتألف فكّيك من ثلاثة قصور متقاربة، تقع وسط صحراء نوميديا، غرْب سجلماسة التي لا تبعد عنها الا بنحو مائة وخمسين فرسخا. يعيش أهلها في رخاء نسبي، إذ يملكون تمرا جيّدا وتصنع نساؤهم نسيجا من الصوف الناعم، يشبه الأغطية التي توضع على الأسرّة، ولكنها دقيقة وجيّدة الصنع، حتى يخالها المرء مصنوعة من حرير. وينقل هذا النسيج الى أسواق فاس وتلمسان حيث يلقى اقبالا كبيرا، ويباع بأثمان مرتفعة.

أما شبان فكّيك، فان العديد منهم يتعطّشون الى المعرفة وأصناف العلوم، فيتوجّهون الى مدارس فاس، وعندما يتخرّجون منها، يعودون الى مسقط رأسهم، وهم يحظون بعناية السكان، فيسندون الى بعضهم مهام تعليم أبنائهم، في حين، يصبح آخرون أئمة وخطباء في المساجد، ومنهم من يفضّل ممارسة التجارة مع أهل السودان.

بقي أن نقول ان أهل فكّيك يخضعون الى هيمنة أعراب أولاد السرّاق.

الفصل الثاني والأربعون

تسبين

يطلق هذا الاسم على إقليم صحراوي في نوميديا، يبعد عن سجلماسة بمسافة تسعة أيام وعن الأطلس بأربعة وثلاثين فرسخا ولا يسكنه سوى البرابر الذين تجمّعوا في أربعة قصور وفي عدد من المداشر تقع كلها في المنطقة المتاخمة لصحراء ليبيا من جهة، والمتاخمة لمملكة أكدز في بلاد السودان من جهة أخرى.

وللمزيد من التدقيق، نقول انها كذلك، في الطريق الرابطة بين فاس ومملكة تلمسان.

يتخبّط أهالي تسبين في الفقر، إذ لا يحصدون الا قليلا من الحبوب ويجنون كميات ضئيلة من التمر. بشرة أغلبيتهم شديدة الاسمرار، لكن نسائهم جميلات.

الفصل الثالث والأربعون

تيكَوراريـن(16)

تقع هذه المنطقة بصحراء نوميديا، وتبعد عن تسبين بنحو أربعين فرسخا، يسكن أهلها بخمسين قصرا متفرّعة وبأكثر من مائة مدشر وسط النخيل الفسيح. أهل تيكورارين أغنياء، ويتنقلون كثيرا الى السودان من أجل التجارة التي تدرّ عليهم أرباحا طائلة.

وتشكل هذه المنطقة نقطة التقاء وتجمّع بالنسبة للقوافل التي تعبر صحاري ليبيا، إذ يتجَمَّع هناك التجار الوافدون من بلاد البربر وغيرها، فيرحلوا معا الى السودان.

ان التربة الموجودة بهذه المنطقة رديئة للغاية، وقلما يجد السكان ما يصلح من الأرض للفلاحة، واذا وجدوا ما يبتغون، فتكون الفلاحة عسيرة، إذ ينبغي عليهم جلب الماء من الآبار لسقي الأراضي المحروثة وتسميدها بالفضلات الحيوانية. لذلك، مضى السكان يعرضون المأوى بالمجّان على الغرباء الذين يردون إلى المنطقة، سعيهم وراء ذلك، تحصيل روث البهائم والأنعام، لدرّه على الحقول.

من بين انعكاسات الجفاف على العيش بالمنطقة، غلاء اللحوم لأن تيكورارين لا تتوفر على أغنام أو أبقار، فيضطر الناس لأكل لحوم الخيول أو لحوم الجمال الهرمة التي يشترونها من الأعراب الذين يتوافدون على السوق الأسبوعي، كما يتغذون بالشحم المملّح الذي يأتي به التجار من فاس أو تلمسان.

كان يقطن بالمنطقة عدد من التجار اليهود الذين نزحوا من الأندلس بعدما طردوا منها(17)، الا ان أحد فقهاء(18) تلمسان أفتى في القوم بإباحة نهب أموالهم، فلم يكتف الناس بذلك، بل قتلوا السواد الأعظم من أولئك اليهود.

عندما كنا مقيمين بإفريقيا، كانت امبراطورية الشرفاء(19) تمتدّ من نوميديا الى اقليم نون، على شاطىء المحيط. وكان الحكّام المحليّون يسيّرون شؤون الأهالي

(16) تعني لفظة تيكورارين بالبربرية، الثكنات العسكرية، وتسمى اليوم كورارة وتقع شمال توات. (المترجم)

(17) تم طرد اليهود من اسبانيا عام 1492م، بأمر من الملكين الكثوليكيين فرناند وايزابيل. (المترجم)

(18) يسمى محمد المغيلي، الذي استقر أولا في واحات التوات، ثم لجأ الى تقدّ، بصحراء الأير، وبعدها استوطن كتسينة ثم كانو، وكانت هذه المدن تابعة لمملكة كاو وبرنو. (المترجم)

(19) الشرفاء السعديون. (المترجم)

ويتمتعون باستقلال ذاتي، وكان الغرباء المقيمون في مختلف الأقاليم، ينعمون بالأمن والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم، رغم الفتن التي كانت تندلع نيرانها بين الحين والحين، هنا وهناك، بسبب الحسد والنزاعات الداخلية بين القواد والحكّام الذين كان أكثرهم بأسا، أولئك الذين يستعينون بأعراب بني عمير، الذين كانوا يترَحلّون في الصحاري الواقعة بين تخوم مملكة تلمسان وديار بني هلال، ذوي الثروة الهائلة والشوكة القوية إذ كانوا يتوفرون على قوات عسكرية هامة ويملكون أكثر من عشرة آلاف حصان.

ولا يخفى ان بني هلال مضوا يعتزون بأنفسهم،ويدّعون أنهم أحفاد اسماعيل ومن أبناء صحراء الجزيرة العربية، ويتنافسون في الشرف مع بني معقيل المنحدرين من أهل سباء والنازحين من اليمن. لذلك، راح المسلمون يخصّون بني هلال بالاحترام ويعتبرونهم أمجد الأعراب وأرفعهم مقاما.

الفصل الرابع والأربعون

المِزاب

تبعد منطقة المِزاب بنحو مائة فرسخ من تيكورارين غربا، وتبعد بنفس المسافة عن سواحل البحر المتوسط شمالا. يقطن سكانها في ستة قصور وعدد من القرى.

اشتهر أهل المزاب بما حباهم به الله من ذكاء في التجارة، ومهارة في المعاملات مع أهل السودان، ذلك ما أهّلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار مملكة بجاية والجزائر من جهة، وتجّار السودان من جهة أخرى، وتتبوأ المزاب مكانة هامّة إذ ان موقعها جعل منها ممرّا للقوافل التجارية في الاتجاهين، فيقف بها أصحاب البضائع ويؤدون المكوس الجمركية عمّا تحمله جمالهم، فتضاف هذه المداخيل الى موارد الأهالي وتزيد في ثرائهم.

ونشير بالمناسبة الى أن صحاري دولة طرابلس، تكون مسرحا لتحركات وتنقّلات أعراب أولاد سميت وأعراب أولاد يحيى الذين يعدّون بالآلاف ويحسبون في صفوفهم ما يزيد عن ثمانين ألف مقاتل، معظمهم من المشاة، رغم امتلاكهم العديد من الجمال.

الفصل الخامس والأربعون

تُقُّورْت[20]

بنى النوميديون هذه المدينة العتيقة على جبل يمرّ بسفحه نهر صغير، وضع الأهالي فوقه جسرا متحركا، ثم سوّروا المدينة بسور من الحجر، ما عدا ما يقع منها على مقربة صخور عظيمة تقوم بحمايتها.

تقع هذه المدينة على مسافة مائة فرسخ من تيكورارين وتبعد عن البحر المتوسط جنوبا، بنحو مائة وخمسين فرسخا، ويعمّرها ألفان وخمسمائة منزل مبنية بالحجر وبالآجور. سكانها نبلاء وأغنياء، يملكون نخيلا مثمرا، لكن المنطقة لا تنتج من القمح الا النزر اليسير، فيجلب أهلها الحبوب من قسنطينية. مقابل التمر. يحب أهل هذه المدينة الغرباء، وإذا استضافوهم، أكرموهم، ويأوونهم دون مقابل، ويفضّلون أن يزوجوهم بَناتهم، بدلا من ان يزوجوهن أهل البلد، ومن عادة الآباء أن يقدّموا مهورا الى الأصهار، وذلك باشراكهم في الارث، كما هو الشأن بأهل أوربا وإذا ما تبيّن لهم أن الغرباء لم يزوروهم بنيّة الزواج، وانهم لن يطيلوا الاقامة بين ظهرانيهم، قدّموا اليهم هدايا هامّة، قبل أن يرحلوا.

كانت المدينة في أول الأمر خاضعة لملوك مرّاكش ثم صارت تابعة لسيادة مملكة تلمسان، لكنها في أيامنا هذه، خاضعة لملك تونس الذي يستخلص من السكان اتاوة قدرها خمسين ألف مثقال في السنة، على شرط أن يتقدم بنفسه لهذه الغاية.

تتراوح مساحة هذا الاقليم، ما بين ثلاثين وأربعين فرسخا مربّعا، وتوجد به عدة قرى وبعض القصور، ويؤدي السكان قاطبة الى الحاكم، خراجا سنويا يقدّر بمأتي ألف مثقال. اما الحاكم الحالي، فهو عبد الله[21]، القائد الشجاع والبطل الشهم الذي يحرص على سلامة السكان وأمن الاقليم، بحرس يتألف من الفرسان ورماة القذائف والبنادق ومن المشاة، وقد استأجر عناصر حرسه من بين المقاتلين الأتراك. لكن ذلك الحاكم لم يكن يعلم ما يبيّته الأتراك الذين أوفى لهم الأجر والعطاء، ومنحهم من الامتيازات ما لم يحلموا به، فدبّروا المكائد، وحاكوا المؤامرات، وشنوها عليه حربا غاذرة فأطاحوا به واستولوا على تقّورت واقليمها، وسلموها لقمة سائغة الى السلطات التركية الحاكمة بالجزائر.

(20) تقع تقورت على الطريق المؤدية من بيسكرة الى ورغلة، بالجزائر. (المترجم)

(21) هو عبد الله بن محمد الشيخ. (المترجم)

لكن الاهالي لم يتحمّلوا استبداد الأتراك، فانتفضوا لمقاومة المحتلّين، وأبادوا العديد من جنودهم، فأرسل صلاح الدين الرايس، الحاكم التركي بالجزائر، جيشا يتألّف من الأتراك والمرتزقة الأعراب، وضربوا على تقورت حصارا شديدا آل الى استسلامها، ولما دخلوها نهبوها نهبا، الا أن محمداً ملك مراكش، انتزع المدينة منهم، وأخذ يسوسها، فوجد السكان أن ظروفهم أصبحت مع الشرفاء أفضل مما كانت عليه مع الأتراك.

أعراب أولاد صُبْيَرَ يضربون في الصحاري المتاخمة لاقليم تقّورت، فيستأجرهم الأتراك كلّما احتاجوا الى تعزيز قواتهم، لكن هذا لم يمنع حدوث مناوشات وحروب بين هؤلاء وأولئك من حين لآخر، خصوصا وأن أولاد صبير يتوفرون على جيش يوجد ضمنه أكثر من ثلاثة آلاف فارس، يحملون أجود الأسلحة.

الفصل السادس والأربعون
ورغلة

بنى البرابر هذه المدينة العتيقة في صحراء نوميديا، وأحاطوها بأسوار من الآجر، وشيّدوا فيها منازل جميلة. يوجد بضواحيها كثير من النخل، تتخلله القصور المنيعة والقرى المحصنة.

نزل بهذه المدينة أول أمير لمتوني(22)، فقضى بترتيبها وتنظيم تعميرها. يسكنها حاليا تجار صنهاجيون أغنياء، تكوّنت ثروتهم من التجارة التي يمارسونها مع السودان، كما يسكنها عدد من الصناع، ويتوافد عليها تجّار من قسنطينية وتونس وغيرهما، يعرضون البضائع التي يأتون بها من بلاد البربر، ويستبدلونها ببضائع واردة من السودان، لكن المدينة تنقص قمحا وأنعاما، فيتغذّى الناس بلحم الجمل وبلحم النعامة. ان معظم السكان سود، لا لأن الطقس أثّر على بشرتهم، بل لأنهم يضطجعون الى فراش جواريهم السوداوات، فتلد لهم أولادا يشبهون أمهاتهم.

يتميز أهل ورغلة بما فيهم من أدب ولباقة، ويحسنون التعامل مع الغرباء، لأنهم لا يملكون الا ما يأتي به الغرباء، ويشرّفون أميرهم ويقيمونه مقام الملك،

(22) يوسف بن تاشفين. (المترجم)

لذلك، نراه يتوفر على حرس يتألف من ألف فارس، ويؤدي له السكان جبايات يتجاوز قدرها مائتي ألف مثقال، زيادة على ما يجبيه من القبائل العربية.

تحد مملكة ورغلة شمالا مملكة القيروان وصحراء ايغيدي بليبيا، وتحدها شرقا صحاري برقة، وغربا، تحدّها صحاري نفيفة ونفريس. ويجوب بمقربة هذه المنطقة أعراب أولاد حمرون، وأولاد السيّد وأولاد يحيى الذين يسيطرون على صحراء ليبيا من هذه الجهة، ويملكون الأنعام والمواشي وكثيرا من الجمال، وكلهم أغنياء؛ يقضون الصيف في الصحاري، وينتقلون في الشتاء الى المملكات المجاورة لبيع أنعامهم واستخلاص الاتاوات. يتوفر أولاد حمرون وأولاد السيد على أكثر من خمسين ألف جندي، من بينهم ستة آلاف فارس أو يزيدون.

ان قبائل اللمتونيين تسكن بهذه المدينة وبالاقاليم الواقعة بينها وبين صحاري ليبيا، ومن هذه المدينة أيضا انطلقت جحافلهم الذين يسميهم مؤرخونا بالمرابطين، وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، لغزو المغرب واسبانيا، وكانت هذه الأقاليم تشكل في القديم مملكة جوبا، ذلكم الملك البربري الذي تحالف مع بومبي ضد قيصر(23) والذي انتحر، لكيلا يقع أسيرا بيد الامبراطور الروماني.

الفصل السابع والأربعون

الـزاب

الزاب أحد أقاليم صحراء نوميديا، وقد تعرضنا له باختصار بصدد حديثنا عن مملكة تونس لأنه ظل حينا من الدهر تابعا لسيادتها. يبتدىء هذا الاقليم غربا بتخوم صحراء مسيلة التي يجوبها أعراب أقوياء، وتحده شمالا جبال بجاية، وغربا، اقليم بلاد الجريد التابعة لمملكة تونس، وجنوبا، يتاخم الصحاري التي تمرّ بها الطريق الكبرى الرابطة بين تقّورت وورغلة. كانت عاصمة الاقليم تسمى المِزاب، التي بناها العرب، وجعلها عرب آخرون حصيدا بسبب الخلافات الدينية.

منطقة الزاب صحراء ذات رمال حارّة، تعجّ بالعقارب والأفاعي السامّة، وتنساب عَبرها جداول هامّة في كثير من الواحات، لكن لا توجد بها أرض

(23) كان بومبي وقيصر يتقاسمان الحكم في روما، ابتداء من عام 53 قبل الميلاد. لكن خلافات حادة نشبت بينهما وتسببت في حرب ضارية بين الجانبين، وكان النصر حليف قيصر (52 ق. م). عندها، فرّ بومبي إلى مصر، لكن قيصر أوفد بعض الجواسيس فقتلوه وانهزمت بعد ذلك القوات الافريقية التي تحالفت معه، بزعامة جوبا الأول (43 ق. م.) بمدينة راس الديماس (تابسوس) الواقعة بتونس، غير بعيد من صفاقس. (المترجم)

صالحة للفلاحة. أما من الناحية العمرانية، فلا زالت توجد بها خمس مدن قديمة سيأتي الحديث عنها في الفصول القادمة.

يجوب صحراء الزاب أعراب أغنياء يحظون بشهرة فائقة، وهم أعراب سُمَيت وأعراب السّيّد، وقلما تمرّ مناسبة دون أن يستنجد بهم ملوك تونس أو ملوك تلمسان لتعزيز قواتهم في الحروب، لأن فيهم أكثر من تسعين ألف مقاتل، أغلبهم من المشاة.

الفصل الثامن والأربعون
بسكرة

انها مدينة عريقة في القدم، بناها الرومان يوم كانوا يحتلون بعض المراكز في افريقيا، لكن بعض معالمها تعرّضت للدمار بسبب الحروب، وأعاد العرب بناءها مرّة ثانية، وأحاطوها بأسوار من الآجور. يسكنها اليوم قليل من الناس، يعمّ الفقر أوساطهم لأن أرضهم لا تنتج سوى التمر.

تعاقب على حكم هذه المدينة حكام عديدون، فقد ظلت مدة من الزمن خاضعة للسيادة التونسية. ولمّا توفي الملك عثمان(24)، دعا إمامُها السكانَ الى التمرّد على السلطة التونسية، فبايعوه للامارة عليهم، وخلفه أبناؤه على الحكم بالمدينة. ولم يفلح ملوك تونس في استرجاع سيادتهم عليها بعد وفاة عثمان.

يتولّد ببيوت بسكرة، العديد من العقارب والأفاعي السامّة القاتلة، حتى ان السكان يهجرونها في الصيف، ولا يعودون اليها الا خلال شهر نونبر. توجد المدينة اليوم تحت نفوذ الأتراك الذين احتلوها في عهد الحسن آغا، حاكم الجزائر. كانت بسكرة قديما هي مدينة زَامَة التي أمّن فيها الملك جوبا الأول كنوزه، قبل أن يعلن عن تحالفه مع بومبي، ضد الامبراطور قيصر.

الفصل التاسع والأربعون
البرج

تقع هذه المدينة غرْب بيسكرة، وتبعد عنها بمسافة خمسة فراسخ، لكنها أكثر منها سكانا، وذلك راجع الى ما حولها من أراضي صالحة للفلاحة، والى عدد

(24) هو السلطان أبو عثمان الحفصي الذي تولّى الملك في تونس من عام 1434 حتى وفاته عام 1488.(المترجم)

الصنّاع الذين جلبتهم. ومع ذلك، فان المنطقة جافة، ولا تسقى الحقول الا من المياه التي تمرّ في قنال. ويوزّع الماء حسب الساعات وبالتناوب ذلك ما يتسبب في خلافات حادّة بين الفلاحين.

الفصل الخمسون

نفطة(25)

تتميز هذه المدينة بكونها مقسّمة الى ثلاثة أحياء كبرى، يفصل كل حي عن الآخر أسوار عالية، وتوجد قصبة بأحد الأحياء الثلاثة، يظهر من أسلوب بنائها وهندستها أنها قصبة رومانية.

نفطة مأهولة جدّا ولا أثر لوجود شرطة بها. كان سكانها قديما يرفلون في الثراء، لأن المدينة كانت تتاخم صحراء ليبيا وتوجد في الطريق المؤدية من بلاد البرابر الى السودان، غير أنهم ثاروا عدّة مرّات على ملوك تونس، فتعرّضوا بسبب ذلك الى عمليات قمعية من طرفهم، نتج عنها نهب المدينة وافلاس سكّانها، وقد مضى على ذلك ما يزيد عن مأتي سنة، الا أن الملك محمدا أبا الحسن، ملك تونس، والذي أعاده الأمبراطور كارلوس الخامس الى العرش، استولى على المدينة بالقوّة وفتك بعدد كبير من مترفيها ووجهائها ودمّر جزءا من أسوارها ومعالمها.

يمرّ نهر صغير قرب مدينة نفطة، يشرب منه السكّان ويسقون منه حقولهم، ولو أن ماءه حار.

الفصل الواحد والخمسون

دوقّة

انها مدينة قديمة شيّدها البرابر على جانب نهر صغير ماؤه حارّ، تحيط بها أسوار قبيحة المنظر. منطقة هذه المدينة جافة، لا ينبت فيها قمح ولا شعير، لكن أهلها يملكون عددا هامّا من النخل يجود عليهم بكميات وافرة من التمر. ومع ذلك، يعاني سكانها من الفقر، ويثقلهم حكّام تونس بالضرائب، والأعراب بالاتاوات، ونشير الى أنهم يتّصفون بالبخل والغطرسة وكراهية الغرباء.

(25) تقع نفطة قريبا من توزر، غير بعيدة من الحدود الوسطى بين الجزائر وتونس. (المترجم)

الفصل الثاني والخمسون

دوسَّنْ

دوسَّنْ مدينة قديمة بناها الرومان بالحدود المتاخمة لمملكة بجاية. لما دخلت الجيوش الاسلامية الى افريقيا، ضربت عليها حصارا استغرق سنة كاملة، وعندما استولى عليها المسلمون عنوة بعد انهزام الحامية الرومانية، قتلوا جميع رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وخرّبوا جدران منازلها ولم يبقوا الا على أسوارها نظرا لمتانتها. هذا ولئن أصيب بعض هذه الأسوار بالخراب، فلا أحد يعرف هل كان ذلك نتيجة لزلزال ما أو لسبب آخر.

وتوجد على مقربة من المدينة أطلال لبعض الأبْنِية، ومن بينها بعض القبور. ويعثر الناس، من حين لآخر، في الحقول، بعد تهاطل الأمطار وانجراف التربة، على ميداليات من الذهب والفضّة والنحاس، نقش عليها رأس انسان وحروف لاتينية، كما يعثرون على بعض نماذج الصناعة اليدوية.

يطوف على منطقة دوسّن، أعراب أولاد مسلم الذين يقيمون باستمرار في صحراء مسيلة.

الفصل الثالث والخمسون

بلاد الجريد

تمتدّ بلاد الجريد من تخوم بسكرة الى جزيرَة جربة. ومن مناطق هذه البلاد، نذكر المنطقة التي توجد بها مدينتا توزر وقفصة والتي تبعد كثيرا عن البحر المتوسط. وهذه البلاد شديدة الحرارة وقلّما ينزل فيها المطر، ولا تنبت فيها الحبوب. ومع ذلك فانها تنتج كميات وافرة من التمر الجيد، ولهذا يسمّى الاقليم كله بالجريد، أي بلاد التمر الذي يتم تسويقه في مدن وقرى الشواطىء التونسية وفي كثير من بلاد البرابر.

سنصف بالترتيب مدن بلاد الجريد وقراه، ونشير هنا الى أن هذا الاقليم كان يشكّل مملكة القرطاجيين الذين يطلق عليهم كذلك لقب «النفزاويين» وتحمل أحد المدن القديمة اسمهم. يحدّ هذا الاقليم غربا، اقليم فزّان الذي يخضع أهله الى حكام طرابلس الغرب.

الفصل الرابع والخمسون

تـوزر

بنى الرومان هذه المدينة بصحراء نوميديا، على ضفاف نهر صغير يصبّ من جبال تقع جنوب البلاد. كان يعمّرها زهاء خمسة آلاف كانون. لكن، اذا نظرنا الى مساحتها ومحيط أسوارها الجميلة التي لا زالت آثارها قائمة، تبيّن لنا ان عدد الأسر كان أكثر من ذلك.

لما دخل المسلون الى افريقيا، حاربوا الحامية الرومانية التي كانت تدافع عن توزر، ولما استولوا على المدينة، خرّبوا عدة منازلها الجميلة، ولم يبق منها اليوم الا أطلال موحشة.

سكان توزر أغنياء، عندهم أموال طائلة، وكميات وافرة من التمر، ويرجع ثراؤهم الى تجارتهم الرابحة، إذ تشهد المدينة أسواقا هامّة يقصدها الناس من مختلف القبائل.

يخترق المدينة نهر فيقسمها الى شطرين، شطر يسكنه الأغنياء والوجهاء وشطر استوطنه قوم من الأعراب منذ دخول المسلمين الى افريقيا، ويعيش الشطران في عداء، ولا يعترف سكان توزر بملوك تونس الذين يضطرّون الى التنقل شخصيا الى المدينة لانزال أشد العقوبات بأهلها، كما فعل مولاي محمد والد السلطان الحالي مولاي حسن، قبل وفاته بقليل، وكما يفعل الأتراك اليوم، كلما حان موعد استخلاص الجبايات.

الفصل الخامس والخمسون

قفصة

بنيت قفصة في عهد الرومان وصمدت مدّة طويلة في وجه العرب بعد دخولهم افريقيا، لكنها استسلمت لجيوش عقبة بعدما ضرب عليها حصارا شديدا. ولما دخل اليها عقبة، هدّم أسوارها، لكن قلعتها لا زالت قائمة، لأن جدرانها كانت مبنية بالحجر الكبير كما هو الأمر بمسرح روما العتيق، ويبلغ علو جدران القلعة خمسة وعشرين ذراعا، وعرضها خمسة أذرع.

قام السكان بعد الغزو الاسلامي بترميم الأسوار، لكن يعقوب المنصور أمر بتهديمها مرّة أخرى، بعد مقتل حاكمها وأبنائه أثناء احدى المعارك، وعيّن عليها واليا آخر كما عيّن ولاة جددا على جميع الأقاليم، ونشر جيوشه في كل مكان.

أصبحت اليوم المدينة آهلة بالسكان، وتوجد بها بعض المساجد الضخمة ومعبد، لكن هندسة منازلها رديئة، شوارعها عريضة ومبلّطة بالحجر الأسود، وتشبه في ذلك، مدن ايطاليا. الا أن السكان يعانون من الفاقة بسبب ما يجب عليهم أن يدفعوه من ضرائب هامّة الى ملوك تونس. في وسط المدينة توجد نافورات أحواضها عميقة ومربّعة وتحيط بها جدارات بينها وبين كل نافورة بقعة للاستحمام، لأن ماءها حار، غير أن الناس يشربون منه بعدما يتركوه يبرد ساعة أو ساعتين.

هواء قفصة واخم، لذلك ، فان السكان يصابون دائما بالحمى. انهم قوم أشرار الى أقصى حدّ، ويشعرون بالبغضاء نحو الغرباء، ولهذا السبب، فإن أهل البلاد يكرهونهم قاطبة. يوجد في ضواحي المدينة عدد كبير من النخيل وشجر الزيتون والبرتقال والليمون. أما تمر هذه المنطقة، فانه غليظ ولا أجود منه في الاقليم كله، وكذلك الأمر بالزيتون الذي تفوح منه رائحة طيبة. وعلى الجملة، فاننا نجد في المدينة أربعة أشياء ليس لها مثيل في الجودة، وهي : النسيج، الأواني الفخّارية، والتمر والزيتون. يرتدي هناك الرجال والنساء ملابس ملائمة، متطابقة مع أذواقهم، لكن أحذيتهم خشنة، وقد تعمّدوا شكلها وصنعها من جلود الوحوش، لكي تبقى صالحة للاستعمال مدة طويلة.

الفصل السادس والخمسون
نفزاوة

نفزاوة عبارة عن ثلاث قصبات متقاربة آهلة بالسكان، لكن أسوارها ومنازلها رديئة ليست لها قيمة فنّية. تنتج منطقة نفزاوة تمرا جيدا للغاية ولكن الأرض لا تنبت فيها حبوب، وذلك سبب فقر السكان الذين تتضاعف فاقتهم بالجبايات التي تثقل كواهلهم، ويبعدون عن شاطىء البحر، بثمانية عشر فرسخا(26).

(26) المسافة الحقيقية بين نفزاوة والبحر المتوسط، هي 150 كيلومتر. (المترجم)

وصَفنا من مملكة تونس، قابس وجزيرة جربة، ولا يبقى لنا أن نقول الا أن أهل البلاد يسمون النبصامونيين، ولعلهم يكونون هم الشّاميين الذين تحدث عنهم التاريخ.

الفصل السابع والخمسون
تاورغة

تاورغة منطقة آهلة بالسكان تقع في تخوم دولة طرابلس على حدودها مع صحراء برقة، ويوجد بها ثلاث مدن وعدة قرى وعدد كبير من النخل، ويشكّل التمر أهم مادة غذائية لدى السكان، لأن البلاد لا تنتج حبوبا. فيبقى الأهالي منزوين في صحرائهم، لا يمارسون التجارة الا نادرا، وهم محرومون من كل شيء، معرّضون على الدوام لِلَسعات الزواحف السامة القاتلة.

الفصل الثامن والخمسون
يزليط

توجد منطقة يزليط(27) على شاطىء البحر المتوسط، حيث القرى العديدة والنخيل الفسيح. يتمتع السكان برخاء لا بأس به نظرا لموقعهم بجانب البحر والذي يمكنهم من مزاولة التجارة مع المصريين والصقّليين، ويستبدلون تمرهم بما يحتاجون اليه من بضائع.

الفصل التاسع والخمسون
غدامس

غدامس منطقة شاسعة مأهولة، يوجد بها عدد كبير من القصور والقرى الكبيرة. تبعد جنوبا عن البحر المتوسط بنحو مائة فرسخ، وتتشكل ثروات الأهالي من التمر والأموال لأنهم يتّجرون مع بلاد السودان. ويدبّر شؤونهم حاكم من أنفسهم، مع العلم أنهم كانوا يؤدّون في الماضي الاتاوة الى الأعراب، غير ان

(27) تسمى اليوم زليطن. (المترجم)

الأتراك أصبحوا اليوم يستخلصونها منهم، لكن في بعض الأحيان، يتضامن الأهالي مع الأعراب، ويُلحقون بالاتراك إصابات هامّة، فيردّونهم من حيث أتوا، خاسرين.

لا ينبت في هذه البلاد إلا القليل من الحبوب، وتكاد اللحوم تنعدم بها، وحتى إذا ما وجد الناس ما يشترونه منها، فان أسعارها تكون باهضة.

الفصل الستون

فــزان

انها منطقة صحراوية تتاخم صحراء ليبيا ومملكة أكْدز وبلاد السودان ومصر، وبها توجد آثار تلك المدينة التاريخية العظمى والتي تسمى الكفرة، البعيدة عن القاهرة بمسافة ستين يوما، في مكان كله رمال وكثبان، خال من أي أثر للحضارة، لا توجد به سوى مدينة أوري.

لكن فزّان دولة غنية تتشكل ثرواتها من التمر والأموال التي يربحها أهلها من التجارة مع السودان. تتمتع هذه المنطقة بحكم ذاتي، وتصرف مداخيلها لفائدة السكان، وهم يؤدون اتاوة الى الأعراب. لكن الخبز واللحم نادران هناك، ولا يجد الناس لحم ما يقتاتون به عادة، سوى لحم الجمل، وثمنه مرتفع ليس في متناولهم قاطبة.

الكتاب الثامن

ليبيا أو الصحراء

الفصل الأول
ليبيا الداخلية أو ما يسمى بالصحراء

تشكل الصحراء القسم الثالث من افريقيا، حسب الترتيب الذي وضعناه لكتابنا، لكنها تقل أهمية عن نوميديا(1)، لأنها لا تتضمن إلا صحاري شاسعة قفرة، لا ينبت فيها شجر وليس فيها نخل.

تبتدىء الصحراء، عند المحيط غربا، وتتاخم مصر قبلة، وتحدها نوميديا شمالا، وبلاد السودان جنوبا، بالاضافة الى نهر النيجر الذي جعلته الطبيعة حدا فاصلا بين الصحراء وبين ما بعدها. ان الصحراء التي نحن بصددها، تمتدّ من المحيط الى ضفاف النيل الذي يحاذي بدوره البحر الأحمر ويصب في البحر المتوسط. ويكاد عرض الضهرة يبلغ مائة فرسخ(2). أغلبية مناطق هذه الصحراء مهجورة، وبعضها يسكنه أقوام من الفقراء والبؤساء، يعيشون في الخلاء كالوحوش، بين جبال صلداء وأراضي جدباء، لا ينبت فيها الا شجر مشوك لا نفع فيه، وتعج بالحيوانات الوحشية والعقارب ومختلف الزواحف السامّة. يبلغ القحط فيها درجته القصوى، حتى أن أهاليها لا يجدون ما يقتاتون به سوى الجراد الذي يأكلونه مشويا أو مجففا بالشمس.

والواقع، ان الجراد آفة من الآفات التي تضرب نوميديا بين الفينة والأخرى، حيث يأتيها في شكل أسراب كثيفة كالسحاب، تحجب الشمس عن الأرض، ولا تمر هذه الأسراب الجرادية على بقعة خضراء إلا وتركتها صعيدا جُرُزا، ولا تقلع عنها الا بعدما تكون قد غرست فيها كميات لا تحصى من البيض الذي لا يلبث الا قليلا حتى يفقص، ويبعث منه جراد قصير بدون أجنحة، فيتسلط بدوره على الأشجار والأغصان، فيجرّدها بدون هوادة، من قشورها التي يأكلها، ويتسبّب بذلك، في المجاعة التي تصيب أهل البلاد، وخاصة شمال القارة.

(1) تبقى نوميديا، في اصطلاح المؤلف، مجموع الأراضي الصالحة للفلاحة، في شمال افريقيا. (المترجم)

(2) اذا كنا نعلم أن الفرسخ يكاد يعادل أربعة كيلومترات، فان المؤلف أخطأ في قياس المسافة الفاصلة بين المحيط والنيل، والتي تقدّر بستة آلاف كيلومتر، أو ألف وخمسمائة فرسخ. (المترجم)

نشير بالمناسبة الى ان أهل ليبيا وأهل الجزيرة العربية الذين تتشكل بلادهم من أراض قاحلة، يعتبرون الجراد نعمة تنزل عليهم من السماء، فيأكلون منه ويدّخرون.

عندما يبرح الجراد الجزيرة العربية، يجتاح بلاد مصر ونوميديا وبلاد البربر، ينتهي به المطاف باسبانيا حيث يَحُطُّ الرِّحَال بحقولها النضرة، فتصبح حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس.

الأراضي الليبية في مجملها، ليست صالحة للفلاحة، باستثناء القليل منها جدا، والذي يقع على ضفاف الأنهار والبحيرات، ولاسيما في الأقاليم التي يسكنها الحبشيون. وما عدا ذلك من الفيافي والقفار، فان الأعراب اتخذوه مرتعا لحلّهم وترحالهم، ويطلقون عليه بصماتهم باعطاء مختلف مناطقه، أسماء عربية. وهكذا، فان لفظة الساحل تعني عندهم الأراضي الرملية القاحلة. ولفظة الاصكّر تدلّ على الأراضي الرملية التي تنبت فيها بعض الأعشاب أو شجر قصير. أما الصحراء، في اصطلاحهم، فانها تدلّ على الأراضي التي لا يوجد فيها سوى الرمل والحجر، دون غيرهما.

أهم المناطق المأهولة في ليبيا تقع على مقربة من نهر النيجر(3)، وسبب ذلك يرجع الى الرواج التجاري لذي يعرفه حوض النيجر الذي يستقطب التجار السودانيين المتواجدين في المدن واقعة قربه، وأهمها مدينة تمبوكتو، وهي المدينة التي يقصدها التجار من بلاد البربر ومن مصر، لاقتناء التبر المستخرج من مناجم مندنيكا. وبهذه المناسبة، نشير الى أن الذهب كان يباع قبل اليوم، في مدينة جيني، بمالي، وكان ينقله أصحابه الى هناك، لتقريب سُوقه من التجار الأوربيين الذين كانوا يحملونه من جيني الى لشبونة.

كان سكان ليبيا الأولون يسمون السّباتيين، نسبة الى سَبَاتة بن كوش بن نوح، وقد تحدث عنهم المؤرخ اليوناني اسطرابون، فسماهم الحبشيين؛ وينقسم هؤلاء السكان الى خمس مجموعات قبائلية كبرى(4)، السواد الأعظم من أفرادها أقلع عن الترحّل وركن الى الاستقرار، في حين أن الآخرين منهم، وهم الأعراب، راحوا يضربون في الأرض، سعيا وراء مواقع المياه والمراعي.

(3) كان مرمول يعتبر أرض النيجر من الأراضي الليبية. (المترجم)
(4) تلك المجموعات هي : صنهاجة، الذين كانوا يسمون السنكيين، وَنْزيكة، تاركة، اللمطة وأخيرا برداوة.

الفصل الثاني

أقاليم نون المأهولة، الواقعة بليبيا

سبق لنا أن تحدثنا عن اقليم نون الواقع بالسوس الأقصى، أما غيره من الأقاليم، فانها ليبية. ويقطن نون وليبيا أناس أشقياء بسبب ما يتعرّضون اليه من المعانات والمحن من طرف الأعراب وغيرهم من الأقوام الرّحل الذين يضربون في الصحراء.

هذا ويطل نون على المحيط غربا، ويوجد بشواطئه رأس نون، وتحدّه من الجنوب والشرق، صحراء صنهاجة، ويتاخم شمالا، اقليم سوس.

الفصل الثالث

صنهاجة

تشكل صنهاجة أول اقليم مأهول غرب صحاري ليبيا، لأنه يبتدىء عند شواطىء المحيط ويشمل كل المساحة الممتدة بين رأس نون ونهر النيجر، الذي يسميه أهل البلد سنيديك، ويسميه العرب واد النجّار، ويسمّيه البرتغاليون، نهر السِّنِكا، ويفصل هذا النهر بين البيض والسود، أي بين مناطق الأعراب ومناطق الزنوج.

تتاخم صحراء صنهاجة شرقا، صحراء تغزّة ويحدها غربا، اقليما نون ودرعة، وتمتدّ جنوبا الى حدود بني ايس وجلوف وممالك ولّاتة ومالي وتمبوكتو. أما الشعوب التي تقطن بهذه الديار، فهم البرابر الذين يمتطون الجمال والأودابة وأولاد دليم والصنهاجيون، وبعض الأعراب الذين يعيش أغلبهم على حساب غيرهم، لأنهم يسرقون الأنعام ويستبدلونها بالتمر في أسواق درعة وغيرها. يجوب صنهاجة، في بعض الأحيان، أعراب بني عمير، ولكنهم يقيمون بالأساس في المنطقة الممتدة بين رأس نون وأوداغوست.

ان هذه الصحراء شديدة الجفاف ولا يوجد فيها الماء الا على مسافة كل ثلاثين فرسخا، زيادة على أنه ماء مالح ومرّ، متجمع في آبار عميقة، أهمها يقع في الطريق المؤدية من سجلماسة الى تمبوكتو، حيث يجب على المرء أن يقطع مسافة سبعين فرسخا عبر الصحراء ليجد بئرا واحدة، هي بئر زَعْوَاتْ، ثم بئر عرْوان

التي تفصلها عن تنبكتو مسافة سبعين فرسخا. لذلك، فلا غنى للمسافرين عن التزود بكميات هامّة من الماء قبل الرحيل، إذا أرادوا ألا يموتوا عطشا، هم وجمالهم.

يعتز الصنهاجيون بأنهم أقدم سكان هذه البلاد وأكثرهم نبلا وشرفا، وربما يرجع شعورهم هذا الى ما لهم من قوّات هائلة مكّنتهم من بسط هيمنتهم على كل المناطق المحاذية لضفاف نهر النيجر. وعلاوة على ذلك، يذهب بهم الظن الى أنّ ملوك تمبوكتو منحدرون من أجدادهم. إلا أن هذه الصحاري القاحلة تتميز بضنك العيش ولا تجود على سكانها بما يضمن لهم القوت اليومي، فيقنعون بألبان الابل والأنعام ويتغذون بلحوم ما يصطادونه من حيوانات كالغزلان وغيرها، وتكون الأعياد والأفراح مناسبة لنحر بعض الجمال. أما الشمس، فانها تقسو عليهم، إذ تلفح أجسامهم، وجعلت بشرتهم سوداء أو سمراء. لكن الصنهاجيين الذين يقطنون بشواطىء المحيط، يأكلون الأسماك الطرية أو المجففة، ولا يتناولون الملح.

بعدما شيد البرتغاليون برج أرغوين(5) أخذوا يزودون أهالي صنهاجة بالحبوب، لكن هؤلاء الصحراويين شرعوا يأكلونها كما يأكل الناس الحمص. ينبت النخيل في بعض الجهات الصحراوية، ولكنه نادر، كما ينبت فيه نوع من الشجر، هزيل الأغصان والأوراق، وكثير الشبه بشجر نجده في إسبانياء ويسميه الاسبان «تين جهنم».

تتميز صحاري صنهاجة بكونها تتشكل من أراض منبسطة لا تتوفّر على المعالم التي تمكّن من التعرّف على الأمكنة وتحديد مواقعها، كالغاب مثلا، أو الجبال أو الأودية والأنهار أو غير ذلك من المنشآت العمرانية، لذلك، فلا غرابة أن يتعرّض المسافر في ربوعها، الى التيه، فيضل طريقه بكل سهولة. لكن الانسان يستطيع أن يذلل هذه الصعاب، ويمكنه أثناء تنقله في هذه البلاد الوعرة، أن يسترشد بالنجوم ويستفيد من اتجاه الرياح والطيور كالغربان والصقور التي لا تخلو منها جوار الجهات المأهولة، بسبب ما قد يوجد بها من جثث الأنعام، كما أنها تطير نحو البراري والمراعي.

يوجد جنوب رأس نون وعلى بعد سبعين فرسخا منه، رأس بوجدور الذي رسّت السفن البرتغالية في عرضه مدة طويلة قبل مواصلة طريقها

(5) يقع هذا البرج باحدى الجزر غير البعيدة من شواطىء موريتانيا. (المترجم)

لاستكشاف شواطىء القارّة. ونشير الى أن اليابسة هناك تنعرج في اتجاه الشمال، طوال مسافة تفوق أربعين فرسخا، بالمقارنة مع الشاطىء الذي يبقى خلفها، ولهذا سمي الموقع، رأس بوجدور.

كانت هذه الظاهرة الجغرافية غير معروفة لدى البحّارة، فكانوا يبتعدون عن الطريق، فتردّهم التيارات البحرية نحو الرأس، عبر مسافة عشرة فراسخ. وكانت أرصفة الرمال المتكاثرة طوال الشواطىء تعرقل الملاحة بقربها، ويأخذ الماء يقفز هنا وهناك وكأنه يغلي في إناء، فيشعر الملاحون بالخوف ويستولي عليهم الرعب، فلا يتجرّؤون على الاقتراب منها، وقد أصابهم الهلع خصوصا بعدما اكتشفوا رصيف الرمال.

كان البحارة قبل ذلك اليوم، متعوّدين على الاهتداء بالشواطىء، فيتتبّعونها، في اتجاههم من الشرق الى الغرب، وكلّما أحسوا بصعوبة وتعذّر عليهم الانزال بأحد هذه الشواطىء، ذهبوا إلى أن البحر هناك ليس قابلا للملاحة ولا يمكن مواصلة الطريق. زد على هذا، ان الذين باتوا يتبجّحون بمعرفتهم لأسرار الطبيعة وأحوالها، كانوا يقولون بأن البحر في هذه الجهة من القارة، والتي تغلي فيها المياه من جراء الشمس، ليس عميقا كما هو الشأن بالمناطق الباردة، وأن عدم عمق البحر، مردّه الى الحرارة التي تسخن الماء وتبخّر المياه العذبة التي تخرج من جوف الأرض؛ ويدّعون كذلك، أن المياه الملحة تأتي من الشمال.

ومضى البحارة يعتقدون علاوة على ذلك، أن منطقة رأس بوجدور كلها أرصفة رملية تحول دون استقبال السفن، وان البرّ المجاور ليس سوى امتداد لصحاري ليبيا. ومن أجل هذه العوامل، ليس بالامكان مواصلة الطريق، وان رأس بوجدور يشكل أقصى ما يمكن أن تصله السفن.

لكن عيوب هذه النظرية انكشفت للعموم، يوم كان خوان كونزليس ورفيقه تريستان البرتغالي، على متن سفينة، فدفعتهما عاصفة نحو جزيرة بوسانتو. وسنتطرق لهذه الجزيرة وكذلك لجزيرة مضير ــ التي اكتشفت فيما بعد ــ عندما يأتي الحديث عن الجزر الواقعة عرض شواطىء القارة.

على إثر هذا الحدث، قام جيل يانييس، خادم الأمير دون هانري، بجواز هذا الموقع، وسمّاه رأس بوجدور، وهو أحد أسماء بطليموس، وشكّلت هذه

المأثورة حدثا هامّا بين الأحداث العظمى التي ردّدتها الألسنة في ذلك العهد، خصوصا وأن فضل إكتشاف جزيرة مضير، يرجع الى شجاعة جيل يانييس.

على بعد ثلاثين فرسخا من رأس بوجدور، توجد منطقة تدعى لوس ريفيوس بسبب وفرة الأسماك الحمراء الموجودة بها، وعلى بعد اثني عشر فرسخا من هذا الموقع الأخير، يوجد مكان يسمى «الفَرَسان» نسبة الى فرسين تم انزالهما به، ويوجد كذلك، على بعد اثني عشر فرسخا من «الفرسين»، موقع يسمّى وادي الذهب، لأن عملية افتداء عدد من العرب كان البرتغاليون قد سبوهم، تمت هناك، مقابل كمية من التبر، وكان ذلك أول ذهب جلبه البرتغال من هذه الأقاليم. ثم توجد على بعد اثني عشر فرسخا جنوب وادي الذهب، خليج غنسال دو سينترا، وغنسال دو سنترا هذا، ضابط برتغالي لقي مصرعه مع اثنين من رفاقه، بهذا المكان على أيدي الصنهاجيين. ويشكل هذا الخليج مرحلة في طريق ميناء الفارس، الذي تتقدّمه في البحر، صخرة شامخة كالصرح، سمّاها أنطوان غنسال، «الصخرة المسَنَّنَة». ولما نزل غنسال بالشاطىء المواجه لتلك الصخرة، لم يعثر فيه على ما يدل أن به حياة بشرية، لكنه رمق على الشاطىء شِباكا للصيد، مصنوعة من خيوط الجريد.

وفي ذلك العهد، أي في سنة 1439، كان أنطوان غنسال يقيم بميناء الفارس، فلحق به أحد النبلاء البرتغاليين يسمى تريستان، وقد أوفده أمير البرتغال لمعاينة هذا الاكتشاف وتقدير أهميّته، فرسى بالميناء، وتوغّل رفقة غنسال، فوجدا جماعة من العرب، فقتلا منهم ثلاثة وسبيا عشرة آخرين، ثم عادا الى الميناء بغنائمهم وأسراهم.

عندها، قام تريستان بتوشيح صدر غنسال بوشاح من درجة فارس، فأصبح الميناء يسمّى ميناء الفارس، وعلى جنوبه بنحو ثمانية وعشرين فرسخا، يوجد الرأس الأبيض(6)، انه رأس من الرمل يظهر من بعيد أنه أبيض، وعند هذا المكان، أخذ الشاطىء اتجاها اخر وشكل خليجا يجتذب التيار المائي. وعلى مسافة اثني عشر فرسخا من هنا، تقع جزر قريبة من الشاطىء، وهي سبعة صخور تضربها الرياح والأمواج، كان لكل صخرة منها إسم خاص، لكنها أصبحت

(6) الذي يسمى اليوم «رأس نواديبو». (المترجم)

اليوم كلها تسمى صخور أرغوان، نسبة الى برج يحمل هذا الاسم، بناه مؤخرا ملك البرتغال على إحدى هذه الصخور.

وفي عام 1443، اكتشف تريستان جزيرة أخرى أبعد من تلك الصخور، وسماها جزيرة مالك الحزين، لأنها كانت مأهولة بهذا النوع من الطير. ولما مضى عام على هذا الاكتشاف، توجّه الى جزيرة مالك الحزين الضابط البرتغالي لانسولودولاك على رأس أسطول يتألف من ستة مراكب، وبعدما أقام فيها مدة قصيرة، قصد جزيرة غير بعيدة منها كان يقطنها الزنوج آنذاك، فنهب ما فيها وسبى مائة وخمسين من أهاليها، ثم رحل الى جزيرة تدرة، فوجدها خاوية على عروشها، لكنه اكتشف بعد ذلك، عدداً آخر من الجزر، قريبة من تدارت، الا انه استعصى على مراكبه أن ترسوَ بها، نظرا لما كان حولها من أرصفة رملية تجعل البحر هناك لا يسمح بالملاحة.

خلال عام 1445، اكتشف ضابط برتغالي آخر إسمه فرنان، مصب النيجر الذي يقوم أحد روافده بفصل افريقيا البيضاء عن افريقيا السوداء، ويُسمى هذا الرافد، نهر سينكا، وهو إسم حاكم محلي كان البرتغاليون يقيمون معه علاقات تجارية هامّة.

وتجدر الاشارة الى أن لنهر السّينكا، أسماء متعددة، تختلف باختلاف القبائل التي تسكن على ضفافه، الا ان البحارة البرتغاليين اتفقوا على تسميته بنهر السنكال، وذلك من النقطة التي سيلتقي فيها بالنيجر(7)، الى مصبّه بالمحيط. أما الصنهاجيون فيسمّونه السنيديك، وتسميه عشائر الولوف، دَنْكَة. أما أهل تركرون، الذين يقطنون داخل البلاد، فيسمّونه مَايْ، ويسميه أهل شرق الاقليم، زَمْيَال، في حين، يُسَمَّى إيساً، عند أهل مملكة تمبوكتو.

والأمر الذي يدعو الى الاعجاب هو أن النيجر نهر طويل جدّا، ويصب في مكان بعيد بالنسبة لصنهاجة، وذهب بطوليموس الى أنه يتدفّق من بحيرة كيلونيدا وبحيرة نوبا(8)، ولئن كانت الميّاه المتدفّقة منها قليلة، والمدّ فيها ليس بقوي الّا في أحد الأنهار المتشعبة منه، وهو نهر كامْبِيرْ الذي تتخلّله حجارة كبيرة وتتوسّطه بعض الجزر التي تسكنها الطيور وترتع فيها أصناف مختلفة من الزواحف.

(7) أخطأ المؤلف حينما جعل نهر السينغال متفرعا عن نهر النيجر، لأن الأول يصب من جبال فوتاجالون وطوله 1700 كيلومتر، ويصب الثاني من جبل لوم، وطوله 4200 كيلومتر (المترجم)

(8) نوبا منطقة تعد اليوم من التراب السوداني، وتعني باللهجة المحلية «بلاد الذهب». (المترجم)

ان النيجر، ولئن كان عظيما، فانه لا يسمح بالملاحة الا في بعض أجزائه، لأنه يحتوي على صخور في مجراه، ولا سيما في الجهة التي تكثر فيها الشلالات، وهي الجهة التي تمتدّ على مسافة مائة وخمسين فرسخا قبل مصبّه، يسمي السكان هذا الشطر من النهر، هُويَايَا، وهذا تعبير محلّي لتدفق المياه بسرعة قويّة من صخور عالية، إذ يمكن للانسان أن يمرّ بجانبها دون أن يتبلّل، وعلى شرط أن تهبّ الريح من الأعلى لا من الأسفل، حيث انها عندما تهبّ من الأسفل، تدفع الماء نحو الصخرة، ويسمّي الزنوج هذه الشلالة، بالقوس.

يتلقّى النيجر عدة روافد كبرى، ضفافها خالية من أي عمران، بسبب ما تغصّ به من وحوش. وبقيت هذه الروافد بدون اسم، باستثناء رافد واحد يأتي من الجنوب يسميه العرب النهر الأحمر، لأن ماءه أحمر، بالمقارنة مع نهر السنغال ذي الماء الأبيض، ويسمى مكان التقاء النهرين، الواقع باقليم سراكولا، بوفيطابو، أي أبيض وأحمر حسب اللهجة المحلية. يقول الزنوج انهم إذا مزجوا ماء النهر الأحمر بماء نهر السنغال وشربوا الخليط، مالوا الى التقيء، في حين أنهم لا يحسون بأي اضطراب إذا شربوا من كل ماء على حدة.

الفصل الرابع

تغزة ومناجم الملح

تشكّل تغزة المنطقة الكبرى الثانية لصحاري ليبيا، وتقع شرق الأقاليم الصنهاجية. لا يوجد فيها عمران، وكل ما تحتويه، هو منجم للملح الحجري. ويروي هيرودوت أن تغزة تقع بين مدينة طيبس(9) المصرية، وبين موقع أعمدة هرقل.

ان أغلبية الأفراد الذين يشتغلون باستغلال مناجم الملح، أجانب عن المنطقة، ويقطنون بخيام ينصبونها قرب المناجم. أما أهالي المنطقة، فانهم لا يبالون بمكامنهم ويفضلون الترحّل بأنعامهم. ومما يذكر، ان مكامن الملح توجد بمناطق قافرة خالية.

عندما تقبل القوافل لحمل الملح، يتخلّف بعض السواق عن الرحيل معها، إذ يفضلون البقاء هناك، سعيا وراء ربح أهم، ويشرعون في استخراج الملح الذي

(9) كانت مدينة كبيرة في جنوب مصر. بنيت على أنقاضها مدينتا الاقصور والكرنك. (المترجم)

يحتفظون به لبيعه الى القوافل التي ترد من ايسّا(10) وتنبكتو، ويستطيع كل جمل، أن يحمل أربعة صخور يقدر وزنها بثلاثين خرّوبة(11). وبما أن المنطقة لا توفر الغذاء لأحد، فيتعيّن على الوافدين اليها أن يتزوّدوا بما ينبغي من الماء والطعام، لهم ولجمالهم، وان لم يفعلوا، فانهم سيموتون جوعا لا محالة. وتعرّج على تغزة، في طريقها الى مراكش، القوافل المحملة بالذهب الوارد من السودان.

يعاني مستغلو مناجم الملح من شظف العيش، الى درجة تحاذي البؤس، رغم ما يدرّه عليهم عملهم من أرباح، وذلك لأنهم لا يجدون منفذاً لأموالهم ولا مناسبة للانفاق، ويبقوا مدينين بقوتهم الى ما يأتيهم من بعض المواد الغذائية مع القوافل القادمة من تمبوكتو ودرعة. اما إذا تأخّرت عنهم هذه القوافل، فلن تجد إلا جثثهم أو عظامهم.

علاوة على ذلك، تهبّ ريّاح سخنة على المنطقة، تذهب أحيانا بأبصار قومها، وتتسبب لهم في داء النقرس، فتنتفخ ركبهم ويبدأون يعرجون، أضف الى هذا، أن آبار الماء هناك كلها مالحة. ورغم هذه الأحوال والظروف الصعبة، فان تغزة تستجلب كثيرا من الناس الطامعين في ربح المال.

الفصل الخامس
ونزيكة

نطلق إسم ونزيكة على الجزء الثالث للصحاري الليبية والذي تحدّه تغزّة غربا، وصحراء الأير شرقا، ومنطقة سجلماسة وتبلبالة وبني كُومي شمالا، ويتاخم في الجنوب، صحراء كير التي تقابل مملكة جُوبر ببلاد السودان. ان صحراء ونزيكة تفوق في قيضها وجدبها كل الصحاري التي تقدم لنا وصفها. ورغم هذه الظروف القاسية، فان فلولا من قوم يدعون الجنازير يضربون في ربوعها غير عابئين بشدتها. ولا يخفى على التجار المتجهين من تلمسان الى مملكة تمبوكتو وبلاد إيسّا، ما ينتظرهم في الطريق وهم مرغمون على المرور بفيافي تغزة، إذ يعرّضون أنفسهم الى التهلكة، بسبب الظمأ والجفاف، لاسيما عندما يكونون في منطقة كوكدن، وهي التي تمشي فيها القوافل عشرة أيام دون أن تعثر على أثر للماء، باستثناء تلك

(10) قبائل ايسّا متفرّقة عبر السودان ودجيبوتي. (المترجم)
(11) أي ما يعادل أربعمائة كيلو. (المترجم)

الغدران التي تتكون بفضل مياه الأمطار العاصفية والتي لم تلبث الا قليلا حتى تتبخّر.

يوجد أعراب من بين القبائل البربرية التي تسكن ونزيكة، فيفرضون الخراج على أهالي سجلماسة لأنهم يحرثون بعض الأراضي، ثم يتنقلّون عبر الصحراء ويتوقفون عند ايكيدي، وبالمراعي التي يصادفونها، وهي ضرورية لأنعامهم الوافرة، كما انهم يتوفرون على مدّخرات هامة من التمر الذي يأخذونه من الواحات المتاخمة لبلاد الجريد، والتي يبسطون عليها هيمنتهم، دون أن تنازعهم أية سلطة، ما لهم هناك من نفوذ.

ويضاف الى هؤلاء القوم، أعراب آخرون مثل أعراب غرسة وأعراب السقي، وكلهم ذوو حسب ونسب، يدين لهم ملوك بلاد البربر بالاحترام ويتودّدون اليهم ويتزوّجون ببنات رؤسائهم، ويتجرون بالخصوص مع أهل البوادي، ويبيعون لهم العبيد الذين يأتون بهم من بلاد السودان، وهذا ما جعل الزنوج يكرهونهم ويبغضونهم، وإذا ما تمكنوا من أسر بعضهم، فإنهم يسومونهم سوء العذاب.

الفصل السادس

الأيـر

هذا اسم المنطقة الرابعة من الصحاري الليبيّة، تحدها على التوالي من ناحية الغرب ونزيكة، وشرقا، ايكيدي، وشمالا، توات وتيكورارين والمزاب، وجنوبا، مملكة أكدز في بلاد السودان، هذا ويسكن هذه المنطقة قوم من الافريقيين، يدعون تركّة.

تختلف الأير عن الصحاري السالفة الذكر، بكونها أقل منها جفافا وخلاء، اذ توجد بها آبار، ولئن كانت عميقة، فان مياهها عذبة، وبها بعض المراعي، وتنتج المنّ أو عسل الندى، الذي تنقل منه كميات هامّة الى أكدز، في القرع المجوّف، ويمزجه الزنوج بالماء، فيشربونه، أو يضعون منه على اللحم الذي يأكلونه، ويقولون إن المن يخفف من حدة العطش ويجعل الأجانب القاطنين بأكدز يتمتعون بصحة جيدة، خلافا لما يوجد عليه الغرباء الذين يوجدون بتنبكتو ذات الهواء الوخيم.

تمتد صحراء الأير عبر مسافة عرضها مائة فرسخ من تخومها مع نوميديا الى أكدز. ويجوب الأعراب ربوعها خلال الشتاء، ثم يحطون رحالهم في الصيف،

على مقربة من جبال الأطلس الواقعة بين فاس وسجلماسة، وكان أميرهم من أهل غرسعيون التي أصبحت اليوم خاضعة للشريف.[12] ولكن هؤلاء الأعراب يبسطون كذلك سلطانهم على برابر الجبال فيفرضون عليهم الاتاوات، ثم يتحالفون في بعض الأحيان مع ملوك فاس، فيقدمون لهم الامدادات أثناء حروبهم، كما أنهم يدخلون معهم أحيانا أخرى في نزاعات مسلحة، إذ تتألف قواتهم من العديد من المشاة، ومن ستة آلاف فارس، وكلما تبيّن لهم أن قوات الملك تتفوّق عليهم، لاذوا بالفرار الى الصحاري.

كان هؤلاء الأعراب يعتمدون على مساندة المرينيين الذين تعاونوا معهم، وتنازلوا لهم عن عدّة مناطق، فاستنزفوا أهلها بالاتاوات. ونشير بالمناسبة، الى أنهم استحوذوا على قبائل عربية أقل منهم بطشا وثراء، فأخضعوها لنفوذهم، ومنهم من استقر بالواحات الخصبة، وتوارثوا الأراضي الجماعية، وتبنّوا أسلوب حياة البرابر، إلا أن أهم نشاط تجاري عندهم، يقتصر على سبي العبيد من بلاد السودان وبيعهم في مدن بلاد البربر، ومن هناك، يرسلون الى اسبانيا.

(12) محمد الشيخ السعدي (المترجم)

الفصل السابع

ايكيدي

تشكل ايكيدي الاقليم الخامس من الصحاري التي نحن بصددها، وتقع حدوده الغربية بتخوم الاير، وتمتدّ شرقا الى برداوة، وشمالا تحاذي صحراء توقّورت وورغلة وغدميس. أما في الجنوب، فإن تخومها هي صحاري كانم، ببلاد الزنوج[13].

ايكيدي صحراء جافة ووعرة، تشكل كثيرا من الأخطار والأهوال على التجار الذين يبرحون قستنطينية وغيرها من المدن الشمالية والوسطى، ويذهبون إلى اقليم كانم والبلاد الزنجية الأخرى، إذ يسكنها قوم غلاظ أشدّاء، يسمّون اللمطه، والذين ظلّوا يطمحون في السيطرة على دولة ورغلة. وهم دائما في حرب مع النظام القائم فيها، وينهبون أموال وأمتعة التجار الذين يمرّون بهذه الجهة ثم يقتلون بعضهم كما يقتلون بعض أهل ورغلة. ونشير بالمناسبة إلى أن كاطون[14] قضى هناك فصل الشتاء بعد رحلته الطويلة.

ما يزال أعراب أولاد حمرون وأولاد السيد وأولاد يحيى يجوبون هذه الأماكن وقد اختلطوا باللمطيين. هذا ويسكن المرابطون بين صحراء ايكيدي وسجلماسة، ولا يخفى على أحد ما بلغوه من القوة والسلطان في افريقيا وفي اسبانيا.

الفصل الثامن

برداوة[15]

انها الشطر السادس للصحاري الليبية، وتحدها غربا صحراء ايكيدي، وشرقا صحراء أوجلة، صحاري فزّان وبرقة في الشمال، تقابلها جنوبا صحراء مملكة بورنو في السودان[16].

ان هذه المنطقة كثيرة الحرّ والجفاف وقليلة الأمن بالنسبة لكل من لا صلة له بالشعوب التي تتساكن بها. ويجب على القوافل الراغبة في عبور هذه المنطقة، أن تتزوّد بالماء والغذاء باقليم فزّان.

(13) تقع اليوم كانم وسط قطر النيجر (المترجم).

(14) هو القائد الروماني الذي تعقّب جوبا لمحاربته. (المترجم).

(15) برداوة : أهل واحة برداي، الواقعة بشمال تشاد، بمنطقة تيبيسي وتبعد عن واحة أوزو التي تقع شمالها بنحو مائة كيلومتر. (المترجم).

(16) تقع بورنو اليوم بالقطر النيجري.

بداوة مجموعة سكنية تتألف من ثلاث مدن وست قرى، تحيط بها واحات غنية بتمارها الجيدة الوافرة، تبعد عن مجرى النيل بنحو مائة وثمانين فرسخا. ويقول ليون الافريقي(17) ان هذه المنطقة اكتشفت قبل سبعين عاما، من طرف مرشد يسمى عمر، وهو في طريقه الى مصر على رأس قافلة. وقد فقد عمر البصر في الطريق. ولم يكن مع القافلة من يرشدها، وكان عمر يأخذ من مرافقيه حفنة من الرمل بعد قطع كل ربع فرسخ وهو على جمله، فيشم ذلك الرمل، ولما كان على مسافة أربعة عشر أو خمسة عشر فرسخا من المنطقة هذه، أكد للمسافرين الذين كانوا معه، أنهم اقتربوا من مكان مأهول، لكنهم لم يصدّقوه وهم على يقين بأن مسافة مائتي فرسخ تفصلهم عن مصر. غير أنهم وصلوا بعد ثلاثة أيام الى واحة مأهولة، فأرادوا أن يتزوّدوا منها بالماء، فمنعهم أهلها، فشنّوا عليهم هجوما واستولوا على المكان، ولما قضوا فيه ما شاؤوا، واصلوا طريقهم.

الفصل التاسع
أوجلة(18)

هي سادس اقليم هذه الصحاري، تحده برداوة غربا، وبرقة شمالا، ويمتدّ كالخط الى شواطىء البحر المتوسط بخليج سيرته. والجدير بالذّكر، ان كاطون مرّ بهذه الصحراء على رأس جنوده، بعد مقتل بومبي، وهو في طريقه لمحاربة الملك جوبا.

تسكن قبائل البرابرة بالمنطقة الممتدة من هذه الصحراء الى تخوم النيل، وتنتمي هذه القبائل الى بني لبيد، كما يسكنها أيضا أقوام من الأعراب. وتخص أوجلة منطقة توجد بها ثلاث مدن وعدد من القرى تقع على بعد ما يزيد عن مائتي فرسخ من الطريق المؤدية من مصر الى موريتانيا. ويروي هيرودوت ان مكامن الملح الثانية توجد بهذه المنطقة، وذلك لأنه يعتقد ان المكامن الملحية الأولى توجد بمعبد جوبتير آمّون الذي يبعد بمسافة عشرة أيام عن مدينة طيبس (الاقصور حاليا)، في حين تبعد عنها المكامن الثانية بمسافة عشرين يوما.

(17) هو ابو علي الحسن الوزان الفاسي، صاحب كتاب «وصف افريقيا».
(18) هو ما يسمى اليوم بصحراء سيرت.

يوجد الجريد بكثرة في هذه البلاد، لكن القمح ينقصها، فيستورده الأعراب ويستبدلون به التمر، وكان النساميون (19) يذهبون الى هذه الصحاري لاقتنائه. ونذكر بالمناسبة، أنهم كانوا يشكلون امّة كبيرة منتشرة في العديد من أقاليم افريقيا، وتتنقل عبر البوادي سعيا وراء المراعي، ثم تتوجه نحو الواحات، كلما حان وقت جني الثمار، مثلهم كمثل الأعراب وغيرهم من أهل البلاد.

تعجّ هذه المنطقة بالأفاعي، ويوجد من بين الليبيدين أشخاص يقتلون هذه الأفاعي ببصاقهم، وهكذا نرى أن الله وضع الدواء بجانب الداء. وتجدر الاشارة الى أن أسماء جميع الأقاليم الليبية التي ذكرها المؤرخون اليونان تغيّرت، باستثناء صحراء أوجلة التي احتفظت باسمها، ويضعها بطوليمي في الدرجة الثانية والخمسين من خط الطول وفي الدرجة الثامنة والعشرين من خط العرض، ويسميها أوجيل، بين شعوب هذه الصحاري والنّاميين الذين يضعهم في ليبيا.

الفصل العاشر

بلاد سيرت التي كانت بها مدينة سيرنيا ومدن أخرى

في اتجاه الحدود المصرية، وشمال الاقليم السابق ذكره، يمتدّ على جزء من شاطىء البحر، اقليم سيرنيا الذي يسمى كذلك اقليم بنتابوليس، الا أن الدمار ضرب جميع مدن هذا الاقليم، باستثناء مدينة بطوليمايدة. أما تسمية الاقليم، فيما بعد، بسيرنايكا، فإنها ترجع إلى اشتقاق من كلمة سيرينا، وهي المدينة التي بناها شعب من أصل يوناني كان يحمل نفس الاسم. وكيف تم ذلك ؟

استوطن هذا الشعب اليوناني جزيرة بلاتيرا حينا من الدهر، ثم نزح الى افريقيا وشيّد مدينة تقابل تلك الجزيرة. تقع بين جبلين يحيط بهما نهران. ولما مضى ردح من الزمان، نزل قرطاجيون بالمنطقة وأمروا أولئك اليونانيين ببناء مدينة زواه، على مقربة من عين ماء، تعرف بعين أبولون، وأقاموا عليها باتوس ملكا. وبعد وفاة باتوس، خلفه ابنه أرسيفلاس، فقام ببناء سيرينا ووقف على تعميرها وتمكّن من توسيع رقعة مملكته. الا أن سياسته التوسعية لم ترض القرطاجيين، فراحوا يتآمرون عليه بمساعدة المصريين لتنحيته من الملك، فشهر الحرب على ملك من

(19) قوم سكنوا هذه المنطقة قديما.

عملائهم يسمّى أديكران، وهزمه، ثم أخضع القرطاجيين الى سلطانه. بعد ذلك قام أحد أبناء ارسيفلاس، المسمى بيتومن السعيد، ببناء مدينة برقة، لكن الخراب أصابها كما أصاب سيرينا، من جرّاء الحروب الباطنية.

يجوب اليوم هذه البلاد قوم من الأعراب يوجد في صفوفهم أكثر من ثلاثين ألف فارس وعدد لا يحصى من المشاة. انهم يكرهون الاستقرار ولا ينفكّون عن الترحّل عبر البوادي، يحملون خيمهم أثناء حلّهم وترحالهم، وهم الذين دمّروا جميع ما كان في الاقليم من مدن وقرى وخرّبوا سيرينا وساعدوا البربر على تدمير معالم برقة. الا أننا نشاهد بقايا مدينة كبيرة على تخوم أوجلة، تسمى سيرت والتي يظهر ان البرابر هم الذين بنوها قديما، وقد أعاد الرومان بناءها بعد ما دكّوا أطلالها البربرية، لكن المسلمين خرّبوها تخريبا تامّا ومنعوا اعادة بنائها مرّة أخرى، وما زالت بعض أطلالها قائمة اليوم.

كانت سيرينا أول مدينة أغار عليها كاطون بعد وفاة بطوليموس، ولما استولى عليها بالقوة، لم يلحق بها أذى، ثم انطلق منها لتعقّب آثار الملك جوبا.

جنوب سيرت، في منطقة صحراوية وعلى بعد زهاء أربعين فرسخا من الحدود المصرية، توجد واحة شاسعة الأطراف، تسمى واحة الكيشت، وتتضمّن ثلاث مدن وبعض القرى يسكن بها أفارقة سود، مكرة وبخلاء رغم ثرائهم. وربما يرجع طبعهم هذا الى تواجدهم بين مصر ومملكة كاو، يسوسهم حاكم يدينون له بالطاعة وينزّلونه منزلة الملك، لكنهم يخضعون للأعراب، أصحاب السيادة على البوادي ويدفعون لهم الخراج.

الكتاب التاسع

ويتناول اثيوبيا العليا والسفلى

الفصل الأول

وصف اجمالي للبلاد

اثيوبيا تشمل عدة أمصار وأقطار تفوق بقية المناطق الافريقية، سواء من حيث مساحات الأقاليم التي تشملها أو من حيث عدد الشعوب التي تسكنها، زيادة على ما يرتع في ربوعها من دوابّ، وما تحتوي عليه من ذهب. ولزيادة الايضاح، نخبر القارىء أن مجموع الأقاليم التي تتألف منها اثيوبيا، تشغل كل المساحة الموجودة بين مداري الاستواء، وتتجاوزهما لتشمل أيضا المناطق الساحقة التي تصل إلى رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه البرتغاليين والموجود في المنطقة المعتدلة.

أهل أثيوبيا ليسوا أولئك الرجال الغلاظ والمخشوشنين الذين خصّهم سلف الجغرافيين بمثل هذه الأوصاف التي لا تنطبق عليهم، اللهم إذا كانوا يقصدون بالمزاج المتوحّش، أجسامهم ولا عقولهم. فضلا عن هذا، فانهم قسّموا أثيوبيا الى شطرين، اثيوبيا العليا واثيوبيا السفلى.

كان العبريون يسمّون اثيوبيا «بلاد الكوش». والأرجح، أن اسم اثيوبيا راجع الى سواد بشرة أهلها، ولا الى اسم احدى بنات فُلْكايَنْ، حسب الأسطورة التي تناقلها الشعراء(1).

يجوز لنا أن نقسّم اثيوبيا الى ثلاثة أجزاء رئيسية، اثيوبيا العليا، اثيوبيا السفلى وبلاد الكَفْر(2) وتمتدّ من مصب النيجر الى رأس كواردافو(3). أما الجغرافيون الأفارقة(4)، فإنهم لم يتحدثوا إلا عن مملكة كانم ومملكة كـاو في سياق وصفهم لبلاد السودان، وأهملوا باقي الأقاليم الزنجية، وقد يعزى ذلك الى عدم معرفتهم بالموضوع.

ان كل الأقاليم المتاخمة للصحراء تدين اليوم بالاسلام، لأن الفقهاء والدعاة المسلمين مضوا في عهد المرابطين، عام 380 هـ (4 م) يبثون الدعوة الاسلامية بين

(1) كان قدماء اليونان يعبدون إلهاً سموه فُلْكايَنْ، وهو إله النار والشغل عندهم، وكانت له بنت تسمى اثيوب. (الاسطورة). (المترجم)

(2) ان الجغرافيين العرب اطلقوا اسم بلاد الكَفْر، بفتح الكاف وجزم الفاء، على المناطق الافريقية الواقعة جنوب خط الاستواء. (المترجم)

(3) يقع رأس كواردافو بالقرن الافريقي ويقابل خليج عدن. أما مصب النيجر هنا، فهو مصب السنغال. (المترجم)

(4) الجغرافيون الافارقة الذين أشار اليهم مرمول، هم : المسعودي، البكري وابن الجزّار. (مترجم)

(4م) = 980م. [وهذا خطأً لأن حركة المرابطين لم تبدأ الا بعد نحو 50 سنة من هذا التاريخ].

السكان الأفارقة. وبهذا الصدد، نشير إلى أن عبد الملك[1] راح يعلمهم فرائض الدين وقواعده، كما ان علي بن أبي بكر[2] واصل عمل سلفه بين الزنوج الغلاظ الذين كانوا لا يخشون أحدا ولا يخافون شيئا، وليس لهم ايمان ولا ملك يسوسهم، ولا سلطة تنظمهم.

كان هؤلاء الزنوج يلبسون جلود النعاج، يشتغلون نهارا في البوادي، ويأوون ليلا الى أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر، ويختلط رجالهم بنسائهم، دون أن تكون بينهم علاقة زوجية، وكانوا يفترشون جلود الحيوانات، لا يحاربون أحدا، ولا يشهر عليهم أحد الحرب. كانت لهم جميعا آلهة متعددة، فمنهم من كان يعبد الشمس، ومنهم من كان يعبد النار، ومنهم عبدة الأشجار والأصنام والأحجار، ومنهم من كان يعبد أول شيء يصادفه صباحا في طريقه، وبذلك، كانوا يعيشون كالوحوش ولا كحيوانات عاقلة.

لا غرو ان أهل مملكة كاو كانوا ملمّين بمبادىء المسيحية، نظرا لعلاقتهم التجارية بالمصريين وأهل السيد، ولما استولى الأمير يوسف اللمتوني[3] على هذه البلاد، قسّمها الى خمسة ولايات ووهبها الى الشعوب الخمسة التي كانت تسكن ليبيا[4] وتدين له بالولاء، رغم وجود خمسة عشر شعبا على طول ضفاف نهر النيجر وفي تخوم نوبا إن الزنوج الذين كانوا يتجرون مع العرب، تعلّموا لغتهم، ثم أصبحوا خاضعين لنفوذ يوسف ومن خلفه من بعده، وداموا على هذه الحال الى أن مات عام 1500 [5] سنّي علي، ملك كاو وتنبكتو، فثار أحد الضباط[6] الذي كان قائدا للجيش، وعظمت شوكته، وفي ظرف خمس عشرة سنة، أسس امبراطورية تتألف من عدة أقاليم وقضي على نفوذ البرابر بالمنطقة.

(1) عبد الله بن ياسين. (المترجم)

(2) مؤسس رباط بموريتانيا. (المترجم)

(3) يوسف بن تاشفين. (المترجم)

(4) تلك الشعوب، هي قبائل صنهاجة، ونزيكة، التوارق، اللمثة وبرداوة. (المترجم)

(5) مات صونى علي عام 1493. (المترجم)

(6) تدخل مملكة كاو فيما يسمى بدولة مالي التي كانت متصلة فيما بين غانة جنوب موريتانيا حاليا وأرض التكرور في شمال السينيغال، ومن هذه الدولة، كان السلطان منسا موسى ابن أبي بكر وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبي الحسن المريني علاقة ودّية. وكان مع السلطان منسا موسى، المهندس والشاعر محمد أبو اسحاق الأندلسي الساحلي الذي بنى له بتمبوكتو قبّة مربّعة عجيبة الصنع، على الطراز الأندلسي، وكان منها أيضا، السلطان منسازاطة الذي أهدى للسلطان أبي سالم المريني زرافة، وكان زاطة مسرفا مبذرا.

إلا ان مملكة كاو انفصلت عن دولة مالي في أواخر القرن الرابع عشر وأخذ ملوكها يحملون لقب سوني عوض

بفضل التوغلات داخل الأمصار التي يخترقها النيجر وروافده المتعدّدة التي تنساب بين مفازتين كبيرتين.ولكنهما أهراتسان تم اكتشاف مناطق باتت مجهولة لحد الآن، لأن مسالكها طويلة ووعرة، وشعوبها يختلف بعضها عن بعض من حيث اللغات والعوائد والمعتقدات الدينية، ولم تكن أي علاقة أو صلات بين هذه الشعوب والأمم القاطنة على ضفاف النيجر، اللهم ما كان لهم من روابط مع سكان شواطىء البحر، الذين يشترون منهم الملح الذي لا يوجد منه في أسواق المنطقة، الا ما كان يأتي من ليبيا، وبلاد البربر أو من جزر الرأس الأخضر التي يتوفّر على ملاحات يوجد مثلها في أوربا مع هذا، فان ملح ليبيا يبقى هو الأجود لأنه يستخرج في شكل صخور من الأرض، وثمنه نصف مثقال للرطل. ويقبل أهل هذه البلاد كذلك، على نبات طيب الرائحة، يأتى من بلاد البربر وليبيا ونوميذيا ويسمّى تاسرغينت. وأشير الى أن حمولة جمل من هذا النبات، تباع في موطنها بدرهم واحد، ولكن ثمنها يصبح مائة درهم أو أكثر في بلاد السودان، وتفوح رائحته الطيبة دون أن يحتاج المرء الى وضعه في النّار.

ولنترك شعوب هذه البلاد، لنتحدث عن الأقاليم الواقعة طوال نهر النيجر، من المحيط الى مصر، ثم سنعود الى موضوع الشواطىء، مشيرين من الآن الى أن

منسا، وأصبحت هذه المملكة تسمى امبراطورية سونغاي، نسبة الى أهلها الذين يحملون هذا اللقب، ولكن أصلهم بقي غامضا الى يومنا هذا.

وبعد سنّي علي، الملك الثامن عشر من دولة السونغاي، الذي تربّع على كرسي الحكم، عام 1464. وكان يتصف بالشجاعة في الحرب، والأخلاق السيئة في معاملته لرعاياه، حتى ان المؤلفين، مثل محمود كعتي، صاحب كتاب **تاريخ الفتّاش**، وحفيده السعدي الذي أتمّ كتاب جدّه وسمّاه **تاريخ السّودان**، وغيرهما، اتفقوا على وصفه بانه الطاغية الذي استبدّ بالحكم وعبث بالأرواح وبرع في السحر. وفي عام 1493، قام أحد ضباط أبيه، يدعى محمدالطوْرى، بجزم الواو — وأصله من فوتاطورو بالسنغال، الواقع في أرض التكرور — بالإطاحة بابن صوني علي، وأسس دولة جديدة، هي دولة الأسكية. وكان محمد أسكية مؤمنا، محبّا للعلماء والفقهاء، وحارب عبادة الأوثان التي كانت شائعة في مملكته. وأدى فريضة الحج عام 1497، واتصل بأمير مكة، فعيّنه إماما، كما عينه حاكم مصر، خليفته بالسودان. أما المؤرخ السعدي، فيسميه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

وفي عهد هذا الملك، أصبحت تنبكتو وجنينة مدينتين مزدهرتين، اقتصاديا وحضاريا وثقافيا، وأخذت امبراطورية مالي تمتدّ من سلسلة الاير (الواقعة حاليا شمال بلاد النيجر) الى جنوب السنغال، ومن مدينة سيكو الواقعة على ضفاف نهر النيجر بمالي، الى تخوم الصحراء الوسطى.

وبقي محمد اسكية يمارس الحكم بتطبيق الشريعة الاسلامية، ومبادىء السنة، وتجدر الاشارة الى أن الامام السيوطي كان شيخه، ولم يزل على سيرته الى أن مات عام 1529، فخلفه ولده داود بن محمد، فتبع طريقة أبيه الى أن وافاه الأجل، ثم خلفه ابنه اسحاق بن داود، فعدل عن بعض سيرة أبيه، وبقي على هذه الحال الى أن غزت جيوش المنصور مملكة مالي، فانقرض أمر آل أسكيا . (المترجم)

هذا الجزء من اثيوبيا، يوجد بين خط الاستواء ومدار السرطان، وهو في نفس الوضعية التي توجد عليها بلاد الهند.

الفصل الثاني

ولّاته

ولاتة(7)، مملكة بربرية صحراوية، تتخام غينيا جنوبا وتقابل صنهاجة شمالا. أما القبائل التي تتواجد في ربوع هذه المملكة، فانها تسمى بني آيس، ويوجد بعض عناصر هذه القبائل بجنوب ليبيا، وتتميز بشرتهم بكونها أقل اسودادا من بشرة العناصر الذين يقطنون شمال النيجر.

الجدير بالذكر، ان هذه القبائل، في مجملها، تختلف من حيث أخلاقها وسلوكياتها، من ذلك، ان القبائل المتواجدة وسط المملكة، تتميز بنوع من الخشونة الخلقية، ولئن كانت لا تخلو من بعض الشيم الحسنة. يتلثّم رجال ونساء هذه القبائل، ولا يوجد من بينهم قضاة، وليس لهم شعراء وأدباء، أغلبهم يعانون من شظف العيش، ويحصدون النزر اليسير من الذرة. ويجنون قليلا من التمر ولا يملكون الا قليلا من الأنعام.

7 عاصمة ولاته كانت هي أودغوست (المترجم)

لا يوجد في المملكة الا ثلاث قرى، تقع على مسافة مائة فرسخ من التخوم الجنوبية، وعلى مسافة مائة وستين فرسخا من تمبوكتو، ولا تبعد عن المحيط الا بنحو ثلاثين فرسخا. عندما كان الصنهاجيون يسوسون هذه المملكة وما يجاورها من الأمصار، كانت عاصمة مملكة ولاته، احدى هذه القرى، وهذا هو السبب الذي جعل شطر نهر النيجر الذي يمرّ بهذه المنطقة يسمى نهر صنهاجة، وكان برابر الشمال يتجرون مع أهل المنطقة، بمصب هذا النهر.

وفي عهد الملك صوني علي، تحوّل محور المعاملات التجارية إلى كاو وتمبوكتو، حيث وجد التجار مجالا لغزو أسواق عديدة وأصبحت مملكة ولاته أكثر فقرا مما كانت عليه.

يتحدث شعوب ولاته بلغة تسمى الزكاي. ولما استولى ملك تمبوكتو على هذه الديار، فرّ أميرها إلى أعماق الصحراء، ولكن صوني علي آمنه وردّ إليه شؤون مملكته، مقابل إتاوة تدفع سنويا.

لا تختلف حياة هؤلاء الشعوب عن حياة الشعوب الصحراوية الذين ينقصهم كل شيء ضروري لحياة كريمة.

الفصل الثالث

غينيا

تأتي غينيا،(8) بعد الاقليم أو المملكة التي وصفناها في الفصل السابق، ولو كانت تفصل بينهما مفازة عرضها مائتان وستون فرسخا، وتقع ولاته شمالها، ومملكة تمبوكتو غربها، ومالي جنوبها. وتمتدّ غينيا طوال النيجر(9)، عبر مسافة تزيد عن ثمانين فرسخا، وجزء منها يقع عند مصب هذا النهر، ويشكل منطقة فلاحية غنية، تنتج القطن والشعير والأرز، ولها أنعام كثيرة وأسماك وفيرة في شواطئها. ويستبدل الصناع النسيج القطني بمختلف أنواع الثياب المستوردة من أوربا عن

8 غينيا لفظ مبهم ولا يتضمن أي مفهوم محدد جغرافيا، ويعني بالخصوص : «أرض السود» وفي الخريطة التي وضعها عام 1339، آنجيلينو دوليستر جاء ما يلي : «غينوا أرض يسكنها السود». وكان العرب يسمون غينيا، غينو. ويقول محمد الوزان، في «كتابه **وصف افريقيا** : كناوة تعني في بلاد المغرب، السود ووطنهم». وفي عام1450، كتب البرتغالي زورارا يقول : «غينيوس تعني الانسان ذا البشرة السوداء». ويسمى جزء منها : بلاد التكرور.

9 نذكّر أن الأمر يتعلق بنهر السنغال. اعتقد الجغرافيون العرب أن نهر السنغال متفرّع عن نهر النيجر. وسايرهم في ذلك محمد الوزّان، والجغرافيون، قبل منتصف القرن الثامن عشر. (المترجم)

طريق بلاد البربر، والنحاس والزنك والأسلحة النارية وغيرها من الأشياء التي يحتاجون إليها.

إن العملة الرسمية في البلاد مصنوعة من الذهب الخام إلّا أن الأهالي يتداولون فيما بينهم نقودا من الحديد، يزن بعضها رطلا، ومنها كذلك، قطع وزنها أربع أوقيات.

لا يوجد في غينيا مدينة ولا قصر، وليس فيها فواكه ولكن بعض التجار يبيعون تمر ولاته ونوميديا. ويسكن ملك البلاد، في قرية كبيرة(10) وسط جمهور التجار والفقهاء والوجهاء. أما المنازل، فإن جدرانها مبنية من التراب ومسقّفة بالقصب والتبن. يرتدي السكان ما يلائم أذواقهم من الملابس المصنوعة من القطن، وكلها سوداء أو زرقاء، ويصنعون منها قبّعاتهم، لكن فقهاءهم يرتدون ملابس بيضاء.

يتزامن فيضان النيجر مع فيضان النيل، فتصبح القرية التي يسكنها الملك، معزولة عن اليابسة، وتغدو جزيرة مدة ثلاثة أشهر في السنة، وهي يوليوز، غشت وشتنبر. عندها يحمل تجار تمبوكتو بضائعهم في زوارق طويلة وقليلة العرض، مصنوعة من جذوع الأشجار الطويلة التي يربطونها من الوسط ويغوّرونها. يستعملون هذه الزوارق خلال النهار، ويربطونها كل مساء، بأوتدة مغروسة في الضفاف.

كانت بلاد غينيا خاضعة لنفوذ اللمتونيين، وكانت تؤدي لهم الاتاوة في عهد ملكها سنّي علي. ولما تولّى أمر البلاد بعده اسكية، تمرّد عليه الأهالي، فقمعهم وهزم متزعّم العصيان، ثم نفاه إلى مدينة كاو، حيث مات وهو في السجن.

على إثر هذه الأحداث، غيّر الملك نظام غينيا وجعلها ولاية لا غير، ونصّب عليها حاكما ثم انتقل إلى تنبكتو، فاقيمت الحفلات والمهرجانات بالمناسبة.

الفصل الرابع

اقليم مالي

يمتدّ هذا الاقليم بمسافة نحو مائة فرسخ، طوال شطر من نهر النيجر، وتجاوره غينيا جنوبا، والصحراء مع سلسلة من الجبال شمالا، وإقليم كاو قبلة،

(10) لعل هذه القرية هي تومبي الواقعة في منطقة فوتاجالون الجبلية، وينصب نهر السنغال غير بعيد منها. (المترجم)

والمحيط غربا، لا يوجد في الاقليم إلا قرية كبيرة تسمّى مالي، مفتوحة، يكاد عدد سكانها يبلغ ست آلاف نسمة، وهي التي اتخذها الحاكم مقرا لاقامته.[11]

يوجد بقرية مالي كثير من الصناع والتجار والمستوطنون الأجانب الذين يحظون بعناية خاصّة ويتمتعون بامتيازات لا يتمتّع بها غيرهم. أما من الناحية الفلاحية، فإن الاقليم يتوفر على أراضي خصبة تنتج الوفير من الحبوب والقطن، وترعى فوق مراعيها، قطائع هامّة من الأغنام، وكل هذه الخيرات، تضاف إلى التجارة، فتجعل الأهالي يرفلون في الثراء والرخاء.

لم تكن هذه النعم لتنسيهم أمور دينهم، إذ يعمّرون المساجد، ولهم علماؤهم وفقاؤهم الذين يعلمونهم اللغة العربية ويلقّنونهم العلوم الدينية وغيرها. ونشير إلى أن هؤلاء الزنوج يتصنفون أكثر من إخوانهم المتواجدين معهم في أثيوبيا السفلى، بالذكاء والحذاقة، وهم الذين تلقّوا قبل غيرهم، تعاليم الاسلام.

بات أهل مالي خاضعين لسلطة اللمتونيين إلى آخر عهد صوني علي، الذي خلفه محمد اسكينة، ثم أصبحوا خاضعين لملك كاو.

الفصل الخامس

اقليم تنبكتو

يسمى هذا الاقليم باسم عاصمته تنبكتو التي بناها الملك منسا سليمان حوالي عام 610 الهجري الموافق لعام 1200 الميلادي، ولا تبعد هذه المدينة عن ضفاف نهر النيجر إلا بنحو أربعة فراسخ.

(11) أصبح من المؤكّد أن إفريقيا الغربية شهدت عدة أمبراطوريات مالية متتالية، وأضحى من المؤكد أيضا أن أهم أمبراطورية مالية هي التي أسسها آل اسكية والتي لم تعمّر إلا زهاء ستين عاما، قبل أن تدخل الجيوش المغربية بقيادة المنصور، الى السودان، فتفتّتت الأمبراطورية المالية بعد ذلك الى دويلات. (المترجم)

أما المنازل فإنها مبنية من الخشب ومطلية بالتراب الممزوج بالتبن. ويوجد في المدينة، مسجد وقصر مبنيان من الحجر الضخم، وقد بناهما بنّاء عبقري من غرناطة، في عهد السلطان موسى سليمان.

تزخر تمبوكتو بكثير من الدكاكين للتجارة والصناع، أهم تجارتهم الثياب القطنية التي يستبدلونها بثياب مصنوعة في أوربا يأتي بها تجّار من بلاد البربر. وهؤلاء التجار وأصحاب الحرف، كلهم أغنياء، ولا سيما منهم الغرباء الذين يستوطنون البلاد حتى أن السلطان يزوّج بعضهم ببنات البلد. تخرج النساء هناك ملثمات، والايماء يبعن الموادّ الغذائية.

زيادة على مياه النيجر التي تجري في قنوات عبر المدينة، يوجد في تمبوكتو العديد من الآبار. أما الأراضي الفلاحية المحيطة بها، فإنها خصبة وتنتج كمّيات وافرة من القمح والذرة والشعير، ويملك الفلاحون كثيرا من الانعام، ولا تنقص المواطنين الألبان والزبدة، لكن الملح قليل في الأسواق، ويتحتّم استيراده من مقالع تغزة التي تبعد بنحو مائة وسبعين فرسخا.

أصبح سلطان تمبوكتو يسمى اليوم امبراطور مالي، ويملك كميات هامّة من التبر نشير إلى أن بلاطه يمتاز بتنظيم جيد، سواء من الجانب الدنيوي أو من الجانب الروحي ولا يقل في ذلك من شيء، عن نظام بلاطات ملوك البلاد البربرية.

سعى الشريف محمد، عندما بلغ أوج مجده، إلى امبراطورية مالي وغيرها من بلاد السودان، استجابة لشعوب الصحراء، كدأب الاسلاف اللمتونيين لذلك، جهّز جيشا يتألف من ألف وثمانمائة من الفرسان وعدد لا يحصى من الجمّالة وكميات هائلة من المؤمن والدخائر، وسار به عن طريق الساقية الحمراء، لكنه لما علم أن امبراطور مالي خرج لمحاربته في الطريق، ولّى عائدا إلى ترودانت.

كان عدد من الأسرى النصارى يقومون بخدمات في بلاط الشريف، ورافقوه في رحلته، وكان صغار الزنوج وكبارهم، يتهافتون على رؤيتهم والتحدث معهم، معتقدين أنهم أعجوبة الخلائق البشرية. وعلمنا أن بعض رجال حاشية الشريف أذاعوا في أواسط القوم، بغية بث الخوف في قلوب الاسرى المسيحيين، إن هؤلاء النصارى يأكلون اللحم البشري ويمزقون أجساد ضحاياهم بمخالبهم وأسنانهم.

عندما يخرج امبراطور مالي من تمبوكتو، يتبعه رجال حاشيته وهم يمتطون الجمال، لكنهم يركبون الخيول إذا خرجوا للقتال ورغم شجاعتهم، فانهم لا يتقنون

شؤون الحرب، ويدخلون المعارك في جو لا يخلو من فوضى. أما الأهالي، فإنهم يدينون لملكهم ببالغ الاحترام والتقدير، حتى أن كل من يمثل أمامه لأول مرّة، يسجد له، ويأتي من يدرّ شيئا من التراب على رأسه وعلى كتفيه، قبل أن يسمح له بالكلام. وللملك حرس يتألف من سبعة آلاف فارس وعدد لا يحصى من جنود الرماية بالنبال، يمشون على الأقدام ويحملون أقواسا كبيرة مصنوعة من جذوع البسباس البرّي، ولا يستعملون إلا السهام المسمّمة. ويشهر الملك الحرب عادة على جيرانه الذين يرفضون الخضوع إلى نفوذه، ويبيع أسراه رجالا ونساء وأطفالا، في سوق العبيد.

لا توجد في أثيوبيا خيول جيدة، ولكن فيها أحصنة قصيرة يمتطيها الوجهاء للذهاب إلى المدن. أما الخيول الجيدة، فإنها تستقدم من بلاد البربر ويأخذ الملك ما يروقه منها.

إشتهر ملوك تمبوكتو بعدائهم لليهود، ولا يسمحون لأي واحد منهم أن يقيم بأمبراطوريتهم، وإذا ما علموا أن تاجرا يراسلهم، حجزوا بضائعه وأمتعته. وعلاوة على ذلك، فإن للملوك قضاة وفقهاء وعلماء مختصون في الشؤون الاسلامية، فيكرمونهم وينزّلونهم منزلة التقدير والتبجيل. اما الكتبيون، فإنهم يقدّمون لهؤلاء الملوك مخطوطات مستوردة من بلاد البربر، فتحظى باقبالهم عليها وعنايتهم بها، وهي البضاعة المربحة أكثر من غيرها.

أهم النقود المتداولة وأرفعها تضرب في امبراطورية مالي ،وتتشكّل من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم، ولكن المعاملات العادية، تتم بواسطة نقود معدنية حلزونية الشكل، مضروبة في بلاد الفرس، تعادل أربعمائة قطعة منها مثقالا من الذهب، كما أن ستّة مثقالات وثلثي مثقال، تعادل أوقية رومية واحدة.

أهل السودان أشخاص يتصفون بالليونة والظرافة وحسن المعاملة والبشاشة، يغنون ويرقصون على نغمات طبول صغيرة ومزامير، ويشبهون في ذلك، أهالي بعض الأقاليم في البرتغال، ويُشغّلون كثيرا من العبيد، إناثا وذكورا. لا يوجد أي بستان في هذه البلاد، كما لا توجد فيها شجرة واحدة مثمرة. وبما أن البيوت مصنوعة من الخشب، فإن مدينة تومبوكتو تتعرّض للحرائق، وكم من مرّة التهمت النيران بعض منازلها.

الفصل السادس

كبرة

تقع هذه المدينة على ضفاف النيجر، على بعد زهاء أربعة فراسخ من تمبوكتو، لا يوجد بها أي بناء من الحجر ولا أي قصر، وبها ترسّي السفن المحمّلة بالبضائع الواردة من المناطق الداخلية، وفيها يلتقي ممثلو العديد من الأمم، الراغبين في الذهاب إلى غينيا[12] ومالي وغيرهما، وذلك لأن النهر يتفرّع هناك إلى شعبتين، قبل أن يصبّ في المحيط، بالسنغامبيا[13]

تشبه منازل كبرة منازل تنبكتو، وقد عيّن الملك أحد أقربائه وليا على كبرة ليقوم بالعدل بين الناس. ويلاحظ أن الكثير من الأمراض تضرب المدينة بسبب الرطوبة المرتفعة التي يرجع سببها إلى مياه النهر والحرارة، ولأن الناس آنذاك، يخلطون في أكلهم الحليب واللحم والسمك، وهي أطعمة إذا تناولها المرء في وجبة واحدة، يصاب بالجذام وأمراض أخرى.

الفصل السابع

كاو

يبعد إقليم كاو عن تنبكتو بنحو مائة وخمسين فرسخا، ويقع في شرقها الجنوبي ويسمى الاقليم باسم عاصمة كاو التي تشبه مدينة كبيرة، وليس فيها جدران ولا قلعة، ولكن فيها من المنازل ما يستحق الذكر، على خلاف كبرة، ويوجد بها قصر الملك وقصور أخرى مبنية على الطراز العربي الاندلسي.

ينعم أهل كاو بثراء نسبي، ويشتغلون بالتجارة في كثير من الجهات الافريقية وكثير من تجارهم يأتون من المناطق الداخلية، بالذهب الذي يستبدلونه بالبضائع المستوردة من أوربا وبلاد البربر، لكنهم لا يجدون وفرة البضائع لانفاق كل أموالهم. ونشير في هذا الصدد، أن أهالي مدينة كاو يتميزون عن باقي أهل المملكة، بأدبهم وأخلاقهم. وفضائلهم.

يزخر الاقليم بالاراضي الخصبة والمراعي الخضراء والانعام الكثيرة، وينتج البطيخ والفقوس والبصل والقرع وكثيرا من الخضر التي يوجد مثلها في بلاد البربر

(12) نذكّر بأن غينيا تعني السودان الغربي، أي ما يشمل حاليا السنغال وكامبيا وجزءا من مالي والنيجر.
(13) نُذكّر كذلك بأن النيجر يصب في بلاد نيجريا.

وكميات هامّة من الأرز الجيد، لكن لا ينبت فيه عنب ولا يوجد فيه خمر ولا فاكهة، إلا التمر الذي يأتي من الواحات الصحراوية.

في المدينة، حفرت آبار لتلبية حاجيات الناس من الماء، وتوجد في وسطها ساحة كبرى يعقد فيها سوق مرّة في الأسبوع، يباع فيه العبيد بأثمان بخسة، لا يتجاوز ثمن عبد شاب أو أمة شابة، ستة عشر درهما، ولا غرو أن تجارة العبيد تزدهر مع الحروب.

يوجد قصر الأمير خارج المدينة بقليل، مساحته كبيرة، ويتضمن أجنحة مختلفة، منها ما هو خاص بالحريم وما هو خاص بالجواري، كما توجد به أماكن خاصّة بالعبيد والخصية، كما هو الحال في بلاد البرابر. للملك حرس يتألف من الفرسان والمشاة والرماة، يقفون على حراسة أبواب القصر، وبعضهم يرافقه في تنقلاته. داخل القصر توجد ساحة كبرى بين البوابتين الرئيسيتين تطل عليها القاعات التي يستقبل فيها الملك زواره أو رعاياه كل يوم، ويقوم الملك بنفسه بتنظيم الاستقبالات والجلسات وتحديد مواقيتها، ويساعده في ذلك، ضباط من الجيش والشرطة، يعملون تحت أوامره. يستخلص الملك أرباحا هامّة في صيغة رسوم مفروضة على العمليات التجارية . التجارة حرّة، خصوصا منها تجارة الخيول المستقدمة من بلاد البربر ونوميديا، وتجارة الأنسجة الأوربية، ولا سيما منها الثياب الحريرية الحمراء أو الزرقاء التي يبلغ ثمن الذراع منها عشرين مثقالا، في حين، أن غيرها من الثياب لا يتجاوز ثمن الذراع منها ستة مثاقيل. علاوة على ذلك، يبيع التجار الاجانب في أسواق كاو، الأسرجة ولواحقها، وعددا من الأشياء النفيسة، ويحققون أرباحا أكثر أهمية في بيع التوابل والملح، وفيما يستخلصونه من بيع الذهب، بعد عودتهم إلى أوطانهم.

باستثناء كاو، لا يوجد في بقية المملكة سوى مداشر يسكنها الفلاحون وأهل البوادي الذين يعيشون في حالة بدائية كالوحوش، يكتسون في الشتاء بجلود الحيوانات، ويظلون عراة حفاة في الصيف، نساء ورجالا، لا يسترون عورتهم إلا بقطعة صغيرة من الثوب. إن الشعب جاهل وكل من له إلمام بالكتابة والقراءة يظهر وكأنه وليّ مقدّس، وقلّما يوجد فيهم من يكتب أو يقرأ. لذلك، لم يجد الفقهاء العرب صعوبة كبرى في حملهم على اعتناق الاسلام، ولو أنهم أمسوا لا يعرفون شيئا عن دينهم، اللهم قولهم الشهادة.

الفصل الثامن

جوبر

يقع إقليم جوبر(14) غرب مملكة كاو التي يبعد عنها بنحو مائة فرسخ، وتفصله عنها مفازة مُقفِرة صعبة، وهي على مسافة أربعة عشر فرسخا من نهر النيجر. ويحمل هذا الاقليم الذي تتخلله الجبال، إسم عاصمته التي يسكنها ما يقرب من عشرة آلاف أسرة.

يوجد بالمدينة رجال أمن نظرا لوفرة التجار والصناع القاطنين بها، وأكثرهم يروّجون المنتوجات القطنية والنعال الأوربية التي تشبه نعال الرومان التي يباع مثلها في كاو وتنبكتو. ونشير إلى أن عددا هاما من التجار، غرباء، يقدمون إلى جوبر من البلاد الأوربية وبلاد البربر، لتسويق بضائعهم. هناك في الاقليم عدة قرى يوجد بها بعض الحيوانات كالجمال والاغنام، لكن الأبقار قليلة، وما يوجد منها، قصير القوائم، لا يتجاوز علوه علو العجول.

كان يحكم الاقليم قديما أمير قوي، أحبته رعيته، فاعتزّ باستقلاله ورفض أن يدين بالولاء والطاعة إلى امبراطورية مالي العظمى، فوجّه إليه ملك تمبوكتو، وهو من آل أسكية، قوات عسكرية ضخمة، فانهزم الأمير، وحمل أسيرا رفقة أبنائه الثلاثة إلى تمبوكتو، وهناك لقي مصرعه أمام أبنائه، فأصبحوا عبيدا في خدمة قصر تمبوكتو. بعد ذلك، عين ملك مالي واليا على جوبر، واثقل كاهل السكان بالضرائب، فاستنكر أعيان الاقليم سياسته، فنقلهم بدورهم إلى ربوع مملكته وباعهم في أسواق النخاسة.

كانت هذه الأحداث وخيمة على الاقليم، ففقد ثراءه وازدهاره، وأصبح يتخبّط في الفقر. ينتج جوبر كثيرا من الذرة وكمية من الأرز الجيد، ويستفيد الفلاحون من فيضان النهر.

الفصل التاسع

أكّدز

يقع إقليم أكّدز غرب اقليم جوبر وبتخوم البلاد الليبية، وتوجد به مدينة أكّدز التي مضى على بنائها 160 سنة(15)وهي أقرب مدن السودان من المناطق

(14) ان التقسيمات السياسية الاستعمارية التي فُرضت على القارّة الافريقية، جعلت إقليم جوبر، يقع بين جنوب بلاد النيجر وشمال بلاد نيجريا. (المترجم)

(15) الواقع أن أكدز بنيت خلال القرن الحادي عشر الميلادي. أما الاقليم، فإنه يقع في الشمال الشرقي من جوبر. (المترجم)

الافريقية المأهولة بالبيض، مثل موقعها في ذلك، مثل مدينة ولاته. بنيت منازل المدينة حسب الهندسة العربية، ويكاد أهل البلد يكونون كلهم تجار وأغلبهم أجانب. أما الذين لا يمارسون التجارة، فإنهم يمارسون الصناعات اليدويّة أو يشكلون جنود الأمير.

لكن يتعين على التجار أن يضمنوا أمنهم في تنقلاتهم عبر الطرق المؤدية من كانم إلى برنو، والتي يكثر فيها اللصوص القادمين من مصر. لذلك، نراهم يملكون عبيدا يسلحونهم لتأمين سلامة البضائع وأصحابها خلال تنقلهم. أما إذا رحل هؤلاء التجار لاستيراد البضائع، فانهم يتركون العبيد ليخدموا غيرهم في انتظار رجوعهم.

يمتلك الأمير قصرا جميلا وسط المدينة، يُقيم عليه حراسة شديدة، وله جنود من مواطنيه أو من صحراء ليبيا، لأن الأمير إفريقي من قبيلة ونزيكة، وقد عينه رؤساؤها على رأس الاقليم، ولهم الحق في عزله إذا خرج عن الخط المرسوم للامارة. أما باقية الأهالي فإنهم يشتغلون بتربية المواشي ويسكنون بالبوادي، في بيوت مصنوعة من القصب أو من الاغصان، ويترحّلون كالأعراب.

يستخلص الأمير مبالغ مالية هامّة من الضرائب على البضائع المستوردة، ويدفع لملك تمبوكتو إتاوة تقدر بمائة وخمسين مثقالا في السنة. هذا وينتج الاقليم، كميات هامّة من عسل المن، تدخر في القرع المفرغ وتباع للتجار الذين يقبلون إلى أكْدز قصد اشتراءه.

الفصل العاشر

كانو

كانو إقليم شاسع الأطراف يتاخم نهر النيجر واقليم أكْدز غربا، وتوجد به عدة مدن وقرى غير مسورة، ويشتغل أهل البلاد برعي المواشي أو بالفلاحة، لأن الأرض تنتج كميات هامّة من الحبوب والأرز والقطن. وتوجد بالاقليم، مناطق جبلية تكسوها الأشجار، وتنبع فيها عدة عيون، يسقى منها شجر البرتقال والقرص الوحشي، والتي لا تختلف فواكهها كثيرا عن فواكه البلدان الأخرى التي تنتج مثلها.

تقع مدينة كانو وسط الاقليم وتحيط بها أسوار من الخشب والطين، وهما المادتان اللتان تبنى بهما المنازل عند أهل البلاد. وتسهر عناصر من الشرطة على أمن

السكان وعلى سلامة ممتلكاتهم وأمتعتهم، لوجود عدد كبير من التجار والصنّاع يعيشون في رعاية حاكم قوي، له بلاط جميل، وجيش يتألف من آلاف الفرسان والمشاة، استطاع أن يفرض به نفوذه على أهالي كستينة وزكزاك، وارغامهم على تقديم الاتاوة.

إلا أن كلا من أمير كستينة وأمير زكزاك استاءا من سياسة أمير كانو، فاستنجدا بأحد ملوك آل سكية لتخليصهما من نفوذه. وبالفعل، شنّ ملك مالي حربا دِعائية ضد ملك كانوا، واستغرقت الاشتباكات بينهما زهاء ثلاثة أعوام، أدّت إلى القطيعة بينهما ثم قامت قوات تابعة لآل سكية بحصار شديد على مدينة كانو دام عدة شهور، انتهى باستسلام المدينة. على إثر ذلك، انتهت الحرب بين المملكتين بشرط أن يسلّم ملك كانو ثلث مداخيله إلى ملك مالي، وأن يزوّجه إحدى بناته ثم عاد الملك المنتصر إلى تمبوكتو، وقد كلف بعض ضباطه بالبقاء في كانو من أجل السّهر على تنفيذ شروط الاستسلام.

الفصل الحادي عشر
كستينة

يقع إقليم كستينة شرق اقليم كانو ويتألف من مناطق جبلية وسهول تنتج كميات وافرة من الشعير والذرة. أما الأهالي، فإن بشرتهم شديدة الأسوداد، أنوفهم فطساء وعريضة وشفاههم سميكة.

مناطق الأقليم المأهولة، كلها مفتوحة مثلها مثل القرى، وبيوتها غير جميلة، ولا يوجد أي تجمّع سكني يتألف من أكثر من ثلاثمائة كانون.

يعاني كافّة السكان من الفقر، ولما قَتَلَ أحد ملوك آل سكية أميرهم، فرض عليهم أداء الخراج إلى خزائنه.

الفصل الثاني عشر
زكْزاك

إقليم زكْزاك يتاخم الاقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي، ويرفل في رخاء نسبي نظرا للنشاط التجاري الذي يجري فيه، وينقسم إلى جزئين، جزء كله سهول حارّة، وجزء كله جبال باردة، إلى درجة أن سكان المناطق الجبلية يضطرون إلى وضع أفران تحت أسرّتهم في فصل الشتاء لكي لا يتأثروا بشدة البرد.

توجد بالبلاد مياه كثيرة وأراضي خصبة تنتج كميات هامّة من الحبوب، إلا أن المنازل كلها أكواخ.

كان يحكم هذا الاقليم قديما، أمير، لكن الملك الزنجي قتله واستولى على البلاد التي سكانها كلهم زنوج ويتميزون بذمامتهم، مثل أهالي كستين، وتوجد به مدينة زازّو[16]

الفصل الثالث عشر
اقليم زمفارة

يقع اقليم زمفارة غرب الاقليم السابق وينتج كثيرا من الحبوب والأرز. أما السكان، فانهم يتميزون بالطباع البدوية، والفظاظة في الكلام ورشاقة الجسم، لكن بشرتهم شديدة الاسوداد، ووجوههم عريضة وبشيعة، أقرب منها الى وجوه الحيوان من وجوه بني آدم، وقد قام ملك من ملوك آل سكية بتسميم حاكم زمفارة واستولى على أراضي الاقليم عنوة ثم أمر بتقتيل السواد الأعظم من الأهالي.

الفصل الرابع عشر
ونكّارة

تشكل ونكّارة اقليما شاسع الأطراف، عديد السكان، يقع بين شرق وجنوب زمفارة، ويحتشد سكانه السود خصوصا في جنوبه ويجلبون إليه التبر. أمير البلاد يتوفّر على جيوش قوية تتألف عادة من عشرة آلاف من النبّالة المشاة، ومن ستمائة من الفرسان الاجانب، ويستخلص رسوما هامّة من البضائع المجلوبة من بلاد البربر.

في هذه البلاد، مدينة مسورة تحمل إسم الاقليم، وما عداها، فلا يوجد إلا قرى منازلها قبيحة الهيئة، وشبيهة بالأكواخ. يمارس السكان التجارة الداخلية والمبادلات مع البلدان الاخرى، ذلك ما يرجع عليهم بأرباح طائلة تفسّر ما لهم من ثروات. ونشير إلى أنهم خاضوا حربين مع ملكين عظيمين، أحدهما هو ملك تنبكتو في ناحية الغرب، والثاني هو ملك برنو في ناحية الشرق. لكن عندما كان الملك يسير في اتجاه ونكّارة تصدّى له ملك كاو الذي كان حليفهم فأرغمه على التراجع. عندها، صمدوا في وجه ملك تنبكتو ولم ينهزموا، وبذلك حافظوا على حريتهم.

(16). أصبحت هذه المدينة تسمى زاريا، منذ عهد الاستعمار، وكانت عاصمة اقليم زكزاك.

عندما يرحل تجار ونكارة إلى البلدان التي تنتج الذهب، يضطرون إلى عبور مسالك جبلية وعرة، لا تقدر الدواب على السير فيها، وهكذا لجؤوا إلى استخدام العبيد، فيحمّلونهم البضائع والمؤن المحفوظة في صناديق خشبية يضعونها فوق رؤوسهم، يحمل منها كل واحد من هؤلاء العبيد ما يقرب من مائة رطل، فيتسبب لهم ذلك في الصلعة ويمشي إلى جانب العبيد، حرّاس مسلحون لحمايتهم من اللصوص السود.

الفصل الخامس عشر

برنو

برنو إسم لاقليم شاسع شرق ونكّارة، ويمتد طوال مسافة تقدّر بنحو مائة وستين فرسخا ويبعد عن النيجر بنحو خمسين فرسخا، ويتاخم جنوبا، مفازة ساو كما يتاخم شمالا مفازات أخرى تشبه صحراء برقة.

تتألف تضاريسه من الجبال والسهول الآهلة بسكان طبائعهم حسنة وأخلاقهم طيبة، ولعلّ هذا هو السبب الذي يشجّع التجار الأجانب، البيض والسود، على الاقامة بالمنطقة.

ينتج إقليم برنو كميات كبيرة من الحبوب ويتوفّر على أنعام كثيرة. أما الحاكم فإنه اتخذ قرية كبيرة قاعدة لملكه. وله حرس يتشكّل من العناصر الأجنبية وجيش من الرماة. أما المناطق الجبلية، فإنها هي الأخرى تزخر بالانعام الكبيرة والمتوسطة وتنتج الذرة وحبوبا أخرى غريبة، زيادة على القطن. ويلاحظ أن الرعاة يكادون يخرجون عراة في الصيف لا يستترون إلا بقطعة صغيرة من الجلد، أما في الشتاء، فإنهم يرتدون جلود الخرفان ولا ينسلخون عنها أثناء نومهم.

ليس لشعوب برنو تشريع خاصّ وليس لهم دين وليس فيهم يهودي أو مسيحي أو مسلم، ويعيشون على شاكلة الحيوان، نساؤهم مشتركة بينهم، والأطفال ينسبون إلى الجميع ليست لأهل برنو أسماء شخصية، وإنما يتعرّف بعضهم على البعض بعلامات خاصّة، ويعطون القابا، كالطويل، والأعرج، والأصدف، وغير ذلك.(17)

(17) نستغرب ما كتبه مرمول عن برنو، وكأنه جهل أو تجاهل المصادر التاريخية التي تطرّقت لمملكة برنو وكانم، التي بدأ الحديث عنها في المراجع العربية منذ القرن الثاني الهجري، (التاسع الميلادي). ونشير بالمناسبة، ان دولة سيفاوة، التي أصلها من تيدا، بتيبستي (شمال التشاد ـــ جنوب ليبيا) كانت تحكم إقليم كانم شمال تشاد، وبرنو، غربه، وان أحد ملوك هذه الدولة، اعتنق الاسلام، أواخر القرن الثاني الهجري، وتعزّز هذا الحدث، باسلام مملكة غانة الصحراوية، على يد المرابطين.

يحكم البلاد، افريقي من برداوة، له جيش عظيم يتألف من ثلاثة آلاف فارس وأكثر من ذلك من المشاة، وتتألف موارد الحاكم، من الزكاة المفروضة على الأنعام والمنتوجات الزراعية، يضاف إليها ما يسرقه عمّاله للأجانب، إذ يرسلهم إلى الأقاليم المجاورة لنهب الأموال، وكأنه سعى إلى الانتقام من الشعوب المتاخمة التي كانت قديماً تتحرك نحو برنو للاستيلاء على خيراتها.

عندما أخذ ملك برنو يشتري الخيول من بلاد البربر، كان يدفع لمستورديها عشرين عبداً مقابل فرس واحد، وقد تمكن بذلك، من استنزاف أوساط اللصوص والتقليل من عددهم وإغراق بلاد البربر بالعبيد.

كان ملك برنو يقضي الصيف في برداوة والشتاء في برنو، ويتباهى بثروته ويملك سروجاً مزركشة بالخيوط الذهبية وأواني منزلية رفيعة وأدوات الصيد، علاوة على الأقاليم الأخرى التي صارت تحت نفوذه في ليبيا وحول ضفاف النيجر.

وفي موضوع نهر النيجر، نشير إلى أنه يجري تحت الأرض، طوال مسافة تزيد على عشرة فراسخ، ثم ينبعث من مجراه الباطني ويتضخّم بروافده ثم يصب بعيدا في المحيط.

الفصل السادس عشر

كَاوكَاو

يتعلق الأمر هنا بالأقليم الواقع شرق برنو الذي يمتد إلى تخوم نوبا عبر مسافة مائة وستين فرسخا، وعرضه لا يقل عن طوله إلا بقليل، ويخترقه نهر (18) يصب في النيل، كما توجد بجنوبه مفازة يحدها النهر ذاته لأنه ينعرج ويشكل شبه قوس. أما شمالا، فتحده صحاري سيرت ومصر.

= ويشير صاحب الاستقصا، الجزء الخامس ص 103، إلى ما يلي: «ومن أهل بورنو، الشيخ العارف بالله تعالى، أبو محمد عبد الله البرنوي، شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ، الموضوع في مناقبه كتاب «الذهب الابريز». ـــ انتهى ـــ

وخلال القرن الثاني عشر الميلادي، أدى أحد ملوك برنو، فريضة الحج مرتين، وكان ملك برنو يسوس كذلك إمارة كانم. وأشار المقريزي إلى أن أهل كانم، اعتنقوا المذهب السنيّ في منتصف القرن السادس الهجري. أما الحسن الوزان، فقد جزم أن أهل كانم وبرنو لبثوا في أغلبهم يعبدون الأوثان.

وكتب الراوي أحمد فرطاوي، في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، عن مملكة برنو ـــ كانم، يقول ان أعيان المملكة كانوا مسلمين، والمساجد صارت تشيد في ربوع المملكة، وان السنة كانت المذهب الوحيد في البلاد، وكان هناك قضاة يقضون بين الناس، مع العلم أن عبادة الأوثان كانت لا تزال قائمة عند بعض القبائل، منها قبيلة بولالة وقبيلة صو، وقد حارب ادريس علومة، ملك برنو ـــ كانم قبيلة صو لتواطئها ضده مع أعداء عرشه. وقد عمل عليّ دوناما قبل إدريس علومة، على نشر الشريعة، وتوحيد اللهجات، وكان القوم يتكلمون لغة تسمى الكنوري، وهي مزيج من لغة برنو ولغة كانم.

مع هذا نستغرب الا يكون بين القبائل غير المسلمة، مسيحيون، والمنطقة تتاخم الأقاليم التي كانت المسيحية القبطية منتشرة فيها. (المترجم)

(18) النهر المقصود هو بحر الغزال الواقع يومه جنوب السودان ولا ينبغي خلطه بنهر صغير آخر، يسمى كذلك بحر الغزالي، والذي يصب في بحيرة تشاد. (المترجم).

لا يوجد في هذا الاقليم، أدباء ولا من يعرف الكتابة، وليس فيه رواج تجاري، ولا شرطة ولا نظام. اما الأهالي، فكلهم مخشوشنون، أفظاظ غلاظ، ليس لهم وعي ولا ضمير ولا يدركون معنى للخير، خصوصا منهم سكان المناطق الجبلية، وهم إلى الوحوش أقرب منهم الى الانسان. يخرجون عراة لا يستترون الا بقطعة صغيرة من الجلد، أكواخهم مصنوعة من الأغصان. ولهم عدد كبير من رؤوس الأنعام المختلفة، تشكل شغلهم الشاغل.

كان هذا القوم قديما يتمتّع بحريته المطلقة، ولكن قبل مائة وثمانين سنة، مرّ بهذه البلاد عبد زنجي مع سيده، فقتل سيده واقتسم بضائعه وأمتعته وأسلحته مع عناصر القافلة الذين كانوا يرافقونه، واقتنى خيولا من بلاد أخرى، وأخذ ينهب المواقع المأهولة المتاخمة للأقليم، فيحصل على غنائم كثيرة وهامّة، فتضاعفت ثروته، ومضى يشتري خيولا أخرى وأسلحة ثم ألف جيشا وفرض نفسه على الأهالي، فاعترفوا له بالامارة عليهم.

ولما توفّي هذا الأمير، خلفه ابنه ولبث في الحكم أربعين سنة، قاد خلالها شؤون الاقليم بمهارة. ولما هلك، خلفه ابنه المسمى موسى ابراهيم. وتولّى الحكم بعده أحد أحفاده. يسمى عمر، الذي ذاع صيته وقويت شوكته، وحظي بعناية كبرى لدى حكام السودان الذين زوّدوه بالأسلحة والخيول وكل ما كان متوقّفا عليه، لأنه كان يدفع الثمن ضعفين، ويحسن الأداء، الى درجة أنَّ أغنياء تجار مصر كانوا يقصدونه فيرجعوا راضين بالتعامل معه.

اتخذ الأهالي الاسلام دينا ويبجّلون العلماء.

الفصل السابع عشر

نوبا

تقع نوبا شرق الاقليم السابق ذكره، الا أن صحاري شاسعة تفصلها عنه. يخترقها النيل، وتتاخم جنوبا، مفازة الجرحان، تحدها مصر شمالا.

ان الجزء النوبي من النيل ليس قابلا للملاحة، وذلك لأن مياه هذا النهر العظيم تنتشر هنا عبر سهول كبيرة، فيكون مجراها غير عميق، حتى ان الناس

يجتازونها مشيا أو على الخيول. أما أهم مدينة بنوبا فهي دنجالة الآهلة بالسكان، حيث فيها ما يقرب من عشرة آلاف منزل، مبنية من الخشب المغطى بالتراب.

يتوفّر السكان على ثراء نسبي، يرجع إلى أرباح تجارتهم مع أهل القاهرة وغيرها من المدن المصرية، التي يجلبون منها الأسلحة والأقمشة والثياب ومنتوجات أخرى. وما عدا دنجالة، فلا ترى في هذا الاقليم الا مداشر متناثرة على ضفاف النيل، يقطنها الفلاحون والزّراع، فيحصدون كميات هامّة من القمح والشعير والذرة وقصب السكر، لكنهم لا يعرفون طرق عصره وتكريره. من بين المواد التي تباع في دنجالة، نذكر المسك والعود والعاج لوفرة الأفيال في البلاد، وتباع أيضا مادة سامّة للغاية، حيث تكفي حبة منها لتؤذي بحياة عشرة أشخاص في ظرف ربع ساعة. وثمن الأوقية من هذه المادة مائة مثقال، ولا تباع الا للأجانب على أساس التزامه بعدم استعمالها داخل البلاد. وبهذا الصدد، تجدر الاشارة الى أن حقوق الملك في ترويجها، تبلغ مائة مثقال للأوقية، وبيعها سريا محظور، ومن خالف ذلك يقطع رأسه.

كان ملك نوبا في حالة حرب مستمرة، فتارة يقاتل رهطا من المصريين الذين يجوبون صحراء الجرحان وهم يرطنون رطنا خاصّا، وتارة يحارب الشعوب القاطنة شرق النيل، في الصحراء الممتدة في اتجاه البحر الأحمر، نحو بلدة السواكن، وتتألف لهجتهم من العربية والكلدانية، والمصرية والحبشية، إلا انهم شعوب فقراء عزّل، يقتاتون باللبن ولحم الابل والوحوش. وفي بعض الأحيان يقومون بغزوات في ضواحي دنجالة، وكان لهم في الماضي ميناء بالبحر الأحمر، يقابل ميناء السودان، والذي لا يبعد عن مكة الا بنحو أربعة عشر فرسخا.

يروي التاريخ أن هؤلاء الشعوب هاجموا قبل اليوم، بثمانية أعوام راحلة حجّاج برحوا القاهرة في طريقهم إلى مكّة، ونهبوها، فاغتاظ حاكم السودان المصري لهذا الحدث، وأرسل اليهم قوات بحرية استولت على مينائهم وأسرت منهم عددا، بينما تمكّن البعض منهم من الفرار الى دنجالة والسُّواكَنْ، ومضوا يمارسون كل ما أمكنهم من أعمال الشرّ، وداموا على ذلك الى عهدنا هذا، فانتفض الملك الحاكم حاليا، واستعان بجنود أتراك، وقضى على نشاطهم السيء، فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف، وأسرمنهم ألفين بعثهم الى السُّواكَنْ. وهناك هجمت عليهم النساء ومزّقن أجسامهم تمزيقا.

بعد هذا العرض، سنرجع إلى موضوع شعوب اثيوبيا السفلى، المتساكنين في الأمصار المطلة على المحيط غربا، لنتحدث عن الاكتشاف الذي حققه البرتغاليون بالمنطقة، ونترك وصف مصر الى مقام آخر.

الفصل الثامن عشر
إقليم الولوف

انه إقليم شاسع الأرجاء، ويحدّه نهران(19) متفرعان عن نهر النيجر، ويتوغّل في عمق القارّة ويوجد به عدد من المدن والقرى يفوق بكثير ما قاله عنه بطليموس.

استأجرت شعوب الاقليم مرتزقة للسهر على سلامتها وشؤونها، وتُعْرَفُ تلك الشعوب بأنها شعوب الولوف أهمها وأكثرها عددا تقطن قريبا من نهر السنغال، وهي التي تتشكل منها شعوب التكرور والسرخول.

هذا ويمكن للسفن أن تطلع عبر الفرع الثاني للنيجر حتى تصل مدينة كوانتور، وكانت السفن البرتغالية هي الأولى التي استطاعت ذلك، عبر مسافة ثمانين فرسخا لاقتناء الذهب، إلا أن المسافة كانت في الواقع أطول من ذلك، نظرا لانعراجات النهر الذي يسميه السود نهر كامبيا وهو يفوق نهر السنغال عرضا وعمقا، من كوانتور إلى البحر، لأن عددا من الأنهار والروافد تصب فيه.

وتجدر الاشارة إلى أن أنهاراً أخرى تنساب في هذا الاقليم، منها ما ينبع من ربوع صحراء المنطقة، ومنها ما يتفرّع عن نهر النيجر، ونشير أيضا إلى أن نهر كامبيا يجري ببطء نظرا لانعراجاته الوعرة التي تعرقل وصول السفن الكبيرة إلى كوانتور، وأن جزيرة في وسطه، تفاجىء الملاحين وتضايقهم، يسميها البرتغاليون جزيرة الأفيال، لأنها تغصّ بهذه الحيوانات. وبعد كوانتور بقليل، توجد صخرة عظيمة تقطع الطريق في وجه السفن. ولما علم بها ملك البرتغال، أرسل بعثة من المهندسين والعمال لتكسيرها، إلا أنهم عدلوا عن هذه العملية بعدما تأكّدوا من صعوبة إنجازها وجسامة تكاليفها.

(19) كان القدامى يظنون أن نهر السنغال ونهر كامبيا متفرعان عن نهر النيجر. (المترجم).

يعيش في هذه الأنهار، كميات وافرة من الأسماك المختلفة الأحجام والألوان، وحيوانات مائية غريبة، كفرسان البحر والزواحف والثعابين ذات الأجنحة، ولكنها صغيرة جدّا ولا تشكل أي خطر على الانسان، خلافا لما صرّح به الأولون. لكن الحيوانات البرية التي ترتوي في هذه الأنهار تثير الاندهاش بأشكالها العجيبة وباعدادها الهائلة، وكل ذلك، يبين ما تزخر به الطبيعة هناك، من حيوانات فريدة النوع وغريبة الخلق.

تشكل اليابسة الواقعة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، رأسا كبيرا يتوغّل في البحر، ويسمّى الرأس الأخضر، يضعه البرتغاليون في عرض أربع عشرة وثلث درجة، بينما يقول بطليموس إنه يقع على عشر درجات وثلثي درجة، أما الجزر المجاورة له، والتي تسمى جزر الرأس الأخضر، فيسميها بطليموس جزر الإسبيريد، وهذا يعني أنها تقع عند مصبّ النهرين، ولئن قال الرحالة البرتغالي كداموستو، إن الرأس الأخضر يقع على خط اثنتي عشر درجة، وأكد أن هذا الرأس هو الذي يسمّيه بطليموس الرأس الأثيوبي.

إن أهمّ القبائل المتساكنة حول ضفاف نهر كامبيا هي قبائل الفولان وقبائل منياكة، أهم حاضرة هناك هي مدينة صونكو المتوغلة داخل البلاد بنحو أربعين فرسخا، ويسمّى السكان الموص، نسبة لاقليم موصالة الذي ينتمون اليه. ونقول عنهم، إنهم زنوج أقوياء، لم يستطع ملوك تنبكتو قهرهم ولا تطويعهم.

لا غرو أن بطليموس لم يعرف جيّدا مجرى النهرين لأنه جعلهما يصبان من عينين متقاربتين ولم يحدّد لهما مصبّا، وهما ينبعان بالتأكيد(20) من الجهات التي ذكرناها في مقام آخر. وعليه، فإن الاقليم كله، الموجود بين النهرين، من الغرب إلى الشرق، مأهول بالولوف، ويسمى الولوف، ولو كانت شعوبه تنتمي إلى أمم مختلفة(21).

التربة هناك خصبة، ولاسيما في الجهات التي تنساب عبرها الأنهار وتفيض، ولكن حرارة الصيف تؤثر على الأرض، فتهوى التربة في العديد من الأماكن وتشكل حفرات تتسع الواحدة منها لفرس. وعندما يرمي الفلاحون بذور

(20) كان مرمول نفسه مخطئا، إذ ظن أن نهر السنغال ونهر كامبيا يتفرّعان عن نهر النيجر. (المترجم)

(21) الأمم القاطنة في الاقليم الموصوف أعلاه، هي التكرور، الولوف، الفولان الباندو والسرير، وبمبارة وغيرها، ولكل قبيلة لهجتها، لكن أهم لغة محلية في المنطقة هي الولوف التي تكاد تكون اللغة الشائعة في أوساط جميع المواطنين، غير ان اللغة الرسمية اليوم، هي اللغة الفرنسية. (المترجم)

الذرة في الأرض ــ والذرة تشكل أهم مادة غذائية عندهم ــ يغطونها بشيء من الرمل حتى لا تقبر في الصيف، حيث تتكوّن قشرة صلدة فوق الأرض من جرّاء فرط الحرارة. ويغتنم الفلاحون بذلك ندى الليل الذي يسقط على الرمل فينبت البذور.

نظرا لما تعرفه المنطقة من رطوبة فائقة، فإن الأرض لا تنتج قمحا ولا شعيرا، ولكن كميات ضئيلة منهما، تنتج في الجهات النائية عن ضفاف النهرين، كما هو الحال عند السراخوليين في السهول القريبة من الصحاري، وحبّات القمح هناك أضخم من حبات القمح الأوربي.

الفصل التاسع عشر

عن ملوك الولوف، وكيف اعتنق أحدهم الديانة المسيحية

عندما أخذ البرتغاليون يقومون بالملاحة طوال شواطىء الاقليم السابق وصفه، كان يسوس الولوف ملك عظيم يسمى بوربرام، وهو من أصل نبيل ومن أعيان الإثيوبيين، وقد اعتنق الاسلام على يد فقهاء صنهاجيين. ولما توفى هذا الملك خلف ثلاثة أبناء، اثنان منهما شقيقان، واسم الأول سبيتا، وإسم الثاني كامبا أما الابن الثالث، فيسمى بيرام، وقد أنجبته امرأة أخرى، سبق لها أن كانت متزوجة وأنجبت ولدا يسمى بيموي.

كان من عوائد الولوف أن يختاروا خلفا لملكهم، بعد وفاته، أحد أبنائه الذي يرتضونه، فاتفقوا على تعيين بيرام. ولما تولى هذا الأمير الملك أخذ يناوش على أخويه من أبيه وقرّب منه بيموي أخاه من أمه وأناط به مسؤوليات هامة من شؤون الحكم، حتى صار بيموي هو صاحب السلطة بالفعل، وأمسى بيرام يحمل اللقب لا غير.

كان بيموي، هذا الزنجي الذي يمارس الحكم، ذكيا، حاذقا، ومتبصّرا، وفطن للفوائد التي يمكن جنيها من التعامل مع البرتغاليين الذين كانوا يجلبون إلى الاقليم الخيول وبضائع أخرى تضاعف ثروات البلاد وتجعلها قوية. غادر بيموي منزله القديم الواقع وسط القطر، وصار يتردّد على الموانىء ومضى يشتري بأثمان باهضة الخيول التي يأتي بها التجار البرتغاليون، فكان ذلك حافزا لهم على

مضاعفة العروض من الخيول، وحتى إذا مات فرس في البحر، قدّم البرتغاليون إلى بيموي عرين الجثة وذنبها، فيؤدى لهم ثمن الفرس، ولو ميّتا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان بيموي معجبا بالملك دون خوان البرتغالي ويأمل أن يقدّم له مساعدة، إذا اقتضى الأمر، فيضع رهن اشارته، جنوده وسفنه. من أجل ذلك، كان الزنجي لا يطيل مُقـام السفن في موانىء كامبيا ويرسل إلى الملك البرتغالي هدايا نفيسة. فكان لهذه المعاملة حسن الأثر في نفس الملك دون خوان، فأخذ يعطف عليه، وأوفد إليه السفراء وأمر ضباط البحرية بتلقينه الديانة المسيحية، وتقديم الهدايا والخدمات المغرية، فصاروا على هذا النهج، حتى أمسى الزنجي يشعر بميل نحو المسيحية، وأعرب عن استعداده لاعتناقها.

وعى الشقيقان سبيتا وكامبا الأخطار المحدقة ببلدهما من جرّاء سلوك أخيهما برام، الملك الخائن، فتآمرا عليه وقتلاه، ثم شهرا الحرب على أخيه بيموي. عندها، أوفد بيموي إلى ملك البرتغال بعثة يرأسها أحد أبناء أخ له، للحصول على الخيول والجنود والأسلحة. لكن دون خوان أجاب المبعوث بأنه إذا تنصّر عمه، فستكون مساعدته أمرا واجبا على ملك البرتغال، اعتبارا للأخوة الدينية التي قد تجمعهما. ومع ذلك، أرسل إلى بيموي خمسة أحصنة بأسرجتها ولواحقها، وبعض رجال الدين ليفقّهوه في النصرانية.

كلّف الملك أحد أعوانه يدعى غنسال كوبيبو، لتقديم الهدايا إلى بيموي، رفقة رئيس البعثة الولوفية. ومن ذلك الحين، والسفن البرتغالية تتاجر باطمئنان في المنطقة، ويتنقل التجار البرتغاليون داخل البلاد لبيع بضائعهم، لأن الحرب الداخلية لم تسمح للمحليين بالتنقل إلى الموانىء. واستمر البرتغاليون في معاملاتهم مع بيموي، يبيعون له الخيول وبضائع لم يتوفقوا في تسويقها في الموانىء، وكان هو يشتريها منهم بأثمان تفوق سعرها.

واعتبارا للمعاهدة المبرمة بين بيموي والبرتغاليين، أقام عنده غنسـان أكثر من سنة، يعلّمه الدين المسيحي ويرجو إقناعه باعتناقه. لكن بيموي كان مماطلا، زيادة على أنّه لم يستطع أن يؤدّي ديونه للتجار البرتغاليين، ورأى غنسـان أن هؤلاء التجار سيفلسون لا محالة إذا تمادوا في التساهل في الأداء مع بيموي، فأطلع ملك البرتغال على الأوضاع السائدة هناك، مبرزا تخوفاته من ضياع الوقت وضياع المال في عملية مشكوكة. عندها، تلقى من الملك أمراً بالعودة إلى البرتغال دون

إثارة قلق بيموي، مع إشعار التجار البرتغاليين بضرورة العودة إلى وطنهم، وإنهم، إن خالفوا، فسيعاقبون.

استاء بيموي لقرار غنسال بالرحيل، لأنه كان يرشده في شؤون الحرب، ورأى أن المحافظة على المصداقية تحتّم عليه الوفاء بالتزاماته التجارية نحو البرتغاليين. من أجل ذلك، أدّى إلى غنسال حقوقه حسب الاستطاعة، ثم أوفد ابن أخيه إلى الملك بهدايا مختلفة، منها مائة عبد ذوي صحّة جيدة، وأسورة من الذهب الخالص، كعربون لصداقته وإخلاصه، معتذرا عن عدم الاحتفال باعتناقه المسيحية، اعتبارا للحرب الداخلية التي كان يواجهها، وان تبنيه شريعة جديدة، يعني موافقة الشعب عليها، الأمر الذي يستحيل تحقيقه في الظروف التي تعيشها البلاد.

وبالفعل، فإن انسلاخ سكان تلك المنطقة عما ألفوا عليه آباءهم من معتقدات وعوائد، يتطلب وقتا طويلا وصبرا كبيرا، وليس من الغريب إذا دعوا إلى دين جديد باستعجال، أن يفضلوا التخلي عن بيموي، بدل نبذ ما شبّوا عليه.

بعد مرور أشهر قلائل، انهزم بيموي وتقاعست جنوده فاضطرّ إلى الهروب، ولجأ إلى جزيرة أركْوان رفقة عدد من أنصاره ومن ثم أبحر إلى البرتغال. وعندما وصل إلى لشبونة، كان الملك وقتئذ بعيدا عن العاصمة، ولما علم بقدومه، أعطى التعليمات لإيوائه بأحد القصور، ومعاملته بما يليق بملك مسيحي.

يوم استقبال بيموي من طرف الملك، توجّه إليه الكونت مريالفا رفقة نفر من النبلاء. أما الملك والملكة، فإنهما استعدّا لاستقبال ضيفهما. وجلس الملك في قاعة كبيرة على مقعد مرتفع شيئا ما، تحت سرادق من الحرير الأحمر، رفقة دوق بيخا صهره وبعض الخواص من بين النبلاء ورجالات الدين، وكانت الملكة من جهتها مرفوقة ببعض خواصّها من الأمراء والنبلاء.

كان الملك البرتغالي يكّن عطفا كبيراً لبيموي، فاستحسن رغبته اعتناق الديانة المسيحية. وعندما دخل عليه بيموي، عاري الرأس، وقبعته بيده، نهض الملك ومشى نحوه. ولما دنا بيموي منه وارتمى هو ورفاقه على قدمي الملك، وقبلوا الأرض ثم قاموا بحركات تحاكي من يأخذ التراب منها(1) إحتراما وتقديسا له،

(22) كانت عادة بعض القبائل الافريقية، ان يتناولوا التراب ويدرونه على رؤوسهم أمام ملوكهم، وذلك للتعبير عن طاعتهم وولائهم.

فاستنهضه الملك بيده ثم عاد إلى مقعده وهو ينظر إليه : كان بيموي جميلا وأنيقا، لا يظهر في مظهر الزنجي، بل في هيئة ملك. كان يتكلم مع الملك، ويقوم أحد البرتغاليين بالترجمة، فراح يعرض وضعيته، مستعملا عبارات وأسلوبا للتأثير على العاهل، معربا عن آماله في عطفه ورضاه، فأدرك الملك قصده، وأخبره بأن طلباته ستدرس. بعدئذ، تقدم بيموي نحو الملك وقبّل يديه، ثم قبّل يدي الملكة والأمراء، وطلب منهم أن يشفعوا له لدى الملك، وانسحب، ثم التحق بمكان إقامته حسب البروتوكول المألوف.

توالت لقاءات الملك بالزنجي، وكان العاهل البرتغالي يصغي باهتمام بالغ إلى ما يرويه بيموي من أنباء عن أمم منطقته وعن كبار ملوكها، ويخصّ بالذكر منهم، ملك شعب الموص الذي كانت مملكته تتاخم مملكة تمبوكتو، والذي لم يكن مسلما ولم يكن وثنيا، وإنما كان يشبه النصارى في كثير من مظاهر حياته الخاصّة والعامة، ذلك ما جعل القس جيان يعرب عن رغبته في التعرّف عليه. اهتمّ الملك بيموي وأمر رجال الدين بفتح بصيرته على المسيحية وإعداده لاعتناقها في حفل رسمي.

وفعلا، تم الحفل ليلة ثالث نونبر من سنة 1491 في إحدى قاعات القصر، من الجناح الخاص بالملكة، وحضره ملك البرتغال والأمير ضون الفونش، ودوق بيشا وأحد قساوسة طنجة، وقسّ سبتة الذي حضر لتمثيل البابا. وأطلق عليه العاهل البرتغالي إسم جيان، وتنصّر كذلك في تلك الليلة، إثنان من خواصه، ثم وشحه الملك، وسماه فارسا وأهداه صليبا من الذهب، فشكره على الحفاوة والاكرام، ووعد بأنه سيضع تحت رعايته كل الأقاليم التي يغزوها. وبعد ذلك بأيام، أعلن عشرون من بين حاشيته، عن اعتناقهم المسيحية.

أقيمت حفلات رسمية وشعبية بهذه المناسبة في لشبونة، وشارك فيها بيموي ورفاقه، فأدهشوا الناس بإتقانهم ألعاب الفروسية المرافقة بالألعاب البهلوانية العجيبة التي يعجزون هم عن أدائها، والتي قاموا بها أحسن من الأعراب.

على إثر انتهاء الحفلات، قرّرت السلطات البرتغالية تزويد بيموي بما يكفي من العتاد الحربي والمؤن لاسترجاع سلطته على إقليمه، لكن بعد التفكير والتخمين، تم الاجماع على أرجاعه إلى وطنه مع تزويده بعشرين سفينة حربية لمساعدته على بناء برج وقلعة عند مصب نهر السنغال، يستخدمان لفائدة المراكب البرتغالية كمحطة للتوقف أو كملجإ.

كان الملك يرى أنه من الأفضل أن يقوم بيموي بغزو إقليم الولوف وأن ينشر المسيحية بين سكانه وأن يعمل على تنظيم شبكة تجارية برتغالية في عين المكان. لذلك، أوفد الملك أسطولا بحريا تحت قيادة بيدرو نافي، الذي لم يكد يرسّي بمصبّ نهر السينغال حتّى شرع في بناء برج، لكن الموقع لم يكن ملائما نظرا لشدة التّيار وقوة المدّ والجزر ولعدم صلاحيته من الناحية الصحية، إذ أن الموت أخذ يفتك بالبرتغاليين في كل ساعة، فاستاء بيدرو نافي لهذه الأحوال السيئة وانعكاساتها الوخيمة على افراد البعثة البرتغالية، واتّهم بيموي بالخيانة، ثم طعنه بخنجر في سفينته.

شاعت الأخبار بأن بيدرو نافي لم يقم بفعلته إلا خشية من أن تسند إليه مهمة السهر على سلامة البرج بعد انتهاء بنائه وهو يقع في مكان رديء. لكن ملك البرتغال لم يخف استياءه من فشل المشروع الذي لا زالت آثاره متواجدة بمصب النهر.

الفصل العشرون

في اهتمام ملك البرتغال بالتجارة واستكشاف الأمصار الاثيوبية

خلفت وفاة بيموي أثرا عميقا في نفس ملك البرتغال، إلا أنها لم تؤثر على أهدافه الرامية الى مواصلة استكشاف المنطقة الواقعة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، خصوصا وأنه مضى يتوصل بتقارير حول ما تتركه في نفوس الأهالي القوات البحرية البرتغالية بنظامها الرائع، وقد شاع في المنطقة أن أحد ملوك أممها تحالف مع البرتغاليين.

كانت هذه الأمصار مسرحا لحروب داخلية، ذلك ما دفع بالبرتغاليين الى كسب صداقة الملك الزنجي، فأخذوا يرسلون اليه الهدايا والبعثات الدبلوماسية.

ظل ملك البرتغال غير مرتاح من الاضطرابات السائدة في المنطقة، فلم ير ما يحول دون تدخّله للتأثير عليها، وطفق المتحاربون يولون اهتماما بالجنود البرتغاليين كما أن ملك البرتغال قام من جهته بربط علاقات مع كل من ملك التكرور وملك تمبوكتو وملك منيانكة، وهم الملوك الذين عظمت شوكتهم بالمنطقة.

في خضمّ هذه الأحداث، اشتدّت الخلافات بين ملكي تمبوكتو ومنيانكة، وملك الفولان الذي كان يتوفّر على جيش قوي ينتسب أغلب عناصره الى قبائل

جنوب اقليم فوتا المتاخم لمملكة منيانكة قبلة، فراح يهاجم الملوك الذين أعربوا عن صداقتهم الى البرتغال.

وكان ملك الموص من جانبه يحارب الملك منيونس صديق البرتغال، فكتب اليه الملك دون جيان يطلب منه ايقاف عملياته الحربية ضد صديقه، وبعث وفدا الى محمد بن منزيكل، حفيد ملك منيانكة، فاندهش هذا الأمير قائلا إن آباءه لم يحصل لهم شرف مماثل، وإنه لم يكن يعرف من الملوك العظام إلا ملك ألمانيا، وملك التكرور وملك القاهرة.

بات ملك البرتغال يعمل على جمع أكثر ما يمكن من المعلومات عن بلاد السود التي كانت تشكل جانبا من جوانب مجاهل القارّة، وكانت له رغبة شديدة في استقاء الأخبار المتعلقة بملك الأحباش الذي كان اسمه يتردد في المحافل الأوربية وغيرها.

وخلال عام 1481، أوفد ملك البرتغال سفارة الى ملك الحبشة المسمّى الاسكندر، فأكرمها وأحسن وفادتها، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى توفي هذا الملك وخلفه أخوه، فلم يعر البعثة البرتغالية اهتماما، بل حبس أفرادها ومنعهم من مغادرة البلاد، فلبثوا هناك عدة أعوام ولما مات هذا الملك، خلفه أمير يدعى داود، فبعث إليه ملك البرتغال سفارة أخرى، وهكذا تضخّم رصيد دون جيان من المعلومات عن الأمصار الاثيوبية.

الفصل الواحد والعشرون

مواصلة استكشاف الأمصار الاثيوبية

قلنا إن المنطقة المتواجدة بين نهر السنغال ونهر كامبيا، تتقدم في البحر، في جهة تسمى الرأس الأخضر اعتباراً لما بها من غاب، وقد اكتشفه فرناندو عام 1444. أما جزر الرأس الأخضر الموجودة على نفس العرض، فقد اكتشفها انطوان نول جينوا عام 1445، وعددها عشر.

تسمى الجزيرة الاولى جزيرة ماي، والثانية جزيرة سان جاك، والثالثة جزيرة سان فليبس، أما السبع الأخريات، فإنها اكتشفت من طرف أحد خدّام الأمير دون هانري، وتوجد في احداها مواقع استخراج الملح .

تقع جزيرة سان جاك على خمس عشرة درجة من خط الاستواء، وسنتحدّث عنها في الفصل المتعلّق بالجزر. وعلى نفس مستوى الرأس الأخضر،

يوجد داخل البلاد اقليم كامبيا الذي سمّي باسم نهر كامبيا الذي يتخلله والذي كان بتوليموس يسمّيه التكيري، ويقول إنه ينصبّ من جبل قريب من مصبه ويشكّل بحيرة.

بعد الرأس الأخضر من ناحية الجنوب، يوجد رأس الصواري، وقد سمّاه القبطان لا نسولو كذلك، لأنه وجد به عدداً من النخيل الباسق والجاف. ويحجّ السود من كل الجهات قصد التجارة، إلى المنطقة الممتدّة من الرأس الأخضر إلى حوض نهر كامبيا. وعلى بعد عشرين فرسخا جنوب كامبيا، يوجد نهر آخر يسمى را، يجري في إقليم كزامانس ويمكن للسفن أن تعبره، ويسكن السود بضفافه، ثم يأتي نهر سان دومنيكوس، ويمكن للمراكب أن تعبر شطراً كبيراً منه.

بعد ذلك، يأتي نهر الجزُيرات الذي ينساب عبر اقليم البباباي والذي يصبّ أمام جزيرتين يسكنهما السود، وعلى بعد قليل منهما، يوجد أرخبيل البخاهوس، ولكل جزيرة من الأرخبيل، أمير حاكم، وكل الامراء المتواجدون به يدينون بالولاء لملك جزيرة يو التي اكتشفها فرناندو يو.

ثم نجد إقليم البيافار الذي يتميز بنهره الهائل المسمى الواد الكبير، لأنه أكبر الأنهار بالمنطقة التي تبعد عن الرأس الأخضر جنوبا بنحو سبعين فرسخا. وبعد هذا النهر، يأتي نهر دونالوي الذي ينصب في القطر الذي يسميه الأهالي بلاد الكوكولي، ويصب في نهر نينيو تريستان على مسافة عشرين فرسخا من الوادي الكبير، حيث قتل السود القبطان البرتغالي نينيو تريستان الذي كان يقاتل هناك ضد ثلاثة عشر مركبا للسود.

إن قوة المد والجزر في شواطيء هذه المنطقة قوية للغاية، ولا يخلو الاقتراب منها من خطورة، تضاف إلى خطر الموت الذي يحدق بالبحّارة الأجانب غير المرغوب فيهم، على أيدي الأهالي الذين يتحكمون في استعمال النبال المسمومة ويقذفون بها أعدائهم بسرعة فائقة.

جنوب نهر نينيو تريستان يوجد نهر يسمى التابت، يمر عبر اقليم الأمواج، كما يسميه بعضهم. ثم يلي اقليم صابابا الذي يجري فيه نهران كبيران، أحدهما يسمّى كالوس، والآخر يسمى كاسيريس. ثم يأتي اقليم سيرا ليونى الذي يسمّيه بتوليموس عربة الآلة و الذي اكتشفه بترس سنترا. وبعد ذلك يوجد نهر سويرو الذي اكتشفه ضابط برتغالي يسمي سويرو والذي يقع بين رأس النخيل ورأس

الصخور الثلاث قرب دار أشيم، وهو الموقع الذي شيد فيه البرتغاليون منطقة تجارية لتسويق البضائع والذهب الذي اكتشف منجمه البرتغالي فرناندو كوميز والبرتغالي جيان سنتارين عام 1471. وكان يسكن بالمنطقة خمسمائة من السود، نقلوا بعد أيام الى قلعة أمر ملك البرتغال ببنائها، وسنتحدث عن ذلك، لتسلية القارىء ولاطلاعه على عوائد وأعراف شعوب المنطقة.

الفصل الثاني عشر

بناء قلعة سان جورج دولامين

لقد أمر العاهل البرتغالي ببناء قلعة على شواطيء اثيوبيا السفلى بالموقع الذي يسمى لامين، والذي اكتشفه عام 1471، سنتارين وزميله اسكبار، وكان الهدف من بناء القلعة، توجيه الحركة التجارية نحو مرسى المراكب البرتغالية.

من أجل ذلك، جهّز الملك اسطولا يتألف من أربع عشرة سفينة وحمّله بالجنود والعتاد الحربي والتقنيين والعمال وموادّ البناء الضرورية وأرسله إلى المكان المعين، تحت قيادة الضابط دييكو أزينوشا.

ولما وصل الأسطول إلى عين المكان، اتصل القائد البرتغالي بكزامانسي، ملك الاقليم وأطلعه على نواياه وطلب مساعدته، فقبل الملك، ثم شرع البرتغاليون في تهيئة معسكرهم وربطوا رايتهم بشجرة عالية ثم أقاموا حفلا دينيا بالمناسبة. ولما فرغوا من ترتيباتهم الأولية، دعا دييغو الملك كزامانسي للقيام بزيارة للمعسكر، فقبل الدعوة.

استعد البرتغاليون لاستقبال الملك الزنجي المتعاون معهم، إلا أنهم اخفوا أسلحتهم تحت ملابسهم تحسّبا لكل مفاجأة، وجلس دييغو على مقعد فاخر وزيّن صدره بعقد من الذهب والألماس، وارتدى الضبّاط والنبلاء الملابس الحريرية الخاصّة بالمناسبات الرسمية، واصطف الجنود صفّين متوازين، ليرى الزنجي من بعيد مظاهر الزينة.

استعدّ كزامانسي بدوره لمقابلة دييغو، وراقه أن يبين هو كذلك ما له من معالم الزينة، فتقدم نحو دييغو محفوفا بجنوده المستعدين للقتال، وكلهم عراة. تتقدمهم فرقة من أصحاب الطبول والمزامير كان صخبا يصمّ الآذان، وقد دهنوا أجسامهم بزيت ممزوج بمادة خاصّة، فازدادوا اسودادا على ما كانوا، وهذه عادة خاصة بالرسميات. ولوحظ أن بعضهم ستروا عورتهم بجلود القردة التي كانت تصل

إلى ركبهم. إلا أن نبلاءهم وكبارهم، كانوا يرتدون ملابس من الحرير اشتروها من البرتغاليين. كانوا يحملون أسلحتهم المختلفة، وقد غطوا رؤوسهم بجلود جماجم القدرة التي احتفظوا لها بأسنانها، وكان مظهرهم يبعث على الضحك وقلّما يثير الخوف في النفوس. وكان كل واحد من كبار حاشية الملك مرفوقا بعونين، أحدهما يحمل كرسيا قصيرا يجلس عليه سيده، والثاني يحمل أريكة صغيرة، وكانت لحاهم مزيّنة بحلي من ذهب.

كان الملك الزنجي يتوسط أعضاء حاشيته ويتميّز عنهم بالأساور الذهبية التي تحلّلتها يداه، والخلاخل التي وضعها حول ساقيه. أما عنقه، فقد كان مسورا بعقد من الذهب تتدلّى منه أجراس صغيرة، في حين، كان شعر لحيته مظفورا بخيوط ذهبية يتدلّى بعضها على صدره. كان يمشي وكأنه يعد خطواته ولا يدير الرأس. ولما وصل إلى منتصف الصّفين المكونين من الجنود البرتغاليين، نهض دييغو وتقدّم نحوه، وعندما دنا منه، صافحه الزنجي وهو يردد بير بير، أي سلام سلام.

بعد ذلك، انسحب كزامانسي حتى يتسنّى لمرافقيه أن يحيوا دييغو، فشرع كل واحد منهم يبلّل سبّابته ويمسحها ببطنه قبل التحية، وهذه إحدى عبارات التشريف عندهم، تستعمل لتحية شخص عظيم.

عندما انتهت مراسيم التقديم والتحية، تناول دييغو الكلمة، فأطلع الملك على العطف والتقدير اللذين يكنّهما له ملك البرتغال. وشكره على تعاونه ومساعدته للتجار البرتغاليين، ثم أكّد أن الأهم في حب ملك البرتغال له، أنه يدعوه إلى الايمان بأن الذي خلقه هو الله، فاطر السموات والأرض والذي له ملكوت كل شيء، وأنه هو الذي جعل الليل والنهار وسخّر الأمطار، وهو ربّ الرعد والبرق، وهو خالق النباتات وكل ما ينفع الانسان في طعامه، وان ملوك النصارى يعبدونه، وإليه ترجع الروح بعد انفصالها عن الجسد، ليحاسبها ويجازيها على أعمالها في الدنيا، فيعاقب بنار جهنّم كل من كان يفسد في الأرض، ويورث الجنة للمتقين الذين تغلّبوا على الشياطين. وأنه لا يمكن لأحد أن يدرك هذه الامور ما لم يطهّر نفسه بالتعمّد الديني كما أن الجسد لا يتطهّر إلا بالماء الجاري.

وأضاف دييغو بأن ملك البرتغال سيكون مبتهجا للغاية عندما يعلم أن صديقه كزامانسي آمن بالله وأنه سيعيش وسيموت مفعما بالتقوى، لذلك يتعين عليه قبول التعمّد الديني ليعتبره الملك البرتغالي أخا له، وأنه سوف يستجيب

لطلبه إذا رغب في مساعدته، وأن السفن الراسية ستتحرك لخدمته على أساس ألا يحيد عن خدمة الله، وبما أن المراكب تحمل بضائع ثمينة وأشياء نفيسة، فقد بدا من الضروري بناء قلعة للحفاظ عليها وبناء منازل لشخصيات المملكة الذين يقترحهم لذلك ولبعض البرتغاليين، وأن في هذه العملية ما سيجعل المملكة أقوى من جاراتها بل ستفرض عليها هيمنتها، ولن يستطيع أي بلد أن يهاجمها لأن أصحاب القلعة سيدافعون عنها.

كان كزامانسي رغم جهله، على جانب كبير من الذكاء والوعي، فصغى إلى خطاب دييغو وهو يعلم ما ينفعه وما لا ينفعه. أما أعضاء حاشيته، فإنهم كانوا مهذّبينء ولزموا الصمت التام تاركا الأمر بين يدي ملكهم. ولما أنهى دييغو خطابه، رفع كزامانسي هامته وقال بأنه يشكر العاهل البرتغالي على اهتمامه به، ويشكره على رغبته في انقاذ روحه من الضلال، وأن ذلك واجب عليه، اعتبارا للمعاملة الحسنة التي لقيها تجّاره، ولكنه اعرب عن استغرابه لأنه لم يسمع كلاما مماثلا من قبل، وأن البحّارة الذين كانوا يقدمون إلى البلاد كانوا على سوء الأحوال، يعرضون بضائعهم ويأخذون بضائع أخرى ويستعجلون الرجوع إلى وطنهم. دون ابداء أي رغبة للبقاء أو الاقامة في عين المكان، أما وقد أرسل الملك أشخاصا أنيقين يرتدون ملابس زاهية ومزينين بالذهب والأحجار الكريمة، فلاشك أنه لا يقصد التجارة وحدها، بل يرمي إلى عمل أهم منها وجدير بملك له اله عظيم، لكن رجاله لن يتكيفوا بالبيئة المحلية، وأن مظاهر الثراء عندهم قد تنعكس سلبيا على الأهالي وينتج ما لا تحمد عقباه عن تساكن هؤلاء وأولئك. لذا فإن كزامانسي يدعو البرتغاليين إلى مواصلة تعاملهم مع رعاياه دون الاقامة بجانبهم، وأن الخير سيكون في ذهابهم وإيابهم، وليس في ذلك اخلال بالاحترام لملك البرتغال، وانما فيه ما سيحافظ على السلم والوئام بينهما، وما سيدفع القوم إلى تفهّم الدين المقترح عليهم.

بعد ذلك، تناول دييغو الكلام من جديد، مركّزا على الاهمية التجارية للقلعة التي ستحتوي بضائع هامّة، تعتبر ضمانا للصداقة ورهانا للمودة وقاعدة للدفاع عن أمن المنطقة، وأن ملك البرتغال عادل يحب العدل، فأحبه من أجل ذلك رعاياه، وأنه ليس من أقاربه، وإنما هو واحد من أفراد شعبه.

عندها، أعرب كزامانسي عن موافقته للمشروع، وبعدما ذكّر البرتغاليين بتعهّداتهم ووعودهم وهددهم بالانتقام إذا ما خالفوا التزاماتهم، ولّى عائدا إلى منزله.

غداة ذلك اليوم، شرع المهندسون يدرسون مكان بناء القلعة، وجعل العمال يكسّرون الصخور، لكن السود لم يتحمّلوا ذلك، إما لسبب ديني وإما لسبب آخر، فتناولوا أسلحتهم وهاجموا العمال البرتغاليين، وقتها، تدخّل ديبغو وقدّم الاعتذارات، كما قدّم إلى السود هدايا عديدة، من أساور وخواتم وأواني منزلية نحاسية، فتقبّلوها مسرورين. وبذلك، عاد الهدوء إلى نصابه، واستأنف العمّال بناء القلعة، الذي فرغوا منه في ظرف عشرين يوما، وتناهى الخبر إلى ملك البرتغال، فأمر بأن يسمّى الموقع قلعة سان جورج. ولم يغب عن المسؤولين الاهتمام بدينهم، فبنوا داخل القلعة كنيسة أخذ يصلي فيها الأوربيون والزنوج الذين اعتنقوا المسيحية وأعطيت التسهيلات للبرتغاليين الذين يرغبون في الاقامة بجوار القلعة، حيث بنيت مدينة أخرى سمّيت كذلك سان جورج. وهكذا أصبح دون جيان يحمل لقب عاهل غينيا(23) ثم أمر المستكشفين بوضع أنصاب في المواقع التي يكتشفونها، وينقشون عليها باللغتين البرتغالية واللاتينية تاريخ اكتشافها، بأمر من الملك المشفوع باسم الضابط الذي يقود العملية، وأن يغرسوا في كل نصب، صليبا من الحجر.

الفصل الثالث والعشرون

مواصلة استكشاف الشواطىء الافريقية

تبتدئ اثيوبيا السفلى بعد القلعة جنوبا وأول قطر أمامنا هو بينان الذي كان يتوجّه إليه تجّار بلاد البربر عن طريق البر للحصول على مادة تقوم مقام البزر، فيقطعون الصحاري، ثم ما يسمى بغينيا، وعندما يعودون إلى أوطانهم، يصدّرون هذا النوع من البزر إلى أوربا وإلى إيطاليا خاصّة، فيسمّيه الأوربيون حبة الجنّة لأنهم كانوا لا يعرفون مصدره.

إن زنوج بلاد بينان قساة ويأكلون لحم البشر، يحمل كل واحد منهم علامة مستديرة طبعت على جبهته بالكي.

يتّجر هؤلاء الزنوج مع البرتغاليين المقيمين بقلعة سان جورج لامين، ولهم ميناء يسمى كاتو. وقد سبق لملكهم أن أرسل بعثة إلى البرتغال، يطالب ايفاد من يلقّن الزنوج مبادىء النصرانية، فاستجاب لهم العاهل البرتغالي، إلا أن الدعاة أقاموا حينا من الدهر في بينان ثم رجعوا إلى موطنهم بدون نتيجة لأنهم كانوا يصرفون الوقت في وصف البرتغال.

(23) نذكر أن غينيا تعني عند المؤلف المناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء مباشرة ويليها ما يسمى اثيوبيا (المترجم).

يوجد شرق بينان قطر يسوسه ملك عظيم يسمى أوغان يبجّله شعوب المنطقة كما يبجّل النصارى البابا. ونشير إلى أن منذ القدم، وملوك الأمم المجاورة يبعثون إلى ملك هذا القطر سفراءهم كلما توالوا على عرش أممهم، ويرسلون له الهدايا متلمسين منه تزكيته لهم، فيرسل لهم مقابل ذلك خودة من النحاس، وصليبا من الحديد، علامة عن رضاه وعن اعترافه بهم، وبذلك تتمّ لهم المشروعية. ومن غرائب الأمور، أن هذا الملك الذي يعظمه ملوك المنطقة لا يظهر لزواره، إذ يقف السفراء لديه أمام غرفة اسدل عليها ستار، فيقدم لهم الملك ساقه من تحت الستار. وعلمنا فيما بعد، أن هذا الملك هو امبراطور الحبشيين.

بعد هذا، نعود إلى وصف الشاطيء الواقع جنوب بينان. نجد رأس لوبيز كونزاليس ونهر زايير، الذي وضع لوبيز كونزاليس عند مصبّه علامة تعبّر عن امتلاكه لما يوجد بعده وأصبح النهر يسمى الكونكو، نسبة للقطر الذي ينساب خلاله. إنه نهر عظيم، تصبّ فيه ستة أنهار تأتي من مختلف الأمصار، ويتدفّق في البحر بقوّة خارقة، حتى أن الانسان ليجد الماء العذب داخل البحر بمسافة عشرين فرسخا.

اكتشف دييغو كام هذا النهر عام 1484، ولما رأى ضخامته فكّر في التعرف على سكان البلاد، فتوغّل شيئا ما في الأرض، فرأى زنوجا عاديين مسالمين، فحاورهم بالاشارات، فعلم أن لهم ملكا عظيما، فأرسل إليه هدايا مع بعثة تتألف من برتغاليين إثنين، وتعهد الزنوج بإرجاعهما إلى قاعدتهما. لكنهما لم يعودا، وطال غيابهما. عندها، ألقى قائد السفينة القبض على ثلاثة من الزنوج ونقلهم إلى البرتغال ثم عاد بهم بعد خمسة عشر شهرا، وقد كلّفه ملك البرتغال بتقديم هدايا إلى ملك الكونكو ودعوته إلى اعتناق المسيحية.

ولما حلّ القائد المذكور بالكونغو، رأى الزنوج أن إخوانهم عادوا سالمين، وبعثهم دييغو إلى ملكهم بهدية، وطلب منهم أن يرجعوا بالبعثة البرتغالية، وأن لهم هدايا أخرى، كما كلفهم بتبليغ ملكهم أن له أمورا هامّة يريد أن يعرضها عليه، وله فيها مصالح ومنافع.

بعد أيام، رجعت البعثة البرتغالية سالمة، وواصلت السفينة تعرّفها واستكشافها للشواطيء الافريقية،ووضع قائدها نصبين آخرين، أحدهما في موقع أطلق عليه إسم سان أوغاستان، والثاني أطلق عليه إسم رأس الرئيس، يقع على بعد اربعمائة فرسخ من رأس لوبيز كونزاليس.

الفصل الرابع والعشرون

في المحادثات مع ملك الكونغو ومواصلة استكشاف السواحل الافريقية

لما عاد مرّة أخرى الربّان دييغو كام إلى الكونغو، استقبله ملك البلاد المسمى نيكونغو بحفاوة وتكريم واعرب له عن تشكراته على الهدايا التي بعثها له العاهل البرتغالي ثم طلب تيسير مهمة سفارة كونغولية لدى البرتغال لاستقدام قساوس أو من يقوم مقامهم لتفقيه أهل الكونغو في شؤون المسيحية.

وبالفعل، بمجرد ما وصل أعضاء البعثة الكونغولية إلى لشبونة، سيقوا إلى الكنيسة حيث تلقّو التعمد الديني، ومكثوا هناك زهاء عامين تلقّوا خلالهما تكوينا دينيا ولغويا أهّلهم لتسهيل تمسيح مواطنيهم. ثم عادوا إلى الكونغو رفقة جماعة من رجال الدين.

في طريق العودة نزلوا عند الأمير سونغو عم ملك الكونغو، فرحّب بهم وطلب منهم أن يساعدوه على اعتناق المسيحية، فلبوا رغبته. وبالمناسبة أقيم حفل ديني في البرّية وخطب الأمير سونغو في الحاضرين معربا عن ارتياحه للمناسبة التي أتيحت له للخروج من الضلال واعتذر لكونه سيتلقّى التعمّد قبل الملك لأنه طعن في السن ولا يريد أن يموت وهو على الوثنية، ثم التمس من القساوس أن يدعوا لابنه الصغير. وفي ختام الحفل أعلن للجمهور أنه أصبح يسمى مانويل. أما الصبي، فانه أخد يسمى انطونيو، وكان ذلك عام 1459.

تناهى الخبر إلى عاهل الكونغو، فهنأ ابن أخيه على اعتناقه المسيحية ثم تنازل له عن مساحة طولها ثلاثين فرسخا، فأخذ الأمير يحطّم الأصنام والأوثان دون أن يخشى شيئا. واعرب ملك الكنغو عن ايمانه وعن ابتهاجه، وأخذ يحضر كل يوم الحفل الديني الذي كان يقام في كوخ كبير في مدينة امبانزة وهي قاعدة الملك، تقع داخل البلاد على مسافة خمسين فرسخا من البحر.

كان ملك الكونغو كثير الاهتمام بشؤون الدين، وكان يخصص شطرا هاما من أوقاته للتفقّه في النصرانية ويبدي رغبته في التكفير عن عبادة الأوثان التي عكف عليها عدة سنوات. استدعى سفير البرتغاليين، فأقبل عليه ما يزيد عن مائتين من خيرة الشباب الذين اعتنقوا المسيحية وقد وهبهم إليه الأمير ما نويل،

فاستقبلهم في الساحة العمومية، أمام جمهور غفير دُعِيَ لمشاهدة الحفل الديني الذي سيتم خلاله الاعلان عن اعتناق الملك الديانة المسيحية.

لما وصل وفد الرهبان إلى عين المكان، حياهم الملك، إذ تناول كمشة من التراب وذرّها على بطنه، وتلك علامة تكريم الزوار وتعظيمهم. وقدم إليه دييغو كام الهدايا التي أرسلها اليه العاهل البرتغالي، فتناولها ودخل إلى غرفة كانت توجد بها زوجته رفقة أبنائها.

غداة ذلك اليوم، استقبل الملك رجال الدين البرتغاليين وطلب منهم اختيار الموقع المناسب لبناء كنيسة، فتم ذلك حسب ارادة الملك الذي أصبح يسمى يوحنى وقبل أن يبرح السفير مكان الحفل، قدم لملك الكونغو علما هدية من ملك البرتغال كان البابا يوحنى الثالث أهداه إليه وهو أحد الاعلام التي كان يحملها الصليبيون.

بعد ذلك، اعتنقت الملكة المسيحية بدورها وأخذت تسمى ليونور، ولما رجع ولدها المسمى نزينكا بامبا من محاربة القبائل الثائرة ببحيرة زامبيز، تنصّر هو الاخر، وصار يسمى الفونسو وتنصر معه عدد من حاشية الملك وغيرهم، وأقيمت الحفلات الشعبية بهذه المناسبة.

الفصل الخامس والعشرون

من ارتداد ملك الكونغو وتشبث ابنه بالمسيحية

كان لملك الكونغو ولد ثان يسمى أكيتيمو اتبع سبيل الشيطان ورفض التخلي عن عبادة الأوثان، فبرح قصر أبيه رفقة جماعة من الرفاق. ولم يهتد الملك من جانبه لتتبع مبادىء المسيحية والرضوخ إلى شريعتها، فأبى أن ينفصل عن زوجاته، وعاد إلى ما كان عليه من قبل.

لكن ابنه الفونسو حاول إقناعه بالعدول عن الوثنية فلم يفلح، في حين، تمكن أكيتيمو وجماعة من المتملقين من التأثير على الملك، فانساق إلى نبذ المسيحية والسماح للشعب بالعودة إلى التدين بالخرافات والأساطير.

ونظرا لما أبداه الفونسو من موقف حازم ضد الوثنية، ذهبت شرمذمة من السحرة إلى الوشاية به لدى الملك قائلين بأن الفونسو الموجود فعليا في الأقاليم النائية، يحضر كل ليلة إلى القصر ويضطجع في فراش زوجات أبيه ويستغل ماله

من علم لتبخير مياه الأنهار، قصد تقليص الانتاج الزراعي ودفع القبائل إلى إشعال نار الفتنة.

أراد الملك أن يختبر صحّة هذه الأنباء فهيّأ هدايا تضمّنت أشياء غريبة، وأرسلها إلى زوجاته، مدّعيا أنها أتت الهن من ابنه الفونسو، فاستفظعن هذه الصنيعة وعبّرن للملك عن تهور ابنه ومسّه بعرضهن، فتبيّن للملك أن أخبار الوشاة كلها كذب وبهتان. لذلك، استدعى نفرا من وجهاء المدينة، وأُلقِي القبض على الذين تورطوا في الوشاية بابنه، وخطب الملك في الحاضرين وأمر بتعذيب وتقتيل أولئك الذين أساؤوا لسمعته وسمعة ابنه.

ولما رجع الفونسو إلى الأقاليم التي أسند إليه تدبير شؤونها، مضى يأمر السكان بالعدول عن عباداتهم وهدّدهم بالموت إن عادوا إلى ممارستها، وحثّهم على اعتناق المسيحية، فرفضوا الاذعان إلى أوامره وتمرّدوا عليه.

تناهى الخبر إلى الملك، فاستدعى ابنه الفونسو، لكنه رفض أن يمتثل لأمر أبيه. عندها، غضب الملك لتنطّع ابنه وهمّ بقتله، لكن أقارب الأمير وأصدقاءه أرشدوه إلى التسويف، حتى أصيب الملك بمرض هلك على إثره، فأحسّ السود المتنصّرون بالاطمئنان، وواصل الفونسو دعايته لفائدة المسيحية إلى أن اعتنقها العديد من رعاياه، إلا أنه كان يصطدم بمعارضة الذين ارتدوا عن المسيحية أو الذين تشبثوا بعبادة الأوثان.

لما علم الفونسو بوفاة أبيه توجه إلى امبانزة لاستلام مقالد الحكم، وتم ذلك وسط الطبول والمزامير والحفلات الشعبية، لكن أخاه اكيتيمو نازعه الملك، فنشبت بينهما اشتباكات دموية، كان النصر بعدها حليف الفونسو. وعندما ألقي القبض على أكيتيمو، حكم عليه أخوه بالاعدام. أما قائد أركانه، فإنه أعرب عن رغبته في اعتناق المسيحية قبل موته، قائلا بأنه رأى في السماء خيولا تحلق فوق جيش الفونسو. عفا عنه الملك الفونسو، وأسند إليه تسيير أحد الأقاليم.

وهكذا لبث الفونسو يسوس البلاد مدة خمس وأربعين سنة، ووافاه الأجل عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، وقد انتشرت المسيحية بفضله عبر أرجاء المملكة، وقد كان مسيحيا مثاليا، وكان يراسل الفاتيكان وأعلن عن ولائه للبابا، وتعلّم البرتغالية واللاتينية وكان يعكف على قراءة الانجيل وشرحه لقومه.

إن الكونغو بلد كبير، يحده شمالا قطر البينان، وتحدّه شرقا جزيرة الأزينك الواقعة وسط بحيرة زمبيز، وتقع جنوبه، جبال القَمَر التي تفصل هذه المنطقة عن

اثيوبيا العليا وعن امبراطورية الحبشة وبلاد الكَفْر. تتفرّع عن زمبيز عدة أنهار تصب في زايير، حتى أنها جعلت منه أضخم نهر في افريقيا.

توجد في الأمصار التي يتخلّلها نهر زايير ثروة حيوانية هامّة تتألف من مختلف الأنعام الكبيرة منها والصغيرة، أما البلاد التي تقع في اثيوبيا العليا، فانها غنية بالذهب ويرتع فيها ما لا يحصى من الأفيال، وتخضع لحاكم يدعى بينموطابا، الذي لقبّه البرتغاليون بأمبراطور الذهب، ويتحكّم كذلك في امبراطورية صوفالة.

الفصل السادس والعشرون

بلاد الزنوج وشاطىء زنجبار

أصبح من المؤكد ان بطليموس بات يجهل شطرا هامّا من القارّة الافريقية توجد ضمنه المنطقة التي تشمل الشعوب السوداء والممتدّة من مملكة الكونغو الى بلاد المزنبيق، ويرجع خطأه الى أنه حدّ افريقيا جنوبا عند الدرجة الخامسة عشر، أي ببلاد أثيوبيا الداخلية، جنوب مصر، وعند راس براس. هذا ويوجد بين الشرق والغرب رأس الرجاء الصالح الذي لبث مجهولاً خلال قرون عديدة، الى أن اكتشفه البرتغاليون وهم يبحثون عن الطريق المؤدية الى الهند.

لذلك ظلت المنطقة مجهولة. رغم عدد شعوبها وأممها التي تختلف عوائدها ومعتقداتها الدينية، وقد كان العرب يسمونها زنجبار بتسمية أحد أنهارها، ويطلق هذا الاسم على الشواطىء الممتدّة من رأس الرجاء الصالح، الى رأس غردافيو بالقرن الافريقي، والذي قال عنه بطليموس أنه يقع على خط العرض بخمس درجات، مع العلم انه يقع على اثنتي عشرة درجة، حسب ما لاحظه البرتغاليون في عصرنا هذا(24).

أما عرض القارة، فانه يتقلّص ابتداء من الكونغو الى رأس الرجاء الصالح الذي يتقدم نحو البحر في اتجاه الغرب. وغير بعيد منه يوجد سهل أخضر جميل المنظر يسمّيه البحّارة طاولة الرأس. وبين رأس الرجاء الأخضر ورأس الإبَر، يوجد خليج يتوغل في القارة طوله يفوق اثني عشر فرسخا. وفي عمق الخليج، توجد سلسلة من الصخور رؤوسها حادّة، سماها البرتغاليون، «المناقر الحادة»، ويتخللها نهر جارف.

(24) يعني المؤلف بذلك أواسط القرن السادس عشر. (المترجم).

ويظهر أن الشاطىء يرتفع عبر مسافة ثلاثمائة وخمسين فرسخا، من رأس الابر الى رأس التيارات، ويسير نحو المزنبيق، عبر مسافة أخرى تقدر بمائة وستين فرسخا.

ويشكل الشاطىء، خليجا آخر، من المزنبيق الى رأس غردافيو طوله خمسمائة وخمسين فرسخا، ويشبه ضلع حيوان، ولا يبلغ من العمق ما تذكره خرائط بتوليموس.

يشكل الشاطىء الممتد من رأس غردافيو الى رأس فرطاق بالجزيرة العربية مضيقا يؤدي إلى البحر الأحمر، وهناك ترسّى القوات البحرية البرتغالية لمراقبة الحركة الملاحية بالمنطقة.

الفصل السابع والعشرون

الأقاليم الواقعة على شواطىء زنجبار
وصف المنطقة وكيف تمكن العرب من الهيمنة عليها

يبتدىء شاطىء زنجبار شرقا عند أحد كبار الأنهار الافريقية التي تصبّ جنوب المحيط[25]،ويسميه بطليموس الربط، ولو أنه أخطأ في تحديد موقعه، إذ قال انه يقع على خط الطول بست درجات في اتجاه الجنوب بدلا من ثلاث درجات وهي الموقع الصحيح. ينبع هذا النهر في الحبشة ويسميه أهالي هذه البلاد أوبير، ويوجد بمصبه موقع يسميه العرب بولمانسي. ومن هناك الى رأس غردافيو يوجد اقليم يسميه العرب أشام، يسيطرون عليه ولا يسكن فيه سواهم، ولو كان بداخله قوم من السود يعبدون الأوثان.

إذا اندرجنا نحو الغرب انطلاقا من هذا النهر الى رأس التيارات، نجد أن العرب يتواجدون طوال الشاطىء وحتى رأس الرجاء الصالح التي كانت تصله سفنهم. أما البلاد الممتدة من رأس التيارات الى بولمانسي، فانها كلها سهول ولا توجد بها جبال، ولكنها تحتوي على كثير من البحيرات والغاب الكثيفة التي يصعب المرور خلالها، بالاضافة الى ما فيها من أنهار عديدة متقاربة، تعرقل التنقل عبرها، هذا ما يجعل التنفس فيها صعبا، لارتفاع الحرارة والرطوبة، مثلها كمثل غينيا. والجدير بالذكر، ان شعوب المنطقتين تتشابه كذلك في لونها وأوصافها،

(25) بحر العرب الذي أصبح يسمى بالمحيط الهندي. (المترجم)

ومعتقداتها وعباداتها. اما النباتات والحيوانات والطيور، فانها تناسب هذه البيئة المتوحشة.

تغص المنطقة بالحيوانات الوحشية والأنعام، من موغاديشيو الى رأس غردافيو، لكن الغذاء قليل جدّا، والانتاج الزراعي لا يكفي لسد حاجيات السكان، فيضطرون الى أكل الفواكه الغابوية أوما يصطادونه في البرّ والبحر ويشربون لبن المعز الذي يشترونه من العرب المقيمين داخل البلاد والذين يسميهم سكان الشواطىء، بالبدويين.

ان هؤلاء البدويين يقيمون علاقات تجارية وغيرها مع الكُفْر المقيمين بالداخل؛ ونشير الى أن الطبيعة انعمت على هذه المنطقة بكنز ثمين ألا وهو مكامن الذهب الذي يشقى شعب البلاد في استخراجه. الا أن البرتغاليين أضحوا أكثر طمعا من غيرهم، فراحوا يبحثون عن الذهب في كل مكان، معرّضين أنفسهم للأخطار والمهالك والأهوال، فيعرضوا بضائعهم لاستبدالها بالمعدن النفيس.

لا مرية أن العرب هم الأجانب الأولون الذين نزلوا بهذه البلاد في فجر الاسلام. ويقول بعض المؤرخين انهم لجأوا الى افريقيا خوفا من الاضطهاد لأنهم تشيعوا لأحد أحفاد علي(25)، الذي قيل عنه انه تخرج عن القرآن والسنة، وحكم عليهم بأنهم أهل بدعة، وهكذا، سمي أتباعه «الزيديين».

عندما استقرّ هؤلاء المهاجرون بهذا البلد، لم يشيدوا أية مدينة هامّة، وانما اكتفوا بوجود ملجأ يقيهم من شر الكُفْر، الا أنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى أخذوا ينتشرون طوال الشاطىء. ولحقت بهم أفواج أخرى من العرب على متن ثلاثة مراكب قادمة من الخليج الفارسي، ونزلت بأقرب موقع من الجزيرة العربية مدّعين أن ملك مدينة لاقة، الواقعة على بعد أربعين فرسخا من جزيرة البحرين، كان يضطهدهم؛ والى هذه الأفواج التي ذكرتها يرجع الفضل في تأسيس مدينتي موقاديشيو وبرافا. وتطورت موقاديشيو، وارتفع عدد سكانها وازدهر عمرانها الى أن أصبحت أم القرى بالنسبة لمجموع المسلمين القاطنين بهذا الشاطىء.

وبهذا الصدد، نقول ان الزيديين انفصلوا عن المسلمين الذين يختلفون عن مذهبهم، وفضلوا الاستيطان داخل البلاد، فامتزجوا بالسود وتصاهروا معهم وتبنوا

(25) زيد بن علي بن الحسن بن علي، والمكنّى «بزين العابدين». (المترجم)

عوائدهم، لكنهم حافظوا على دينهم. وكان الزيديون هم الأولون الذين بدأوا يتّجرون مع صوفالة، وقد حدث ذلك صُدفة عندما دفعت العاصفة احدى السفن العربية من موقاديشيو الى هذا الموقع.

ولعل المانع الذي حال في بداية الأمر دون انتشار العرب جنوب رأس التيارات، هو العرقلة التي كانت تشكلها جزيرة مدغشقر والتي تمتد طوال هذا الشاطىء عبر مسافة مائتي فرسخ، ثم تشكل زاوية مقابل رأس الموزنبيق، حيث يوجد شبه قنال تصعب فيه الملاحة(26)، اعتبارا للرياح العاتية التي تهب فيه بدون انقطاع وبسرعة كبيرة، لاسيما على مقربة من تلك الجزيرة.

كان سكان الشاطىء الشرقي للقارة الافريقية لا يتوفرون الا على سفن مخاطة لا تصمد إلا نادرا أمام العواصف، وكانوا على علم بعدد المراكب التي غرقت في هذا البحر الهائج على الدوام، لذلك عدلوا عن استكشاف مجاهل البحر، ولئن تمكن بعضهم من الوصول الى مدَغشقر، كما هو الشأن بأهل سلطنة كيلوة الذين اكتشفوا كثيرا من المواقع وعمّروا شطرا من القارّة، واستوطنوا الجزر المجاورة، وهم الذين اكتشفوا موقع صوفالة وهيمنوا على الموزنبيق وعلى منطقة ميلاندة وغيرهما من الجهات وأصبحوا يتحكّمون في تجارة الذهب، الا أنهم تقاعسوا بسبب الحروب الداخلية والفتن التي شتتت كلمتهم. ولما أطل البرتغاليون على هذه الجهة من افريقيا، كان العرب قد فقدوا هيمنتهم عليها وتلاشت قواهم بسبب تنافسهم على الحكم.

الفصل الثامن والعشرون
مواصلة استكشاف شواطىء زنجبار

كلما اكتشفت سفن البرتغال موقعا في شواطىءإفريقيا الا وألحّ عاهل البرتغال على البحّارة بالمضي قدما للمزيد من الاكتشافات، فكانوا يضعون الأنصاب في المواقع التي لم يسبقهم اليها أحد ويعطونها أسماء تلائمها من حيث طبيعتها أو أسماء الأيام التي يتمّ فيها اكتشافها، وغالبا ما كان الربّان دييغوكام هو الذي يقود هذه العمليات، فاكتشف مرة جزيرة صغيرة تقع على خط العرض

(26) قنال الموزنبيق (المترجم).

بواحد وثلاثين درجة جنوبا، نصب فيها صليبا وسمّاها جزيرة الصليب، وتبعد عن اليابسة بنحو نصف فرسخ.

كانت العواصف تهب كثيرا جنوب القارة حتى إن البحّارة البرتغاليين أطلقوا على الرأس البارز هناك، «رأس العواصف»، الا ان عاهل البرتغال استبدل هذه التسمية «برأس الرجاء الصالح» بعد اكتشاف ممرّ آمن بالمنطقة يؤدّي الى الهند، وكان ذلك الهدف الرئيسي من مواصلة استكشاف الشواطىء الافريقية.

ان الموقع الذي يمكن فيه التزود بماء الشرب يسمّى سان ابليز ويبعد عن رأس الرجاء الصالح بنحو سبعين فرسخا، ونزل به فاسكو دوكاما، وهو في طريقه الى الهند، بأمر من الملك دون مانويل. تقدم الزنوج المحليون نحو السفن، فأعطاهم البرتغاليون أشياء تافهة، ففرحوا بها، ثم قدّموا لهم مقابلها عددا من الخرفان.

شاهد البرتغاليون نساء المنطقة يمتطين بقرا ضخما(27)وهن يحملن الرماح، ولاحظوا أن الأهالي طيبون مسالمون يحبّون المرح والرقص والغناء على أنغام موسيقى هادئة وعذبة.

أطلق فاسكو دوكاما على هذا المكان إسم شاطىء الميلاد لأنه قام باستكشافه يوم ميلاد عيسى ثم توغل في البلاد وهو آمن مطمئن، واشترى من الزنوج أساور من النحاس والعاج، وتزود بالماء والمواد الغذائية.

مرّ فاسكو دوكاما برأس التيارات ليلا، وابتعد كثيرا عن الشاطىء خوفا من الاصطدام بالصخور الساحلية، ولم يتعرّف على صوفالة، ثم رسّى قرب مصب نهر يبعد عن الرأس بنحو خمسة فراسخ وسمّى المكان سان رفائيل، فلاحظ ان السكان ليسوا سودا وانما لونهم أسمر، وأغلبهم يتحدثون باللغة العربية، ويرتدون ملابس فضفاضة لونها أزرق، ويضعون على رؤوسهم قبعات حمراء. أما سفنهم، فانها لم تكن مطلية بالقطران ولم تكن أجزاؤها ملتحمة بالمسامير بينما كانت شراعها مصنوعة من نسيج القنّب. وعلم فاسكو دوكاما أن شعوبا بشرتهم بيضاء يوجدون شرق ذلك الموقع، وأنهم يملكون سفنا عظيمة وسريعة، ثم لاحظ أن لأهالي المناطق الساحلية ولأهالي الجزر المجاورة، شعرا قطّا يختلفون به عن العرب الذين يتواجدون معهم، وذلك رغم اعتدال طقس المنطقة. وشاهد من بين المستوطنين جالية صينية قدم عناصرها الى هذه البلاد، يوم كان الصينيون يمخرون عباب البحار كشأن البرتغاليين حاليا.

(27) الجاموس (المترجم)

يتجلى من خلال هذه الملاحظات أن اسوداد بشرة الاثيوبيين لا يرجع إلى درجة الحرارة العالية، ولا الى الجفاف المفرط ولا الى غيرهما من العوامل، خلافا لما بات يدعيه المنجمون، إذ لو كانت مزاعمهم صائبة، لتحول لون كل زنجي الى بياض، بعد جيل أو ثلاثة، على إقامته في بيئة معتدلة، ولأصبح كل ذي لونأبيض زنجيا بعد إقامته في اثيوبيا.

وهنا نقول إنه بما أن التجربة كشفت عن الحقيقة، فلا بد أن يكون سبب اللون الأسود للبشرة مرتبطا بالعرق، ولربما يرجع تفسير هذا اللون الى غضب الله على قابل. والأجناس تختلف كما تختلف الألسن، وكما تأكد اختلاف لغة النمرود عن لغة العمالقة الذين بنوا برج بابل، ولا ينبغي أن ننسى أن زخرف الكون ناتج عن العدالة الربانية، واننا لا نرى في عالمنا الصغير الا صورا لما يجري في العالم الكبير.

بعد هذا الحديث، سنتطرق الى اكتشاف الجزر الخالدات، ثم سنعود الى موضوع منطقة صوفالة.

الفصل التاسع والعشرون

في الخلافات التي قامت بين ملك قشتالة وعاهل البرتغال حول غزو الجزر الخالدات واتفاقهما على اقتسامها بينهما

خلال عام 1344، استأذن البحار لويس دولاسيرد، ملك الاراغون وقشتالة لغزو الجزر الخالدات التي وهبها البابا اليه، وهذا يدل على أنها كانت معروفة وموقعها محددا، ويقال بهذا الصدد، ان بحّارا انجليزيا يدعى ماشان هو الذي اكتشف جزيرة مادير، وقد كان ينوي اللجوء الى إسبانيا، فرارا من عدالة بلاده، على إثر اختطافه امرأة، لكن عاصفة بحرية دفعت الى الجزيرة السفينة التي كانت تقلهما. وبما أن الغادة المختطفة عانت من الرحلة، طلبت من ربان السفينة أن ينزلها بالجزيرة لتستريح، فكان لها ما شاءت ورافقها مختطفها، إلا أن السفينة أبحرت دون العشيقين وأصدقائهما.

ماتت الغادة المختطفة بالغم، فدفنها ذلك الانجليزي ثم صنع مع رفاقه زورقا من جذوع الأشجار وأبحروا على متنه بدون شراع، فقادتهم الرياح نحو أحد البلدان الافريقية. فسلّموا أنفسهم إلى سلطاتها التي أرسلتهم الى ملك قشتالة.

في عهد هنري الثالث ملك قشتالة، قام عدد من الاسبانيين والفرنسيين يتقدمهم الانجليزي، بغزو الخالدات، وسبوا مائة وخمسين من رجالها. لكن في

عهد جيان الثاني وحكومة أمه كاترين، تدخّل ضابط سامي في البحرية الفرنسية، يدعى براكمونت، وطلب من الأميرة أن تسمح له بغزو الخالدات لحساب أحد أقاربه يسمى بتانكور، فاستجابت لرغبته، وأعطته لقب الملك وزوّدته بالجنود والسفن. وأبحرت هذه القوات من شبيلية متوجّهة نحو الخالدات. ورافق الجنود، بأمر من البابا، القس الاسباني ماندو.

وما أن نزلت القوات الغازية بالخالدات حتى استولت بسرعة على أربع جزر منها، وسبت عددا من الأسرى تم ارسالهم عبيدا الى اسبانيا، واستولوا على كميات هامّة من العسل والشمع والكافور والجلود ومنتوجات أخرى أرسلوها الى أم الملك، ثم بنوا قلعة منيعة للدفاع عن مواقعهم. ولما قتل بتانكور، خلفه أحد أقاربه يدعى منانت، فباع الخالدات الى أحد الاسبان، لكن هناك اشاعات مفادها ان منانت ذهب الى فرنسا للاستجمام، فاغتنم حفيده غيابه، فباع الخالدات الى ولي عهد ملك البرتغال المسمى هنري، الذي تنازل له عن جزء من جزيرة مادير.

جهّز الأمير البرتغالي أسطولا وأبحر نحو الخالدات. الا أنه لم يكد ينزل بشواطئها حتى افتطن الى التكاليف الباهظة التي تتطلبها العملية، فولى عائدا الى بلده، وتنازل عن أمر الخالدات الى ملك قشتالة، جيان الثاني. أما البابا أوجين الرابع، فانه زكى هذا التنازل وأعلن ان الخالدات أصبحت ملكا لقشتالة، وهكذا، حسم النزاع بين الملك والأمير.

يقع أرخبيل الخالدات على بعد مأتي فرسخ من اسبانيا وعلى مسافة سبعة عشر فرسخا من افريقيا، وهو على ثمانية وعشرين درجة من خط الاعتدال، ذلك ما يجعل أطول نهار وأطول ليل فيه، لا يتجاوز كلاهما ثلاثة عشرة ساعة.

ان أهالي الخالدات يأكلون اللحم نيئا لأنهم يجهلون النار، ويحرثون الأرض بواسطة قرون الامعاز لأنهم لا يملكون آلة سواها، وكان لكل رجل منهم عدد كبير من النساء، كما ان حاكم كل جزيرة كان يتمتع بحق الاضطجاع الى فراش كل زوجة يوم زفافها، قبل أن يأوي اليها زوجها.

لما غزا الاسبان الجزر الخالدات، حملوا أهلها على اعتناق المسيحية ثم أخذوا يزودونهم بالسكر والقمح والشعير والخمر وغير ذلك. ومن الملاحظ، أن هناك جزيرة تسمى جزيرة الحديد، لا يوجد فيها ماء عذب وإنما يشرب الناس من قطرات الندى الذي يتساقط بكثرة على الأشجار.

بعد هذا الوصف الوجيز، نخوض الآن في موضوع اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد، بتشجيع من الملكين الكثوليكيين الاسبانيين، فردنان وايزابيلا سبق لكريستوف أن عرض مشروعه على جيان عاهل البرتغال، الا أنه لم يعره اهتماما. وعندما قدمه إلى الملكين الاسبانيين، حظي بتشجيعهما، ثم وضعا تحت تصرفه ثلاثة مراكب وزهاء ثلاثين خادما، فأبحر كريستوف من ميناء بالوس يوم 3 غشت عام 1492.

وصلت القافلة الى جزر الآنتيي يوم 10 أكتوبر، وبعد أيام وصل كريستوف الى كوبا التي أطلق عليها اسم فرناندين، ومنها قاده الأهالي الى جزيرة هايتي، فسماها ايزابيلا، الا ان أحد المراكب تهشّم، فصنع البحارة من خشبه كوخا للمأوى، أقام به زهاء أربعين شخصا، أسندت لهم مهمة ربط اتصالات مع الأهالي وتعلّم لغتهم وعوائدهم عاد كريستوف بعد ذلك الى إسبانيا، مرفوقا بعشرة هنود تنصّروا، وقد حمل معه بعض غرائب المنطقة، من عصافير ونباتات وغير ذلك، فدخل لشبونة يوم 4 ماي 1493.

بعد ذلك بأيام، رحل كريستوف الى اسبانيا وأطلع الملكين الاسبانيين على نتائج رحلته وطلب منهما المزيد من الرجال، لكن عاهل البرتغال أبدى إهتمامه بالأمر، ورغب في امتلاك ما اكتشفه كريستوف، وتوترت العلاقات بين المملكتين، فأوفد الملكان الإسبانيان بعثة الى البابا، ليزكي مواصلة استكشاف العالم الجديد لحسابهما، فآزرهما. عندها زوّدا كريستوف بما يحتاج اليه من رجال ودخائر وسفن، وأمراه بانتشال الهنود من الوثنية وارغامهم على اعتناق المسيحية.

غادر كريستوف كولومب ميناء وادي آش على أرس أسطول يحمل ألفا وخمسمائة جندي، ويتألف من سبعة عشر مركبا، وكان يرافقه عدد من وجهاء المملكة ورجال الدين الذين حملوا معهم ما يلزم لترتيبات تنصير سكان الأماكن المكتشفة.

عرّج الاسبان على الخالدات. ثم أطلوا على العالم الجديد، بعد ثمانية وثلاثين يوما، وأول جزيرة نزلوا بها، سموها «المرجوة» ثم ذهبوا الى جزر الكرايبي للتكيّف بالهنود الذين كانوا يتقنون الرماية ويستعملون نبالا مسمّمة، لا يصاب بها أحد الا ومات في حينه؛ ثم أخذوا يتنقّلون من جزيرة الى أخرى الى أن وصلوا هايتي حيث علموا أن الهنود قتلوا كل العناصر الذين تركهم كريستوف مرابطين هناك، وذلك لأنهم بالغوا في استفزازهم.

أمر كريستوف بانزال عدد من الرجال قصد تعمير هايتي، ووضعهم تحت قيادة أخوين له كانا من بين أعضاء البعثة، ثم انصرف الى كوبا قصد التعرّف عليها. لكن أثناء غيابه، تمرّد المرابطون بالجزيرة على أخويه. وبعدما فرغ كريستوف من رحلته الاستطلاعية لبعض الجزر، رجع الى اسبانيا لتقديم تقرير آخر الى الملكين الكاثوليكيين.

في شهر يناير من السنة الموالية، اتفق الملكان الاسبانيان وملك البرتغال على حسم خلافهما حول ملكية الاكتشافات الجديدة، وقضت لجنة التحكيم بتقسيم الكرة الأرضية الى شطرين، شطر يمتدّ من الجنوب الى الشمال، على مسافة ثلاثمائة وعشرة فراسخ من جزر الرأس الأخضر غربا، فكان الشطر الغربي من نصيب ملك قشتالة والشطر الشرقي من نصيب ملك البرتغال، مع اقرار حرية التنقل للجميع عبر الأراضي والبحار.

ولنترك الآن هذا الموضوع لنعود إلى موضوع افريقيا.

الفصل الثلاثون

في موضوع بلاد صوفالة ومملكة بيناموطابا المعروفة بأمبراطورية الذهب

صوفالة بلاد شاسعة الأطراف، يسوس شعبها ملك أسود اسمه بيناموطابا، وقد أطلق عليه البرتغاليون لقب امبراطور الذهب، نظرا لما يوجد في ملكه من مناجم من المعدن النفيس.

تتاخم صوفالة بلاد الكونغو وتتضمن أقاليم كبيرة يقطنها قوم من السود يتميّز شعر رؤوسهم بأنه قط، ويتواجدون خصوصا بين جبال البطح والبحر الذي توجد على مقربة منه، ولاسيما في اقليم صوفالة، مناجم الذهب.

صوفالة كالجزيرة، إذ يحيط بها ذراعان متفرّعنان عن نهر كبير(28) يتدفق من بحيرة الزمبيز باثيوبيا العليا والذي يتخلل مساحات كبرى قبل هذا التفرّع. تسمّى الشعبة الشمالية نهر البحيرة أو نهر الروح القدس(29) بينما تسمّى الشعبة الجنوبية

(28) هو نهر الزمبيز ذاته.

(29) الواقع هو عكس ما يقوله المؤلف، إذ ان الزمبيز يمرّ شمال صوفالة، ويمر جنوبها نهر الروح القدس الذي يسمى حسب الخرائط الحالية نهر السابي، وهو امتداد لنهر لاندي.

بنهر الزمبيز الذي يصب في البحر على بعد خمسة وعشرين فرسخا من مدينة صوفالة، ويسمّى مصبّه كوآمة، حسب الاصطلاح المحلّي، لأنه يجرف مياها كثيرة، يمكن للسفن أن تسير فيه داخل البلاد، طوال مائتين وخمسين فرسخاً.

يتلقى نهر الزمبيز عدة روافد، يسمى كل واحد منها باسم الاقليم الذي يمرّ به وتجرف هذه الروافد الذهب الذي يوجد بالمناطق الجبلية. ولهذا فان دولة صوفالة تشبه الجزيرة، ومحيطها يتجاوز سبعمائة وخمسين فرسخا. أما طبيعتها فانها تشبه طبيعة زنجبار(30) ونذكّر بأن صوفالة تابعة لزنجبار.

يتسم داخل المملكة بطقس معتدل وبإنتاج زراعي هام. أما الاقليم الممتد من رأس التيارات الى نهر الروح القدس فانه يتضمّن العديد من السهول ترتع فيها الأنعام الكبرى والصغرى، وتهب عليها رياح قارسة. لكن الجهات الموجودة بين مصب الزمبيز وأقصى الداخل تتضمّن جبالا تكسوها الغابات الكثيفة، وهي جميلة المناظر بما يتخللها من أنهار.

أهم كثافة سكانية توجد في هذه المنطقة الخضراء، وبها يقيم الملك في غالب الأحيان، ولهذا فإن قطعان الأفيال هاجرت إلى داخل البلاد، ويروي السكان أنهم يصطادون ما يقترب من خمسة آلاف فيل في السنة، الأمر الذي يمكن تصديقه باعتبار الكميّات الضخمة من العاج، التي تصدّر الى الهند.

كان الملك بيناموطابا مجوسيا، إلا أنه اعتنق المسيحية.

(30) كانت مملكة صوفالة تشمل أجزاء هامة مما يعرف بالمزنبيق وتانزانيا وزمبابوي (أي روديسيا الجنوبية، سابقاً). (مترجم).

الفصل الواحد والثلاثون

حديث عن مناجم الذهب ببلاد صوفالة

توجد عدة مناجم للذهب بهذه البلاد، لكن أقربها الى مكان تسويقها تقع ببرية بطحاء تحيط بها الجبال، وتسمى مانيكا، يكاد محيطها يقرب من ثلاثين فرسخا. اتفق ان الذهب لا يوجد الا في الأماكن الجافة والقفرة. أما الشعوب التي تحفر الأرض هناك للتنقيب عنه، فانهم ينتمون إلى البلاد الواقعة بين خط الاستواء ومدار الجدي، وهي بلاد يكاد المرء يموت فيها بردا في الشتاء، نظرا لما يتساقط فيها من ثلوج، لكن هواءها نقي في الصيف وطقسها معتدل.

تقع مناجم الذهب بصوفالة على بعد خمسين فرسخاً غرب مكان تسويقها، الا أن الكَفْر يشقون في جمعه لأنه يوجد في شكل مسحوق، وبما أن هذه الجهات قاحلة، فان القوم يحملون الذهب الى أماكن أخرى لتصفيته، في حفر أعدّت للاحتفاظ بمياه الأمطار.

يتطلّب استخراج الذهب حفر عدة آبار، وهي عملية شاقّة لأن العمال يصادفون الأحجار والصخور تحت التراب. توجد مكامن أخرى للذهب في مناطق تبعد عن صوفالة بنحو مائتي فرسخ. كما أنه يوجد في أعماق الأنهار، في شكل فهيرات كما يوجد داخل الصخور ذاتها.

لو كان السود نشيطين، لاستخرجوا من الذهب أكثر مما يستخرجون، ولكنهم جدّ كسلاء ولا يقبلون على العمل الا لكي لا يموتوا جوعا. إلا أن العرب كانوا يدفعونهم الى المزيد من العمل ومضاعفة الجهود لأنهم كانوا يبيعون اليهم بضائعهم بكثرة مع تأجيل الأداء، وبذلك استدان السود، ولم يجدوا هروبا من العمل بالجدّ، لأنهم يحرصون على شرفهم.

الى جانب ذلك، توجد مناجم أخرى في بلد يسوسه أمير يسمى بوما، ويخضع لنفوذ بيناموطابا ويقع في سهل كبير، بنيت فيه قلعة عظيمة من الحجر الضخم، ونقشت على بعض جدرانها حروف هيروغليفية، ذلك ما يبعث على الظن أنها من صنع قدماء سكان جزيرة ميروي، لأن سوسطرات أحد الفراعنة، قام

قديما بغزو اثيوبيا السفلى وكل الأقاليم المطلّة على البحر الأحمر، وهو الذي اخترع الهندسة والرموز التي اعتبرها قدماء المصريين مقدّمة وراحوا ينقشونها على تماثيلهم وجدران معابدهم، حسب ما قاله هيرودوت.

حول هذه القلعة، توجد تلال شيّدت فوقها بنايات متشابهة يطلق عليها نفس المصطلح الذي يطلق على كل القصور التي يملكها بيناموطابا. والغريب أنه لا يعرف أحد من بنى هذه البنايات، وبما أن سكان المنطقة كلهم جهّال، فيدّعون أن الجنّ هم الذين بنوها. وتبعد هذه البنايات عن صوفالة بنحو مائة وسبعين فرسخا من ناحية الغرب، ولا يوجد مثلها في البلاد لأن الأهالي لا يقطنون الا في أكواخ رديئة.

أما العرب، فانهم ينفون أن تكون لهم يد في ذلك، فيبقى إذن احتمال انتسابها إلى إقليم أجيزيمبا الذي أشار اليه بتوليموس والذي يبدو أن له تقاربا مع لفظة زمبابوي، وان البناءات من صنع أحد الملوك القدامى الذي اجتذبه الى المنطقة ما فيها من ذهب، ويكون قد هجرها من بعد، نظرا لقصوها عن مملكته. ويذهب البرتغاليون الى أنها تشبه طراز ما شاهدوه في الحبشة، ولربما كان ملك الحبشة هو صاحب هذه المعادن، وقد يكون هو الذي أمر ببناء القصور المذكورة. أما عاصمة الحبشة، فإنها كانت تسمى أشومة وبها كانت تقطن ملكة سبأ، وكانت مشهورة لما فيها من ذهب، وأشومة في نظر بتوليموس، هي حدّ العالم المأهول، جنوبا.

الفلصل الثاني والثلاثون
في وصف البلاد وسكانها

يتميّز أهالي صوفالة السود عن إخوانهم الموجودين بالموزنبيق وكيلوة وميلانذة بما أوتوا من ذكاء فائق ومهارة بالغة، لكن من بينهم من يأكلون لحم البشر

ويشربون دم الحيوان ان تنصيرهم لا يكتسي أي صعوبة لأنهم يعبدون إلاها واحدا يسمونه رزيمو أو كويكيمو، ولا يعبدون الأوثان، ويكرهون ممارسة السحر ويعاقبون عليها عقابا شديدا كل من تلبّس بها، خلافا لما نشاهده في باقي الأمصار الافريقية، من وثنية متفاحشة وسحر رائج بإفراط وكأنهاأحد التقاليد والممارسات الدينية. زد على هذا، فإن سكان صوفالة لا يتهاونون في إنزال عقوبة صارمة في حق السارق والزاني، إذ يساق الزاني والزانية إلى ساحة عمومية ويسلط عليهما العذاب حتى الموت. يجوز للرجل هناك أن ينكح من النساء ما يمكنه الانفاق عليهن، لكن الزوجة الأولى تحظى عندهم بالمفاضلة وتنزّل الاخريات بمنزلة الخادمات، ويتمتع الأبناء بحق البكورية، ويعتبر الحيض تأهيلا للزواج ليتأكد الرجل من استعداد المرأة للنسل، وتقام الأفراح بمناسبة الأعراس.

ليست لسكان البلاد مراسيم دينية، غير أنهم يحتفلون بذكرى موتاهم، ويعدون الزمن انطلاقا من طلوع الهلال، إلى اليوم الثامن والعشرين ثم يبدؤون العدّ من جديد.

كلما ذهب لحم موتاهم في بطونهم أو في التراب، احتفظوا بعظام الجثث، سواء كانت لأبنائهم أو لآبائهم أو لزوجاتهم اللائي أنجبن لهم كثيرا من الأطفال، وذلك للتعرف على أصولهم وفروعهم، ومرّة في الأسبوع، يطلقون حصيرا في بيوتهم، ثم يرتبون العظام حوله، ويقدّمون لها الطعام وكأن أصحابها لا زالوا على قيد الحياة، ثم يصلون عليها، وخلال صلواتهم، يطلبون منها أن تعمل على تحقيق سعادة الملك. وعلى إثر ذلك، يجلس ربّ الأسرة وعياله حول الحصير ويأكلون الأطعمة التي قدّموها للعظام.

يرتدي أهالي صوفالة ملابس قطنية مصنوعة محليا أو مجلوبة من الهند، لكن أعيانهم ونسائهم يلبسون ثيابا حريرية، غير أن الملك وزوجاته لا يكتسون بالمنسوجات الأجنبية خوفا مما قد يكون بها من مواد سامّة. نشير إلى أن عظمة الملك لا تقاس بأثاث فاخر ولا بزخارف القصر، وإنما يتباهى بما لديه من منسوجات قطنية مصنوعة في البلاد خصّيصا له، وتزينها الرسوم، على شاكلة الزرابي التي تصنع في الخارج.

عندما يتقدم الخدّام إلى الملك، يقفون أمامه على ركبهم. أما إذا قدّموا له أطعمة، فإنهم يجرّبون سلامتها بعدما يردّ إليهم ما فضل عنه، وكلما تناول شرابا أو أخذه سعال، طفق الحاضرون من حاشيته يصرخون ليعبّروا عن فرحهم وهم يحيونه،

ويجب على كل من تناهى إليه صراخهم، أن يصرخ هو أيضا، ولو كان خارج القصر، حتى أنك لترى المدينة كلها تردّد الصراخ بهذه المناسبة، تعظيما للملك.

إذا كان الملك يخاطب زواره، فعليهم أن يمكثوا قائمين إلى أن يأذن لهم بالانسحاب، لكن العرب والبرتغاليين وخواصه لا يخضعون لهذا العرف، ويعدّ ذلك من علائم التكريم والتشريف الواجبة في حقّهم. أما الشرف الثاني الذي يحظى به المرء عندهم، هو الجلوس على زربية في بيته، في حين أن الشرف الثالث الذي يحصل للمرء، يتجسّم في وضع باب للمنزل، ولا يتأتّى هذا عندهم إلا لكبار رجال المملكة، لأن بيوت الشعب تتمتع برعاية الملك ولا تحتاج إلى أبواب تقيها.

كل المنازل تصنع في البلاد من الخشب، اما التي تضاف إليها أغصان فوقها وتغشى بالطين، فإنها تعدّ من المنازل الفاخرة، وتلك أيضا إحدى علامات النبل والشرف.

يرافق الملك في حلّه وترحاله، في يقظته ونومه، جوق يردد انغاما موسيقية ومستملحات فكاهية. شعار المملكة، معزفة لها قبضة من العاج يحملها الملك في حزامه خلال السلم، ورمح يقبضه باستمرار خلال الحرب. يوجد بعض الأمراء من بين رعايا الملك، لكنهم يتحيزون في بعض الأحيان إلى جانب الذين يحاربونه من بين جيرانه من الملوك، غير أن الملك صار يحتفظ في قصره بأبنائهم وورثتهم ويضعهم موضع الرهائن.

رعايا الملك كلهم أحرار ولا يؤدون الضرائب، باستثناء بعض الهدايا التي يقدمها له الذين يلتمسون مقابلته، إذ ليس من اللياقة أن يتقدم المرء بيد فارغة إلى شخصية سامية، والهدية عند هؤلاء القوم تعد علامة للشرف والاحترام. لكن يتعين على الاعيان والخواص والرعايا والجنود والضباط بدون استثناء، أن يخصّصوا للملك سبعة أيام في الشهر لخدمة أراضيه أو عمل آخر. أما إذا رغب الملك في خدمات هامّة، فإنه يهدي بقرة إلى كل عامل من عمال مناجم الذهب، وعندها، يجب على كل واحد منهم أن يهديه ما عنده. أما التجار، فإنهم يقدمون له بدورهم بعض الهدايا بمناسبة الأعياد، لكنهم ليسوا مجبرين على ذلك. أما الذي لا يهدي شيئا فإنه يتجرؤ على المثول بين يديه، وهذا يعتبر عندهم وصمة عار.

يتقاضى الناس لدى الملك، وله الحق في تأكيد الأحكام أو نقضها. لا توجد في البلاد سجون وينظر الحكام في الخلافات بعد الاستماع إلى شكاوي

الأطراف المتنازعة التي يمكنها أن تعزّز دفاعها بالشهود. وإذا ما أراد أحد المدعين أن يطعن في دفاع خصمه، يتناول قشرة شجرة ويمضغها ثم يرمي بها في قدح من الماء، ثم يقدمه لخصمه، فإذا شرب منه، فإنه لن ينال عقابا، وإن رفض، يعتبر ذلك إدانة له ويحكم عليه، ويبقى حق العفو للملك، إلا أن العفو لا يتم بدون مقابل، ويضاف إليه واجب الوساطة لدى الملك.

لا توجد خيول في البلاد، ولهذا فإن الجنود كلهم مشاة، وأسلحتهم تتألف من الأقواس والنبال والرماح والخناجر وسواطير صغيرة جدّ حادة. لكن الحرس الخاص بالملك يتألف من مأئي كلب، ثقته بها تفوق ثقته بالجنود، ويستعملها في الحرب والصيد. أما غنائم الحرب، فإنها توزّع إلى ثلاثة أنصبة متساوية، نصيب الملك، ونصيب الضباط، ونصيب الجنود، ويتعين على المقاتلين أن يتزوّدوا على حسابهم بمؤونتهم الغذائية، مع العلم أن الملك لا يبخل عليهم من حين لآخر ببعض الذبائح.

يلاحظ أن الرجال يحترمون النساء، وإذا ما صادف ابن الملك إحداهن في الطريق، انحنى احتراما لها. أما الملكة ونساء وجهاء المملكة، فإنهم يخرجن جميعا إلى الحقول للسهر على عمليات الحرث أو الحصاد. هذا وقد يطول الحديث عن مناقب هؤلاء الجمال الذين يتصفون ببعض جوانب التعقّل وخصائص الضمير

الفصل الثالث والثلاثون

في أن عرب كيلدة هم الذين بنوا مدينة صوفالة

أقبل العرب على بناء مدينة صوفالة بعد حصولهم على موافقة ملك المنطقة الذي أدرك ما يكتسيه ذلك من أهمية بالنسبة للتجارة، خصوصا وأن العرب هم الذين ظلوا يهيمنون على التجارة عبر البحار في تلك الجهة، فكانوا يجلبون إليها المنسوجات الهندية وغيرها من البضائع، ويستبدلونها بالعاج والذهب ولم يكن أحد سواهم، يتقدم لطلبها من السود.

روى جيان دو بارّوس، أحد المؤرخين، أن العرب الأولين الذين استوطنوا صوفالة، قدموا من موقاديشيو، ثم انتقلت التجارة بعدهم إلى أهل كيلوة الذين بسطوا نفوذهم على المنطقة بأكملها، لأن ملك كيلوة عيّن واليا للاشراف على الشؤون التجارية.

أما كيف تم اكتشاف وجود الذهب بصوفالة، فإن ما لدينا من معلومات يفيد أن أحد أهالي كليوة كان يصطاد السمك على متن سفينته الصغيرة، قرب جزيرة ميزة، فوقعت سمكة ضخمة في سنارته، لكنه لم يستطع رفعها ولم يرد التخلي عنها بالتخلص من قصبته، وفرّت السمكة وهو يمسك بالقصبة، فاجتذبته بعيدا جدّا عن الجزيرة حتى وصل شواطىء صوفالة، وهناك التقطه بحّارة كانوا على ظهر مركب تجاري قدم من موقاديسيو، ورجع الصياد إلى كيلوة مع تجار السفينة، وروى ما شاهده من رواج تجاري على الشاطىء يتميز بما يتداوله السود وأصحاب السفينة من بضائع، من بينها كمّيات وافرة من الذهب، كما أخبر قومه أن أهل موقاديشيو كانوا ملزمين بتسليم مائة شاب من مواطنيهم، مرّة في السنة، إلى قوم صوفالة ليجامعوا بناتهم وليكون لهم أطفال من عرق أهل موقاديشيو.

عندما تلقى ملك كيلوة هذه الأخبار، بادر إلى إرسال مركب إلى صوفالة وأقام مع جهّالها علاقات تجارية، وبدلا من أن يرسل إليهم مائة شاب، أهدى إلى ركّاب السفينة ثيابا وأشياء أخرى، وقال لهم بأنهم إذا رغبوا في أن يكون لهم أطفال من فصيلة عرق أهل موقاديشيو، فإنه مستعدّ ليرسل إليهم تجّارا من العرق المرغوب فيه، ليستوطنوا صوفالة ويتزوّجوا ببنات قومها.

ونذكر من بين هؤلاء العرب تاجرا يسمى داود الذي أقام مدة طويلة بصوفالة ثم هاجر إلى كيلوة. وكان ملوك كيلوة يعينون الولاة على صوفالة، وكان من

بين اختصاصات هؤلاء الولاة الاشراف على الحركة التجارية وتنظيمها. ولما حل البرتغاليون بصوفالة عام 1505، كانَ واليها آنذاك يسمى يوسُف.

الفصل الرابع والثلاثون

بناء قلعة برتغالية بصوفالة

في عام 1505، برح لشبونة بأمر من مانويل ملك البرتغال، النبيل بيدرو أناية الذي حارب إلىَ جانب الفونس الخامس في عدة معارك، وقد تلقى تعليمات للتعرف على مصادر الذهب بصوفالة، وتشييد قلعة لتأمين النشاط التجاري البرتغالي بالمنطقة وإيواء التجار البرتغاليين وتخزين البضائع الواردة من بومباي وتأمين الذهب المستخلص من تسويقها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى. فإن البرتغاليين أمسوا متفائلين بربط الصلة بين هذه القلعة وكل من القلعة التي خططوا لبنائها بكيلوة والقلعة التي اعتزموا تشييدها بمدينة الموزنبيق خلال نفس السنة.

أبحر بيدرو أناية على رأس أسطول يتألف من ستة مراكب وصلت منها ثلاثة إلى مقصدُها، في حين أتلفت العواصف الثلاثة الباقية.

رسّت السفن الثلاث على مقربة من مصب نهر، فرمق أناية مجموعات سكنية يقطنها العرب على ضفاف النهر الذي ينساب خلال غابة كثيفة. وتقدم إلى الأسطول وفد عن المدينة أرسله الوالي، الذي لا شك أنه كان على علم بما قام به فرانسيسكو الميدي من أعمال في كيلوة ومونباسة كما لم يغرب عنه هدف البرتغال الذي اطلعه عليه ركاب سفينة برتغالية تم احتجازهم بعدما انحبست سفينتهم في الشاطيء وقال أناية للوفد العربي أنه أقبل لمقابلة الحاكم ومفاوضته في أمور فيها منافع للوالي وللملك البلاد.

لم يستحسن العرب مجيء البرتغاليين، فردّوا على أناية بأن الوالي شيخ هرم مصاب بالعمى ولا يستطيع أن يخرج من بيته، ولا فائدة في مقابلته وأنه يسكن مكانا قصيا، وأن السفن لم تستطيع المرور عبر الأشجار. لكن أناية الحّ عليهم بشدّة لتسهيل مهمته، فقبلوا.

ركب الوفد العربي وبعثة من البرتغاليين زوارق وطلعوا النهر عبر مسافة نصف فرسخ. وكان كل واحد من البرتغاليين مستعدا للطوارىء.

كان الوالي يوسف يسكن في مدينة تقدّر بيوتها بنحو ألف كانون، وهي مصنوعة من الألواح في حين كان منزله متين البناء، فسيح الأرجاء ويتضمن غرفا كبيرة يتوسطها بهو على شكل صليب وكأنه كنيسة، وفي مؤخرته يوجد مخدع كان فيه سرير الوالي.

كانت الغرف مفروشة بأثواب حريرية مزركشة تزينها رسوم هندية. ولما رأى الحرس والخواص وفد البرتغاليين، تقدم إليه أحدهم وقاده إلى الوالي الذي كان ممتدا على فراشه ولم يظهر على الحال التي وصف بها من قبل.

تبادل الوالي وزواره التحيات، ثم أطلعه أناية على المهمة التي أناطه بها عاهل البرتغال، مؤكدا بأن بناء قلعة في صوفالة سيرجع بالخير العميم على الوالي وشعب المدينة، كما سيؤمن سلامة التجار البرتغاليين والبضائع، زيادة على ما سيترتّب عنها من مزايا أخرى.

كان له تأثير على نفس الوالي، فوافق على طلبه، لكنه أضاف بأن سفينة برتغالية انحبست في الشاطىء منذ أيام قلائل، وأنه استضاف عنده ركابها البالغ عددهم عشرين نسمة خوفا عليهم من القبائل الزنجية.

استقدم الوالي حينا هؤلاء الغرباء وسلّمهم إلى القائد البرتغالي ثم أمر بعض رؤساء الجالية العربية بمرافقة قائد الاسطول البرتغالي الى المكان الذي يريد أن يشيد فيه قلعته وتزويده بما قد يحتاج إليه، فشكره أناية على مساعدته وأشاد بكرمه ومحاسنه، ثم قدم إليه وإلى ذوية هدايا وذهب لبناء قلعة على ضفة النهر في مكان مأهول، يبعد بنصف فرسخ من مقر الوالي.

كان ليوسف صهر ذكي شجاع، فأعرب عن معارضته للرخصة التي منحت للبرتغاليين، مبديا تخوفاته مما قد يترتب من عواقب وخيمة على البلاد من جرّاء بناء تلك القلعة، مُؤكدا أن البرتغاليين إذا رغبوا في التعامل مع الأهالي، فينبغي لهم أن يتجروا معهم انطلاقا من سفنهم دون الحاجة إلى الإقامة في عين المكان، وأن الحكمة تقتضي منعهم من الاستيطان في البلاد. لكن الوالي كان له رأي مخالف، فطمأن صهره بقوله إن الزمان سيلقّن البرتغاليين دروسا أهمّ من الكلام، وإنهم سيضطرون إلى الجلاء عن موقعهم عندما تشرع الامراض في الفتك بهم، وأن أمر القلعة سيؤول للآهالي وأن حفاوة الاستقبال التي خصصت لهم ترمي إلى تضليلهم وابعاد التشكك عن أدمغتهم.

اقتنع الصهر بكلام يوسف وشيّد البرتغاليون قلعتهم التي مكّنتهم من احتلال البلاد والسيطرة على تجارة الذهب، رغم إرادة الوالي.

الفصـل الخامـس والثـلاثـون

في مقتل الوالي على إثر محاولته الاستيلاء على القلعة، بتواطىء مع أحد ملوك البلدان المجاورة

أضحت المبادلات التجارية مع البرتغاليين هزيلة في البداية، ذلك لأن هؤلاء الغرباء مضوا يدفقون في سوق صوفالة منتوجات برتغالية لم يكن عليها اقبال، لأن الأهالي ظلوا يفضّلون البضائع الهندية ولا سيما الواردة من بومباي. لكن البرتغاليين تداركوا الأمر وأخذوا يهيمنون على الأسواق المحلية، ملحقين أضراراً جسيمة بمصالح التجار العرب. فاشتكى هؤلاء من سياسة الوالي ومن صهره مصاف، مؤكدين أن القلعة تشكل خطرا محققا على البلاد وتعرض العرب للأفلاس.

احتج العرب لدى الوالي على الممارسات البرتغالية فانفعل لشكواهم. لكنه قال لهم ما قاله لصهره من قبل ولما علم يوسف أن المرض أقعد عددا من نزلاء القلعة، حسب الظرف ملائما للاستيلاء عليها. لذلك اتصل بأحد الملوك المجاورين لصوفالة وأشعره بأن القلعة تأوي عددا من القراصنة البرتغاليين في حوزتهم كنوز نفيسة، من ضمنها منسوجات فاخرة صنعت خصّيصا لبيناموطابا، وأن الأمراض انتشرت في القلعة المحاصرة، وأنه يدعوه إلى المشاركة في عملية السطو عليها ليكون له نصيب من الغنائم.

لم يكبح الملك الأسود جماح طمعه، فاجتاز النهر على رأس قواته، فرمقه بعض العرب من الذين حصلوا على حماية برتغالية لكيلا تطبق عليهم العدالة المحلية، وأشعروا قائد الحمّية البرتغالية بتحركات الزنوج.

كان من بين هؤلاء العرب شاب مسلم يسمى ياقوت، أصله حبشي، وقع في الأسر وهو طفل، فربّاه الحبشيون على عوائدهم ودينهم، فاتصل بأناية طالبا اللجوء إلى القلعة، فكان له ما شاء، وجرّ معه عددا من أخلّائه، فانضمّوا إلى عناصر الحامية البرتغالية.

أقبلت جحافل الزنوج وهم واثقون من تحقيق فوز عظيم، وكان عددهم ستة آلاف أو يزيدون، فاحتشدوا حول القلعة وشرعوا يتلفون معالم حدود أرضيتها كالأوتدة التي نصبت حولها، لكن البرتغاليين تصدّوا لهم بنيران بنادقهم، فأصابوا منهم عددا كبيرا ولاذ الآخرون بالفرار، غير أن قائد الحامية تعقّبهم على رأس وحدة تتألف من خمسة وثلاثين جنديا وعشرين عربيا من بينهم الحبشي ياقوت.

غضب أولئك السود، واتهموا الوالي والعرب بدفعهم إلى الهجوم على القلعة ليتخلّصوا من النصارى، معتبرين الأسلحة النارية معجزة شيطانية، ثم أغاروا على البلدة ونهبوها نهبا، وهاجموا مقرّ الوالي وحاشيته، ولولا فراره لتعرّض إلى موت محقّق.

لم يكن يومئذ بالقلعة إلا خمسة وثلاثون جنديا، وما عداهم من نزلائها فإنهم أمسوا غير قادرين على حمل السلاح لأن الأمراض أقعدتهم فعلا.

عندما غادر الزنوج البلدة، فكّر أناية بدوره في الانتقام من حاكمها، لذلك خرج إليه ليلا متسترا وتسلّل إلى القصر. لكن الحاكم أحس بشيء غير عاد، فتناول سيفه وتربّص خلف باب غرفته. ولما دخل عليه أناية، وجّه إليه ضربة أصابته في ذراعه، فصاح. إذ ذاك، أسرع نحوه اثنان من رفاقه وقتلا الحاكم.

هم العرب في أخذ الثأر من البرتغاليين فحاصروا القلعة خلال ثلاثة أيام، لكنهم تنازعوا فيما بينهم وأخذوا يقتتلون إلى أن التمس أحدهم يسمى سليمان، من ياقوت. أن يطلب من أناية التدخل لحسم الخلاف، فقام القائد البرتغالي بالدور المطلوب، ونصّب سليمان حاكما.

مات أناية وعدد من نزلاء القلعة من جرّاء المرض، وأوشك الحصن أن يسقط في أيدي العرب، لولا أن سفينتين برتغاليتين أنزلتا الامدادات التي خيبت آمالهـم

توجد داخل البلاد، وعلى الضفة الشرقية من بحيرة زمبيز، عدة أقاليم، منها إقليم تسوسه النساء، ويجبرن الرجال على القيام بالأعمال التي نعدّها من اختصاص المرأة، كما أنهن في حالة حرب مستمرة مع أهل الحبشة، فيبارزنهم بكفاءة واقتدار.

الفصل السادس والثلاثون

الموزنبيق

الموزنبيق[27] مدينة تقع بشاطيء زنجبار، في الشمال الشرقي لمدينة صوفالة، واكتشفها فاسكو دوكاما عام 1497، فاعتبرها منفذا لاكتشاف الهند.

أغلب سكان المدينة عرب مسلمون، يسوسهم حاكم يدينون له بالولاء وينزّلونه منزلة الملك، وتشكل المدينة موقعا تجاريا هاما، إذ يمكن للمراكب أن ترسي بمينائها وتقع هي بين صوفالة وكيلوة.

إلا أن التجارة كانت راكدة، وذلك لأن سكان المنطقة الخلفية للمدينة قوم من السود البدائيين، منطوين على أنفسهم، لا يبرحون مداشرهم ويكتفون بالتعامل فيما بينهم.

تغيّرت أحوال مدينة الموزنبيق مع تردد البرتغاليين عليها، وازدهر فيها الرواج، ولم تمض سنة دون أن ترسي بها القوات البحرية البرتغالية، التي كانت في بعض الأحيان تلجأ إلى مينائها وتقيم به عدّة أسابيع حتى تهدأ العواصف البحرية والرياح العاتية التي كانت تقلّب قنال الموزنبيق.

وجد البرتغاليون أن منازل المدينة بسيطة ومصنوعة من التبن والقصب، ماعدا منزل الحاكم والمسجد اللذين شيدا من الآجور.

بنيت المدينة فوق جرف عظيم كالصرح وتكاد تكون كالجزيرة تثير انتباه البحارة من بعيد. وفي عام 1508، أمر عاهل البرتغال ببناء قلعة ومستودع للبضائع ومستشفى.

الفصل السابع والثلاثون

عن كيلوة وما حدث فيها قبل مجيء الميدي

يرجع الفضل إلى العرب في إنشاء هذه المدينة الشاطئية التي توجد في منطقة فلاحية خصبة، غنية بفواكهها المختلفة، المألوفة لدينا وغير المألوفة، وبإنتاجها الزراعي وأنعامها ودواجنها، كالدجاج والحمام وغيرهما من الطيور التي لم يمكن لنا علم بها، لكن مياهها ليست جيدة، بسبب كثرة البحيرات المالحة. منازلها تشبه

(27) يدل هذا الاسم على المدينة، وأطلق البرتغاليون على البلاد الخلفية وعلى الاقليم الذي استعمروه، نفس الاسم، وكانت العاصمة تسمى في عهد الاستعمار لورانسو مركيس، وتسمى اليوم مابوتو (المترجم)

منازل البرابر، أزقتها ضيقة، ويسكن الحاكم في قصر تحرسه الأبراج ويحيط به خندق مليء بالماء، وله بابان، أحدهما يطل على البحر، والثاني يطل على الخليج الذي ترسي به المراكب.

في غضون سنة 1500 دخل إلى الخليج، ألفارو كابرال على رأس أسطول برتغالي، وأجرى محادثات مع الحاكم المسمى ابراهيم، في موضوع التجارة، لكنه لم يحصل على ما كان يريد. وسنتان بعد ذلك، نزل فاسكو دوكاما بالمدينة، ولما تبيّن له أن الحاكم لم ينصع لمطالبه، شن على المدينة هجوما عنيفا، أدى إلى إستسلام الحاكم وقبوله أداء إتاوة سنوية قدرها خمسمائة قطعة ذهبية. لكن الحاكم نقض المعاهدة. وبعد ثلاثة أعوام، تقدم الميدي على رأس أسطول برتغالي، وطالب مقابلة الحاكم، لكنه تماطل في الردّ. وأطلع القائد البرتغالي رجاله بما لديه من تعليمات من ملك البرتغال للفصل في الحرب أو السلم مع ملوك المناطق التي يريد أن يجعلها محطات في طريق الهند، وأنه يرى وجوب بناء قلعة على شاطىء كيلوة لتأمين رحلات الأساطيل المسيحية.

غداة ذلك اليوم، شنّ البرتغاليون هجوما واسعا على المدينة، فسقط منهم بعض الجرحى نظرا لضيق أزقتها، لكنهم انتفضوا وتمكنوا من الاستيلاء على البيوت كلها، ثم توجّهوا إلى القصر وحاصروه. عندها، طلب الحاكم ايقاف العمليات، معلنا عن ولائه لملك البرتغال. ثم رفع راية برتغالية فوق أحد الأبراج. لكنه كان يرمي من وراء ذلك، مخادعة البرتغاليين، إذ تركهم ينتظرون، بينما لاذ بالفرار من باب سرّي، ولما اكتشفوا الحيلة، أغاروا على القصر ونهبوا ما وجدوا فيه، كما نهبوا المدينة.

الفصل الثامن والثلاثون

بناء كيلوة

بنى المسلمون مدينة كيلوة، سبعين سنة بعد بنائهم موقاديشيو، وفيما يلي، الظروف التي تم فيها ذلك.

كان للسلطان الفارسي حسن، عند وفاته، سبعة أولاد من بينهم أحد اسمه علي، كانت والدته أمة حبشية الأصل. ولهذا السبب لم ينج علي من ازدراء اخوته له، وكان يسمع ما يحكى عن افريقا من ثراء، فهجر إليها رُفقة عدد من أصدقائه.

فكّر في الاقامة في بعض المواقع بشاطىء زنجبار، لكنه لاحظ أنها مأهولة، فواصل طريقه إلى أن نزل بمكان خال، لا عمران فيه، فوقع عليه اختياره، وهو موقع كليوة حاليا، ثم فاوض الزنوج الذين ساروا نحوه، فسمحوا له بما أراد، وأعطاهم بعض الهدايا مقابل ذلك، وما هي إلا أيام حتى شرع يشيّد المنازل لحاشيته وأخذ يبسط سلطانه على الأماكن المجاورة، مثل شانكة وصونكو، وهكذا خرجت كليوة من العدم وأصبح علي ملكها.

ولما مات علي، خلفه ابنه أبو المال الذي حكم زهاء أربعين سنة، ولم يكن لهذا الأمير ولد، فخلفه ابن أخيه، علي أبو الفلك الذي ما كاد يتربع على كرسي الحكم أربعة أعوام حتى انتزعه منه ابنه داود، ففرّ الى مونباسة حيث وافاه الأجل. عندها، عيّن داود واليا على المدينة يسمى علي بن أبي بكر، لكن الأهالي أطاحوا به بعد عامين ونصّبوا مكانه حسين سليمان، ابن أخ الأمير المخلوع. ولما توفي هذا السلطان، خلفه حسن بن داود الذي سير دفة الحكم مدة ستين سنة، وبعد وفاته، خلفه أحد أحفاده يسمى حسن، غير أن السكان خرجوا عن طاعته بسبب طغيانه، ونصبوا مكانه سليمان الذي طغى بدوره على الأهالي، فأطاحوا به وقطعوا رأسه، وعينوا خلفا له، ابنه داود، فبقي يسوسهم أربعين سنة، وعندما هلك، خلفه ابنه سليمان حسن، الذي كان على جانب كبير من الذكاء، فازدهرت كليوة في عهده. واتسعت رقعة مملكته، وغزا جزر زنجبار وفونبا ومونسيا، واستولى على مناجم الذهب الواقعة بصوفالة وبنى قلعة بكليوة واستبدل ببيوت الخشب منازل مبنية من الحجر وتم كل ذلك في ظرف عشرة أعوام.

لما مات هذا الامبراطور العظيم، خلفه ابنه داود، مدة عامين، ثم بعده ابنه طالوت لمدة عام واحد، وجاء بعدهما أخوهما الحسن الذي حكم مدة خمسة وعشرين عاما، فخلفه أخ له يسمى بني سليمان الذي دام ملكه عشرة أعوام، فأتم ما بداه أبوه وما شرع اخوته في تشييده.

واعتلى العرش بعده ابن أخيه علي داود، الذي حكم أربعين سنة. وهكذا تعاقب الابناء والأحفاد وغيرهم على ملك كيلوة وصوفالة التي آلت إلى أحدهم يسمى يوسف، وفي عهده، قدم الضابط البرتغالي إلى صوفالة وبنى فيها قلعة. وبعد مقتل يوسف عيّن السكان مكانه ملكا آخر يسمى عبد الله.

وتوالت الخلافة في فروع هذه الأسرة الشيرازية وكان الوزير الوزير الأول يلعب فيها دورا كبيرا، وهكذا إلى عهد أبي الفضائل الذي لم يعمّر كثيرا. وبعد وفاته، قرر الوزير الأول المسمّى الأمير ابراهيم الانفراد بالحكم.

كان لأبي الفضائل إبن أنجبته له أمة، يحكم منذ سقوط كيلوة في أيدي البرتغاليين، ولئن كان ابراهيم صاحب السلطة الفعلية فإنه لم يحظ من طرف شعب المدينة بلقب الملك، وكان يعتبر واليا لا غير، ويرجع بقاؤه في الحكم إلى المشاكل التي كانت تعانيها المدينة مع البرتغال، وهو الذي فقد الحكم وجلاّ عن المدينة أمام قوات الميدى الذي لم يكن يعرف شيئاً عن تاريخ الأسرة الحاكمة لولا المعلومات التي زوده بها عربي اسمه محمد أنكونيي الذي كانت له صداقة متينة بالبرتغاليين، دون أن يتساءلوا هل انحدر من سلالة الملوك أم لا.

علم الميدي أن الأهالي يريدون ملكا تعاقب آباؤه على الملك، فاقترح عليهم محمد أنكونيي، فقبلوه، ثم اجتمع الميدي بضباطه وقال لهم بأن الضرورة تقتضي أن يعتلي عرش البلاد شخص يحظى باحترام السكان وبثقتهم.

استدعى القائد البرتغالي محمدا أنكونيي وأخبره بأن ملك البرتغال اختاره لاعتلاء عرش مملكة كيلوة، وأنه سيساعده ليصبح أقوى شخصية في البلاد إذا ما استمر في خدمة البرتغال، ثم ألبسه عباءة حمراء من الحرير، ووضع على رأسه تاجا، واستدعى سكان المدينة وأخبرهم بأن الجيش البرتغالي الذي أقصى الوالي ابراهيم بسبب خيانته، سيقوم باسم ملك البرتغال، بتتويج أنكونيي ملكا على البلاد.

بعد ذلك، قام محمد أنكونيي على فرسه، بجولة عبر المدينة، تتقدمه فرقة موسيقية من الجوق البرتغالي، والناس خلفه ينادون بحياته. وقبل أن ينسحب الميدي، طلب منه محمد أنكونيي أن يطلق سراح العرب الذين احتجزهم فاستجاب لطلبه، وكان لذلك أثر حميد في النفوس، إذ استعادت المدينة جوها الطبيعي، وعاد إليها كل الذين هاجروها على إثر غزوها من طرف البرتغاليين.

عندما فرغ الميدي من ترتيبات تنصيب محمد انكونيي شرع البرتغاليون في بناء القلعة وتحصيناتها، ولما فرغوا من العمل أطلقوا على القلعة اسم سان جاك تخليدا لذكرى القديس الاسباني، ثم عينوا بها حاكما عسكريا له حامية تحت تصرفه مع سفينة حربية وبعد ذلك، أبحر الميدي وأسطوله قاصدا مونباسة.

الفصل التاسع والثلاثون

مقتل محمد أنكونيي واختيار ابنه خلفاً له

بعدما صارت صوفالة خاضعة للسيادة البرتغالية قضى الملك مانويل بأن يحتكر البرتغال نقل البضائع من كيلوة إلى صوفالة لاستبدالها بالذهب، فكانت هذه السياسة سبباً في اضمحلال مدينة كيلوة وتقاعسها.

كانت سفينة حربية برتغالية تقيم الحصار على المنطقة وتحجز البضائع التي ترد على متن سفن تجارية. ذات يوم، استولت القوات البرتغالية على إحدى هذه السفن، ولما قامت بتفتيشها، وجدت من بين ركابها، ابن ملك تيراندیکونت الذي كان يقطن كيلوة، فألقت القبض عليه وعلى أفراد أسرته، لأنه كان بصفته أحد أقارب الوالي السابق ابراهيم، يناوىء تدخّل البرتغال في المنطقة ويضايق التجار العرب. لكن الملك محمدا أنكونيي افتداه وأفراد أسرته بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وأكرمه ثم أرجعه إلى والده الذي كان يسود بلاداً مجاورة لكيلوة، كما طلب منه أن يحمل إلى أبيه رغبته في مقابلته، لإجراء محادثات تتعلق بمصالحهما المشتركة. ولاسترداد ما دفعه من مال فدية لابنه.

عندما علم البرتغاليون بنواياه، نصحوه بالعدول عن فكرة التعاون مع أقرباء الوالي السابق فلم يحفل برأيهم، وسار محمد أنكونيي بعد ذلك، لمقابلة ملك تيراندیکونت.

وذات ليلة، بينما كان الملك محمد انكونيي في مخدعه بالسفينة نائما، تسرَّب الأمير الذي افتداه إلى مخدعه واغتاله بطعنة سكين، فاشتعلت نار الفتنة في كيلوة بعدما نعي إليها مقتل ملكها، وانقسم الناس حول ترشيح خلف له.

أمام هذه الأحداث، أمسك البرتغاليون والعرب بزمام الأمور، واتفقوا على ترشيح الحسين، ابن الملك الراحل، اعتبارا للخدمات التي اسداها أبوه للعرش

البرتغالي. وتنفيذا لما ورد في المعاهدة المبرمة بين الجانبين. لكن والي المدينة وبعض وجهائها وطائفة من أعيان الزنوج، عارضوا ترشيح الحسين، بدعوى أنه لا ينبغي أن يعتلي العرش، شخص لا ينتسب إلى أسرة عريقة في النبل.

اتسعت رقعة الاضطرابات في المدينة، حتى إن أهاليها طفقوا يهجرونها أفواجا أفواجا قاصدين ميلاندة ومونباسة وغيرهما، وازداد التوتر بالمنطقة بسبب الأعمال الاستفزازية والاستنزافية التي مضى يمارسها البرتغاليون، والمتمثلة في القرصنة البحرية التي لم تكن تعرف من قبل، في هذا الركن من المعمور، وغني عن البيان أن البرتغاليين أرادوا أن يصبحوا أثرياء، بكل الوسائل، وفي وقت وجيز، بقطع النظر عن أي اعتبار.

على إثر هذه الأحداث، تدخل فرانسيسكو الميدي شخصياً لإعادة الهدوء إلى نصابه، فأوفد مبعوثا عنه الى البرتغاليين وحملهم على الاقلاع عن نهب السفن التجارية، وأعلن في كيلوة أنه بوسع القوم أن يطمئنوا على مصالحهم، ويمكنهم أن يزاولوا نشاطهم التجاري بكامل الحرية، كما كان ذلك في عهد ابراهيم، ورد إلى ثلاثة أو أربعة تجار من كيلوة بضائعهم التي استولى عليها سابقا القراصنة البرتغاليون. بعد ذلك، ولى عائداً إلى صوفالة.

رجع بعض المهاجرين إلى كيلوة، وأفلح البرتغاليون في اقناع الأهالي بقبول الحسين خلفا لأبيه ابراهيم. لم تمض إلا أسابيع قليلة، حتى رغب الوالي الجديد في الانتقام من الذين فتكوا بأبيه، ولتحقيق هدفه، أوحى إلى أحد الملوك المجاورين، اسمه ماني مانسي، بأن يقوم بشن هجوم على مملكة أعدائه قصد الاستيلاء على ما فيها من ثياب ثمينة، وكنوز نفيسة.

قبل الملك الزنجي العرض المغري، وتظافرت جهود الجانبين وزحف الملك الزنجي براً نحو مملكة نيرانديكونت، وسار إليها الحسين بحرا، ودخلا إليها منتصرين، ونهبا مافيها، وأمام ذلك، فر الأمير وأبوه وتم سبي عدد كبير من رعاياهما.

كان هذا النصر سببا في القضاء على الحسين، لأنه انتشى بفوزه وسرى فيه الكبرياء وسعى إلى محاربة ملوك ميلاندة وزنجبار والأمراء العرب، وقد نسي أن لكل

واحد منهم كرامة. أما انعكاس حروبه على كيلوة، فكان سيئاً حيث لم يكن من يغفر له ما فرضه عليهم من جهود من أجل الحرب، خصوصاً وأنه استنجد ببعض التجار الذين لقوا حتفهم في المعارك، فأخذ رعاياه يضمرون له الكراهية والبغضاء.

انتفض السكان واتفقوا مع الملوك المجاورين، وطلبوا من خليفة الملك البرتغالي المقيم بالهند خلع الحسين، وإسناد أمور المملكة إلى إبراهيم أو إلى أحد أقربائه المسمى نيكانت. الذي رشحه السكان سابقاً لاعتلاء العرش بدلا من الحسين، استجاب خليفة الملك لمطلبهم، لكن إبراهيم اعتقدها خدعة. وهكذا أصبح نيكانت ملكا على كيلوة. أما الحسين، فإنه أبى أن يكون مواطناً عادياً في البلاد التي كان فيها ملكا، وقد انفق أموالا طائلة في تحقيق الانتقام لابيه، ولجأ إلى مونباسة حيث أقام إلى أن مات.

كان نيكانت في البداية ملكا محبوباً، إذ كان يدبّر شؤون المملكة بحكمة وتبصّر، ويعدل بين الناس بالحق، إلا أنه زلت قدماه بعد عامين، حيث مال إلى ممارسات استبدادية، فكرهه القوم بقدر ما سبق لهم أن أحبوه. ومما زاد في الطين بلة، أن الوالي البرتغالي رحل عن المنطقة بعد أن أنهى مدة خدمته بها، ولم تكن بينه وبين خلفه علاقات طيبة. وبما أن ابراهيم لم ير بعين الرضى نيكانت يحكم الجزيرة، فإنه أشهر عليه حرباً شارك فيها النصارى — وهم أربعون فقط — ضده، فقتلوا العديد من جنوده، معرضين أنفسهم للخطر. في هذه المغامرة.

استبدل البرتغاليون حاكم القلعة بآخر بعدما قضى فيها عامين، ولم تكن بين نيكانت وبين خلفه علاقات ودية، فنشبت بينهما الحرب وأراق المسيحيون كثيرا من دماء الأهالي، معرضين أنفسهم للأخطار، فاغتنمها ابراهيم فرصة. ودخل إلى كيلوة مع عدد هام من الزنوج يقودهم أخوه، وحارب النصارى، وأسر حاكم القلعة وحاميتها، في حين استبسل نيكانت وهو يحارب إلى جانب البرتغاليين.

على إثر هذه الأحداث شجب البرتغال الأسباب التي أدت إلى تشييد هذه القلعة، وأعطيت الأوامر لتدميرها ونقل حاميتها وعتادها إلى جزيرة سكوتورة

التي استولى عليها تريستان داكونيا، لكن قبل أن يتوصل الوالي البرتغالي بهذه التعليمات كان قد خلع نيكانت وبعث إلى إبراهيم يطلب منه المثول أمامه، وحتى يقنعه بأنه لا يسعى إلى الخداع من وراء ذلك، أوفد إليه ابن أخيه ضمانة.

نزح نيكانت إلى جزيرة كيرامبا حيث قضى ما بقي من حياته فقيرا بئيسا، واعتلى إبراهيم أريكة العرش وصار هادئاً وديعاً، ودبر أمور مملكته أحسن من ذي قبل، لأنه أخذ العبرة من الأحداث السابقة، وأوصى أبناءه بالوفاء إلى خليفة ملك البرتغال وعدم التهاون في تنفيذ أوامره.

وهكذا انتهت الأحداث المأسوية بما تطمئن إليه القلوب، وفتحت صفحات جديدة، غير أن كلاً من الملك محمد والحسين ونيكانت قاموا بأدوار لم تكن في صالحهم. وهذا ما أوردناه ليكون عبرة وعظة للأجيال القادمة.

الكتاب العاشر

اثيوبيا العليا أو بلاد الاحباش

الفصل الأول

ميـلانـدة

المدينة الأولى في إثيوبيا العليا على ساحل زنجبار

توجد مدينة ميلاندة دون مدينة كيلوا، وسكانها مسلمون. وفيها أرسى فاسكودي كاما اثر مغادرته لمومباسا، والتقى بالأمير الطيب. الذي تفاهم معه، ومنها أخذ الدليل الذي ساعده على مواصلة طريقه. وترك افريقيا على يده اليسرى وقطع خليجا يبلغ سبعمائة فرسخ ويبتدئ على ثمانية فراسخ من ميلاندة، واليكم ما عرفته عن تاريخ البلاد القديم.

قبل البعثة المحمدية، برغم كون العرب كانوا يجتازون المضيق البحري ويدخلون بلادهم، فانهم كانوا ياتون كأجانب ويكتفون بالبيع والشراء، ويعودون الى ديارهم ولكن منذ ان دخلوا الاسلام بحد السيف، فانهم أصبحوا على جانب كبير من الاقدام وانتشروا في كل مكان. واذا لم يستطيعوا فرض دينهم بالقوة، فإنهم كانوا ينشرونه بالحيلة عن طريق التجارة وغيرها من الوسائل. وهذا ما فعلوه في ذلك الساحل، وفي سائر شواطىء الهند التي كانت تقطنها شعوب همجية ووثنية، واستوطنوا الأرض سلميا الى جانبهم وعمروا الجزر والمراكز على طول الشواطىء ليصبحوا سادة البحار. وما ان استقروا بمكان حتى اتخذوا اما لقب شيخ أو ملك البلد، وأصبحت لهم سطوة على مقدار جاليتهم.

فكانت هناك قرى تافهة، ولكنها واقعة بمكان صالح للتجارة، واذا وجد مكان فيه نظام وشرطة، فهو من عمل يدهم. وفيما يخص البناءات القديمة فهي كبيرة وفخمة وتتجاوز في بعض الاماكن مآثر اليونان والرومان. وهكذا عمر العرب ذلك الساحل، وليسيطروا عليه ويستقلوا به تحلوا كلهم اما بلقب شيخ. أو ملك، وباستثناء أميري كيلوا وزنجبار، فلا يعتبر الآخرون كأمراء بل كشيوخ، واما حاكم مومباسا، فيعتبر طاغية لأنه كان واليا عن ملك زنجبار، ثم ثار عليه. واما حاكم ميلاندة، فانه يفاخر أقدم الحكام في البلاد، ويقول انه ينتسب لملوك كيتاو، التي هي مدينة واقعة على بعد ثمانية عشر فرسخا من الاولى، وقد هيمنت على ذلك الصقع بأسره، وان كانت لم تبق الا كقرية تافهة، ومن خلال بعض الابراج الباقية وبعض الازقة يظهر انها كانت على جانب من الكبر. ويعتقد آخرون ان مدينة لوسين القريبة كانت عاصمة تلك الأقليم وان الاماكن الأخرى كانت تابعة لها،

ومهما يكن، فلا توجد قرية في تلك الجهات لا تنوه بأصلها ولا تدعي بالأسبقية على جارتها.

ويريد ملك ميلاندة أن تكون مدينتا كيون وكيليف داخلتين في حوزته. ولهذا السبب فهو في نزاع مع أميرها، وله أطماع في أماكن أخرى تابعة لأوكا. وأخيرا، ان كل الملوك والشيوخ العرب يطمعون في بعضهم البعض. ولا يملكون شيئا داخل الصقع، لأن الكفريين الذي يخافون منهم لا يتحملونهم، ولهذا السبب يقفلون مدنهم بأسوار من الحجر أو الطين حسب البلد. ويقص أهل ميلاندة للتدليل على مجدهم القديم أن سيد ميلاندة كان، قبل وصول البرتغاليين منذ خمسين سنة، وجه بعض العرب مع مائة من الكفر لاكتشاف البلد الواقع على نهر ياتي مصبه على بعد فرسخ من ميلاندة، وهناك يوجد، على ما أظن، شناخ ربط، وإن لم يوجد في العلو الذي ذكره بطليموس. وسار القوم في محاذاة النهر طوال ثلاثين يوما ولما رأوا انه يتسع كلما تقدموا في مسايرته[1]، وانه ملىء بالخيول البحرية، ولا يمكن قطعه الى الضفة الأخرى حيث شاهدوا أرضا عارية وبعض القطع المحروثة للسكان، رجعوا الى أدراجهم بعد ان استنفدوا زادهم، دون أن يجدوا أحدا يزودهم من جديد، لأن الأماكن التي كانوا يمرون بها كانت محجرة ومغطاة بالأشجار. ولكن بعد ذلك بزمان، وقع تحرك من سكان البلد اما لأن تلك البعثة أيقظتهم أو لسبب آخر فجاءت قافلة من الزنوج ذوي الشعر الجعد محملة بالذهب والعاج لمبادلتها مع بضاعة يحتاجون اليها، فخيموا خارج مكان كيلمانصي حيث يوجد آنذاك ملك ميلاندة. ولكن بما أنهم لا يستطيعوا التفاهم معه لأنه كان يطلب منهم حقوقا ثقيلة، قرروا الذهاب الى ميناء آخر، لكن الملك أمر بالهجوم عليهم ليلا، وانتزع منهم كل ما كانوا يملكونه، وكان هذا سببا في عدم رجوع أي واحد منهم. وهذا النهر ينزل من بلاد الأحباش ويسيح في اقليم الأمازون حيث يوجد ذهب كثير. وأول أجنبي علم بذلك كان قائد أسطول برتغالي[2] كان يتجول قرب تلك السواحل مع آخرين لكسب الثراء، فدخل في مصب ذلك النهر وتوغل مسافة خمسة أيام. ولكنه لم يجرؤ على النزول، خوفا من نفاذ الزاد. ولما رأى أن الزنوج لم يريدوا التبادل معه، عاد الى البحر، وحكى ان النهر كبير كما يلوح من كثرة الخيول التي كانت تعوم به، وأضاف نفس المعلومات التي كان العرب يروونها عن الحالة بالبلاد. وقد عرف بعد ذلك أن النهر ينبع من بحيرة زابير ويدخل في بلد الأحباش حيث ينقسم الى فرعين كلاهما صالح للملاحة، ويكونان جزيرة دائرتها

(1) هنا شيء غير صحيح لأن النهر لا يتسع عند صعوده.

(2) جورج فونيطيكا.

ستمائة فرسخ، تشتمل على عدة أقاليم ويقطن بها شعوب كوتيكويس. وفي ذلك المكان توجد عدة مناجم(3).

حظي فاسكودي كاما باستقبال حسن من لدن ملك ميلاندة، ووصل في ظرف اثنين وعشرين يوما الى كاليكوت، تاركا هذا الملك راضيا عنه وملتزما بالوفاء للبرتغاليين الذين كان يستعين بهم في حروبه، وبعد الخروج من ميلاندة وقطع نهر كيلمانصى، تمتد البلاد داخل مملكة الأحباش التي تسمى أيضا، اثيوبيا العليا. وكل هذا الحيز من الأرض مثل الجيب داخل بلاد الكفر، ويتصل، من جهة، بالبحر الأحمر، ومن جعة بمصر، ومن جهة ثالثة باثيوبيا السفلى. والجو بها معتدل تقريبا في كل مكان، والأرض تغطيها أصناف من السهول والوديان والجبال. والى جانب النيل، هنالك أنهار أخرى متعددة، وهي منطقة غنية بالحنطة والخضروات وبحب أسود صغير يصنعون منه خبزا جيدا حتى انه ليغني عن خبز القمح، والماشية كثيرة وكذلك الوحش. وبها من الذهب ما لا يوجد بغيرها، والعمارة في البلاد عبارة عن مداشر أو قرى منتشرة في كل مكان. ولكن هنالك بعض المدن على ساحل البحر الأحمر في حوزة العرب المسلمين.

الفصل الثاني

مومباسا، على ساحل زنجبار وهجوم الميدة عليها

هي مدينة مبنية في شبه جزيرة يبلغ محيط دائرتها أربعة فراسخ. ولكن مدت اليها قناة على شاكلة كيلوا مما جعلها مطوقة بالماء. وتقع بزاوية في مدخل القناة بحيث لا ترى الا عند الحلول بالميناء. وبناؤها جيد وأبراجها وبيوتها وساحاتها تخلف منظرا جميلا لمن يشاهدها. ويشكل البحر أمام فنائها قوقعة يمكن أن يدخل اليها المراكب الكبرى، وتبلغ قناتها في الداخل من الاتساع ما يسهل تحرك السفن الشراعية عند محاولتها للدوران مع الرياح. وفي وسط هذا النطاق، يمتد نحو الأرض رصيف من الحجر يمكن من الجواز من جهة الى أخرى عند انحسار المياه مع الجزر، وبالاضافة الى القناة المجاورة للمدينة هنالك قنوات أخرى تخترق الارض وتصلح للملاحة. والقناة التي تستعملها المدينة لا يتجاوز عرضها في بعض الأماكن رمية المنجنيق. وقبل الوصول الى الفوهة التي ترسو عندها السفن، يوجد شارع من جهة الشرق، وضعه السكان منذ وصول كاما. والبيوت مشيدة

(3) زمبور، بورو، بالوكَاتا، آلوكَاوا.

بالحجر والجير ولها نوافذ ومباحات على الطريقة الاسبانية. ويقطن بها عرب مسلمون يحكمهم ملك هو الذي يتصل به الأحباش والهنود من أجل التجارة وقد وصل الى هناك فاسكودي كاما في سنة الف وأربعمائة وسبع وتسعين، وذخل الى الميناء بعدما حصل على كل التأمينات، لكن صادف نية في الغدر به. وما ان علم بذلك حتى ابتعد من ذلك المكان الخطير وركب فلكين صنحبة ثلاثة عشر رجلا أخبروه بانه سيجد أمامه مدينة ميرندة حيث يوجد بها أمير يتعامل بمجاملة كبيرة مع الاجانب.

وبما انه كان يحمل الأمر بالاتصال مع أمبراطور الحبشة، فقد صار الى جهته، ومنذ ذلك الحين، جاء فرانسوا دالميد بصفته نائب ملك في الهند في سنة الف وخمسمائة على رأس احدى عشرة سفينة كبيرة وثلاث صغيرة. وكان وصوله متأخرا مما جعله يرسو أمام الميناء، وفي الغد جرب اختراق النهر بواسطة ضابطين بحريين ليرى هل يمكن الدخول بالمراكب الكبرى، ورغم ان الادلاء الذين أتى بهم من كيلوا طمئنوه على ذلك، فقد أراد أن يتحقق بنفسه ويقوم بتجربته الخاصة.

وكان السكان قد وضعوا سبعة أو ثمانية مدافع، كانوا قد غنموها من سفينة برتغالية رست في رمال الشاطىء وهي آتية من الهند، فأحدثوا ثغرة في أحدها لم يحصل منها كبير ضرر. ولكن رجالنا بادروا باطلاق النيران من مدفع كبير على الرصيف الذي لم يكن مبلطا فأحدثوا فيه شقا وأشعلوا النار في مخزن للبارود. وكان لانفجاره دوي هائل أثار الرعب في السكان الذين ولوا الأدبار تاركين المدافع والرصيف وبرجين مشيدين بالحجر كانا واقعين في الأمام، مما مكن من التعرف ، النهر. وفي الغد دخلت السفن الى المرسى ووقف البعض منها في المدخل، عض الآخر وراء ذراع من الأرض. وقسم فرانسوا دالميد أسطوله الى فرقتين من ئل القيام بهجومين. فترك ولده لوران أمام المدينة، بينما سار هو وراء ذراع الأرض فوجه من هنالك قاربين مسلحين ليدورا حول الجزيرة ويمنعا السكان من الهروب الى القارة، كما فعل سكان كيلوا، ووضعا سفينتين في مكان يمكن للسكان أن يفروا منه. وعاد القاربان بأسير عربي، فعرفوا منه عزم المدينة على الدفاع عن نفسها وتجنيد ملكها لألف وخمسمائة من الرماة الكافريين للذوذ عنها، وتهديده بالقتل لكل من حاول أن يخرج منها، وما ان سمع فرانسوا دالميد الخبر وفحص الأماكن التي يمكن أن يكون منها الهجوم ورأى ان السكان لم يوجهوا له أي رسول، حتى وجه أحد رجاله صحبة ربان أتى به من كيلوا ليتحدث مع الملك. ولكن هذا الأخير لم يشأ

أن يستمع لهما وتلقيا جوابا لا يخلو من احتقار معناه انهم لا يكترثون لدوي الرصاص مثل أهل كيلوا الذين نكسوا ذراعهم، سائرين في أسلوب التفاخر والاعتداد. ولما علم فرانسوا دالميد بالجواب، أمر باطلاق نيران المدفع، وذهب ضابطان تحت تغطية تلك العملية في القوارب لاشعال النار في سفن كامباي التي تسترت وراء الجزيرة. ولكن المكان كان وعرا وقذفوا بمائة سهم فرجعوا خائبين دون القيام بأي عمل ومات منهم البعض الذين جرحوا بسهام مسمومة، وقدر دالميد أن السكان قد رجع لهم الاطمئنان، فجمع الرؤساء للتشاور وبدرت منهم آراء مختلفة، ولكنه قرر أن يكون الهجوم غدا الذي يعد من الايام المسيحية المقدسة، وركب في قارب وولده في آخر وذهبا وراء ذراع الأرض ليبحثا عن المكان الذي يمكن أن يكون منه الدخول بسهولة، ورغم أن الضفة كانت عالية في ذلك المكان، فقد وجهوا بعض السفن الصغيرة لتلتصق بحد الارض ومن هناك وقع الصعود بواسطة الألواح وتقرر أن يذهب الميد بنفسه فوق مومباسا ليهاجم قصر الملك الذي كان واقعا في أعلى مكان، وأن يذهب ولده من الطريق الكبرى التي تقطع المدينة ليلتحق به، وأن يذهب في نفس الوقت ضابطان لاحراق السفن الراسية بكامباي بقصد الهاء السكان، وأن يقع الهجوم الكبير بعد ان يسمع المهاجمون طلقتين من المدفع.

ولم يكن السكان يتصورون أن الهجوم سياتيهم من مجاري السبيل، وغدت نيتهم أن يحصنوا المدينة من جهة المرسى التي كان يوجد بها معظم الأسطول بحيث وضعوا الحواجز من تلك الجهة في الطرق التي كانت ضيقة، بالاضافة الى الدور المواجهة للمرسى التي كانت تشكل سورا يحمي المدينة بجدرانها، كل هذا جعلهم يظلون في اطمئنان. وأمر الجنرال ولده بالنزول الى الشاطىء مع بعض الرجال ليقوموا باحراق البيوت وما بجانبها من حواجز، فإذا هب أصحاب النجدة فعليهم أن ينسحبوا بدون نظام وكأنهم خائفون. وهذا ما أنجز، لكن الأعداء أطفأوا النيران في الحين، فانسحب من المكان.

وفي الغد وقع الهجوم على المدينة من جهتين، وصعد الجنرال مع رجاله في أعلى الشلطىء حيث كان يوجد قصر الملك، ولم يجد صعوبة في الصعود الى البيوت، لأن الطريق كان واسعا ودون دفاع، ولكن لما وصل الى الأزقة الضيقة، هب السكان للهجوم عليه، دون أن يمنعوه من الوصول الى قصر الملك. ولكن الأعداء كانوا موجودين بكثرة في المكان فرشقوا البرتغاليين بوابل من الأحجار

والنبال من أعلى البيوت والنوافذ. ووجه ألميد عددا من الفرسان وأصحاب القذائف ليضربوا السطوح والنوافذ التي يمكن أن تعترض طريقه. وبفضل ذلك استطاع أن يرد العرب الذين كانوا يقاومونه وأن يدفع بهم الى كدية كانت تصل اليها جملة من الطرق، ومن هنالك أمكنهم أن ينسحبوا.

ولما رأى البرتغاليون أنه لم يبق أحد في الخارج للدفاع عن قصر الملك، أخذوا في كسر الأبواب ودخلوا جموعا، فاستولوا عليه بعد أن قتلوا وجرحوا بعض العرب الذين حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم. وفي أثناء ذلك فر الملك ونساؤه وكل من استطاع أن يتبعه من باب خفي وساروا نحو نخيل لم يكن بعيدا.

ومن جهة أخرى حاول ابن الميد الذي أتى من أسفل المدينة مع بقية الجنود أن يلتحق بوالده، كما كان مقررا، لكنه صادف مقاومة شديدة حالت بينه وبين تحقيق غرضه، لأن الطريق الكبيرة التي أراد أن يمر منها كانت عقبة كأداء لا يصعد اليها الا بأدراج، فسهل على السكان أن يدحرجوا أحجارا كبيرة فيها يسحقون بها المهاجمين، بالاضافة الى ما كانوا يقذفون به من النوافذ. لكنهم يئسوا حينما علموا بفرار الملك واحتلال القصر. وبدأوا ينقبون حيطان البيوت للفرار الى البراري، وتبع ابن الميد شخصا سمينا كان صاعدا الى ان وصل أبيه. وظهر أنه لم يبق أحد يريد أن يدافع عن نفسه. فاعتقد البرتغاليون أن العملية انتهت. فذهبوا أمام قصر الملك حيث رفعت راية البرتغال والصليب. وورد عليهم نبأ احراق سفن كامباي، حسب الأمر الذي صدر بهذا الشأن.

لم يمت من هذه العملية الا أربعة من البرتغاللين، من بينهم فرناند دوسا، ولكن كان هنالك أيضا، ستون من الجرحى، وأما الأعداء، فقد مات منهم ألف وخمسمائة، وأسر منهم مائتان، وأزيد من ألف عند نهب المدينة. وقبل أن ينصرف البرتغاليون للاستراحة، ورد الخبر على الجنرال بوجود عربي في النخيل يلوح براية بيضاء، فوجه يبحث عن جلية الخبر، فقيل له ان الملك يريد أن يكون تابعا لملك البرتغال، على شرط أن لا يقع تخريب المدينة وطلب مقابلة من أجل ذلك.

ورحب الميد بهذا العرض، فوجه قفازه المرصع كضمان لكلمته، ثم خودته ليزيل كل اعتراض من جانبه، لكن الجندي صاح لما رأى أن الملك لم يات وقال البعض بوجوب تخريب المدينة، وقال آخرون بضرورة الهجوم على الملك داخل النخيل. ولكن الجنرال رأى في ذلك خطرا، نظرا لتكاثف الأشجار التي تساعد العدو على الدفاع عن نفسه واعتبر كنتيجة حسنة كونه استطاع أن يستولي على

تلك المدينة الكبيرة، فأذن بنهبها، بعد ان وزع أحياء على الجنود تجنبا لوقوع الفوضى[1]، وكانت الغنائم جد وفيرة حتى أن الجنرال اضطر لترك جزء كبير منها في الأرض حتى لا يثقل السفن بها. ولم يحتفظ من الأسرى الا بمائتين وزعهم على الضباط بينما سرح الباقين. وفي اليوم الثالث، قبل أن يقلع بسفنه من المدينة، وضع النار في ثلاثة من أحيائها. بحيث لم يبق من المدينة الا حي واحد، هو الذي عمرها من جديد كما كانت من قبل.

الفصل الثالث

زنجبار

على بعد عشرين فرسخا من مومباسا، توجد جزيرة مرتبطة بالقارة، وفيها تقع من جهة البحر مدينة زنجبار. ولها أمير خاص بها ومرفأ جيد حيث تتوقف السفن الذاهبة الى الهند. ففي وقت الهدوء لا يمكن المرور في القنال الضيق الذي يفصل بين الجزيرة والقارة دون أن يشعر بذلك المشاهدون من العدوتين. وصل القبطان لورنسو البرتغالي الى الجزيرة في سنة ألف وخمسمائة وثلاثة، بعد ان انقطع عن الأسطول الذي كان ذاهبا الى الهند. ونزل الى الارض وهجم على السكان وألجاهم الى الفرار، وفرض على أمير البلاد أداء اتاوة من مائة قطعة ذهبية الى الملك في كل سنة وثلاثين خروفا لمن يتسلمها منه.

الفصل الرابع

أوكا التي على ساحل ايكس والتي استولى عليها قبطان برتغالي

توجد أوكا على بعد سبعة عشر فرسخا من ميلاندة، وهي مدينة متجهة الى الشرق على ساحل بحر برافا، وهي مبنية على نمط مومباسا، ولكن موقعها يختلف، وهكذا فإن مومباسا توجد على القنال، بينما تقع اوكا على البحر. وهي محصنة من جهة الأرض بسور ومن جهة البحر بحاجز من الصخور يجعل من العسير النزول من تلك الجهة. كان لملك ميلاندة نزاع مع سيد تلك المدينة الذي كان يحسده على ما كان يتلقاه من مساعدة برتغالية، وهذا ما جعل ذلك الملك يقترح على تريستان داكونيا، حينما رسا بالأسطول على ميلاندة، أن يذهب الى اوكا ويستولي عليها بسبب كراهية سكانها له، وكذلك سكان مومباسا، فذهب القائد البرتغالسي بالسفن، وما ان وصل الى الميناء حتى وجه الى الشيخ يدعوه الى

(1) ذلك أن الجنود كانوا كثيرا ما يتقاتلون فيما بينهم على الغنائم.

مقابلته ليتحادث معه في قضية تدخل في خدمة ملك البرتغال. فأجابه بانه تابع لملك مصر، وانه من أحفاد النبي وخليفته، وانه بدون الحصول على الاذن منه لا يستطيع أن يتعاما . ولا أن يتفاوض مع أناس يضطهدون رعاياه، وبخاصة أهل مصر الذين يتاجرون في الهند. وبالاضافة الى ذلك، فقد علمته التجربة ان لا يضع ثقته في القواد البحريين النصارى الذين يرتادون تلك السواحل، وزاد قائلا بانهم اختطفوا منه سفينتين مشحونتين بالبضائع، وانهم لا هم لهم الا التشويش على التجارة.

كان الشيخ قد أعد نفسه منذ زمان للدفاع عن نفسه اذا ما حدث هجوم عليه، وأتى بعدد من الكفر من القارة. ولم يكن يظن أن الأسطول سيظل هنالك يومين أو ثلاثة، حيث كان النزول الى البر صعبا. وفي صباح الغد سار في الزوارق جنب الأرض بجنوده. وصنع زورقين كبيرين قاد أحدهما بنفسه، وسلم الآخر الى الفونسو ألبوكيرك. ورغم هيجان البحر وصعوبة النزول، فقد تمكن من النزول على الأعداء في عقر دارهم وطاردهم نحو المدينة فدخلها معهم واختلط الحابل بالنابل. وفر الشيخ من الجهة الأخرى نحو النخيل، ولكن تبعته طائفة من الشبان الشجعان فهزموه وأردوه قتيلا. وكان الفونسو دونورونيا هو الذي أصابه بأول ضربة برغم المقاومة الشديدة التي أظهرتها حاشيته. وأثناء الانسحاب لقى جورج دوسيلفيرا عربيا يظهر عليه من هيئته أنه من علية القوم، وأمامه سيدة ذات ملامح جميلة. وشعر العربي بأن البرتغالي يتبعه، فاستدار نحوه وسل سيفه ليوقفه، بينما تفر المرأة، الا انها لم تفر وقالت انها تموت معه أو تفر برفقته. وأمام هذا المشهد المؤثر لم يسع سيلفيرا الا أن يسمح لها بالفرار.

ووجد تريستان دا كونيا والفونسو البوكريك، في تلك الاثناء ما يشغلهما في المدينة، فلم يستطيعا السير بعيدا داخل المدينة. وبعد ان قاما بنهبها أمر بأشعال النار فيها من ثلاث جهات، حتى لا يطول بهم الوقوف في ذلك المكان الخطير، وذهب بعض الجنود الذين انهمكوا في النهب ضحية النيران، بينما صعد الباقون الى السفن وذهبوا للاستيلاء على مدينة مجاورة.

الفصل الخامس

لامـو

مدينة على بعد خمسة عشر فرسخا شرقي أوكا، كانت تحت سيطرة أحد العرب، هجم عليها «تريستان داكونيا» في سنة ألف وخمسمائة وستة، لكن الشيخ، وقد علم المصيبة التي حلت بجاره، جاء يستقبله في موكب سلام. فاستسلم اليه وأعلن نفسه تابعا لملك البرتغال، مع اداء جزية مبلغها ستمائة قطعة

ذهبية، وسدد منها سنة «لتريستان داكونيا». وسلمه هذا الأخير رسائل مع شارات الملك لينعم بالأمن،ثم انتقل الى برافا.

الفصل السادس

برافا

توجد هاته المدينة في شرق السابقة وعلى نفس الساحل. ولكنها أهم منها، سواء من حيث عدد السكان أو ضخامة البناءات. وكان يسودها نظام حكم جمهوري. وحدث في سنة ألف وخمسمائة وثلاثة أن القبطان «لورانسو» البرتغالي لما كان يجوب في عرض شاطىء آبيكس على ظهر سفينة من الأسطول استولى على مركب مشحون بالبضائع وعلى ظهره بعض الناس من مدينة برافا. فعرض عليه هؤلاء أن يجعلوا المدينة تابعة لملك البرتغال اذا أطلق سراحهم. ولكن الآخرين رفضوا وانتزعوا الحكم من يدهم وحلوا محلهم وتعهدوا بأن يدافعوا عن المكان بالقوة وباستعمال الحواجز الطبيعية الموجودة بالميناء الذي كانت تكثر فيه تلال الرمال والحفر. لكن تريستان داكونيا توجه في سنة الف وخمسمائة وستة نحو مدينة برافا محاذيا الساحل الى ان وقف قبالتها، ووجه يطالب بالجزية ومراسيم الطاعة لسيده.

وتلقى جوابا لا يخلو من كبرياء مضمنه أن روساء المدينة لم يكونوا يعرفونه لا هو ولا ملك البرتغال. ثم انهم قاموا باستعراض السكان لكي يرعبوه وكان عددهم ستمائة فكانوا يخرجونهم من باب الميناء ويدخلونهم من باب آخر في حسن نظام. وقرر «تريستان داكونيا» أن يهجم عليهم بعدما تلقى هذا الجواب، وقضى الليل في تهيىء كل ما هو ضروري. فأنزل الجنود في القوارب المحمولة في السفن الكبيرة، وهجم من جهة، بينما كان ألبوكيرك يهجم، من جهة أخرى.

وحاول أهل البلد أن يقاوموا برمي الأحجار والسهام والنبال، ولكن البرتغاليين تمكنوا، في الأخير، من النزول الى الأرض بعدما قتلوا عددا كبيرا من الأعداء، وبادروا الى الأسوار التي كانت منخفضة، فدخلوا الى المدينة من أماكن ثلاثة، وكانت المدينة أعمر بالسكان من الجهة الأخرى فبدأوا يتسحبون، تاركين رؤساءهم الذين ماتوا، كل في مكانه الذي كان يقاتل فيه، دفاعا عن وطنه وحريته، طبقا للقسم الذي أداه. وأخيرا، بعد ان وقع الهجوم على المدينة بقوة وجرى الدفاع عنها بقوة الى درجة ان أي أحد لا يستطيع أن يروي ما وقع بالضبط لانشغاله في المعركة، اضطر السكان الى التخلي عن إبائهم، ففقدوا حريتهم مع صفتهم كشجعان التي طالما نعتوا بها من قبل. ومات عدد كبير منهم. ولم يصب من البرتغاليين الا اثنان وأربعون من المقتلى وسبعون من الجرحى. ووقع نهب المدينة

فكانت الغنيمة كبيرة الى درجة عجز السفن عن حملها. واستمر السلب والنهب ثلاثة أيام وبعد ذلك أضرمت فيها النار واحترقت حتى صارت رمادا.

ومن ثم توجه «تريستان داكونيا» الى رأس «كَواردفو» وجزيرة «سقطرة» حيث استولى على حصن للعرب والتي خضعت وأعلنت تبعيتها لملك البرتغال مع سكان الجزيرة الذين كانوا من النصارى اليعقوبيين. ورمم الحصن بعد ذلك وترك فيه حاكما هو «انطونيو دو نرونيا» مع حامية كبيرة وذهب الى الهند.

من جهة أخرى، كانت مدينة برافا في شاطىء «ايان» حيث كان يقطن سكان الكهوف القدماء، ولم تكن إلا هاته الجمهورية في تلك المناطق وتأتي مدينة موقاديشو بعدها، وكذلك رأس «كَواردفو» حيث تتعرض السفن للتلف لأن الريح يتقلب في ذلك المكان. ويتسمى سكان برافا وغيرهم من سكان الساحل المسلمين. وفي مكان أبعد يقطن الايموسيد أو البدو الذين يعيشون في الخيام وينظر اليهم كأناس منحرفين عن الدين. وهم مختلطون بزنوج البلاد حتى انهم شبه لهم. ومن وراء رأس «كواردافو» توجد المدينة الصغيرة «ميطا» و «زيلع» مع خليجها.

الفصل السابع

زيلــــع

مدينة واقعة في خليج في مخرج مضيق البحر الأحمر وحسب موقعها يظهر أنها هي التي أشار اليها بطليموس وسماها «افارلت». وتشاهد فيها آثار قديمة، والأبنية فيها مشيدة بالحجارة والجير، كما هو الشأن في عدن التي توجد في نفس ارتفاعها. وهي من مملكة عادل وحرار عاصمتها وتوجد في قلب البلاد في مدخل اقليم يسميه بطليموس تيكا.

والأراضي حول زيلع خصبة، ومن هنالك تمر معظم البضائع الموجهة الى بلاد الأحباش وكل ما يستهلك في بلاد عادل. وبسبب أرباح هاته التجارة نشأت العداوة بين ملكي عادل وعدن، ولذلك كانت توجد بها حامية كبيرة. وكان هذا الميناء في القديم أشهر ميناء عدن، وكان هو المرفأ الرئيسي الذي تاتي اليه السلع الموجهة للمضيف، لكن منذ قدوم البرتغاليين انتقل ذلك الى عدن. وملك عادل قوي في منطقته، وقد اعتاد أن يحارب امبراطور الحبشة.

وقد لحق الخراب بالمدينة على اثر هجوم قام به البرتغال[1]. وهنالك تجارة في العبيد الزنوج المجلوبين من الحبشة، الذين يختطفهم العرب وياتون بهم لبيعهم

(1) 1517.

للتجار الأجانب كما يبيعونهم العاج والصبر والذهب لتوفر هذه المواد في البلاد، ومن هنالك يكون الوصول الى المدينة الملكية عادل، التي كان صاحبها يحارب امبراطور الأحباش وألحق به الهزيمة في بعض الأحيان. وهو مسلم، وخيله مدرعة مثل خيول الفرس. ومن وراء ذلك توجد المدن الرئيسية(2)، ثم الزنوج الذين يسكنون بالكهوف.

الفصل الثامن

بربارا وبلاد اثيوبيا العليا التابعة لامبراطورية الحبشة

توجد هذه المدينة على ثمانية عشر فرسخا من «زيلع» في اتجاه لشمال. وهي مملكة «عادل»، المشهورة في تلك الأصقاع وتشبه «زيلع» فيما يخص التجارة والسكان والبناءات، ولو كانت غير معروفة ومن موقعها يظهر انها هي «ملكة» التي أشار اليها «بطليموس»، داكرا أن التجارة كانت تجري في ذلك الشاطىء كما هي الآن في «زيلع». وتقابل هاته المدينة «عدن» وقد هجم عليها أسطول ملك البرتغال سنة ألف وخمسمائة وثمانية عشرة فأحرقها ونهبها. ولم تكن الغنيمة كبيرة، نظرا لكون السكان انسحبوا وأخذوا معهم ما استطاعوا حمله ولم يكن وقوف السفن البرتغالية الا من أجل التزود بالماء لتساير من بعد ساحل الجزيرة العربية وتذهب الى الهند.

وتوجد هاته المدينة بجزيرة على مقربة من القارة ومنها توسق أغذية كثيرة إلى فارس وبلاد العرب. وبالقرب من رأس «كواردفو» توجد جزيرة «سقطرة» الوعرة الفظيعة التي لولا الماشية الموجودة بها وتجارة الصابرة ودم الضباب، ما كان السكان ليحلو لهم العيش بها، لأنها جرداء مقفرة. وبالقرب من سقطرة يوجد المرفآن «كوكوس» و «كلانسى» حيث تستطيع السفن أن ترسو بسهولة. وأبناء البلد، ان كانوا أحباشا، لا يختتنون، ويرتكبون أخطاء ديوسكور، فهم لا يتبعون مطران أبيكس، بل مطران موصال ويتعبدون باللغة الكلدانية، ولا يتكلمون لا بالحبشية ولا بالعربية، وكان نساء الجزيرة في القديم ساحرات قديرات، تمرن العواصف والزوابع. ولذلك كان الناس يخشون من الوقوف بشواطئهم. ولا يختلطن بالرجال الا في وقت معين من أجل الحمل ولذلك سمين «امازونيات».

(2) بالى، مطرة، دوارة، كوميزلرة، نوفوكارة، سوسيلى.

وغير بعيد من هنالك، من جهة الجنوب في وجهة ايكس، يوجد «زيبط» و «الكراجيون» وهم شعب متوحش يعبد الأوثان، و «كاموا» و «سميز» و «كانسى» و «سيمن» و«عادي» وملكها تابع لأمبراطور الحبشة. وكل هذه البلاد ملأى بالغابات الكثيفة الى الدرجة التي يصعب اختراقها في بعض الأماكن. وأبقارها عظيمة الخلقة كأنها جمال بدون قرون. وبالقرب منها بحيرة «زفلان» حيث توجد جزر يعمرها رهبان الأحباش، الذين اختاروا حياة الزهد بعيدا عن مخالطة الناس. وبعدها توجد «فونجي» و «كوارة» وبالقرب منها قمم القمور و «جط» الوعرة والمتصلبة بحيث لم يستطع أحد أن يصل إليها.

ويوجد عدد كبير من اليهود في تلك الجهات، ويظهر انهم ينحدرون من اليهود الذين كان سفاك ملك مصر والحبشة نفاهم الى هنالك. ولم يبق لهم الا اسم اليهود والختان. وفي بعض الأحيان يمتثلون لأمبراطور الحبشة، وفي أحيان أخرى يتمردون عليه ويلتجئون الى جبالهم. وتاتي بعد ذلك عمارات كبيرة هي عواصم الأقاليم. وبعد ذلك تكون مملكة «كوجيام» التي تسقيها بحيرة «زفلان»، من جهة، وبحيرة «زمبير»، من جهة أخرى. واذا تركنا البحيرة على اليسار، نجد «امبيان» و «شوا» و «سرلة» و «قيداس» و «زفلان» و «فانك» وبحيرة «سو» التي ينبع منها نهر النيجر ويختفي قبل أن يصل الى بورنو. وبعد ذلك تأتي أقاليم «أمازن» و «امبيان» و «كانتين» و «بكميدرى» و «عمارة» وهنالك تشاهد فوق الجبال المضايق التي تسمى أبواب «بكاديس»، إذ لا يوجد أي ممر غيرها للانتقال الى الجهة الأخرى من أمبراطورية الأحباش. وبعد مدينة «سوا» وهي عاصمة قريبة من ذلك الجبل الوعر، الذي يسجن فيه أبناء الأمير، لاتقاء الحرب المدنية. وبعد ذلك توجد «سيفا» و «أمبادور» و «ميدة» و «بليكانس» وبحيرة «برزين» و «أولابي» وشعوب «بلوى» و «دوار» و «فاتيكار» و «انكور»، ومن هنالك «تكرماون» و «فاكى» و «بلكادة» وشعوب « ياتموريس» و «كوريرة» و «سبئين» و «كازومور» حيث توجد فوق الصخور معابد تستلفت الأنظار بشكلها. وقرب البحر الأحمر توجد «عمامر» و «ميناء ارقيق» الذي هو الوحيد في امبراطورية الحبشة ويوجد على بعد فرسخين من جزيرة «مصوع».

الفصل التاسع

جزيرة ومدينة «مصوع» ودولة امبراطور الحبشة

هي مدينة في جزيرة لا تبعد عن القارة الا بمسافة رميتين من القوس يخترقها قنال. وهي قبالة حصن «اركويكو» الخاص بامبراطور الحبشة، والمكان الوحيد بهذا الساحل الذي يقطن به النصارى، وأمير «مصوع» يسيطر على جزيرة مجاورة يصاد بها اللؤلؤ وعلى جزر أخرى حواليها، وبالرغم من كونه عربيا ومسلما، فهو يحافظ على السلم مع الأحباش لما يجنيه من فوائد من وراء ذلك ولكون الأقوات تاتي من ذلك المرفأ الى شواطىء جزيرة العرب.

ومن «مصوع» الى منفذ المضيق خمسة وثمانون فرسخا، ولا يوجد بعد المرور من «دهلك» أي ميناء ولا مرفأ للسفن في كل هذا الساحل، لأنه كله كثبان من الرمال وحواجز وجزر صغيرة، وفي داخل البلاد لا توجد الا الصخور والفيافي التي لا تسكن. والجزيرة لا تتعدى دائرتها اثنتى عشرة مائة قامة(1)، وهي على شكل هلال وبها ميناء أجود من «ماون» و «قرطاجنة» وتستطيع أن تستقبل عدة سفن. وتنتشر البيوت عبر البحر. وأهمها مبنية بالحجارة الملتئمة بالجير ومغطاة بسطوح سميكة من الطين الدسم على الطريقة الافريقية. واما الأخرى فهي مبنية من التراب ومغطاة بفروع الأشجار. وفي وسط المدينة مسجد كان «دييكولوبيز دو سيكَيرا» يتخذه أحيانا لتلاوة القداس لما كان هنالك وسماها «سيدتنا صاحبة الحمل». ولا يوجد في الجزيرة لا عين ولا نهر والناس يجمعون مياه الأمطار في الأحواض. والأرض المجاورة غليظة وملأى بالأبخرة. وهنالك عدد من الأبقار والماعز. وهي مزودة بأحسن طريقة من بلاد الحبشة، ويوجد بداخل البلد داران عظيمتان، يسكن بهما أمير حبشي اسمه برنكَاس أو سيد البحرية، وهو من رعايا امبراطورية الحبشة الذي يستطيع أن يبدله متى شاء.

وبالقرب من هنالك، يوجد اقليم دنفيلة المتاخم لمصر، والذي توجد به خيول جيدة، واذا صعدنا الى الشمال، نجد جزيرة «امارا» أو «ميرو» وهي أكبر جزر النيل وأجملها، وتقف هنالك الملاحة النهرية، انطلاقا من البحر المتوسط. وفي

(1) من الممكن أن يكون خطأ في الرقم.

ذلك المكان كان يقطن قدماء «الجيمنوسوفيسيطيين» الذين كانوا ابتكروا الحروف الهيروغليفية، وكانوا يقضون أوقاتهم في النظر الى الأشياء الطبيعية، دون أن يهتموا لا بلباسهم ولا بطريقة أكلهم. وفي الجزيرة ينبت قصب غليظ يصنع منه السكان مراكب، وهم مسلمون ويتحالفون مع أتراك مصر وملوك النوبة ضدا على امبراطور الحبشة الذي له حروب أخرى مع أمراء «عادل» و «برساكة» و «الكونكو» و «الامازون» والأتراك من جهة مصر و «سواكن»، فإذا تركنا على اليمين الشعوب التي تعيش بالبادية مثل العرب، دخلنا في مملكة النوبة حيث تقع «سرفاكس» و «دنقلة» وهما مدينتان غنينان بفضل التجارة في خشب الصندل والمسك الذي يوجد فيها بكثرة، وبعد ذلك يكون الرجوع الى اقليمي «كَاوكَا» و «كانوا» الذي يتمم الدوران حول إثيوبيا العليا.

الفصل العاشر
البحر الأحمر

يشبه المحدثون مضيق البحر الأحمر بوزغة ومصبه بعنقها، والبقية بما يسبقه. وهكذا يمتد الجسد الى شمال الشمال الشرقي على مسافة ثلاثمائة وخمسين فرسخا من المصب الى الجنوب، والعرب يمرون من ذلك البحر يقسمونه من حيث العرض الى اثنتى عشرة قطعة أوسعها تمتد الى ست وثلاثين فرسخا. وكل قطعة فيها ثلاث ساعات من الطريق أو ثلاثة فراسخ بنسبة فرسخ للساعة، والفرسخ قياس قديم عند ألفرس حوله اليونان الى «برسنج».

والعرب، أيضا، يقسمون هاته القطع الاثنتي عشر الى ثلاثة أقسام على الطول، بحيث يطل البحر مقسما الى ثلاث حواش أو شرائط. والوسطى منها التي هي بمثابة الظهر أو الصلب عند الوزغة تدعى البحر الطويل لأنها صافية ويمكن التحرك بها ليلا أو نهارا. فمن مصب المضيق الى نهاية الخليج تقريبا يوجد لا أقل من خمسة وعشرين باعا ولا أكثر من خمسين. وهذا لا يوجد في الشريطين الآخرين المحاذيين لساحل جزيرة العرب أو لساحل افريقيا، حيث البحر وسخ، مليء بالأوحال، تخترقه الجزر وأكوام الرمال، ولا يمكن التحرك فيه الا عن طريق منعرجات لا تخلو من أخطار تتراوح بين ثمانية الى خمسة عشر باعا من العلو. ولا بد من الرسو ليلا في أي مكان يوجد به المركب.

وفي مصب المضيق، يوجد عادة بعض الربابنة كما يسمونهم بالعربية ويتقاضون خمسة وعشرين أو ثلاثين دوكا من مكان سكناهم الى مدينة جدة. ويهب على البحر ريحان، شرقية وغربية واذا قلت قوتهما ياتي ريح من جهة الأرض وهذا قليل. ولا يصب في البحر الأحمر نهر ذو أهمية لأن الشاطيء يغلب عليه الجفاف والجدب. ولا يوجد عليه الا نهر برديو المتكون من جدولين أحدهما من ماء أبيض والآخر من ماء أسود. ويصب هذا النهر في البحر على بعد عشرة فراسخ من جدة وأربعة من بهاور. ويبلغ التيار من الضعف والضآلة ما يجعل الملوحة تغلب عليه قبل انصبابه في البحر، واما الأنهار التي تنحدر الى الشاطيء المواجه لافريقيا بعد نبعها من الجبال، فانها تنحدر طبيعيا نحو نهر تكازي الذي يصب بدوره في نهر آخر اسمه ابو حي وكلاهما يصبان في النيل. ولا يبقى الا السفن الذاهبة الى البحر الأحمر، ونظرا ليبوسة الأرض وامتلائها بالأحجار، فانها تتلف في الأرض طيلة الصيف، ولكن البحارة يعرفون فرشته لأنهم في الشتاء يقطعونه بسرعة، فيحفرون فيه ويجدون الماء بدون صعوبة كبيرة. ويسمي العرب البحر الأحر البحر المسدود[1] وإن كانوا يطلقون هذا الاسم على بحر قزوين الذي لا منفد له. وآخرون يسمونها بحر مكة، على اسم مدينة توجد على الشاطيء. وسماها اللاتين البحر الأحمر لما يظهر فيها من نقط حمراء هنا وهناك نابعة من العمق وليست من الماء، حسب بعض الروايات. وان أحد النبلاء البرتغاليين السيد جان دوكاسترو الذي تجول في ذلك البحر وفحص كل الموانيء مع كل الارتفاعات وغيرها من الأشياء التي تخص الملاحة، يقص في الكتاب الذي ألفه عن رحلته انه وهو يساير شاطيء ابيكس، وجد من حين لآخر الماء مليئا بتلك البقع، وفي بعض الأماكن يقترب من القعر الى درجة ان السكان يحتك بالأرض مما يضطر السفينة الى التوقف. وأخذ الماء في كأس فوجده أصفى مما هو خارج المضيق، وان كان يظهر أحمر في البحر، ومع ذلك لم يقتنع بما رأى، فأنزل بعض البحارة الى الأرض، فاستخرجوا من العمق مادة حمراء وكأنها فروع شجر المرجان مغلفة بجلد ليموني، وفي جهات أخرى حيث تلوح بقع حمراء، يستخرج نوع من المرجان الأبيض، مغلف في شيء اخضر، وحيثما ظهر البحر أبيض يكون في عمقه الرمل الأبيض. وهذا لا يرى فقط في الأماكن التي يكون فيها القعر قريبا، بل حتى في الأماكن التي يكون بعيدا، لأن الماء يتلون بلون العمق. ويضيف ان القسم الذي تكثر فيه تلك البقع

(1) بحر القلزم.

الحمراء يذهب من سواكن الى القصير أي ما يتجاوز مائة وثلاثين فرسخا، وابتداء من طور في اتجاه الانحدار جنب مصر يتقارب الشاطئان ويخرج منهما رأسان لا يبعد أحدهما عن الآخر الا بمقدار ثلاثة فراسخ وبعد ذلك يتغدان نحو السويس في نهاية الخليج. ولا تظهر في هاته المنطقة بقعة حمراء، ولكن الماء يظهر فيها وكأنه في غليان. وذلك راجع لما يحيط بالبحر من الصخور والى هبوب الريح بقوة من جهة الشمال، فيتعالى البحر بسبب ضيق المكان. وأخيرا، إذا اتخذنا قاعدتنا من التجربة، دون الرجوع الى رأي القدماء، فإن اسم الأحمر أعطي لهذا البحر للسبب الذي ذكرنا، لا من ملك اريتيريا. ويصاد اللؤلؤ في هذا المضيق على طول ساحل ابيكس حوالي جزيرة دهلك لكن اللؤلؤ يحمل الى جزيرة مجاورة لتفتح في عين الشمس لأنها تنفتح من عنديتها تحت أشعة الشمس، ويصاد اللؤلؤ في جزيرة أخرى على شاطىء جزيرة العرب، ويسمي العرب مصب المضيق باب المندب الذي يوجد على 12 درجة وربع من الخط، وان كان بطليموس يضعه في الدرجة العاشرة منذ الحربة الخارجة من جزيرة العرب والتي تسمى الرض بيزيديان الى شاطىء افريقيا حيث يضع مدينة دير، توجد سبع جزر تحتل حيز ستة فراسخ وتغلق الممر، وبخاصة منها الست التي توجد أقرب الى افريقيا. وحينما يصل البحارة الى هنالك، تختلط عليهم الرؤيا البصرية حتى يظنوا أن المرور مستحيل عليهم، وحينما يقتربون يكون الدخول خطيرا حتى يعتقدوا انهم ليسوا أمام ممر، بل أمام عقبة. ولكن مع المزيد من الاقتراب، يلوح قنال جميل وواسع.

وأهم هاته الجزر توجد من جهة جزيرة العرب، وهي المقصودة بالذات حينما يجري الحديث عن جزيرة المضيق، وان كان لها اسم آخر(2)، وتمتد على طول فرسخ ونصف على جنب تيار المياه التي تدخل الى المضيق وتخرج منه. وهي عالية ووعرة من جهتها الشرقية ومتأثرة من الرياح التي تمر من حلق المضيق. لكنها من الجهة الافريقية تشكل مأوى آمنا لأسطول كبير. ولا يفصلها عن جزيرة العرب الا قنال يبلغ فرسخا في اتساعه والذي هو الممر الرئيسي للدخول في المضيق. ومن جهة القارة يوجد صخر عال يلوح من بعيد كقلعة ويحيط به الماء حينما يعلو البحر. وفي هذا المكان يقطن الربابنة الذين سبق الحديث عنهم. وتوجد مراس جيدة داخل أو خارج المضيق وبالاتجاه في ... الشاطىء، حيث يقع تجنب الرياح الآتية من الشرق والغرب.

وابتداء من المصب فان الشاطىء العربي كله حتى قمران اي مسافة أربعة وأربعين فرسخا، هو في مِلْك ملكعدن. ولا يوجد في هذا البحر لا مدينة ولا أي مكان متميز على طول البحر. ولكن السكان يقطنون كلهم داخل الأراضي. ولا يوجد الا ميناء مكة وموانىء أخرى غير معروفة. فمن قمران، وهي جزيرة متصلة بالأرض الى جيزان، مكان مشهور تحت امرة شريف، مسافة ستين فرسخا، وفيها عدة موانىء، ومن جيزان الى مدينة الينبوع مائة وثلاثون فرسخا من الشواطىء، كلها تحت سيطرة أمير مكة. وبعد قطع مسافة اثنين وأربعين فرسخا يوجد زيدان، وهو مكان مشهور وعدة موانىء في الطريق، وبعد ستة وثلاثين فرسخا من زيدان تقع جدة المشهورة بما يقف فيها من السفن الآتية من الهند، وأعظم مدينة في شاطىء جزيرة العرب من مصب المضيق الى آخر الخليج. ومن جدة الى مكة التي توجد بداخل الأرض خمسة عشر فرسخا.

توجد مرافىء بدى وقرون بين جدة وزيدان ومن جدة الى ينبع خمسون فرسخا وبينهما مرافىء بهور ورابغ وهشار، ومن ينبع الى طور كما يسميه البرتغاليون سبعون فرسخا من الشواطىء وهو بلد خصب لا يملكه أحد. ولكن هنالك قطاع الطريق من العرب يتجولون بتلك الفيافي فيستلبون الذهبين الى مكة أو الى المدينة. ولكن في هذا الحيز يوجد مرفأ يسمى ملاى. ومن طور الى السويس أربعون فرسخا وبينهما يوجد كروندولو وآبار موسى. ومدينة طور هي الحد بين جزيرة العرب ومصر. ومن السويس الى قوصر خمسة وأربعون فرسخا ومن قوصر الى سواكن مائة وثلاثون وفي السواحل عدة مراسي غير مسكونة ولكنها صالحة كملاجىء للسفن. ومرفأ سواكن هو أحسنها في البحر الأحمر بأسره وبينه وبين مصوع ستون فرسخا وفي الوسط مرسى شفق وغيره. ومن مصوع التي هي جزيرة متصلة بالبر تجاه اركيك الى المصب الذي بدأنا منه هذا الوصف مسافة خمسة وعشرين فرسخا. وفي هذا الحيز من وراء جزيرة لك، لا يوجد لا مرسى ولا ملجا، لأن البحر في هذا الساحل ملىء بالوحل والصخور وأرصفة الرمال بالاضافة الى كون الشاطىء على كل عقبة. وسكان المنطقة، باستثناء بعض الأماكن، متوحشون ويعيشون من النهب وقطع الطريق. ووراء الجبال التي تعيش فيها تلك الشعوب توجد اثيوبيا العليا والتي ليست أقرب الى مصر منها الى سواكن. وذلك هو ما يمكن ذكره عن البحر الأحمر فلنتحدث الآن عن بعض المغامرات التي جرت في ربوعها لأساطيلنا.

الفصل الحادي عشر

ملوك الهند الذين استنجدوا بملك مصر

البرتغاليون والسفارة التي وجهها هذا العاهل الى ملكي قشتالة والبرتغال

نظرا لما توصل اليه النصارى من سيطرة على تلك البحار، فقد وجد المسلمون أنفسهم معرضين للهجوم من كل جهة فاستصرخوا ملك مصر الذي كان آنذاك قويا. ووجه اليه ملك كلكتا وعدن وغيرهما يقولون له انه ما دام هو أقوى ملوك المسلمين فمن واجبه أن يحميهم من النصارى المعتدين عليهم والمضطهدين لهم في بلاد الهند. وهو مطوق بذلك سواء بوازع الدفاع عن الشرف أو بوازع الدفاع عن المصلحة. ذلك ان العدوان المسيحي كان يقف حجر عثرة أمام تجارة التوابل التي كانت تباشر عن طريق موانئه، إذ كانت تحمل التوابل من الهند الى البحر الأحمر الى غاية طور والسويس ومن هنالك كانت تحمل الى الظهر الى القاهرة ومنها كانت تنقل عن طريق النيل الى الاسكندرية حيث كان ياتي تجار اوربا لاخذها. وتأثر الملك لهذا الصراخ ولشكاوي السكان والتجار، واعتبر كذلك مصلحته الخاصة، فقرر أن يشهر الحرب على البرتغاليين القائمين بالتجارة في تلك البحار، وهو يظن انه يمكن القضاء عليهم بسهولة، لأنه لم يجرب قوتهم ولا عرف تقلبات الدهر. ولكنه أراد من قبل أن يتخذ من البابا وسيطا ليحاول صرف ملك البرتغال عن مشروعه التوسعي، وملك قشتالة عن قراره في تنصير مسلمي غرناطة. وقام يهدد ويتوعد وينشر الاشاعة بانه إذا أكرههم على التنصر، كما بدا في ذلك، فانه سيخرب معبد القدس وكنيسة سانتا كاترينا بسيناء مع كل مخلفات القديسة. ويمنع على النصارى الدخول الى مملكته، ويكره النصارى الموجودين بها على الدخول في الاسلام. وما ان انتشرت الاشاعة حتى هب اليه رئيس دير سينا(1) الذي كان اسبانيا وتوسل اليه بأن يتوقف عن تنفيذ تهديده حتى يذهب الى روما ليخبر البابا بذلك، ويحول دون ضياع عدد كبير من النصارى كانوا موجودين بالقاهرة وبالاسكندرية وحلب ودمشق وبيروت وغيرها من المدن الخاضعة للسلطان. ولكن السلطان، لكي يعطي لقراراته كل الوزن سلمه أوراق اعتماد لدى الملك، هذا نصها :

(1) الأب مور (أي العربي).

«من الملك العظيم، سلطان السلاطين، الذي طبقت شهرته الآفاق، الحكيم، العادل، المنصور، سيد الملوك، وسيف الدنيا، وحامي الشريعة والمومنين بها، وحامي العدل والمحافظة عليه في العالم بأسره، ووارث الامبراطوريات، وملك جزيرة العرب وغينيا والفرس وتركيا، وظل الله في أرضه الذي يصنع كل شيء، سواء منها التي أمر بها أو غيرها، والاسكندر الثاني الذي يصدر عنه كل خير، ملك الجالسين على العرش والحاملين للتاج، المتكرم باسناد الولايات على الأقاليم والنواحي والمدن، قاهر الثوار، وقامع الكافرين، حامي المدينة ومكة. والخليفة على الأماكن المقدسة الموجودة في ايالته، والتي تحتضن دين محمد. مركز كل عدل وخير وكل فوز للايمان، ابى النصر قونصو الغورى، خلد الله ملكه وجعل عرشه في أعلى عليين. الى بابا روما الطيب الروحاني الذي يخشى الله ويفعل كل خير مع المومنين بدين المسيح، ملك ملوك النصارى، حامي البحار وسواحلها أبي البطارقة والقسيسين، مفسر الاناجيل، العالم بدينه وبكل شيء يتعلق به، البشوش في وجه الملوك والأمراء، مالك الامبراطورية الرومانية، زاد الله في مجده الخ...»

تأثر رئيس الدير لتهديدات السلطان. وكان غيورا على مصير النصرانية، لكن لم يكن عارفا بدهاء الأمراء وحيلهم، مما جعله يهول الأمر للبابا[2] الذي قرر في مجلس الكرادلة أن يوجهه الى اسبانيا مزودا برسائل مع نسخة من كتاب السلطان ليطلع ملكي قتشالة والبرتغال[3] على جلية الخبر ويبين لهم أسباب النزاع إلا ان رئيس الدير حينما وصل الى اسبانيا[4]، كان البابا قد مات، وكان ملك اسبانيا قد وجه سفيره[5] الى السلطان لمعالجة تلك القضية والى ملك الفرس وكانت السفارة ناجحة مما جعل ذلك الاب الطيب يفاجأ بكونه لم يستطع أن يحرك ساكن أولئك الملوك ولا أن يفهمهم تخوفاته.

وواصل الملك الكاثوليكي تنصيره للمسلمين، وحربه في بلاد المغرب بينما قوى ملك البرتغال الجيش البحري الذي وجهه للهند وزاد فيه، ليظهر قوته لذلك الراهب ولينتزع الخوف من قلبه. وبين له من أجل تطمينه بان السلطان لم يتحرك كما يدعي لفائدة الأمراء المسلمين، كما يتحرك لفائدته الشخصية، بسبب النقصان

(2) الأسكندر
(3) دون فرناند، ودون مانويل.
(4) 1504
(5) بيير ماتير.

الحاصل في مداخيله من جراء افلاس تجارة التوابل. وأكد له بانه لم يعد هنالك محل للخوف على المسيحيين الذين يتاجرون في بلاده ولا على الأماكن المقدسة، لأن من مصلحته أن يحافظ عليها، بسبب الفوائد التي يجنيها من ذلك والتي كانت من مجموع تجارة التوابل.

وأجاب البرتغال، من جهته، البابا(6)، فقال انه يترك جانبا رغبة ملك قشتالة في تنصير المسلمين التي هي قضية عادلة ومقدسة، ويتحدث عما يهمه بالذات وهو انه لم يات بشيء يثير تشكيات السلطان، وانه يامل من عناية الله، ملك الملوك والعالمين أن يوجه جيوشه البحرية الى البحر الأحمر وأن يتوغل حتى يصل الى مكة التي كان يقدس فيها محمد، على مرأى ومسمع من النصرانية، وان هذا يفرض على قداسته أن يجمع المسيحية لمحاربة الكفار ولتحرير قبر المسيح. والأمر ليس بصعب إذا ما تدبره كل ذي عقل سليم. ففتح طريق الهند وحده يخوف السلطان، فماذا سيكون شأنه إذا شاهد أساطيل النصرانية في موانئه تهاجم مدينة جدة، التي منها يكون الدخول الى مكة حيث يأمل ملك البرتغال أن يغرس الصليب ويبني الكنائس للمسيح ؟! وانه، كولد خاضع ومطيع للكنيسة، غيور على شرفها ومجدها، يتعهد بتنصير كفار الهند وانه عند دخوله للبحر الأحمر سيمد فتوحه الى البلاد التي نشأت فيها نحلة محمد وسيلحق تراثا جديدا بالكنيسة بمباركة المسيح. ويختم رسالته بقوله انه لا يريد أن يكون خديما عديم الجدوى وان يعطل ما منحه الله من موهبة، حتى يزيده منها. كان ذلك هو القرار الذي ذهب به الراهب الطيب الى السلطان، الذي لما رأى أن سفارته لم تات بنتيجة، جهز أسطولا كبيرا لمحاربة البرتغاليين في البحر الأحمر(7).

الفصل الثاني عشر

أسطول السلطان في محاربة البرتغال بالبحر الأحمر

برغم كون الراهب الاسباني لم يرجع بما كان ينتظره من أجوبة من البابا ومن ملك البرتغال، فانه لم يتخل عن الذهاب الى السلطان، وان يكون مرتاحا لما حصل عليه من صدقات كثيرة لفائدة ديره. ولم ينفذ السلطان تهديداته وانحصر

(6) يوليوس الثاني.

(7) عربنا هذا الفصل كما ورد عند المؤلف دون التغافل عما فيه من تعصب ديني وتحامل على الاسلام (المترجم).

غضبه في توجيه أسطول الى البحر الأحمر لاعتراض طريق الهند. الا أن مصر كانت تعوزها أشياء كثيرة لبناء الأسطول. فوجهت في طلب الخشب والحديد والقطران وكل ما كان ضروريا لتجهيز السفن والقوارب في البحر الأحمر. وأخذ الخشب من جبال اسكندرون ورغم ان المكان في ملك الاتراك الذين كانوا في سوء تفاهم مع سلطان مصر، فإن هذا الأخير، على ما قيل اتخذ من البندقية واسطة. وفي الوقت الذي كان يحمل فيه الخشب على ظهر خمسة وعشرين سفينة، تحت حراسة ثمانية من المماليك. وخرج حاكم البرتغال[1]، رئيس رهبنة القديس يوحنا بالقدس، الذي كان مقيما برودس، وجاء لملاقاتهم بست سفن وأربع قوارب محملة بستمائة محارب. فأغرق في عمق اليم خمس سفن للسلطان وأخذ ستمائة أسير وفر الباقي. وغرقت خمس سفن من جراء العاصفة، بحيث لم يصل منها الا عشر الى الاسكندرية. وهناك أفرغت شحنة الخشب وأصعد به في النيل الى القاهرة. وهنالك وقع نشره، ثم حمل الى السويس، حيث صنع منه اثنا عشر مركبا ضخما، محملة بألف وخمسمائة من رجال الحرب، بالاضافة الى الملاحين الذين كانوا من نصارى المشرق. وكان البعض منهم يشتغل عن طواعية، بينما الآخرون بالاكراه. وكان يقود هذا الأسطول أمين حسين، الكردي الأصل، الذي لم يكن من المماليك، ولكنه كان شجاعا مغوارا. وقد تبين ذلك من خلال سلوكه ومن الطريق التي سار فيها ومن الأعمال التي قام بها أثناء سفره والتي كانت تدل على شيء آخر، غير الذي كان يقال عنه.

ذلك انه لما وصل الى ينبع على ساحل جزيرة العرب، وكان الحاكم فيها أحد شيوخ العرب، استولى على المدينة بالقوة وبعد أن نهبها قتل الشيخ بسبب كونه كان يفرض اتاوات على الحجاج الذين يجتازون من ايالته نحو مكة، وكان العربان يتذرعون بذلك ليقوموا بسلبهم ولكي يمنعه السلطان من ذلك، اتفق معه على أن يعطيه 12 000 دينار في السنة حتى يترك القوافل تمر، فكان يتظاهر بأنه يتصدق عليهم، لكنه في الواقع كان يستدر الربح من ذلك اذ كان يفرض الضعف على الحجاج ويأخذ منهم أموالا كثيرة. فأظهر السلطان في تلك المناسبة انه حريص على الصالح العام وانه، كخليفة وعاهل ديني ساهر على دين محمد، لا بد له من أن يمنع كل اعتداء يلحق بأولئك الذين يأتون لزيارة قبره. فأمر قائده العسكري بأن يمنع تلك الاتاوة، وإذا لم يتمكن من ذلك أن يحتل الميناء حيث

(1) مارك دامارال.

كانت القوافل تدخل وتخرج كل سنة. وبعد ذلك وجه عامر حسين الى السلطان يطلب منه أن يوجه امدادات ليعوض الجنود المتروكين كحامية. ولم ينتظر حتى سار في اتجاه الهند ووصل الى جدة التي كانت تؤدي للسلطان الثلث من الحقوق المفروضة على البضائع الا انها مر عليها سنوات دون أن تؤدي شيئا بدعوى أن البرتغاليين كانوا يعرقلون التجارة، وان القليل الذي كان يجبى كان يستعمل للدفاع عن المدينة. وأراد حسين أن يتقاضى كل الملحقات، لكنه فقد كثيرا من الجنود في العملية مما اضطره الى انتظار النجدات وفي تلك الأثناء قامت فتنة سببها أن حسين كان يأخذ أكبر قسط من الغنائم لنفسه ويحرم الرؤساء الآخرين بدعوى انهم يتقاضون رواتب من السلطان. وأول من ثار كان هم الأتراك الذين كانوا على ظهر سفينة مصطفى الكبيرة، إذ ساقوها الى ديبل ونهبوها. وبعد ذلك بمدة وجه السلطان قانصو امدادا ومالا لمكافأة الجنود على ظهر السفينتين اللتين أتيتاه بالهدايا. وسار الجنرال في طريق الهند وتوقف أربعة أيام في عدن وسار محاذيا لشاطىء كلاياط، وهي مركز كان في حوزة البرتغال. ولم يشأ السكان أن يستقبلوه وقالوا له إن كان يبحث عن البرتغاليين، فعليه أن يذهب الى هرمز لملاقاة أحد قوادهم، وهم يشيرون بكلامهم الى الفونس البوكيرك الذي كان مر من هناك منذ زمن قريب، ولما رأى حسين انه عاجز عن طرد البرتغاليين من الهند، بدون مساعدة ملك كامباي وحاكم ديو(2) اللذين كانا قدما خدماتهما بالحاح الى السلطان. فسار نحو ديو دون أن يتباطأ في كلاياط ولا أن يبحث عن البوكيرك، لأن أوامر السلطان كانت تقضي عليه بالاتصال بذلك الحاكم والأخذ برأيه وبرأي ملك كامباي. وصادف استقبالا حافلا سواء لدى الحاكم أو لدى السكان الذين كانوا ينتظرونه يوما بعد يوم.

الفصل الثالث عشر

معركة بحرية بين البرتغال ومصر ومصرع د. لورانت الميدي

على إثر ذلك، كان ولد «فرانسوا دالميدي»، «دلورانت دالميدي» نائبا عن الملك في «كوا» فانفصل عن الأسطول الذي كان يقوده والده وكان في موسى «شول» مع ثماني سفن حيث كان يوجه مركبين من «كوشيم» مشحونين بالتوابل.

(2) ملك العز.

وكذلك علم بأن السلطان كان متجها في تلك الطريق وتأكد الخبر يوما بعد يوم فوجه يطلب من المركبين أن يسرعا في شحن حمولتهما وأن يكونا على استعداد لمواجهة الأحداث. ولما حل موعد سفرهما عشية يوم السبت، وكان هو يقوم بتدريبات على الشاطىء مع بعض القادة، وكانت السفن تركت ركابها في الأرض، أتاه النبأ بظهور سفن في أعالي البحر على مصب النهر وقيل له إنها تتجه الى مرفأ آخر في مكان أبعد. وظن في البداية أن الأمر يتعلق بسفن البوكيرك. لكنه لما شاهد كاليرات مختلطة مع بعضها لم يشك في انها سفن السلطان.

عندئذ، عاد كل واحد الى مركبه ليستعد لملاقاته. وأمر الكَاليرين أن تظل على حالها كما كانت بسكانها صوب الأرض، وجعل المراكب الصغيرة حولها. وذهب الى عرض البحر وترك بيير باريط في وسط النهر وكان بينهما من البعد ما يمكن تسرب أسطول السلطان فيما بينهما وما يحول من منعه من الرسو أمام المدينة إن شاء ذلك.

ودخل أسطول السلطان الى النهر رافعا عددا من البنود والأعلام الحريرية الملونة، والهتافات تتصاعد الى السماء كأن الناس في يوم عيد. وكان يحتوي على أربع سفن كبيرة وكاليون وستة كَاليرات، مع مركب كان يحمل على ظهره سفير ملك كامباي، الذي كان قد ذهب يستنجد بالسلطان ضد البرتغاليين، وكان الأمير حسين في الطليعة على ظهر سفينة من شحنة أربعمائة برميل، وقصده تطويق مركب القائد الأعلى، ووراءه بقية الأسطول، سفينة في اثر سفينة في أحسن نظام لمداهمة سفن العدو، وكانوا قد علموا من جواسيسهم بأن البرتغاليين غير محترزين.

كانت الكَاليرات مختلطة بالسفن، بينما مركب السفير كان خلف المركب الرئيس. وكانت قد طوت أشرعتها وتعرضت بأشرعتها العليا لريح بارد ومر العدو في هذا الترتيب بين السفينتين كما ذكرت وعمد الى مهاجمة سفينة «دم لورانت» التي كانت أكثر استعدادا للملاقاة مما كان يتصور. ذلك ان السفينة صمدت أمام طلقات المدفع وشهب النار والقنابل وغيرها من نيران الحرب، مما جعل حسين لا يجرؤ على القرب منها، برغم كون سفينته أعلى وأكبر. وتقدم الى الأمام فوصل أمام المدينة متبوعا بالآخرين الذين اقتفوا رئيسهم. وكان آخرهم يدفع فلكه من بعيد. فدفعه الموج على أحد جبال مركب باريط حيث وحلت. مما جعل سفينتي باريط ودوم لورانت تحاولان جرها بواسطة مرساتها وجعلها في وسطهما. لكن الأعداء

شاهدوا ذلك فقطعوا الحبل الذي كان يمسكها وتركوها تذهب إلى البحر. وراموا البرتغاليين بالسهام والنبال والنيران حتى أزعجوهم كثيرا. وجاء الليل على إثر ذلك فبدأ التهيؤ لمعركة الغد.

استشار الأمير حسين ربابنته والسفير، وقد لاحظ أن سفنه كانت أكبر من سفن البرتغاليين، لكنها لم تكن في أكبر احتياج الى الماء للابحار، لأنها كانت أوطأ، بينما كانت الكاليرات تدير كوثلها نحو المدينة وسكانها على صفحة الماء تجاه السفن البرتغالية وقريبة منها مما يجعل الانتقال بينهما ممكنا بواسطة ألواح طويلة كان حسين قد وضعها في جنب الكاليرات. ووقف بسفينته تجاه دوم لورانت ليكون درعا واقيا لأصحابه ويكون أول من يقوم بالهجوم وفي تلك الأثناء قرر دوم لورانت مع قادته أن يهاجموا العدو بمجرد ان يبدأ البحر في المد لأن أبناء البلد كانوا قد أنذروه انهم لا يفكرون في الهجوم بقدر ما يفكرون في الدفاع وان غرضهم هو انتظار «ملك عز» الذي سيأتي بأربعين سفينة مجذافية كما وقع الاتفاق على ذلك من قبل وكانت خطة البرتغاليين في المعركة هي أن يحاصر «دوم لورانت» مركب الأمير حسين بينما يحاصر باريط السفينة التالية. بينما يهاجم «كونزال بيريرا» و «انطونيو لوبو» وهما قائدا المركبين الآخرين. وتذهب أفلاكهم الى الخارج للقيام بالنجدة في أي مكان وقع الاحتياج الى ذلك، ويتصدى الكاليران لسفن الأعداء الست، من جانب، بينما يهاجمها القائدان من الجانب الآخر.

وفي الغد كان المد مساعدا، فهجم دوم لورانت بقوة على الأعداء، وأتى الكاليران بفضل التجديف الى حيث مراكب الأعداء الستة، وانقضا عليها بشراسة حتى طردا من كان فيها وصارا يتبعانهم من مركب الى آخر مما أثار في نفوسهم الفزع فصار البعض منهم يرتمي الى البحر والبعض الآخر يفر الى البر. أما دوم لورانت وبيير باريط فوجه مركبيهما الى الأعداء فوحلا في الرمال. وذلك أن الأمير حسين كان يستعمل حبالا طويلة، فربط سفنه بالحبال ليتمكن من جرها والانزواء نحو مصاطب الرمل، حيث لا يمكن للأعداء أن يتبعوهم، إذ بسبب تناقص الماء يستحيل عليهم أن يحاذوه. واتضح لدوم لورانت أن المعركة لا يمكن حسمها الا بالمدفع، فأمر باطلاق المدافع، فأتاه الرد بدوي قوي. وقتل عدد من شجعان الرجال دون أن تتاح لهم الفرصة لاظهار قيمتهم، ومن بينهم شقيق بيير باريت(1)،

وسفير ملك كامباي وهو يؤدي صلاته في مؤخر مركبه، وفيما بعد الزوال سمعت هتافات الفرح في سفن الأعداء وظهر ملك العز بقواربه على طول النهر.

فوجه دوم لورانت، في الحين مراكبه المدورة وكاليراته ليحول دونهم ودون الرسو في الساحل والاتصال بحسين. وتقدم ملك بعزم يدل على انه لم يكن يعرف شراسة المدفع البرتغالي وصار يهجم بصياح عال ويرمي السهام والنبال ويضرب ببعض الأسلحة النارية الصغيرة التي كانت في حوزته. وبما انها كانت قوارب غير مسلحة وكانت تمخر عباب البحر في ازدحام، فقد تمكن المدفع البرتغالي من الفتك بها بحيث انكسرت المجاديف لدى العديد منها ولم يبق في امكان الأخرى أن تتحرك. ولما رأى ملك العز نفسه في تلك الحال، وان الأمير حسين لم يخف لنجدته وكان محاصرا من الأعداء أكثر مما كان يحاصرهم، أمر قواربه بالانحدار الى أسفل نحو مكان البرتغاليين، في الوقت الذي جاء حسين يبحث عنهم. وكانت نيته أن ينتظر وصول الليل ليتصل بهم من الجهة الأخرى من النهر بعيدا عن أنظار البرتغاليين، الا انه أراد أن يعرف الحالة التي كانوا عليها، فوجه اليهم قاربين يسيران بحذاء الشاطىء المسكون لياخذ معلومات عن سفن السلطان، لكنهما تعرضا لمضايقة المدفعية البرتغالية، فاضطر للتوقف جنب الأرض قبل الوصول الى الهدف، حتى يدافعا عن نفسهما بفضل مساعدة بعض الجنود الذين جاءوا لنجدتهم، بحيث لم يستطيعا أن يواصلا سيرهما ولم يتمكن البرتغاليون من مهاجمتها.

ومرت بقية اليوم في اسعاف الجرحى ودفن الأموات في البحر ليلا لاخفاء الخسائر. وأصيب دوم لورانت بسهمين تركا فيه جرحين أحدهما في وجهه كان خطيرا. وبعد العلاج أحس بشيء من الراحة فعقد مجلسه مع القادة لتدبير معركة الغد. وبعد مناقشات طويلة، تقرر انه لا يمكن التظاهر بالدخول في حرب مع عدد كبير من السفن في مكان ضيق، بالاضافة الى كثرة الجرحى والقدر القليل الذي بقي من العتاد. ووجه الأمر الى سفن كوشيم التي كانت في مكان أعلى كي تكون عند الفجر خارج مصب النهر، وكذلك سيفعل القادة لمرافقتهم. فإذا أراد العدو أن يقوم بمطاردتهم فسيكو ن أمامهم حيز أوسع لمواجهته وللاستعانة بأشرعته. الا ان دوم لورانت الذي كان شابا وشجاعا، لم يرض بفضيحة الذهاب ليلا، التي كان يراها كهزيمة مقنعة ووافق فقط على خروج سفن كوشيم الى البحر. وفيما عدا ذلك ترك التدبير عند حلول الوقت. وكان بير باريط وديكوكام على هذا الرأي.

فأمر بايو دوسوزا وديبكّو بيريز بالذهاب الى تلك السفن وتولى قيادتها لاخراجها من مصب النهر. واستوليا في الطريق على كاليرين للعدو كان أصحابها نائمين فأتيا بهما فرحين الى دوم لورانت. ورفعت سفن كوشيم أشرعتها وكان الريح يهب من الأرض وقبل ساعة من طلوع النهار كانت قد خرجت من النهر وأخذت طريق كوشيم وهي تعتقد ان لورانت سيأتي على اثرها. ولكن الأمر لم يجر على ذلك. فما ان رآهم يذهبون حتى بدأت الشمس تشرق، فأمر المراكب الصغرى بأن ترفع أشرعتها وان تتبعها وأمر بيير باريط بان يخفرهم وبقي هو في المؤخرة مع المركب الرئيس لينظم الانسحاب بأشرعة أقل من الآخرين. وظن ملك العز حينئذ بانه يفر فأطلق الانذار بالصياح في الشواطىء وجاء ليطوقه بما بقي له من قوارب. ولما تقارب العدوان انطلقت المدافع من الجهتين بدوي مختلط بصياح يخلق الذهول. وأول شيء فلته القوارب حينما اقتربت من أليدي هو أنها أطلقت من مدافعها وابلا من السهام اغتم الجو بسببه، ورغم ان الرد كان قويا وان بعض القوارب حطمت وأخرى عطلت، فان الأعداء كانوا متحمسين الى درجة لم يبالوا بمن يموت من ذويهم. وكان السكان قد وضعوا ثلاث حواجز من الأوتاد في النهر لسد معظمه بغية الاحتفاظ له للصيد. وكان من بينها أوتاد مستقيمة أثبتت في ثقب من نوع حجر الطاحونة وكانت مصطفة في خط متواصل وكانت طويلة حتى ان الماء سواء في المد والجزر كان يثنيها. واذا مرت فوقها سفينة كانت تنثني دون أن تنكسر ودون أن تعوقها عن المرور، ثم تعود فتستقيم من جديد.

كان دوم لورانت يواجه هجوم قوارب الأعداء، تارة من قريب، وطورا من بعيد. ولما رأى كثرة الجرحى في سفينته وفي كالير «سوزا» الذي كان يرشده لأن الريح كان قد هدأ فأراد أن يبتعد واصطدم بأحد الحواجز. وبما ان سفينته وقع فيها ثقب من جراء طلقة مدفعية، قريبا من المقود فإنها وهي تجتاز الحاجز دخل في الثقب أحد الأوتاد عند رجوعه ومن جراء ذلك تسرب الماء الى السفينة وأثقلها فانقلبت على الحاجز ولم يعد في امكان الكّالير انقادها. ونزل الربان في الحين ليرى ما الذي يوقفه فرأى نفسه ينزل الى عمق اليم ويمتلىء من الماء الى درجة لم يعد من الممكن افراغه، فأخبر دوم لورانت بالأمر. الا ان هذا الأخير سرعان ما أصابته ضربة مدفع وانتزعت نصف فخذه. وأتي له بشيء لحمله الى سفينة بيير باريت، لا من أجل انقاذه لأن الضربة كانت قاتلة، ولكن للحيلولة دون وقوع جسده في يد الأعداء. ولم يظهر أي تألم وقال بان جرحه لا يؤلمه بقدر ما يؤلمه رثاء المحيطين به

له، وانه سيعود الى المعركة. وطلب منهم أن يتركوا معه أحدا يمسح جرحه وان يسنده الى صاري السفينة.

ولما استقر هناك في حالة نصف جلوس وكأنه راكع، رفع يده الى السماء وتوسل الى الله أن يقويه على مساعدة رجاله بالصوت، إذ لم يعد قادرا على اسعافهم باليد. وفيما كان يشجع ذويه وهو يتضرع الى الله بكلمات مشحونة بالتقوى وحب الله، أتت طلقة مدفع فأطارت نصفه الأيمن وبذلك انتهت حياته وأسلم روحه لخالقه. وخشية من أن يؤثر المنظر على أصحابه ويقضي على شجاعتهم، فقد ستر في الحين تحت الخشب المركب وكانت السفينة في تلك الأثناء تزيد في النزول داخل الماء. وتسارع الأعداء اليه وأرجعوا على أعقابهم ثلاث مرات وغرق في الأعماق دون أن يمكن انقاده. ولم يبق من رجاله الذين كان عددهم مائة وثلاثين الا تسعة عشر أخذوا في الحين كأسرى. وأخيرا، إذ اعتبرنا مجموع الأسطول، فانه لم يمت الا مائة وأربعون يضاف اليهم مائة وأربعة وعشرون من الجرحى. لكن عدد الخسائر كان أكبر من جهة الأعداء. وتوقف الأعداء هنالك لبضعة أيام بقصد معالجة الجرحى، وبنوا تابوتا لسفير ملك كامباي، وبعد ذلك انسحبوا دون أن يتمكنوا من العثور على جسم الميد.

الفصل الرابع عشر

كيف ذهب دوم فرنسوا دالميد لمهاجمة الأعداء لما علم بموته

لما علم دوم فرانسوا دالميد الذي كان بكوشيم بخبر الحادث، دون أن يتأكد من وفاة ابنه أو بقائه على قيد الحياة وجه برهمان (وهو أحد الكهنة عند الوثنيين) الى مملكة كامباي ليستعلم من أولئك الذين وقعوا في أسر الأعداء. والتقى بهم البرهمان بين ديو وكامبانيل التي هي عاصمة مملكة كامباي، حيث وجههم ملك غز الى ملكه. ولما علم بجلية الخبر رجع الى كوشيم وهو يحمل النبأ المفزع. لكن ملك عز كان قد سبق للكتابة الى دوم فرانسوا إذ وجه له رسالة تهنئة على ما أصابه من ثكل، بحيث وجه كل أفكاره الى الانتقام تجاوبا مع الحب الأبوي الذي يحرك كثيرا من العواطف في النفوس. فقرر في أجل ذلك أن يذهب للبحث عن جيش للسلطان البحري الذي تعزز بقوات جديدة انضافت الى الأعداء. وبينما كان يتهيأ لهذا المشروع إذا بالنبأ يأتيه بوجود الأسطول البرتغالي في الموزمبيق حيث قضى فصل الشتاء، الشيء الذي بعث في نفسه الأمل بتحقيق الانتصار، إذ صار

في امكانه الحصول على عدد أكبر من الجنود. إلا ان الأمر أتاه بالتخلي لالبوكيرك عن ولاية الهند وبالعودة الى البرتغال. ومع ذلك، فإنه عندما قدمت له الوثائق، ارجأ عملية الاستعفاء الى العودة للبرتغال، وكان مستعدا لمشروع ديو، وطلب من الفونسو البوكيرك أن يستريح فترة من الزمان في كنانور أو أن يذهب الى كوشيم، لأن الفصل كان متقدما بالنسبة لبضاعة السفن، وبمجرد احرازه النصر على أعدائه الذين قتلوا ابنه، سيرجع لتنفيذ ما أمره صاحب الجلالة القيام به. وجرى كلام بين القائدين في هاته المناسبة ودون أن يعتبر ما قاله البوكريك من كونه سيذهب شخصيا لطرد الأعداء من الهند، فإنه صمم أن يقوم هو بنفسه بهذا العمل، وان لا يترك أخذ تاره في ولده لغيره، وكان السيف في يده وهو يتحدث. وفارقة الفونسو البوكيرك إثر ذلك وذهب الى كوشيم. وترك دوم فرانسوا ما يكفي من الحراسة في حصن «كنانور» وعقد الصلح مع ملك نارفينك الذي كان وثنيا وعدوا للمسلمين، ثم ذهب في طريق ديو(1) بحثا عن أسطول السلطان.

والتحق به «بيير باريط دو موكَاليان» و «فرانسوا دوطافورا» الذي قدم من هرمز. فكان لديه تسع عشرة سفينة شراعية منها ست ضخام وست مدورة وخمسة اعربة وكَاليران ملكيان وسفينة ذات صاريين يحمل اثنى عشر مائة من البحارة والمحاربين وأربعمائة من الرجال الأشداء.

وذهب الى جزيرة «انشديف» حيث أنزل جنوده وضباطه ليحدثهم عن مشروعه. وبعد ان صففهم بطريقة تجعلهم يسمعونه كلهم قال لهم :

«شيئان يشغلان قلبي منذ مقتل ولدي، كلاهما يشاركني فيهاكل ذي الفضل من الناس. أولهما انني عما قريب سألتحق به، وثانيهما اني سأسترجع شرفي الذي اغتصب مني بفقده. فيما يتعلق بالشيء الأول، أنا على استعداد للموت، ان كانت تلك مشيئة الله، وان اقتدي بمثاله فاموت من أجل ديني وملكي ووطني، وهو مطمح كل من يتسم بالفضيلة. فبالأول نحصل على المجد الخالد، وبالثاني على الشرف والمتاع وبالثالث على طيب الذكر، لأنّ بلادنا ستحتفي بمجدنا الى نهاية العالم. ولكي أقول الحق، فأنا لست مطالبا باسترجاع شرفي لأني لم أضيعه. بالعكس، ان لي نصيبا كريسكم في الشرف الذي حصلتم عليه في هاته الديار والسيف في يدكم. ولكن إذا اعتبرنا واجبنا نحو منقذنا الذي نتبع تعاليمه، ونحو التاج البرتغالي الذي نحن من رعاياه، فنحن ملزمون بالانتقام مما لحقهم من اعتداء، وأنا

(1) 1508

خجلان من الوقت الذي أضعته دون الهجوم على أولئك الكفار، الخاضعين لسلطة السلطان والطامعين في الوعود التي بذلت لهم من الذي نادى عليهم والذين يتجرأون على نشر هلالهم تجاه صليبنا وذكر اسم محمد أمام اسم عيسى. لقد نال وطننا شهرة في العالم بحبه للدين الذي قام يدافع عنه، وبخدمة أميره كما يدل على ذلك ما قمنا به في اروبا وافريقيا وآسيا، حيث حصلنا على انتصارات عظيمة. وهكذا، فرغم أن الكفار يفتخرون بمقتل ولدي، فليس ذلك راجعا الى بطولاتهم ولكن الى المصيبة التي تعرفونها كلكم، أو بالأحرى، الى ذنوبي وما دامت ذنوبي هي سبب موته، فإن شجاعتي هي التي ستأخذ بثأره. فما أسعله من خطا كان سببا في جمع هذا العدد الكبير من الفضلاء لمحوه. فأنا أقرأ في عيونكم الرغبة النبيلة من أجل الذهاب للحرب تعظيما لله ودفاعا عن شرف الملك تجاه هؤلاء الكفار، ولاراقة دماء اولئك الذين أراقوا دمكم ودم أقاربكم وأصدقائكم. والله يشهد انني لم أتأخر للقيام بهذا العمل الا مخافة أن يقال ان حزني على ولدي هو الذي دفعني الى حب الانتقام الأعمى، واني لم آخذ كل الاستعدادت اللازمة لمثل هذا الأمر العظيم، واني أريد أن أضحي في سبيل لوعتي الشخصية

«ولكي أتجنب سمعة الأب المبالغ في الحزن، صارت لي سمعة القائد المتهاون. وبما أن الأمر يعني الشرف، فقد اتخذت كل الاحتياطات وانتظرت الجنود من البرتغال وكذلك السفن والأسلحة والعتاد ورغم ان عناية الله كافية كسلاح لمن يتبع أمره، فان ضعفنا البشري يخشى العار حينما يكون الأمر متعلقا بالشرف. وقد تركت الأمر سريا الى هاته الساعة بالنسبة للمشروع الذي سنقوم بانجازه، والذي بالاضافة الى عون السماء، سنجد رهن اشارتنا سفنا وعتادا، ونجد بمعيتنا هذا الجمع من النبلاء الذي ترون والذي قدم علينا مؤخرا من البرتغال، والذي يظهر حماسا كبيرا في ... اسم «الرومي» من الهند، ذلك الاسم الذي يسبنا به المسلمين والوثنيون. وأول شيء سنقوم به هو الهجوم على مدينة ديبل التي تسبب سيدها في خراب الحصن الذي كان لدينا هاهنا، واستقدم جنود السلطان وأسكنهم في مراسيه. وفي هذا المكان أريد من هؤلاء الشبان الشجعان أن يظهروا بسالتهم وان يغمسوا سيوفهم في دم كفار آسيا، بعد ان أتموا تعليمهم في دماء كفار افريقيا. وإود كثيرا أن نهجم على كوا التي ليست بعيدة من ها هنا، ولكنها توجد داخل البلاد، والنهر ليس قريبا من سفننا، ولذلك فان ديبل أ...هل في الهجوم، وقربها من الأعداء يجعلهم يحسون بمرارة انتصارنا عليهم أكثر فأكثر، وحينما

نأخذ ثأرنا من الأجانب الذي سنذهب للبحث عنهم، حينذاك يتيسر لنا أن ننتقم من أبناء البلد».

وقوبلت الخطبة بالهتاف الكثير، مما جعل الأمل يعظم في نفس دوم فرانسوا دالميدي في الحصول على نصر كبير. وبعد ذلك ساير الشاطىء الى ديبل. ورغم ان الموضوع لا يدخل في اهتمامنا، فمن الضروري ان نرى انتصاره على جيش السلطان، بالاضافة الى كون ذلك سيكون بمثابة زخرفة لتاريخنا.

الفصل الخامس عشر

استيلاء دوم فرانسوا دالميدي على مدينة ديبل

كانت مدينة ديبل احدى كبريات المدن في الهند، سواء من حيث التجارة أو الحضارة أو جمال العمران. توجد على نهر قابل للملاحة على بعد فرسخين من البحر. ويقطن بها الوثنيون والمسلمون. وتمتد إيالتها الى قريب من دكان، وكانت منتجعا رئيسيا للتجار سواء منهم القادمون من البحر أو من البر. وكان ملك دكان[1] هو المسيطر عليها في الغالب فيضع فيها حامية كبيرة.

ولما أتاه النبأ بسير الأسطول البرتغالي على طول ذلك الساحل، وضع فيها ستة آلاف من الجنود وحصنها من الأعمدة المدعمة من الوراء بتراب الخندق، وهو أحسن من سور الحجر للوقاية من ضربات المدفعية. ومن الجهة الأخرى من النهر التي تنظر الى الجنوب، لأن المدينة في الشمال، كان هنالك طريق واسع من منعطف من الأرض وضعت فيه بعض قطع المدفعية. وأمر الأمير باخلاء كل البيوت الواقعة في واجهة البحر حتى تتصرف المدفعية بكامل حريتها. وحينما علم بأن الأسطول البرتغالي كان على وشك الدخول في النهر، صفف سفنه قرب الشاطىء في نظام محكم حتى صارت كأنها طريق متصل إذ كان من السهل الانتقال من واحدة الى أخرى. وقرر أن يتخذ منها سورا آخر إذا وقع الاستيلاء على الطريق الواسع.

وكان واثقا من نفسه الى درجة أنه منع بعض التجار المتخوفين من نقل بضائعهم من المخازن وهددهم بالقتل. وليظهر اطمئنانه دعا امرأته من البيت الذي كانت فيه وأمر نساء الأعيان أن يأتين مثلها قائلا لهم بانه دعاهن ليتفرجن على

(1) صباي.

نساء الأفرنج، وهو الاسم الذي كان يطلق هنالك على النصارى، وهكذا جاء كل النسوان مسرعات وكأنهن في احتفال.

لم يكن الميد علي علم بذلك، إذ وصل الى مصب النهر، دون أن يدخل اليه لأن الوقت كان متأخرا. وفي الغد أصدر الأمر الى بيير باريط، وكان الريح والمد مواتيا مع الصباح، أن يذهب بالسفن التي كانت تحت قيادته ليقف جنب سفن الأعداء الموجودة بالمرسى، وتبعه مع بقية الأسطول بعد ان أمر قادة السفن بأن لا يتركوا فيها عند الوصول أما المرسى، الا البحارة، وأن يركبوا الآخرين في القوارب والأفلاك وأن يتبعوا سفينته الحاملة للعلم الأكبر ولا ينزلوا الى الأرض الا بعد نزوله. وكانت قد وصلته معلومات عن وجود عمق كاف في المرسى للنزول الى الأرض وعن سهولة الرسو جنب الأرض. وبعد ان قطع ممر النهر دون ما كان يتصور من خطر، ولم تكن السفن قد أنهت رسوها بعد أمام المدينة، كانت القوارب ملأى من رجال الحرب الذين كانوا يتعاركون فيما بينهم على من يكون أسبق للنزول، دون مراعاة الأوامر الصادرة اليهم.

وكان أول الذين خرجوا من مركب الجنرال هما «فرناندو بيريز داندراد» و «فرناندو كوميز شيدينيور». وبعد أن تقدموا في الأرض الفاصلة بين السور والبحر، وصلوا الى السور، دون أن يتضرروا من المدفعية التي كانت قذائفها تمر فوق رؤوسهم، وحاولوا أن يدخلوا من ثلاث فتحات تركها الأعداء للخروج الى الشط، فاستقبلتهم فيالق وجرت معركة ضارية، لأن مكان القتال كان ضيقا.

ولما رأى الميدى ان كل واحد كان يريد ان يسبق الآخر، وجه فريقا منهم للهجوم من جهة أخرى، الشيء الذي ترك حرية كبيرة للمحاربين في ذلك المكان، حيث كان الأعداء يتقوون ساعة بعد ساعة، وكان بيير باريط آنذاك في جهة أخرى من المدينة حيث كان في عراك مع المكلفين بحراسة السفن. ولكن النصارى قاموا، في الأخير بهجوم قوي اضطر الأعداء للتراجع نحو مسجد كان يوجد وسط المدينة، وكان النصارى أحرزو النصر فصاروا يجرون في الطرق واستولوا على المدينة بعد ان قتلوا أزيد من ألف وخمسمائة رجل، أكثرهم كانوا من السكان. ذلك أن المحاربين الذين كانوا بها فروا الى الجبال، ولم يمت الا ستة عشر من البرتغاليين، لكن هنالك أكثر من مائتي جريح واستمرت المعركة من العاشرة صباحا الى الثالثة بعد الزوال، وبعد حصول الانتصار دخل نائب الملك الى المسجد ونام كل واحد في الخارج.

وفي صباح الغد، بدأ نهب المدينة واحراقها في نفس الوقت وكان الحريق مهولا حتى أتى على كل شيء في بضع ساعات. بحيث لم تكن هنالك غنائم كثيرة باستثناء مخزنين على جنب البحر كان فيهما أكثر من مائة وخمسين الف دوكا من البضائع. وهنالك من يعتقد أن نائب الملك هو الذي تعمد اضرام النار في المدينة حتى يحول دون انشغال الجنود بجمع الغنائم ويغتنم الأعداء الفرصة فينقضوا عليهم من أعالى الجبال وأضرمت النار كذلك في السفن التي احترقت في لمح البصر، وكانت مخاطرة بالنسبة للبرتغاليين المشتتين في البيوت وسفنهم التي كانت قريبة من الأرض.

الفصل السادس عشر

الهجوم على مدينة ديو وما جرى في الطريق اليها

لم يفكر البرتغاليون في العواقب وهم يضرمون النار في مدينة ديبل قبل أن يحتاطوا في جمع الأقوات التي كانت موجودة فيها بكثرة والتي كانت السفن في حاجة اليها. وعبثا حاول دوم فرانسوا أن يجد شيئا وهو يساير النهر لأن الجراد كان قد أتى على كل الحبوب وكل المحصولات، في هاته السنة. وهو شيء مألوف في تلك البلاد، ولما رأى خلاء المكان، ذهب نحو «بسام» في خليج كامباي حيث بنى البرتغاليون منذ ذلك العهد حصنا، وبينما هم يواصلون طريقهم نحو الشرق لاحظ قبطان(1) احدى الكاليرات وهو يساير الشط في مصب الوادي قطعانا ترعى في الجنبات، فنزل وأخذ معه بعض الجنود ليستولي عليها. فسقط البعض من رجاله قتلى وكأن أناسا كانوا في مكمن يترقبونهم. فاضطر القبطان والباقي من رجاله أن ينسحبوا بسرعة، ولما تقدم الكالير في طريقه، تحت قيادة دييك مانديز صادفت حظاً أحسن وهي تلوى مع أحد الرؤوس. فقد التقت بمركب لملك عز كان ذاهبا من ديو الى ديبل وعلى ظهره أحد أعيان الأتراك كان ذاهبا لزيارة ملك كامباي، أحد أقاربه ومعه سبعة وعشرون من الأتراك كلهم شجعان ومنظمون أحسن تنظيم.

ولما رأى هؤلاء أن لا مفر من القتال، انبطحوا على بطونهم بحيث لم يكن يظهر الا الجذافون، وانتظروا ما سيحدث وهم في تلك الحال. ووصل دوم دييكو مانديز في تلك الآونة وكان حرف الكالير قد مر من فوق، واذا بالأتراك يقومون بغتة ويرفعون صيحات كبيرة على عاداتهم ويبادرون للدخول الى الكاليرة وتقدموا

(1) بايودوسوزا.

الى الصاري وكادوا يسيطرون عليه لأنهم فاجأوا البرتغاليين. ولكن هؤلاء استرجعوا هدوءهم فردوهم بقوة وبعد ان هزموهم كلهم أخذوا مركبهم. وجرح الكثير منهم في تلك المعركة ومن بينهم قائد جذافي الكاليرة الذي فقد عينه. وأحسن غنيمة كانت هي هنغارية جميلة جدا قدمت لنائب الملك الذي أعطاها لأحد رجاله ومنه انتقلت الى دييكو بيرايرا الذي تزوجها بعد ان ولدت له أولاداً.

ولنعد الى ما كنا بصدده. فقد دخل الجيش البحري في نهر[2] على بعد اثني عشر فرسخا من بسام، وفي ظنه أنه سيصادف الزاد هنالك. وفي المصب وقع الاستيلاء على فلك كان يحمل أربعة وعشرين من الوثنيين الكجراتيين الذي أخبروا نائب الملك بأنه يستطيع أن يحصل على التموين من حاكم بومباي مقابل المال. ويوجد على ضفة نهر يحمل نفس الاسم. وهكذا وجه في طلب ذلك على يد مبعوثين فيهم ثلاثة ضباط بسفن صغيرة للحصول على الأقوات دون الحاق الضرر بالبلاد الخاضعة لملك كامباي فجمعوا بعض القطعان، وقبل أن يعودوا الى الأسطول، وجه اليهم الحاكم اثنى عشر حملا من الأرز وما يعادل ذلك من الخرفان معتذرا بأنه لا يستطيع أن يعطي أكثر نظرا لبؤس المنطقة التي كانت معرضة لغارات الجراد. وشكره نائب الملك وواصل طريقه الى أن بلغ «مايم» حيث كانت توجد قلعة مهجورة. ولكنهم وجدوا فيها قدرا من الأرز كان السكان أخفوه في اقباء. فوزعوه على السفن.

ووصلوا الى ديو في اليوم الثالث عشر من خروجهم من ديبل، وأرسوا ذات صباح بعيدا من المرفأ بسبب غيم كان يغطي النهر.

الفصل السابع عشر
هزيمة أسطول الأعداء في ديو ووصف المكان

توجد مدينة ديو على مرتفع نجد مجاور للشاطىء، وهي محاطة بأسوار تتخللها أبراج. وبناؤها من الحجر المكسو بالجير على طريقة أوربا مما يجعل منظرها جميلا ويذكر البرتغاليين ببلادهم لأنهم لم يروا ما يشبهها على ساحل ملابار ولم يكن ملك العز آنذاك في المدينة لأنه كان في حرب على بعد عشرين ميلا من هنالك. ولكن كانت له ستة قوارب في البحر ورقاصون في البر كانوا يخبرونه كل يوم بانباء

(2) بومبايم.

الأسطول بحيث رجع الى المدينة في نفس اليوم الذي وصل اليها النصارى. وعند وصوله وجد أمير حسين يحاول جر سفينة من ستمائة برميل، بعيدا من دكة صخرية كانت في مدخل المدينة. ويعمل على وضع أخرى قريبا منها لتحمي مراكبه وكاليراته وقواربه وغيرها من سفن ملك قاليقوت التي جاءت لنجدته وإقفال مدخل المرسى أمام العدو.

وكانت سفينة ملك العز هذه مزودة بمقدار كبير من المدفعية وبدرابيز وجسور من الجبال. كما كانت مغطاة بجلود البقر النيئة في أماكن مختلفة ومبللة ضد النيران. وكانت أرباع الكوثل والجؤجؤ موزعة على فرق ومشحونة بعدد كبير من الرماة. وكل واحد منهم يحمل جرابا مملوءا بالسهام كافية له ولجاره. ذلك أن أمير حسين كان رجلا شجاعا وملك العز أميرا مطاعا. بحيث انهما هيئا كل ما كان ضروريا للدفاع عن المدينة وعن الأسطول. وعلى فرض دخول أسطول البرتغاليين الى النهر، فما كان انتصارهم ليتم بسهولة. الا ان ملك العز، الذي لم يكن يريد أن يستعمل مركبه كحاجز أمام المراكب الأخرى، لم يشأ أن يبقى هنالك وقال انه ليس من الضروري وضع مراكب في مصب النهر، لأن الربابنة البرتغاليين لا يعرفون شيئا عن المرسى وسفنهم كبيرة، فلن يجرؤوا على الدخول. وهذا ما عرفه من الاسارى.

فقرروا حينئذ أن يقفوا جنب البر، محتمين بالمدافع التي تستصلح كوقاية للمرسى، وجعلوا الى جنب كل مركب كبير قاربا أو كاليرة، متخذين عمارة من كل الغربان وأخرى من مراكب ملك قاليقوت لتدور حول الأسطول وتهاجمه من كل جهة حينما صل الى المدخل ورغم ان آلميدى كان يعرف تصميم المدينة نظريا وكذلك مدخل المرسى بالاستناد الى ما سمعه من روايات أخذها عن أهل البلد ووضع على أساسها خطة الهجوم، فقد غير كثيرا مما تراءى له في الأول بعد ان عرف المكان بنفسه، فلم تكن في المدينة آنذاك إلا الاستحكامات والتحصينات التي أقامها ملك العز، ومن جاء بعده. ومع ذلك فقد ظل مهتما من التأكد من طبيعة المكان ومن مراقبة الأوامر التي أصدرها من أجل الدفاع. ذلك أن النهر الذي يحيط بالمكان الذي بنيت فيه المدينة يوجد به صخرة في المدخل، حيث تنقسم الى شطرين. والقنال الموجود، من جهة الشمال، المحاذى للمدينة والذي تدخل منه، عادة، المراكب الكبرى، كان عميقا، ولكن كان أخطرها لوجود صخرة وعرة به.

لكن جهة الجنوب كانت ملأى بمصاطب من الرمل، بحيث لم تكن نصلح الا للسفن المجذافية، وفي هذا المكان بالذات حشد ملك العز المماليك لأنه كان يثق بهم كثيراء ولما عرف نائب الملك شكل الموقع ومدخل النهر وتعبئة الأعداء الذين كانوا في انتظاره بأكثر من مائتي سفينة ما بين كبيرة وصغيرة، عقد مجلسه، برغم كونه سبق أن أصدر الأوامر ووزع عماراته وفي هذا المجلس تقرر أن لا يدخل مركبه هو الأول. ووضع في الطليعة «فاس بيريرا» وهو قبطان، قائد لسفينة من حمولة ثلاثمائة برميل وكان معه عدد من النبلاء. وتتلو سفينته سفينة «جورج ميلو» مع مائة وعشرين من المقاتلين، وهاته السفينة كانت مصحوبة بسفينة لنقل الخيول وياتي بعده «فرانسوا دو طافورا» في سفينة كبيرة ثم «صوفا» على ظهر مركب صغير لحمل الخيل متبوعا ببقية الأسطول. وكل هاته السفن كانت مزودة أحسن تزويد بالجنود والعتاد والأسلحة، وكان النبلاء موجودين في كل مكان. والجنود يؤدون صلواتهم ودعواتهم ويضعون أرواحهم في مشيئة الله ولو كانوا عازمين على الموت وكان لهم أمل محقق في الحصول على النصر.

وفي هذا الترتيب دخل المركب الأول بمساعدة دليل كجراتي كان عارفا معرفة جيدة بالمدخل حينما كان يقع المد بين الساعة التاسعة والعاشرة من الصباح، ولم يكن يلوح عليها من الأشرعة الا العليا و «الميزين» مع الرايات المنشورة يصحبها دوي كبير من الأبواق والطبول والآلات العسكرية مما جعل الشعور يسود بأن الهواء يشق وأن أكثر الناس جبنا أصبحوا شديدي الرغبة في الانتقام من الكفار وأجابت الغربان ومراكب ملك قاليقوت على ذلك بصيحات عالية على طريقتهم ودلوا مجاذيفهم وصاروا يتقدمون نحو سفينة فاس وهم يظنون أنهم سيعترضون طريقه في مدخل النهر ويقذفونه بواسطة آلة تجاه السفينة وتجاه كاليرة كانت ترشقها بقدر كبير من السهام حتى ان الجو تلبد بكثرتها. وهذا السيل الوابل من السهام قتل عشرة رجال كانوا في الكاليرة وجرح منهم عددا مماثلا مما جعلها عاجزة عن ارشاد السفينة.

الا ان «فاس» لم يحفل بذلك ولم يعر التفاتا لأولئك الناجحين الصغار وتقدم نحو سفينة كبيرة لأمير حسين الذي كان هنالك مع سفينة أخرى لملك العز لكي يقوم كحاجز لحماية الآخرين ودخل بين الاثنين ووجه ضربة مدفع لأحدهما فأحدث فيه ثقبا في ملتقى الماء. ولم يفطن الأعداء لذلك بسبب دهشتهم من دوي المدفعية وبعد ذلك غرقت السفينة الى الأعماق.

وأما مركب «ميلو» الذي كان هو الثاني، فقد ظل وراء سفينة «بيير باريت» بسبب خطإ من الربان الذي لم يقده قيادة حسنة. وتقدم باريت لنجدة فاس انه أصبح مطوقا من سفينتين ومن المركب الرئيس للسلطان الذي استعمل العقاقيف والكلاليب إما ليقترب منه أو يتأخر عنه حسب ما تدعو اليه الحاجة.

وأصبحوا متصلين اتصالا وثيقا مع سفينة «فاس» حتى إن «باريت» لم يستطع أن يصل اليها وهجم على أقرب مركب اليه ولكن بسبب إهمال ربانه أو غفلته، وجد نفسه بعيدا عن مكانه ومجردا من العتاد، لأن الأعداء حينما شعروا باقترابه وانه يلقي بعقاقيفه دافعوه. وفي هاته الأثناء استطاعت سفينة «جورج دوميلو» أن تتخلص وتتقدم نحو احدى السفن الرئيسية التي كانت في جهة كوثل «فاس» وبما ان ميلو كان مغتاظا من خطإ ربانه، رفع عددا كبيرا من الأشرعة حتى ان قوة الريح قلبت السفينة التي كان يهاجمها على سفينة فاس ودخل أحدهما في الآخر.

وعندئذ تدخل سبستيان دوميراندا الذي كان يقود في ذلك الموقع فهجم على سفينة العدو وصعد اليها واستولى عليها، ولما رأى جورج دوميلو انه لم يفعل شيئا أكثر من تسليم هاته السفينة لصديقه، تقدم نحو أخرى كانت قريبة من هنالك، وتبعته السفن الأخرى في رتل حتى وقع التقاء الجميع. وكانت المعركة غير واضحة ودامية. وحتى لا يحصل نائب الملك في مؤخرة السفن المحاربة فانه دخل بين غربان ملك العز التي انسحبت نحو البر لأن مدفعيتنا أغرقت البعض منها. ولكنها لم تتوقف عن القتال ورمته بوابل من السهام لتغطية الآخرين وقتلت له أو جرحت عددا من الجنود. ولما رأت سفن قاليقوت عادت خاسرة، لم تشأن أن تنتظر نهاية المعركة واتجهت نحو البحر ووجهت أشرعتها نحو قاليقوت ونشرت في كل مكان الاشاعة بأن جيش البرتغال البحري وقعت هزيمته.

ورأى أمير حسين بأن سفينته مهاجمة من كل مكان وان ملك العز منهمك في إحصاء الضربات، بينما ظلت غربانه منزوية، وبما انه أصيب بجرح بالاضافة الى ذلك ومات أكثر رجاله، اختفى في سفينة صغيرة كانت معدة هنالك، ونزل الى البر وركب فرسا وانسحب الى «كامباي» حيث كان يوجد الملك، دون أن يقول شيئا لملك العز... ومع ذلك ظل رجاله يحاربون بشجاعة الى ان هاجمهم «سافورا» و «صوفا» وقتلوا كل المماليك الذين كانوا موجودين هنالك وحاول «مارتين كوسيلو» مرارا أن يهجم على سفينة ملك العز. ولكن، بما انها

كانت عبارة عن برج بالقياس الى سفينته فقد خرج من المحاولة في حالة سيئة هو وغيره ممن قاموا بنفس المحاولة ذلك أن سفينة العدو كانت مشحونة بعدد كبير من الجنود وبقدر مهم من الأسلحة النارية، فاستقر العزم على اغراقه بقذف المدفعية. وتحول صوفا الى أحد جنبيه وتمكن من أن يقضي عليه، في النهاية بواسطة قطعة كانوا يلقبونها الجمل بعد ان أفرغ عليها كل ما لديه من رصاص.

وسر انطوان دو كامبو غاية السرور حتى انه استولى على غليون دون أن يتكبد في العملية الا خمسة من الجرحى. ولما وصل «سواريس» الذي كان هو الأخير الى التهر، مر أمام الآخرين كلهم وذهب ليقف أمام المدينة بكل ثقة في النفس، وما ان قام بجولتين حتى استولى على كاليرتين للعدو بعد ان فر كل من فيهما الى البر، وأخيرا، برهن الجميع على شجاعتهم في المعركة التي كللت بالانتصار.

ولما رأى نائب الملك بان لم يبق ما يصنع من جهة البحر، غادر مكانه الذي لم يكن مريحا بسبب مدفعية الشاطىء وانسحب الى سفنه. ومات ستة وثلاثون برتغاليين في المعركة على إثر جروحهم، ومن بينهم : «نونيو فاس بيريرا»، الذي أصابه سهم في حلقه وأرداه قتيلا، دون أن يفوته شرف القيام بواجبه كجندي وكقبطان، و «بيرو كام»، قائد سفينة خفيفة، و «وفرانسوا دو نارفييس» و «ماشادو» مع ولدين لمانويل بيفانيا وعدد من النبلاء الذين كان أكثرهم بسفينة فاس. وكان هنالك، أيضا، ثلاثمائة من الجرحى.

لكن الأعداء فقدوا من جهتهم ألفا وخمسمائة رجل من بينهم أربعمائة من المماليك. وبعد القيام بنهب السفن واحراقها، باستثناء أربع منها وكاليرتين، وقع التعرف على الغنيمة التي كانت كبيرة، وكان الشيء الذي سر له نائب الملك أكثر هو أعلام السلطان وأعلام الامير حسين التي كان فيها شعاره وحملت الى البرتغال ووضعت في دير طومار الدي هو تابع لرهبانية المسيح، حيث ستظل شهادة خالدة عن ذلك الانتصار. وكان لهذا الفوز أثره في تأمين الملاحة بالهند واخذ فيه الثأر من مصرع دوم لورانت داليدي، وأجبر ملك العز على تسليم قبطانين الى المنتصر، وكان قد أسرهما إثر هزيمة ديبل. وأصبح لا مناص له من الخضوع. وبعد ذلك، غادر دوم فرانسوا داليدي الى كوشيم حيث استقبل بمظاهر الابتهاج والفرح. ولكن، بما أننا تحدثنا كثيرا عن مغامراته، فالقارىء سيسر بمعرفة خاتمته المحزنة.

الفصل الثامن عشر

مقتل فرانسوا دالميدي وعدد من القبطانات البرتغاليين على يد الزنوج في الساحل الافريقي

ما ان عاد آلميدي الى كوشيم، إثر هذا الانتصار، حتى ترك حكومة الهند في يد ألفونسو دالبوكيرك، حسب تعاليم الملك وعاد الى البرتغال على ثلاث سفن مع عدد من النبلاء من أقاربه وأصدقائه وغيرهم من الذين أنهوا مدة خدمتهم. وبعد ان مر من الموزمبيق ومن هنالك الى رأس الرجاء الصالح في طقس جيد، أراد أن يتزود بالماء في حوض سالضينيو لأن السفن كانت قد استنفدت ماءها وكان لا بد من اطفاء عطش الجنود. فأذن لهم بالنزول الى البر وبالتبادل مع الزنوج الدين تهافتوا نحو الشاطىء. وبما أن هؤلاء المتوحشين بينوا في البداية كثيرا من الصدق، فقد ذهب معهم عشرة أو إثنا عشر من البرتغاليين الى قريتهم. ولكن، يا ليتهم ما صاروا معهم، لأن الزنوج أخذوا منهم بعض الخناجر وكل ما رأوه صالحا لهم. وحاول أحد رجال نائب الملك أن يجذب منهم اثنين الى الشاطىء ويتخذ منهما عبدين، ففطنا لحيلته ولم يريدوا أن يصعدوا الى السفن. ولكن، بما أنه حاول أن يستعمل معهم العنف، نزع أولئك الزنوج أطمارهم ونزلوا عليه بلكمات حتى هشموا أسنانه وكسروا أنفه، وطردوه على تلك الحالة وما ان تقدم أمام نائب الملك على تلك الصورة حتى عادت الى هذا الأخير نخوة الشباب فقرر أن ينتقم له وعزم على النزول الى البر برغم تحذير العقلاء من دائرته، وعدم اقتناعه هو نفسه بما يعمل. وكان مسكن الزنوج بعيدا من المكان الذي كانت فيه السفن راسية، مما جعل نائب الملك يركب في زوارق سريعة مع مائة وخمسين من الرجال مختارين من أفضل من كان هنالك. وسار محاذيا للشاطىء الى أن وصل الى مكان أنزل فيه الجنود، وترك الزوارق تحت حراسة ربانه مع الأمر أن لا يذهب الا بعد أن يعود إليه، وعندما وصل الى مسكن الزنوج، قتل فرناند بيريرا في المدخل. وقام الجنود بنهب القرية، وجمعوا الأبقار مع الأطفال بينما فر الآخرون، ثم بدأ البرتغاليون يتراجعون. ولكن الزنوج الذين كانوا يرونهم من أعلى الجبل، وهم يذهبون بأولادهم وقطعانهم، انقضوا عليهم بكل قوة لانقاذهم. مما جعل لوران دوبريت يدلي برأيه الذي هو أن يترك الأولاد يرجعون اليهم، وهذا ما فعله البعض. ولكن الزنوج كانوا قد وصلوا الى حالة من الغضب حتى تجاوزوا الحد، وعلى طريقتهم المعهودة، بدأوا

يطلقون صفيرهم ليجتذبوا البهائهم للمكان الذي كانوا يريدون. ووقفوا وسط دوابهم وكأنهم داخل حصن وبدأوا يقذفون من هنالك قضبانا حددت رؤوسها بالنار. فجرحوا البعض بذلك. وداسوا بطون آخرين بواسطة دوابهم.

وبما ان البرتغاليين لم يكونوا حملوا معهم أسلحة دفاعية ولم يكن لديهم للهجوم الا رمح وسيف، لم يكن في مستطاعهم أن يضايقوا الزنوج كثيرا. بينما كان هؤلاء من وراء بهائمهم يقذفون بقذائف من حين لآخر كانت تطيح بهم الى الأرض. ومما زاد في الطين بلة أن البرتغاليين لما وصلوا الى المكان الذي تركوا فيه الزوارق وجدوا انها غادرت المكان بسبب عاصفة طارئة، بحيث ظهر الهلاك في الوقت الذي كان الأمل يحدوهم بالنجاة. فقد كانوا يكسرون أرجلهم وهم يسيرون على طول الشاطىء ويوحلون في الرمال الرقيقة، بحيث لم يكونوا يتقدمون، بينما العدو، بالعكس، كان يطير حواليهم ويقتل أشرافهم الذين كانوا يوجدون بالمؤخرة مع نائب الملك، وذلك أن الجنود العاديين تقدموا هم الأولون. ولما وصلوا الى البحر، كان عدد كبير منهم مصابا بجروح، ولا يقدر على المشي في اليابسة، فألقوا بنفسهم الى الماء لتجد أرجلهم الراحة دون أن يستطيعوا القيام بنجدة بعضهم البعض.

وحينئذ تقدم جورج دوميلو نحو نائب الملك ورآه متروكا من الجميع ومتعبا وسأله أين أصحابه الذين كانوا يحيطون به في قصره، في حين ان هذا هو المكان والوقت الذي كان ينبغي أن يظهروا له ما يجب عليهم من اخلاص في خدمته. لكن أجاب أن الذي كان لهم عليه دين ظلوا في الخلف وان الوقت لا يسمح بتوجيه اللوم وان كان همه في تلك الساعة هو أن ينقذ راية الملك التي كانت في خطر وأنه فيما يخصه قد بلغ من الكبر عتيا وارتكب من الذنوب ما يجعله يقبل الموت هنالك إذا كانت تلك إرادة الله.

والواقع ان جورج دوميلو قال ذلك لأنه لم يكن راضيا عن نائب الملك لأسباب ترجع الى وقت وجودهم بالهند. وقد مات أشجع وأفضل من كان معه(3) ورافق جورج دوميلو أكثر ما يمكن الراية الملكية ونائب الملك إلى ان قتل هذا الأخير من ضربة رمح قطعت حلقومه. وكان قد أصيب بعلة جراح من جراء الأحجار والقضبان الملتهبة التي قذفت بها. وما ان قتل نائب الملك حتى عاد

(3) بيير باريت، مانويل تليز، لورانت دوريت، كاسباردالميدي الخ...

ديبجوا بيريز الذي كان مربيا لولده(4) وهو يقول : لا سمح الله أن أعيش بعد الأب بعد ان عشت بعد الابن. وقدم نفسه للموت بجانبه. وهاته الواقعة كانت من أشأم الوقائع التي حدثت بعد فتح الهند. ذلك أن الزنوج لم يكن عددهم يتجاوز مائة وسبعين، بينما البرتغاليون كانوا مائة وخمسين من الشجعان المعروفين الذين شاركوا في هذا الفتح. وقتل أكثر من ثلثهم، ومن بينهم اثنا عشر قبطانا ماتوا بضرب العصى والأحجار المقذوفة، لا من لدن أناس محترمين أو شجعان، ولكن من لدن زنوج من أثقل خلق الله وأدناهم اعتبارا في الشاطىء. وفي ذلك عبرة الأحفاد تبين أن الانسان ما دام على قيد الحياة، فهو تحت رحمة القدر. ولا يمكن أن يعد نفسه سعيدا الا بعد الموت.

والذين عاشوا بعد الهزيمة كانوا كلهم من الجرحى. وبعد أن جمع جورج دوميلو شتاتهم وانسحب الزنوج الى مساكنهم وجه للبحث عن جثث الموتى، ووجدت جثة نائب الملك عارية، وبعد ان كفن بما ينبغي من التشريف الممكن في تلك الظروف، دفن في الشاطىء الذي مات فيه، وهو ينطلق في حركته المتهورة، وكذلك كفن غيره من القتلى بما ينبغي من التشريف.

ولنعد الآن الى ما كان يجري في البحر الأحمر. كان الفونس دالبوكيرك نائب الملك في الهند بجوا بأمر من الملك وذلك ليهاجم مدينة عدن، على ظهر عشرين سفينة، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، لأن المدينة وقع الدفاع عنها بحزم. فتخلى عنها ودخل الى مضيق البحر الأحمر وقضى الشتاء في جزيرة قمران. ويقال ان الجيش البرتغالي شاهد أثناء هذه الحملة صليبا في السماء، فقام بعبادته، وهو أول قائد برتغالي، على ما يقال، وجه تقريره من البحر الأحمر وبحر فارس المشهورين، ولكنهما لم يكونا معروفين. ومن مدينة هرمز، وجه في سنة 1515 فرناند كوميز دو ليموس كسفير الى إسماعيل ملك البرتغال، وكان هذا السفير يقول انه اجتاز ثلاثمائة فرسخ داخل فارس وان تلك البلاد جميلة وغنية من كل شيء، وبالخصوص، من النساء الجميلات اللواتي كان الاسكندر يسميهن بسبب ذلك محنة العيون.

الفصل التاسع عشر

الجيش الآخر للسلطان في البحر الأحمر

لما علم السلطان بهزيمة أسطوله، عزم على ان يبني أسطولا آخر يكون أقوى ليدافع عن حرمته ويؤمن التجارة في البحر الأحمر. ومن أجل ذلك استورد من

(4) دوم لورانت دالميد.

القاهرة الخشب وكل المواد الضرورية وأخذها الى ميناء السويس. وما ان شاع هذا الخبر حتى قام قرصان من جزيرة ناتالين اسمه الرئيس سليمان والذي كان من الصناع وتحول الى قاطع طريق في البحر، حتى جاء اليه على ظهر غراب يعرض عليه خدمته. وكان يملك ثماني سفن واثنتين احتياطيتين ففر بها من الجزر خوفا من السلطان الأكبر، الذي كان راغبا فيه ويسعى لاخذه.

وكان قد استولى على خمسمائة كَاليو مسيحية التي كانت تحت قيادة فيلماران. وهذا ما جعل شهرته تكبر. جاء بعد ذلك الى الاسكندرية وتفاهم مع السلطان الذي عينه قائدا للأسطول بحسث انه أتى اليه في القاهرة ومعه خمسون من أسرى المسيحيين وكاليراتان احتفظ بهما بعد ان تخلى عن بقية سفنه للصوص البحر. وبعد ان قبل يده ذهب الى السويس ليتولى أمر الأسطول الذي كان يشتمل على سبع وعشرين سفينة كبيرة فيها كاليرات وغربان. واتجه الى الهند وكان لديه ثلاثة آلاف من المقاتلين أكثرهم مماليك، كان أبناء البلد يسمونهم الروم. واما الآخرون، فكانوا من العرب مع بعض المرتدين من المسيحيين الذين كلفوا بالمدفعية. وذهب الى جدة حيث أبحر امير حسين بأمر من الملك ليساعده في هذا المشروع. ومن هنالك اتجه الى مدينة عدن بقصد الاستيلاء عليها. وبعد ان وجه المدفعية صوبها هجم عليها وهدم جزءا كبيرا من السور. ولكن أحد الأمراء العرب الذي كان حاكما على المدينة ردهما بشجاعة على أعقابهما بحيث انهما انسحبا على غير نظام الى جزيرة قمران حيث كان لديهما الأمر ببناء حصن إذا لم يستطيعا الاستيلاء على عدن، وذلك من أجل حرب الهند، ريثما يتم لهما الاستيلاء على مركز مهم يجدان فيه الأمن من مضايقات الأسطول البرتغالي. وفي الوقت الذي كانت الأعمال جارية فيه لبناء الحصن توغل سليمان في البلد مع فريق من المماليك، واستولى على زبيد التي كانت على بعد اثني عشر فرسخا داخل البلاد. فظل فيها بعض الأيام لأن المنطقة خصبة وجميلة.

لكن الأمير حسين الذي لم يكن مرتاحا لمرتبته كنائب بعد ان كان قائدا أعلى، حرك الأسطول لما جاءه خبر غير مؤكد بان السلطان الأكبر قتل السلطان وحرك المماليك ضد سليمان الذي كان متغيبا وقال لهم : انه لا شيء يضمن في هذا الظرف أن تكون الثقة الموضوعة في القائد التركي في محلها، لأنه سيقف الى جانب سيده كي يحصل على رضاه. ورأيه هو انه في الوقت الذي كان فيه مقيما بزبيد يجمع الأموال والغنائم أن يذهب بالأسطول الى جدة للمحافظة على مركز

ذي أهمية كبرى لصالح سيده، وانتظار أنباء أكثر صحة من الاشاعات الرائجة.

وترك في الجزيرة بعض السفن لنقل المماليك الذين كانوا في زبيد وذهب مع البقية الى جدة حيث جاء سليمان للقائه بعد ان ترك حامية في المكان الذي استولى عليه. ولكنه لم يشأ استقباله حتى يتأكد من الخبر الشائع. وبعد ان ثار الخلاف بينهما تحاكما الى السلاح. ولكن شريف مكة الذي لم يكن الا على بعد اثني عشر فرسخا جاء بسرعة كأمير ديني وأعاد الاتفاق بينهما على أساس هذه الشروط وهو أن سليمان يدخل المدينة وان كل واحد منهما يظل على رأس جنوده حتى تأتي أخبار من السلطان وأوامر منه بما يجيب القيام به. ورضخ سليمان لهذا الاتفاق ووجه في الحين الى القاهرة وقبض على امير حسين ولم يجرؤ على قتله ولا على الاحتفاظ به كأسير. وتظاهر بانه يوجهه الى السلطان وقذف به الى البحر على يد من كان يقوده، ثم انه تأكد من هزيمة السلطان، فرفع العلم التركي، برغم كون امبراطورية المماليك لم تنته كليا لأن طومان باي خلف قانصو كان قريبا من نهايته.

الفصل العشرون

كيف وجه ملك البرتغال يستخير من امبراطور الحبشة ويسعى للتحالف معه وما حدث للوبى سواريس دالبريكيرا في البحر الأحمر مع الأسطول الخاص بالهند

في سنة 1515، وجه ملك البرتغال الى الهند ثلاث عشر سفينة محملة بألف وخمسمائة جندي، دون البحارة تحت قيادة لوبى سواريس دالبريكيرا ومعه الأمر بالدخول الى البحر الأحمر وأن ينزل في مرسى الرقيق الموجود في مدخل المضيق والذي هو تحت سلطة ملك الأحباش سفيرا لهذا الملك، كان الفونس البوكيرك، نائب الملك في الهند ووجهه من قبل الى البرتغال. وأمر في نفس الوقت بأن ينزل «ادوارد كالفاو» الذي سيذهب معه للحصول على ملف مع ذلك الامبراطور وللتوجه اليه ببعض القساوسة وبعض الزخارف لفائدة الكنيسة الرومانية وذلك لتفقيه تلك الشعوب وتقديم المثل اليهم.

ووصل «لوبى سواريس» الى الموزمبيق. وبسبب حادث طرأ عليه في الطريق ذهب توا الى الهند دون أن يقف في المضيق. وفي السنة التالية وصله خبر محقق عن أسطول السلطان وتلقى الأمر من سيده ليذهب لملاقاته ولبناء حصن في جزيرة قمران. فغادر كوا على رأس أسطول مركب من سبع وثلاثين مركبا شراعيا

على ظهرها ألف ومائتا برتغالي وثمانمائة مالابريين دون العاملين فيها والذين كان عددهم مماثلا. وفي ظرف عشرين يوما، وصل الى جزيرة سقطرة حيث تزود بالماء ومن هنالك الى عدن حيث استقبل أحسن استقبال من لدن الأمير مرشان الذي كان أميرا عليها والذي قدم له المفاتيح وعرض نفسه عليه كتابع لملك البرتغال، معتذرا عما جرى في السابق مما طرأ عليه من إساءات البوكيرك. وعرف بعد ذلك أن هذا الكلام لم يكن الا خدعة للتخلص، لأن الثغرات التي أحدثها سليمان لم يقع اصلاحها لكن سواريس لم يرد أن يستولي على المدينة الى أن يعود اليها وذلك حتى لا يترك فيه حامية وينقص من عدد رجاله وهو مقدم على معركة.

وحتى لا يعلم العدو بوصوله لم يبق هنالك الا الوقت الضروري للحصول على الماء وعلى أربعة ربابنة للسير في المضيق. وسار في تلك الطريق بعد ان وجه في طليعته بعض السفن الجذافية حتى يستولى على كل السفن التي تصادفها في المصب، فاستولى على ثلاث منها مشحونة بالبضائع التي أنزلوها الى غراب تحت قيادة «الفاري دى كاسترو». وهذا ما جعلها تغرق الى العمق مع كل الذين كانوا فوقها ومن بينهم السفير الموجه الى الحبشة. وبعد المرور من العاصفة، وصل الى جزيرة قمران التي كان يظن انه سيلاقي فيها الأعداء ولم يجد فيها الا بداية حصن. وعلم بان جيش السلطان تراجع الى جدة، فأخذ يترسم خطاه. وصادف أخطارا في هذه الطريق بسبب الرياح المعاكسة ومصاطب الرمل الموجودة في عمق المياه وبينما كان يتحرك هنا وهنالك بحثا عن المراسي، صادف قاربا يحمل بعض النصارى المشارقة كانوا قد فروا من أسطول السلطان وعلموا منهم أين يوجد وكيف كانت أحوال مصر. وارتاح الجيش لذلك، وما ان عاد الصحو حتى واصلوا طريقهم والعمل من أجل مشروعهم.

توجد مدينة جدة على شاطىء الجزيرة العربية السعيدة على بعد واحد وعشرين درجة من خط شاطئها. وبنيت بالخصوص من أجل المرسى الذي يساعد التجارة كثيرا، تجارة البحر الأحمر. ولم يكن طيب البلد هو الذي دفع الى بنائها لأنها عبارة عن أرض جرداء قاحلة لا يظهر فيها أثر لأي خضرة. ويقول السكان ويؤكدون انه كان هنالك في نفس المكان مدينة جميلة. مما جعل بعض الجغرافيين يدعون ان الاشارة تعني البادية الملكية لبطليموس. وأما الشعب الجاهل فيقول ان آدم وحواء مدفونان في بناء يوجد خارج المدينة. ولكن البرتغاليين الذين تمرسوا بهذا الشاطىء يقولون بان تلك المدينة كانت أخفض بموقعها بعلو عشرين درجة

وهي التي ينسبها اليها بطليموس، حيث ما زال يشاهد هنالك برجان يدلان على انها كانت شيئا عظيما. وأبعد منها توجد قنفدة، وهي مركز قديم حيث ما زالت تشاهد على الأبنية حروف لا يستطيع أحد ان يقرأها وهي مشهورة في الجزيرة العربية إذ منها تبتدىء مساكن الصحراء.

ولنعد الى موضوعنا، فنقول ان مرسى جدة خطير والوصول اليه صعب إذ يفصل عنه فرسخ من الحدبات والرمال المتحركة، وعند الجزر، تضطر السفن للدخول في قناة ذات شكل حلزوني، فتتقدم وتتأخر، والمدينة مبنية من طرف المدخل الى طرفه الآخر، حيث لا توجد هنالك الا مصاطب الرمل، وكان امير حسين حصنها فأحاطها بأسوار بعد هزيمة ديو، ولما وصل اليها سواريس، كان الخصام بين سليمان وحسين قد انتهى، فظهر خارج مصب القنال ووقف في مواجهة المدينة. ومنها صوبت نحوه بعض طلقات المدفعية، وكانت قذائفها تصل اليه، رغم انه كان على بعد فرسخ. وبعد يومين، جاء اليه أحد المرتدين حاملا اليه تحديا جريئا من سليمان، وهو تحد اعتاد الأتراك أن يقوموا به، فذكر له انه يخيره بين المعركة في البحر أو في البر اما على شكل براز بين اثنين أو بين عددين متساويين كما يشاء، ولتجنب قتل عدد كبير من الرجال، فهو يعرض عليه أن يتبارز معه، وقبل بعض البنبلاء البرتغاليين التحدي، ولكن سواريس لم يسمح بذلك وقال للمرتد أن يقول لسيده بان اللقاء سيكون في المكان الذي يقدم له فيه الجواب.

وفي صباح الغد، حمل قبطانين على ظهر كاليرة لسبر القنال، بينما كان آخرون على ظهر بعض القوارب ليقوموا بإحراق السفن التي كانت موجودة بالوسط. وكان اللهب المرتفع منها كبيرا جدا، وخاصة من الغليون الذي كان هنالك، حتى ان السكان أرادوا اخلاء المدينة وكأنها أصبحت رمادا. ولكن سليمان طمأنهم وألزمهم بالخروج الى المعركة من إحدى الأبواب حتى يلهمهم عزيمة أقوى، وهم حاملون للراية منشورة وعدد من آلات الموسيقى، طبقا لتقاليدهم وبالدخول من باب آخر. ومن حين لآخر يصوبون طلقة من المدافع نحو الأسطول. وكان الذين ذهبوا لسبر القنال، رجعوا وهم يقولون ان الدخول لا يمكن دون التعرض لخطر بين، المنعرجات الحلزونية التي كان لا بد من الاجتياز منها تحت رحمة مدفعية العدو.

واقترح الذهاب لارسائها لأنها كانت على الساحل واحراق الكاليرات التي تركت في اليابس. ولكن لم يجر تنفيذ أي أحد من الأمرين بسبب ما كان وراء

ذلك من أخطار. بل لم يرد أحد أن يضع رجله على الأرض ليعرف هل سينزل الرعب بالعدو، لكن سواريس بعد ان تأمل التعاليم السرية التي تلقاها من ملك البرتغال، اعتبر ان جيش السلطان في حكم المهزوم وانه لا يستطيع لا هو ولا السلطان الأكبر أن يجهز جيشا آخر. وحتى لا يغامر بالهند كلها في معركة واحدة، تخلى عن هذا المشروع بعد ان بقي في المرسى أحد عشر يوما، ورجع الى جزيرة قمران لاتمام الحصن الذي كان العدو قد بدا في بنائه، ومن هنالك وجه كرافيلتين الى شاطىء افريقيا ومعها الأمر بان تذهب الى جزيرة مصوع أو الى مرسى الرقيق لتستعلم عن امبراطور الأحبلش وتتأكد من كون السفير الذي جاء يتحدث باسمه لم يكن جاسوسا للسلطان.

ولما وصلت الكرافيلتان الى دهلك، قبض سيد الجزيرة الذي كان عربيا على لوران كوسم القبطان وقطع رأسه ورؤوس كل الذين نزلوا الى الأرض معه. فإذا أضفنا ذلك الى موت ادوارد كالفان الذي وجه كسفير، كان ذلك معناه القضاء على هذا المشروع، وقضى سواريس الشتاء في قمران وتضرر كثيرا بسبب انعدام الأقوات، وأشياء أخرى وقرر أن يهدم بداية الحصن الذي كان سليمان شرع فيه وان يتخلى في تلك الآونة عن مشروع المضيق، وما ظهر الصحو حتى جاء الى مدينة زيلع وتوقف أمامها وفي نيته أن يستولي عليها ويهدمها بسبب المساعدة التي قدمتها لسليمان عند تراجعه إثر هزيمة عدن.

وكان أميرا عدن وزيلع عدوين لدودين بسبب التنافس على التجارة التي كانت تقوم عليها امارتهما داخل البلاد حيث كانت لديهما حاميات عسكرية، ولكن لما وصل سواريس لم يجد أحدا لأن الحاكم كان قد ذهب بأمر من سيده ليحارب امبراطور الأحباش، ولما علم السكان بوصول الجيش انسحبوا مع عائلاتهم ولم يبق الا قليل من الناس بحيث انهم دخلوا من الجهتين دون أن يصادفوا أية مقاومة، ولقوا هنالك ثلاثة تجار قطلانيين جاءوا بقصد بيع السلاح للكفار. ووجد من الغنائم لفائف من السيوف السوداء فأخذوها وفي نفس اليوم الذي دخل فيه لوبي الى المدينة، كان امبراطور الأحباش قد هزم ملك عدن. وهذا ما يجعلنا نقوم هنا باستطراد بقصد افادة القارىء. ملك عدن قوي في هاته الجهات وهو عادة في حرب مع امبراطور الأحباش. وأراد أن يدخل الى بلاده، فاستنفر جيشا كبيرا، فعلم بذلك الامبراطور الذي كان ما يزال صغيرا في سن سبع عشرة سنة، فسار نحوه بأسرع ما يمكن، ولما علم بانه مخيم في سهل محاط بالجبال، تقدم

لاقفال كل الثنايا، وجاء فانقض عليه بكل قواه، فتراجع ملك عدن باشارة من محمد، حاكم زيلع، تاركا له الأمر بالشروع في المعركة، ولما تقابل الجمعان، تقدم الحاكم في الصف الأول ودعا الأعداء للبراز، فتقدم اليه قسيس اسمه كابريال اندري فتقاتل معه بشجاعة وقتله وقطع رأسه وحملها الى الأمبراطور الذي جازاه أكبر الجزاء على ذلك، بحيث ان ذلك تكبد في يوم واحد خسارتين من لدن جيشين مسيحيين أولاهما في المعركة وثانيهما في المدينة.

ولنرجع الى ما كنا بصدده. فبعد ان استولى سواريس على زيلع ساير شاطىء جزيرة العرب لكي يتزود من الماء والأقوات في عدن ويجعل هاته المدينة تابعة لملك البرتغال. لكن ميرامار شان الذي كان قد أصلح الثغرات وشاهد أن جنود البرتغاليين نقص عددهم وان الأسطول عند عودته كان في حالة أسوأ مما كان عند ذهابه، حدث سواريس بكلام معسول دون أن يفعل أي شيء، مما اضطره أن ينتقل الى الجهة الأخرى ليهاجم مدينة بربارة التي كانت تقابل راس كواردافو، ولكن، بما ان الوقت كان هو آخر غشت وان تلك الجهات كانت خاضعة آنذاك للرياح الشرقية التي لها تأثير قوي على الأمواج، بقي الجيش مدة طويلة في البحر دون أن ينزل الى أرض افريقيا. وتاه في الطريق بحيث انه عدم الماء والأقوات وتفرق الأسطول بسبب الضرورة ومما زاد في الطين بلة حدوث عاصفة حتى ذهب كل واحد الى الجهة التي أراد. واضطر سواريس الى ان يصل الى قالاياظ على رأس عشر سفن ومن هنالك الى هرمز، وهكذا تفرق الجيش البحري دون أن يقوم بأي قتال. ويكاد يكون كل من كانوا في الأسطول قد ماتوا بسبب المصائب التي تكبدوها.

الفصل الواحد والعشرون

جيش برتغالي آخر في المضيق
التعرف الكامل على امبراطور الأحباش في أركيك

في سنة 1520، تلقى لوبيز سكيرا، حاكم الهند باسم ملك البرتغال، الأمر بالدخول في البحر الأحمر وانطلق من كوشيم في يوم 2 يناير وذهب لينتظر في كوا، غليونات كان يصنعها في كاليكوت، وفي الثالث عشر من فبراير، ذهب في طريق المضيق على رأس ثماني وعشرين سفينة شراعية تحمل على ظهرها 800 1 برتغالي و 200 1 مالا باري أو كناري. ولما وصل الى رأس كواردافو، وصله

الخبر من كرافيلا برتغالية أن السلطان الأكبر وجه جيشا بحريا الى تلك الجهات. ومع هذا الخبر أمر الملك بالتوجه لملاقاة ذلك الجيش مع أكبر ما يمكن من القوة والدخول الى البحر الأحمر مع سفير الأحباش، وذلك طبقا للأوامر التي صدرت سابقا لسواريس.

وبما انه لم يكن هنالك أي مكان للتزود بالماء في كل ذلك المدخل، فقد أسرع نحو ميناء ميت الذي هو قرية عربية صغيرة موجودة على طول ذلك الساحل. ولما وصل اليها، فر السكان ولم يبق منهم الا عجوز بينت لهم الوسيلة للحصول على الماء بالحفر في واد جاف، حيث كان الماء مخبوءا في عمق الرمال. وجازاها «سكيرا» باعطائها لباسا وتمليكها مدينتها ولم يشأ أن يترك المدينة تذهب ضحية الاحراق، خصوصا وان انطوان دوصالدان كان قد الحق بها علة أضرار. وذهب الجيش البحري من هنالك واجتاز من جهة عدن وسار في اتجاه الجزيرة العربية حيث وصل في الثالث عشر من مارس واجتاز من المضيق في السابع عشر، وتلقى النبأ بأن ألفا ومائتين من الرجال قد وصلوا كحامية الى جلة وان ست كاليرات تركية جاءت لتنزل الجنود في زبيد ليذهبوا من بعد الى عدن. وحينذ تهيأ لاستقبالهم.

ولكن الآخرين كانوا قد علموا بذلك، فاجتنبوا المرور من الشاطىء وتركوا له البحر حرا. ولما تبين له صعوبة الوصول الى ميناء جلة حيث كان يوجد الجيش البحري التركي وان الطقس لم يكن مساعدا، انسحب الى جزيرة صيبان ليلتحق من هنالك بشاطىء افريقيا ورسا في جزيرة مصوع وأحاطها في الغد بالسفن الصغيرة ليمنع السكان من الفرار الى البر، لأن القنال جد ضيق، ولكن كان قد مضى على ذهابهم خمسة أيام، لأن المراكب الصغيرة التي تصطاد اللؤلؤ كانت قد اكتشفت النبات، فإذن، لم يجدوا الا بعض المراكب الصغيرة التي استولوا عليها وسفينتين للكجراتيين الذين رفعوا شعارهم، ولكن كاليرة استولت على واحدة منهما وأحرقت الأخرى التي فر رجالها الى اركيك والى دكان الموجودتين كلتيهما في امبراطورية اثيوبيا.

وقد عرف من بعد ذلك أن أهل مصوع وان كانوا عربا، دون أن يعلموا هل الجيش البحري للأتراك أم للنصارى، كانوا يخافون منهم كلهم، ذلك أن الأولين كان قد سبق لهم أن أساءوا اليهم، ودنت شراعية من الشاطىء فجاء اليها ثلاثة رجال على ظهر طوف وأظهروا سرورا كبيرا لما علموا بأنها تنتمي للجيش البرتغالي، ودخل اثنان منهم الى الشراعية ليقدم اثنان منهم الى الجنرال رسالة من

حاكم اركيك، وكان أحدهما حبشيا والثاني عربيا. وحينما مثلوا أمامه ترامووا على رجله إجلالا له، ولكنه أوقفهما في الحين وتلطف معهما، ما داما قد أظهرا تبعيتهما لملك مسيحي ويبحثان عن محالفته. وكانت الرسالة تتضمن عبارات الحمد لله لمجيء النصارى الذين كانت تنتظر منهم نجلة كبيرة، وبالاضافة الى ذلك تضمنت الرسالة رجاء بالمحافظة على سكان مصوع كأتباع للملك، وكانت مصحوبة بخاتم من الفضة كان الملك وجهه عربونا على انضمامه وتضامنه وعلى رغبته في استقبال البرتغاليين واكرامهم بمختلف المرطبات، وطلب المبعوثان من الجنرال أن يعطيهما علامة تكون بمثابة تطمين لسكان مصوع.

وعلم هنالك أن السفير لم يكن جاسوسا كما سبق الظن بذلك، وتأكد الجنرال بأن المبعوثين رجلان يمكن الثقة بهما فأحسن اليهما وسلمهما راية بيضاء يتوسطها صليب، شبيهة بالتي تكون لطريقة يسوع، فكتبا كجواب على الخاتم انه قد مضى زمان طويل والملك سيده كان قد أعطى الأوامر لجنرالاته في الهند من أجل محاولة الوصول الى ذلك الميناء وعقد حلف مع امبراطور اثيوبيا، وكعربون على ذلك، وكعوض عن الخاتم الذي وجه له، فإنه من جهته يوجه هذه الراية للتأكيد على سلامة اتباع الملك وكرمز عن السلم التي يدل عليها الصليب. ولما أوصلت الشراعية المبعوثين للشاطىء، نزل الحاكم ومعه أكثر من ألفي رجل فتسلم الراية راكعا وذهب بها في موكب حافل الى المدينة ورفعها على بيته.

وفيما كان الجنرال منهمكا في التعرف على الجزيرة ليبني فيها حصنا وليرى ل المكان أسهل من قمران، شوهد عند الاقتراب من الشاطىء فارس وهو ينزل من المدينة ومعه أربعة ثيران كان يقودها رجلان أمامه، وحينما وصلوا الى الشراعية، ر. أ تناول الجنرال تلك الصور بيده وحسر رأسه فعبدها وقبلها بخشوع كبير. وكل هذا طمأن أولئك الاثيوبيين الذين قدموا له تلك الثيران الأربعة كهدية من الحاكم ومعها رسالة يشكو فيها على الراية التي وجهها ويخبر بأنه سيعلم بوصوله برناكس الذي كان حاكما للبلاد وديرا قريبا كان رهبانه يتحدثون دائما عن وصول البرتغاليين ويقومون بتنبؤات في هذا الشأن، وسر الجنرال من مقابلة اولئك الناس الذين كانوا يحملون كلهم صليبا خشبيا للدلالة على تدينهم وعلى اخلاصهم في أقوالهم، وسألوه أيضا هل لم يكن على علم بسفير كان قد توجه منذ تسع أو عشر سنوات، وكان في الأصل تاجرا اسمه ماتيو ويقوم بتجارته في القاهرة وكان الامبراطور والملكة والدته يستعملونه في القضايا المهمة. وأضافوا انهم كانوا وجهوه الى الهند

ليذهب من هنالك في سفارة الى ملك الغرب النصراني الذي كانت جيوشه البرية تقوم بفتوح هنالك وتطارد أتباع محمد.

وفي الحين أتى به، فقبلوا يده ودعوه أبا، الذي يعني أبي وأظهروا له كثيرا من الاحترام لما يكسو رأسه من بياض ولما قام به من دور. الشيء الذي جعل الدموع تنهمر من عينيه فقبلهم على أكتافهم ورؤوسهم، إشارة إلى التصالح. ثم التفت الى الجنرال وقال له بصوت يتقطع بالزفرات انه يحمد الله على ان آظهر براءته وان أتاح الفرصة لملكين عظيمين(1) كي يتحدا على أعداء الدين. والتفت في الحين الى الأحباش فطلب منهم أن يذهبوا لاعلام الحاكم واعطاء أخباره لبرنا كاس وللدير. وتأثر الجنرال ومن كانوا معه لمشاهدتهم هذا الشيخ وحاولوا أن يصبروه على المصائب التي عانى منها وعلى ما تعرض له من شك في كونه سفيرا حقيقيا.

وما ان عاد الأحباش الى المدينة التي كانت على بعد فرسخين من هنالك، وفي رفقتهم مبعوث من الجنرال حاملا هدية الى الحاكم، حتى جاء هذا الأخير في الغد الى الشاطىء وتحادث مع الجنرال عن الفوائد التي ستجنيها النصرانية من اتحاد الملكين. وفي اليوم الثالث جاء رهبان الدير فذهبت اليهم الشراعية لتحملهم الى الأرض. ولما صعدوا الى الغليون استقبلوا بصليب من الفضة المذهبة وبنشيد اجتمع عليه كل رهبان الأسطول في المناسبة وتصحبهم موسيقى الجنرال. وكان هذا اللقاء سببا في كون تلك الشعوب التي لم تكن تعرف الكنيسة الرومانية فيما سبق من الأيام، وجهوا بيعتهم للبابا، وان كان لهم بطريك خاص بهم. ونورد هنا ما ذكره جان دوباروس في تاريخه عما يخص عراقة الدين والدولة لدى هذا الملك الذي يسمى خطأ الراهب يوحنا، ثم نعود الى موضوعنا.

الفصل الثاني والعشرون

إمبراطور الأحباش وما يوجد من عجائب في بلاده

قبل أن يكتشف البرتغاليون الهند من جهة المحيط، اجتهد ملك البرتغال «دون جان» اجتهادا كبيرا لاكتشاف الأحباش، ولما أتى بعده الملك «دون مانويل» ووجه «فاسكو دوكاما» للقيام بالاكتشافات كانت التعليمات التي أصدرها إليه تتخلخص في ما يلي : ألا وهو أن يتعرف على أحوال هذا الأمير المسيحي. وفي كل

(1) داود، ملك إثيوبيا، ودوم مانويل، ملك البرتغال.

الجيوش البحرية التي وجهها فيما بعد كان يدس عددا من المحكوم عليهم بالنفي حتى يلقى بهم في شاطىء «ميلاندة» و «رأس كَواردافو» لهذا القصد وحده.

ذلك أن اسم الراهب يوحنا الهندي كان مشهورا باوربا. وكان بعض الرهبان من اثيوبيا يحدث التلاقي بهم. لكن كانت المعرفة بتلك الأصقاع ضئيلة الى حد الاعتقاد بان الراهب يوحنا كان هو ملك الهند، وهكذا عمل البرتغاليون على التعرف عليه، وفي الأخير، اكتشفوا انهم مخطئون وان الراهب يوحنا كان في بلاد التتار وان فيما بين التتار الزكاريين القاطنين في قطاي بعيدا عن جبل ايماوس، كان يوجد بعض الأمراء المسيحيين النسطوريين الأقوياء. وكان التتار الآخرون من الوثنيين يدعونهم «فنشا» وأتباعه «بوان»، وهو اسم كان يتناقل من جهة الى أخرى وكأنه اسم يدل على منزلة، في حين ان شعوب الغرب التابعين للكنيسة الرومانية كانوا يسمونهم «البريت يوحنا الهندي» لأن بلادهم كانت توجد بالشرق، وقد سمي هذا الأمير الراهب لأنه كان يحمل أمامه كراية صليبا في أيام السلم وصليبين اثنين في أيام الحرب، أحدهما مصنوع من الذهب وثانيهما من الأحجار الكريمة وذلك لكي يظهر بانه يفوق كل ملوك الدنيا من حيث الثروة.

وحتى يظهر بانه من حماة الدين كان يدعى «البريت» وهو اسم مدغم عن كلمة «البريتر» أي الراهب. وكان من القوة على جانب كبير حتى انه كان في تبعيته سبعون ملكا. ولكن حدث ان داود الذي كان هو الحاكم آنذاك دخل في حرب مع التتار الذين تمردوا عليه وأضاع مملكته وحياته لكونه عمل برأي القبطان سنجي أو تشنجي الذي خانه في منصبه، والذي تزوج بنته فتخلى حينئذ عن لقبه الراهب يوحنا ليتسمى «فلاركام دوكاطي» والسبب الذي جعل سنجي يشير على داود بهذا الرأي السيىء في المعركة الأخيرة يرجع لما أظهره له من ازدراء لما تقدم له بخطبة بنته، وان كان التتار جعلوا منه ملكهم منذ ذلك الحين. وابتداء من هذا الامبراطور سنجي الذي تولى امبراطورية التتار في سنة ألف ومائة وسبعة وثمانين ينطلق ماركو بولو في تعداد شجرة ملوك التتار الى ـ كوبلاي، الذي وجد في بلاطه في سنة ألف ومائتين وتسعة وثمانين، ولكن ما أورده غير مطابق لما ذكره انطوان الارمني عن أصل امبراطورية التتار. ولا يبعد أن يكون كلاهما مخطئين، لأنهما أجنبيان.

بيد اننا نقرأ في تاريخ ملوك التتار الى تيمور باي في كتابة بالفارسية لأحد العرب انه بقي ملك أو خلف للراهب يوحنا سماه «فنشا» وقال عنه انه لم يكن

قويا عنه وانه استطاع أن يجمع ما بقي من المسيحيين النسطوريين ولما أخذ العرب يضايقون هذا الأخير، فانه استنجد بالبابا اينوصانت الرابع الذي وجه[1] بعض الرهبان الدومينيكيين لملك التتار ليتوسل اليه بان لا يلطخ يده من دماء النصارى وأن يعتنق الدين المسيحي. وبما ان هؤلاء الملوك عرفوا في اروبا باسم «الراهب يوحنا الهندي»، فقد بقي اسمهم يتناقل لدى الشعوب الذين أطلقوه خطأ على امبراطور اثيوبيا الذي هو موضوعنا.

ونظرا لكون عدد من الرهبان كانوا ياتون من تلك البقاع الى اسبانيا وان الأمر اشتهر بانهم رعايا ملك نصراني يحمل صليبا كمدافع عن الدين، فقد شاع الوهم بانه الراهب يوحنا المشهور، وحتى أتباعه لما سمعوا بهذه التسمية، اعتقدوا انه هو الاسم الحقيقي، واكد «داميان دو كوز» الذي كتب عن ديانة الأحباش وتقاليدهم نقلا عن سفير جاء من بلدهم الى البرتغال ان «بيبل» أو «انكون» تعني في لغتهم يوحنا الفريد. وقال راهب حبشي لمارك انطوان سابليك «ان كام تعني في لغتهم قوى. اما بيك دولامبراندول الذي لم يكن متحريا في أخباره، فانه يسميه «بريسطام» ملك الهند، وهذا الخطأ في حق شخصية كبيرة آت من كون ما نعرف عن هذا الملك في وقته إنما نقل عن بعض الرهبان قدموا من تلك الأصقاع ورووا أشياء أخرى غريبة بالنسبة لما نشاهده اليوم، سيما بعد ما توارد من أخبار عن السفير الذي وجهه لوبيز سكيرا للملك داود. ومنذ ان اجتاز «استيفان دوكاما» حاكم الهند، مضيق البحر الأحمر، ترك لدى هذا الأمير أربعمائة برتغالي تحت قيادة أخيه[2] ليساعده على استرجاع دولته التي كان المسلمون قد استولوا عليها منذ ثلاثة عشرة سنة. وهكذا تجولوا في تلك البلادبرمتها وعلمنا من الذين عادوا ومن روايات فرانسوا الفاريز وغيره من الذين كانوا يجولون في تلك البلاد بان نصرانيا يعقوبيا هو الذي خلع عليه لقب سيد الأحباش. ولكنه اتخذ لقب امبراطور إثيوبيا الكبرى والعليا، وان كان لا يعرف الا اسم بعض البلاد التي تنتمي اليها والتي لا تخضع له الا عندما تشاء ذلك، وخاصة منهم الوثنيون أو المسلمون.

لذلك، فهو دائما في حركة، وبما انه أمير عظيم، فليس له مدينة ولا أي مكان له اعتبار خاص وهذا هو الذي يثير الدهشة، ففي نفس اثيوبيا، زيادة على

(1) 1246.
(2) 1541 والقائد هو بول دوكاما.

البلاد التابعة له، توجد عند المتوحشين أماكن عظيمة، سواء من حيث البناءات، أو من حيث التحصينات، أو من حيث التجارة وكثير منها مطوقة بأسوار من الحجر أو من الآجر وتمتلك ماجّل ملأى بالمياه واسعة وعميقة. ويمكنها أن تدافع عن نفسها من كل هجوم، ولما رأى البرتغاليون أن العدو، كلما دخل الى البلاد، كان يحدث فيها تخريبات كبيرة، سألوا المسؤولين لماذ لا يبنون حصونا كما هو الشأن بأوروبا، فكانوا يجيبون بانهم لا يضعون قوتهم في الأحجار، ولكن في الأذرع والاسئلحة وانهم يظلون على الدوام، في البراري كي يزدادوا ضراوة على الحرب، وانهم يستعملون الأحجار لبناء المعابد والاديرة. وانها لعادة قديمة لدى هذه الشعوب أن لا يكون عندها حصون، ولذلك، نرى بطليموس لا يذكر الا ثلاث أو أربع مدن داخل منطقة جزيرة ميروى، التي لم يبق منها الا اكسيم التي يسميها أهل البلد كمرة، وكأنها عاصمة مملكة سبأ. وليس يوجد الا هي كأطلال من الأبنية القديمة وأحجار على شكل أهرام لم تصمد للزمان بسبب ضخامتها، وهذا المكان يسمى اليوم «اكاشومو» ولتوزيع واحصاء البلاد والأقاليم، فإن الاميراطور من عادته أن يكون له بيت من الحجر في نفس البناية الصالحة للجمرك أو المستعملة للولاية أو بيت العامل ذاته. وحينما يكون بعيدا عن كل ذلك أو خارج المملكة فان تلك البيوت تظل مفتوحة، ولا أحد يجرؤ على الدخول اليها، خوفا من العقاب، وكأنه بمثابة عمل تمرد، ولذلك، فإن ذلك البيت بمثابة مركز في كل اقليم.

وتخترق بلاد هذا الأمبراطور ثلاثة أنهار(3) أوسطها هو أكبرها وياتي من بحيرة برصيل، وهو وسط امبراطورية الأحباش، ويحيط بمماليك وأقاليم يدعي هذا الأمير تبعيتها له، ومن جهة البحر الأحمر، بين البحر وامبراطوريته، توجد سلسلة من الجبال على طول الشاطىء كلها مسكونة من لدن عرب مسلمين في يدهم كل الموانىء، باستثاء ميناء اركيكَى، وفي اقليمه الواقع جهة الغرب، توجد مناجم ذهب في أرض يقطن بها وثنيون تايعون له، وهاته المناجم توجد بالجبال على طول مجرى النيل الذي لا يعرفه هؤلاء الزنوج الا بالاسم دون أن يروه، لائهم معزولون عنه بجبال أخرى(4) تكتنز مناجم من الذهب، ومن ثم جاءت عادتهم في تسمية نهر آخر أبا المياه(5) لأنهم لا يعرفون هذا الأخير. ويقولون بان هنالك جيلين هم

(3) النيل، أفطابورة، أفطابوس، وهي بلغة البلاد طاكوى أبانهى، طاكَاسى.

(4) دامود، سيناشى.

(5) أبانهي.

الذين يشربون ماء النيل، أحدهما من العبرانيين من المغرب حيث يحكم ملك قوي يسمونه ملك اليهود(6)، والآخر في الشرق حيث يلتقي هذان النهران مع النيل. وهنالك توجد مملكة الامازون التي يدعونها مملكة النساء ذاكرين بانهن ينحدرن من الملكة «كاوا» أو أن هاته الملكة تنحدر منهن، لأن دولتها مواجهة لبلاد الامازون من جهة الشرق بين نهري «ابنهى» و «طاكاسي» تقريبا في المكان الذي يلتقيان به ويواصلان طريقهما نحو النيل، في اتجاه محاذاة جبال مكَاصة، حيث توجد مناجم أخرى من الذهب.

فإذ خططنا خطا وهميا مند سواكن التي توجد على تسع عشرة درجة وثلث من الخط الى نهلية جزيرة ميروى(7)، حيث تلتقي تلك الأنهار الثلاثة، فإن القسم الشمالي الذي يفصل ممالك هذا الأمبراطور من ممالك العرب المسلمين، تمتد على مائة واثنين وعشرين فرسخا، وإذ دهبنا من ذلك المكان في النيل الى الغرب الذي اكتشفه البرتغاليون بمد قوس ينتهي في آخر الجنوب حيث مملكة «آديا» التي هي أبعدا لممالك في جنوب الأحباش، نجد جبالا ينشأ فيها نهر «اوبيي» الذي يسميه بطليموس «رابط» والذي يذهب الى المحيط في تيلمانصى قرب ميلاندة، وهذا الحيز الذي يشمل مائتين وخمسين فرسخا في خط منحن كما وصفناه، يقطن به وثنيون سود ومحاربون، وخاصة منهم الذين يقعون في حدود مملكة «آدي»، وإذا ذهبنا من هاته المملكة الواقعة على ست درجات من الخط بالذهاب الى الشرق، نقع في مملكة آدل التي يسكن بها العرب والتي تسمى مدينتهم الرئيسية عرار، على مستوى تسع درجات. وهذا الحيز يمكن أن يكون طوله مائة وخمسة وعشرين فرسخا، بحيث اننا إذا جمعنا الكل، فإن مملكة هذا الأمبراطور يمكن ان يكون محيط دائرتها سبعمائة فرسخ وهاته الانهار الثلاثة التي ذكرنا ليست كبيرة عند خروجها من بحيرتها، ولكنها تجد روافد كثيرة هي التي تزيد في حجم مياه النيل، فنهر «أباني» يتلفى ثمانية روافد و «طاكوى» أربعة، كلها تاتي من جبال «دامود» و «بيزاد» و «سيناشى» زيادة على تلك التي كان تلقاها من قبل عند وصوله الى ذلك المكان.

(6) النجاشي تيدوروس.

(7) بلغة البلد : نول باب.

الفصل الثالث والعشرون

عن أصل ملوك الأحباش، وعن ديانتهم وعادات بلادهم

يفتخر الأحباش كثيرا بكون ملوكهم ينحدرون من سليمان والملكة سبأ التي سمعت بعظمة هذا الملك وعلمه رغبت كثيرا في معرفته وركبت في مرسى على البحر الأحمر حيث بنت مدينة(1) حملت اسمها. ويضع بطليموس موقعها على اثنتى عشرة درجة ونصف من الخط. ولكن لم يبق منها أي أثر. فالبعض يجعلون منها مدينة مقابلة لجزيرة سربو، التي لها بعض التقارب مع هذا الاسم، والتي هي أدنى من غيرها الى الموقع الذي نسب اليه بطليموس.

ويقال ان هذه الملكة لما اجتازت من شاطىء جزيرة العرب وقطعت الصحراء في طريقها إلى القدس، وجدت أخشابا متعارضة فوق بحيرة على شكل جسر. ولكنها لم تشأ أن تمر عليه، لأن منقذ الدنيا كان سيتألم من الموت على الصليب، ولما وصلت رجت من سليمان أن يزيلها من ذلك المكان. ويضيفون انه استقبلها أعظم استقبال اعتبارا لمكانتها ومرتبتها، وأنها قدمت هدايا كبيرة له وكدلك للمعبد. وظلت معه حتى تعلمت كل ما يتعلق بالدين. ولما رجعت ولدت ولدا سمي مالكا فوجهته إلى سليمان بمجرد أن كبر ليعين ملكا في المعبد ويخلفها في الملك على بلادها التي لم تكن محكومة من قبل إلا من طرف النساء.

وقد استقبل الأمير استقبالا حسنا من لدن الملك سليمان، فجعل منه ملكا وغير اسمه باسم داود. وبعد أن علمه شريعة الالاه. جعل ضباطا من القبائل لاثنتى عشرة. ونظم بيته على نسق بيته. وجعل معه ملكا دينيا. في شخص أزارياس ابن صادوق الذي كان آنذاك سيد القدس. وقبل أن يذهب قام هذا الملك الديني بسرقة ألواح الشريعة بعد أن حصل على الاذن من سليمان، بواسطة أمير إثيوبيا، ليقوم بصلاته في المعبد، وجعل مكانها ألواحا أخرى. واحتفظ بهذا السر الى ان وصل الى حدود إثيوبيا. وعندئذ أفشاه للأمير الشاب الذي سر كثيرا بالنبإ ولما رأى تلك الألواح، بدأ يرقص لمشاهدتها وينشد مع كل أصحابه وينطق بالحمد لله. ولما وصل للبلاد، وضعت أمه في يده سيف القيادة.

ومنه ينحدر كل الملوك من رجل الى رجل دون أن يترك الملك لأي امرأة. وبقيت كل مهام بيته بين يدي أحفاده وهي التي كان سليمان أعطاها إياه دون

(1) دوم رودريكيردولما.

أن يوضع مكانها غيره. وقد شاء الله أن يعلموا شريعته على يدي ملكتين، ملكة سبأ وملكة كانداس، إذ علمتهم الأولى الشريعة القديمة، والثانية الشريعة الجديدة. ولكن لما قلنا في الكتاب الأول بأن ملكة كانداس كانت ملكة إثيوبيا بسبب زواجها لا بسبب إرثها وأنها استحقت هذا اللقب تكريما لفضيلتها، نقول زيادة في التوضيح، أن اسم إثيوبيا لا يذكر فقط بالنسبة للشرقية أو الغربية أو العليا أو الواطئة، ولكنه يطلق، أيضا، على مدينة قريبة من جزيرة ميروى في اتجاه الشرق، مع الانكفاء نحو الجنوب.

وهذه المدينة التي يسميها الأحباش «تيكرى» وسترابون «تنيس» كان يحكمها النساء بلقب ملكات. وعلى ما يظهر، يتسمين ملكات إثيوبيا أي ملكات المدينة التي كانت عاصمة لدولتهم لا لكل إثيوبيا التي هي فوق مصر، إذ كان هناك أمراء آخرون كانوا يحملون نفس الاسم معا. وعندما تحدث سترابون عن هذا الاقليم، قال بأن صيد الأفيال يبدأ من ميناء سبأ وأن ما يوجد داخلها يسمى تنفيس حيث يسكن المنفيون الذين انسحبوا هنالك في عهد الملك صامريك ملك مصر. ويسمونهم «الصبريِّين» وهي كلمة تعني الأجانب. وأنهم تحت حكم ملكة جزيرة ميروى التي هي غير بعيدة.

وفي مكان آخر، عندما تحدث عن انتصارات القائدة الروماني «بترونيوس» في تلك الأصقاع، يقول عن البلاد بأن منها كان قادة الملكة كانداس التي كانت في ايامه حاكمة إثيوبيا والتي كانت تتصف بشجاعة الرجال، لم يكن لها الا عين واحدة. وواصل كلامه عن انتصارات القائد الروماني، فأشار إلى السفراء الذين وجهتهم ملكة كانداس اليه. ولكن، بما أنه لم يكن يريد مساعدتها في ما طلبته منه، أخذ لها مدينة «لاباطا» التي فر منها أحد أولادها. فإذ اعتبرنا قياس الزمان، فإن هذه الملكة هي ملكة كانداس التي عمد طواشيها من لدن القديس فيليب. ولذلك، فإن الأحباش يقولون بأنهم تلقوا الانجيل بواسطته بطلب من القديس متى. ولكنهم لا يحتفلون كثيرا بحياة هذا القديس الذي كان سببا في انتقالهم الى دين النصرانية. والأسطورة التي يحملونها عنه ليست مطابقة لما هو عند الكنيسة الرومانية. فيقولون بأن القديس متى كان في بلادهم طوال اثنتين وثلاثين سنة، وانه دخل أولا الى مدينة تبطا، حيث أقام مع الطواشي الذي أوصله إلى ملك مصر الذي تنصر على يديه مع كل أسرته، بعد أن أعاد إلى الحياة أحد أولاده.

وجاء بعد هذا الملك كخلف له ايطارك الذي قتل القديس متى ولكن بعد ممات هذا الطاغية، انتخب الشعب ولدا لملك مصر عاش ستين سنة وترك خلفا

له ولده الذي كان من كبار الأولياء. ويظهر، إذن، أنه كان في نفس الوقت ملوك وملكات في هذه البلاد من إثيوبيا. ويعلمنا التاريخ بأن ملكات إثيوبيا كن يحملن إسم كانداص كلقب له إمتياز، على غرار أباطرة الرومان الذين كانوا يتسمون القياصرة وملوك مصر الذين كانوا يحملون اسم الفراعنة. ولم يكن هذا يمنع من كونهم كان لهم أسماء خاصة بهم. ويقول الأحباش بأن اسم الطواشي كان هو «انديت» ونشاهد، اليوم، بأنه في تلك البلاد أو، على مقربة منها، توجد ملكة تسمى كَاف أو كَاوا، ولكنها لا تحمل اسم كانداص. ونشاهد، أيضا، بأن البرتغاليين الذين مروا من مملكتها التي هي كبيرة من جهة النوبة، وجدوا فيها عددا من المعابد التي بناها المسيحيون والتي هدمها المسلون.

وما زالت هنالك صور للقديسين مرسومة على الجدران ويعزو أبناء البلد تخريب تلك المعابد إلى تخلي الكنيسة الرومانية عنها. وذلك بسبب كثرة الكفار التي كانت تحيط بها. ويروي فرانسوا ألفاريس أن سفيرا لملك البرتغال(1) كان يوجد بقصر ملك إثيوبيا، فوجهت الملكة كاو أوكاوا تطلب من هذل الأمير بعض القسيسين ورجال الدين لتعليم شعبها الانجيل وكان شعبها محروما من التعلم منذ قدوم العرب، بسبب أنه لم يوجه لهم أي بطارقة من روما كما جرت العادة وأجاب ملك إثيوبيا بأنه غير قادر على القيام بذلك وأنه هو نفسه يأخذ بطريقه من بطريق الاسكندرية الذي كان يعيش بين الكفار، بحيث إنه رد مبعوثي تلك الملكة دون أن يسعفها في طلبها. ولكي نبين بان الملكات اللائي نتحدث عنهن لسن ملكات لاثيوبيا بكاملها، ولكن فقط للمدينة الحاملة لهذا الاسم، نرجع الى يوسف الذي تحدث عن تلك التي ذهبت الى سليمان فقالت بأنها ملكة إثيوبيا ومصر، وإن كان في نفس الوقت يوجد ملك بمصر ما كانت لتذهب إلى أورشليم عن طريق البحر الأحمر ولا عن طريق الضحاري العربية ولذلك يسميها الكتاب المقدس ملكة القبلة.

ويرغب البعض في أن تسمى هكذا لأنها كانت ملكة سبأ الموجودة في العربية السعيدة وفي جنوب بلاد اليهود وما دام يوسف يخلع عليها اسم ملكة مصر لسيطرتها على جزء منها، فيمكننا أن نقرر. بأنها لم تكن ملكة لمجموع إثيوبيا، ولكن فقط للمدينة التي ذكرنا وأرضها لم تكن تسمى سبأ، ولكن «ماكيدة»

(2) داود.

كما يقول الأحباش. وسميت سبأ باسم العاصمة التي لم يبق منها أي أثر، وإنما تركت اسمها لاقليم سبأ. وقد بنيت هذه المدينة منذ زمان طويل، قبل أن تتولى ملكة كانداص الملك. وعلى ما يقص يوسف، فالظاهر أنها كانت هي التي حاصرها موسى واستولى عليها بمساعدة ابنة الملك، حينما كان يقود جيش فرعون في تلك الجهات. وبعد أربعمائة سنة تقريبا استولى قمبيز ملك مصر على إثيوبيا، فغير اسم هذه المدينة وسماها «ميروى» باسم أخته أو أمه، وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به. من بعد، الجزيرة.

والظاهرة أن هؤلاء المؤرخون حينما تكلموا عن هاته الملكات خلطوا بين الجزء والكل فسموهن بهذا الاسم أو ذاك ولأحباش الذين يعتزون بذلك يشيرون الى أماكن إقامتهم، فيقولون بأن ملكة سبأ كان لها كنز في مدينة أكاشوما التي ما زالت تشاهد فيها بنايات كبيرة وأهرام تناهز في عظمتها كنيسة القديس بطرس بروما وحسب شهادتهم فإن هذه المدينة بلغت من العظمة يومئذ ما جعلت بطليموس يذكرها فيسميها «أشوما» ويضع موقعها على عشر درجات من جهة الشمال. ويذكرون بأن «كانداس» ازدادت في مكان قريب يقطن به اليوم الحدادون، وأن مقر ملكها كان في «أكاشوما» وإن كانت مملكتها وجدت ببلد مجاور يسمى اليوم بور. ويذكرون أيضا أن طواشي ملكة كانداس أدخل إلى النصرانية مملكة تيكرى وبعض الأقاليم المجاورة وذكروا، في الأخير أن ابن ملكة سبأ(2) توج ملكا على إثيوبيا في مدينة «إكاشوما» ومن ثم أصبحت العادة جارية بتتويج كل الملوك بها. وكل من لم يحترم العادة يعتبر مغتصبا للملك. وتبعا لذلك، فإن كل أخلاق هذا الملك حافظوا على دولهم أو نموها ويعهدون بها كمتاع خاص بهم إلى من يشاؤون وبالطريقة التي يبتغون. فليس توجد إلا مملكة «دامبى» التي لم يتصرفوا فيها. وبرغم كون ملكها تابعا لملك إثيوبيا، فإن الملك لديهم يتعاقب عليه أبا عن جد لكون ملك تلك البلاد، على ما يقال، كان قد خضع، عن طواغية. حينما قام ملكة سبأ بفتوحة في البلاد المجاورة والتي كان أولها هو ممكلة تيكرى.

فيتبين من ذلك أن إثيوبيا عرفت، في نفس الوقت، ملوكا وملكات لامعين. ولكن الأحباش، دفاعا عن أنسابهم يخفون ملوكا آخرين كانوا يحكمون في تلك الجهات وما يستنتج من تعاقب الأزمان ومن الملكات اللواتي حكمن، سواء أكانت ملكة سبأ عهدت بجزء من مملكتها خاصة إلى ولدها الذي زاد فيها من بعد بفضل ما قام به من فتوح وما بقي في يدها انتقل إلى يد ملكة أخرى إلى أن وصل إلى

يد ملكة كانداس. ثم من بعد ذلك عن طريقة التوارث إلى ملكة كَاوا. ومما يزيد في غموض هذه الأشياء أن الأحباش لا يكتبون تاريخ ملوكهم مثل الرومان واليونان. والذي جعلهم يتحدثون عن ملكة سبأ وعن شريعة موسى هو أن ذلك كان أول شيء دخل في أذهانهم. ولذلك، فإنهم يحتفلون بالسبت وبيوم الأحد معا ويختتنون مثل البارم ويعمدون الذكور في يوم الأربعين والاناث في يوم الستين ولكن في يوم الأحد أو السبت لأنهم يحتفلون بذلك اليوم، أيضا، بذكر القداس. ويقوم الرهبان بتسليمهم القربان المقدس يومئذ. وإثر ذلك ترضعهم أمهم لتبلغهم ذلك الجزء الصغير من القربان.

وفيما يخص علامة النار التي يحملونها على أنوفهم والتي يقول عنها البعض إنها تعميد لما قيل عن المسيح أنه سيعمدنا بروح القدس وبالنار، فإنه ليس بتعميد ولكنه عادة تركها لهم الملوك الكاثوليكيون ليميزوهم عن الوثنيين. وهي عادة يحترمونها بكل دقة حتى إن الذين لا يطبقونها يصبحون عبيدا للملك. وأما الختان، فإنه يجري في اليوم الثامن في بيت أحد القسيسين. ولكنهم يختنون، أيضا، البنات، خلافا لعادة العبرانيين ويقومون بتشريح في مكان يسميه اللاتينيون «نامفا» ويقولون إن ملكة سبأ هي التي أمرت بذلك وزيادة على الختان الذي لا يعملون به كفريضة مقدسة، فإنهم يتابعون، أيضا، الشريعة القديمة في كونهم لا يأكلون الخنزير ولا غيره من الأشياء غير الطاهرة. ولهم بدع أخرى أخذوها، على ما يقولون، بأمر من بطريقهم الذي هو يعقوبي وبأمر من ملكهم. ويقولون إن البطريق هو الذي يشرف على الفروض الدينية ويعين القساوسة بينما الملك يحكم في الباقي ويجازي متى شاء ويعاقب رجال الدين وغيرهم ويتسلم كل الضرائب ولا يترك للكنائس الا بعض المبرات الملكية. ولكنه، في هذا القسم يبرهن على إخلاص كبير، ففي كل دولتهم لا يوجد أي قصر للملك ولا بيت كبير، في حين يوجد عدد لا يحصى من الأديرة المنتمية للقديس انطونيوس والصوامع والكنائس للكهان القانونيين المعتادين الذين يبنون كاتدرائيات وخورنيات، والكل قائم ومجهز بما يجب من تنميق. ويستفيد القساوسة والرهبان العاديون من إرث مخصص لهم في المكان الذي يسكنون به ويكفيهم للقيام بمعيشتهم. وإن مرتبات الاديرة والكنائس الجماعية مغرية حتى إنه لا يوجد شيء يرغب فيه بهذا البلد مثل الوصول الى درجة راهب لضمان عيش الانسان، بحيث إن هنالك عددا لا يحصى منهم. وهو سبب في المحافظة على الدين.

فيما يخص العلوم، فإن هذا الشعب همجي. وباستثناء ما يعرفه الرهبان عن الدين والذي هو ليس واضحا، فليس لهم معرفة بغير ذلك ولا يرغبون فيها. وليسو ماهرين حتى في الفنون وإذا جاءهم أجنبي له بعض المعرفة فإنهم يحتفظون به ليقوم بتنميق معابدهم، لأنهم لا يتوفرون لا على بنائين ولا على سقافين. وكل الاثواب والزخارف التي لديهم للخدمة المدنية، والتي توجد لديهم بكثرة، خلافا لما يعتقد بالنسبة لشعب همجي، فإنها من الحرير ومن الثوب المذهب الذي يأتيهم من الهند ومن القاهرة ومن أماكن أخرى التي يشترون منها ثيابهم ويصنعون منها خيام الملك وكل ما تزدان به قصورهم. ومن النادر أن يشاهد بين هاته الشعوب صانع لقلة النظام حتى إنهم يعتقدون أن الأماكن التي يصنع فيها الحديد من صنع الشيطان ولذلك فإن الحدادين ينظر إليهم عندهم كأشخاص ملعونين وفي حالة تنحية عن العلاقة مع بقية الناس وغير مسموح لهم بالدخول إلى الكنائس. وأخيرا، إنهم بلغوا درجة من الهمجية حتى إن العديد من جيرانهم الزنوج أكثر معرفة منهم باستعمال الآلات. بالاضافة الى ذلك، إنهم جد كسالى فلديهم بلد خصب ترعى فيه عدد من القطعان. والكثير من الأراضي الصالحة لزراعة القطن لا يزرعون شيئا منها بسبب كسلهم. ويتزيون بجلود لا يبدلونها، إذ يعتبر من الترف أن يكون هنالك ألبسة أخرى. ولباسهم قصير وسيء التفصيلة الى حد أنه من المخجل أن يشاهد الانسان كيف يلبس رهبانهم وقساوستهم وراهباتهم، سيما وهم أنفسهم لا يخجلون من ذلك. إلا أن الرهبان والكهان المنصبين يلبسون ثيابا قطنية ويرتدون كسي طويلة كما هو شأن جميع الأشراف، ولكن هذه الألبسة لا تصنع في البلاد. بل تأتي من الهند ومن غيرها. ومما يدعو الى العجب أنهم، على جهلهم وهمجيتهم، أذكى لصوص الدنيا. ولذلك، فهم لا يتدربون إلا على هذه الحرفة وعلى الأسلحة، ويتجولون دائما في البراري مثل العرب. والشيء الذي يخرجون فيه عن طبيعتهم بعض الشيء هو أنهم شجعان. ويوجد من بينهم عدد من القادة الكبار وقد أعطوا الدليل على ذلك للبرتغاليين في غير ما مناسبة.

الفصل الرابع والعشرون

المقابلة بين برناكاس وسكيرا في أركيك حيث أقاما حفلا بين أمرائهم. ورجوع هذا الأخير

أراد دييكو لوبي دوسيكرا أن يأخذ معلومات خاصة عن دير فيسلم وعن الأشياء التي كانت موجودة به، لأنه أهم ما يوجد ببلد الأحباش. فوجه اليه

فرناندودياس، الذي كان يحسن العربية وهي اللغة التي يتكلم، على العموم، بها في تلك الجهات وكان ينتظر من هذا المبعوث أن يسجل له كل ما يراه من ملاحظات مهمة ويعود إليه قبل وصول الرهبان، حتى يتحقق هل كلامهم يتطابق مع كلامه في شأن طريقته وأسلوبه في الحياة.

وغاب أياما في سفرته تلك. وفي أثنائها وصل الرهبان إلى السفن فأراد الأب كوميز دوطيشيرا، أمين الجيش، أن يذهب معهم ليرى ديرهم. فحصل على الاذن بذلك من الجنرال ورافقهم إلى أركيك، حيث وجه عامل البلد أحد إخوته ليرافقهم إلى المكان. وفي الايام الأولى التقوا هنالك مع رجال برناكاس الذين جاءوا للاتصال مع الجنرال سكيرا. ولما تقابلوا مع رجال برناكاس نزل العامل إلى الأرض، احتراما لهم ليحدثهم. وقضوا وقتا طويلا في ذلك وفي الأخير، تقابلوا مع العامل نفسه. وكانت أمامه أربع بغال جيدة تقاد باليد وأربع جياد تشبه خيول إسبانيا. والباقون كانوا يركبون البغال. وما أن وقعت عين أخيه عليه حتى نزل الى الأرض على بعد قذفة بندقية وألزم الأمين أن يفعل مثل ذلك.

وبعد ذلك ذهب كلاهما للحديث معه. ولما صارا قريبين توقف الحبشي بعض الوقت تشريفا للأجنبي وقبل كلاهما ثوب العامل في مكان ركبته. وهي عادة عندهم في تعظيم الأشخاص ذوي القيمة. ولما عرف برناكاص من هو كومير وما هو مشروعه وأن الجنرال كان ينتظره، أجاب كرجل عاقل يأن ديرفيسام قريب وأن كوميز الذي كان يتحرق رغبة في الاطلاع على ذلك الطريق، قبل أن يصل إر أركيك، يمكنه أن يذهب إليه ثم يعود ليلتحق بهم في أركيك. بل إنه رجا منه أن يتبع هذه الخطة لأنه سيكون مسرورا بالتحدث معه قبل أن يلتقي بالجنرال.

تابع الأمين سفره واطلع على ما كان يرغب فيه وعاد إلى أركيك وفي يده كتاب كان الرهبان أهدوه إياه ويحتوي على الأناجيل والرسائل ومزامير داود التي كانوا ينشدونها مع صلوات أخرى طبقا لما هو جار به العمل في الكنيسة الرومانية وأشياء أخرى كانوا يتداولونها. وما ان وصل العامل الى أركيك حتى كان هنالك تردد بواسطة الأمين فيما يخص المكان الذي يلتقي فيه هو والجنرال فالأول كان يريد أن يكون ذلك المكان هو أركيك والثاني كان بقترح السفن. وكان العرب هم الذين يثيرون تشككات ليمنعوا هذا اللقاء الذي لم يكن يعجبهم.

وذهب أنطوان دوصالدان وبعد جملة من الكلام رفض أن يكون هنالك تبادل رهائن بين النصارى ورأى أن تكون الكلمة فيما بينهم هي الضمان وأبرز

أحد الرهبان كان موجودا هنالك صليبا فضيا كان يحمله تحت معطفه وأراد أن يقدمه للعامل كضمان، ولكنه وقف بعجل ولم يشأ أن يستل منه لأن الأشياء التي يجري عنها التفاوض لم تكن من الاهمية حتى يستعمل فيها ذلك الرمز المقدس الذي تتعلق به المسيحية. ودون أن يضع أية صعوبة قال بأنه سيذهب إلى الشاطىء نحو الأسطول وأنه ما دامت السفن الكبيرة لا يمكنها أن تدنو كثيرا بسبب مصاطب الرمل، فإن الجنرال سيأتي على ظهر مركب صغير. وعلى أساس هذا الاتفاق، نزل نحو الشاطىء مع مائتين من الفرسان وألفين من الرجالة، وبعد ان أسند قيادتهم لعامل أركيك، تقدم مع ستة أشخاص فقط نحو بعض الكراسي التي كانت موضوعة على الشط.

وكان يحمل زيا على طريقة العرب يتكون من طليسان من الكتان الأسود يغطي ثيابه ومعطفا أسود فوقه، في حين كان يعتجر بطاقية من ثوب أبيض. وقد علم فيما بعد من رجاله بأنه كان يحمل ثياب الحديد، بسبب حملة كان قام بها في اتجاه مصر وفقد فيها أحد أولاده مع أربعمائة من الفرسان. وتقدم لوبي دوسكيرا مع ستمائة رجل من الأسطول في هيئة حسنة. ولما رأى النظام الذي كان عليه جند العامل، ترك هو أيضا عساكره مصطفين على طول الشاطىء واقترب مصحوبا فقط بعشرة رجال. ووضع مقعدان، واحد له والثاني للسفير ومقعد مغطى بالحرير للعامل، ذلك كان هو أعظم تشريف يقدم له. وقد وصل ثلاثتهم في نفس الوقت وأخذ كل واحد مكانه وبعد عبارات المجاملة والحمد لله الذي سهل في هذا اللقاء، أخذ جنرال البرتغاليين يتحدث بايجاز عن المشاق والأخطار التي تحملها لأجل اكتشاف الهند وحرص ملك البرتغال على التعرف على امبراطور الأحباش، المشهور في عالم المسيحية. وتحدث عن شك جنيرالات الهند في كون الذي جاء باسمه ربما كان أحد جواسيس السلطان. ولكن منذ وصوله الى البرتغال استقبل كسفير، وإن كان لم يكن من الممكن التعجيل باستقباله لعدة اعتبارات.

وفي الأخير، وجه الملك دون مانويل سواريس إلى حكومة الهند وأمره بأن يرده ويضعه بين يدي حاكم أركيك. إلا أن السفير الذي كان مقررا توجيهه معه توفي. وما دام الظرف معاكسا، فلم يكن من الممكن إنجاز هذا المشروع. وأنه لم يبق له الا أمران لتنفيذ أوامر سيده بأخذ شهادته حينما سلمه السفير ماتيو وأنه ترك لديه سفيرا آخر كان ملك البرتغال وجهه الى أميره عوضا عن الأول الذي كان

قد مات. والثاني هو أن يبني حصنا في جزيرة عمر أو في مصوع حيث سيسهل عليه أكثر من هنالك محاربة الكفار(1) في البحر الأحمر، وذلك بفضل الحصول على موافقة امبراطور الأحباش، وأنه كان عليه، بالاضافة الى ذلك، أن يأخذ الثأر من ملك دهلك الذي كان قد قتل قائدا برتغاليا، وجه هنالك لنفس الغرض، كما يعلم ذلك السفير نفسه، إذ هو الذي تنبأ له بأن ذلك العربي الذي كان غدارا سيقتله. وأنه جاء ليضع بين يديه الآن ماتيو وأنه بالنسبة لمن يوجهه سيده سيتأخر بعض الوقت وصوله لأن الأشخاص الذين سيصحبونه ليسوا بعد مستعدين لهذا السفر، وكذلك بعض الهدايا التي كان الملك يريد توجيهها للامبراطور.

وفيما يخص الحصن، فإنه يرى، أيضا، أنه لا يمكنه بناؤه في هذه السنة، لأنه ملزم بالانسحاب قبل الشتاء، وذلك لكونه أضاع جزءا من عتاده، ولأنه ينتظر موافقة الامبراطور. فلم يبق له، إذن، إلا أن يقوم بحركة نحو دهلك للتربص بالفرصة التي ستساعده على تحقيق مبتغاه.

وأجاب العامل في الصواب كرجل عاقل على كل ما قيل له. وفيما يخص الأمير، ترك الأمر لارادته. ولتأكيد السلم والحلف الذي يتعهدان بهما باسم عاهليهما، أخرج راهب صليبا من الفضة المذهبة، فأمسكها العامل من الأسفل وجثا على ركبتيه وقال : «الوحدة والسلم التي أرادها يسوع بين أتباعه، فلتكن بيننا، نحن الذين نحمل نفس العقيدة. والذي أتعهد باسم الملك سيدي أقسم عليه على هذا الرمز لسلامتنا» ونطق البرتغالي بنفس القسم وعاد إلى مقعده. وبعد أن تحادثا طويلا عن الحرب التي كان امبراطور الحبشة يقوم بها ضدا على الوثنيين والمسلمين، افترقا.

وأهدى البرتغالي بعض الأسلحة للحبشي من بينها أسلحة كاملة كان الحبشي يريد أن يعرضها على بعض الحاضرين كشيء جديد في بلده، ووجه الحاكم في الحين إلى الجنرال فرسا وبغلا مع خمسين بقرة وزعت على السفن. وفي فترة الأيام الثلاثة التي قضاها الحاكم بأركيك تبودلت عدة مراسلات وهدايا بين الجانبين تاركا أمره لعامل أركيك أن يأخذ معه السفير ليذهبا بقصد رؤية الملك داود. وفي الحين وجه الجنرال البرتغالي دون رودريك دوليما مع هدية سلاح وزخارف للكنيسة

(1) المؤلف ينعت المسلمين بالكفار، نظرا لتعصبه الديني الذي يبرهن عليه باستمرار في عدد من تعابيره. ونحن فضلنا، في الغالب، أن نحافظ له على تعابيره، كما تقتضيه أصول الترجمة (مترجم).

وغيرها من الأشياء الضرورية للعبادة حسب الطقوس المرعية بروما. ووضع الهدية بين يدي عامل أركيك كما أشار عليه بذلك حاكم الاقليم. فأصحب دون رودريك بفرانسوا ألفاريس، الذي كان راهبا، وبرتغاليين آخرين.

وبعد ذلك بزمان توفي سفير الحبشة الذي كان رجع من البرتغال في دير فيسام الذي كان يتشوق للوصول إليه. وانتقل رودريك إلى قصر الامبراطور داود حيث ظل هنالك ست سنوات وفي أثناء ذلك، ذهب الجنرال من مصوع وعرج على جزيرة دهلك التي توجد على ثلاثين فرسخا في موازاة شاطىء أبيكس. وجزيرة دهلك مقطعة بصخور ولا توجد بها الا مدينة واحدة اسمها دهلك والبقية ما هي إلا قرى. ولكنه لم يجد أحدا في الجزيرة، لأن سكانها تخلوا عنها لما سمعوا بمجيئه. فلم يغنم، إذن، الا بعض الدواب والجمال. وترك أثر إنتقامه على بعض الدور المبنية بالحجر إذ أمر بهدمها وبعد ذلك أشعل النار في المدينة وسار من الجهة الأخرى نحو جزيرة العرب، لأن الجهة الأولى كانت خطيرة لكثرة ما يوجد بها من مصاطب الرمل، ولم تكن معروفة بالكفاية من لدن الربابنة البرتغاليين.

فلم يشأ، إذن، أن يخرج من المضيق على طول شاطىء افريقيا. ووصل إلى مرسى عدن حيث أمكنه أن يستلذ بعدد من المرطبات. لكنه اصطدم بعاصفة في مدخلها تسببت في غرق كاليرة وفي رسوب عدد من القوارب وزوارق الانقاذ. وفي الأخير، رسا في كالاياطا. ومن هنالك وجه الأنباء الى البرتغال بما قام به في إثيوبيا. وإثر ذلك نظمت عدة مواكب واحتفالات مع التعبير عن الأمل بالحصول على أكبر فائدة من التحالف مع ذلك الملك. وواصل دون رودريك دولما طريقة في أقاليم برناكاس وتيكرماون، وهي الأولى في تلك الامبراطورية. وممالك دانكور ودمارا وشوا حيث وجد الملك داود الذي استقبله ببرودة خلافا لما كان يأمله ولكنه تراجع عن هذه الانطباعات السيئة التي أوحى إليه بها أصحابه وسمح له بأن يرجع الى الهند بعد أن تفضل عليه بهدايا كبيرة، بل إنه سلم إليه رسائل للملك دون مانويل ولولده الملك دون جان، وفيها يعرض عليه حلفا سرمديا كما يرى ذلك من نسخة تلك الرسائل التي عرضناها فيما بعد.

الفصل الخامس والعشرون

كيف ذهب دون لويس دومينيزيس إلى مرسى مصوع للبحث عن دون رودريك وما حدث له في هذا السفر وكيف أتى به آخرون مع سفير الأمير

في سنة ألف وخمسمائة واثنين وعشرين، ذهب دون لويس دومينيزيس أخو حاكم الهند إلى مضيق البحر الأحمر ومعه تسع سفن شراعية، وزار في الطريق أماكن من شواطىء الجزيرة العربية. وكانت له مشاكل مع سكان شاير[1]، بحيث إنه استولى على مدينتهم ونهبها، ثم أبحر في ظروف لم تكن تخلو من خطر، بسبب الرياح المعاكسة وجاء إلى مرسى فرما الذي كان تابعا لسيادة أمير شاير. فأحرق ثلاث سفن للمسلمين كانت موجودة هنالك وجاز إلى مدينة عدن التي كانت في حالة ثورة واجتاز إلى موخا التي توجد على مضيق المصب وحاذى شاطىء أبيكس، ووصل الى مدينة مصوع مدفوعا بريح طيبة، وذلك لكي يحمل معه سفير البرتغال الذي كان موجودا بقصر الامبراطور الحبشي.

لكنه لم يجده في مصوع فوجه في البحث عنه، لكنه لم يصل في الوقت المناسب. فعاد إلى البحر لأنه لم يكن في إمكانه أن يظل في المضيق طويلا، بسبب الرياح المعاكسة. فسار في طريق الهند بعد أن أعلمه بانصرافه وطلب منه أن يكون مستعدا في السنة الموالية. ولما خرج من مصوع، مر بشاطىء جزيرة العرب ونهب مدينة الفار التي توجد في الجهة الأخرى من رأس فرطك. في طريق هرمز. وبعد أربع سنوات، وجه هنرى دومينيزيس حاكم الهند هيكتور سلفيرا مع ست سفن ليحمل ذلك السفير إلى مرسى أركيك. وفي هذا السفر جاء إلى مدينة ألفار على شاطىء الجزيرة العربية وهزم العرب الذين كانوا يقفون في طريق نزوله ومن هنالك ذهب الى مدخل المضيق وجاز إلى مصوع. ولكن السكان كانوا فروا داخل القارة لما حصل من خلاف بينهم وبين دون لويس دومينيزيس، بحيث إنه نهب الجزيرة وأخذ بعض الأسرى.

وقبل فيما بعد، بتدخل من حاكم أركيك، أن يتصالح معهم مقابل ثلاثة آلاف برداوس تعهدوا بأدائها كل سنة لملك البرتغال وأدوا له أول حصة منها. وقام بكل هذا في اثنى عشر يوما وهو ينتظر السفير الذي جاء مع رجل من أهل البد

(1) لعلها هي التي يسميها «الروض المعطار» شيرة (مترجم).

ولما وضعه الحاكم الاقليمي بين يديه رجع إلى هرمز حيث وجد حاكما جديدا للهند. وإليه دفعت رسالة امبراطور الأحباش الموجهة إلى لوبى سكيرا وهذا نصها.

الفصل السادس والعشرون

رسالة امبراطور الأحباش إلى لوبى سكيرا، نائب ملك الهند(1)

باسم الأب الاله، الذي هو ازلي ولا بداية له، وباسم الابن الوحيد الذي كان لا يرى مثل الاب ويشغل الكواكب أمام تأسيس العالم والذي صور فيما بعد، في رحم العذراء بدون نطفة بشرية وبحكمته التي لا نهاية لها. وباسم روح القدس مفرج الكروب وروح القداسة التي هي أساس كل الأسرار والتي كانت في البداية في أعلى عليين بالسماء. والذي رفع بدون عمد ولا قناطر الأرض من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال دون أن تكون موجودة من قبل ولا معروفة ولا مخلوقة وهذا ليس هو الأول ولا الثاني، ولكنهم جميعا يكونون الثالوث والخالق الواحد الذي يعمل كل شيء من قديم الزمان. وصية واحدة وكلمة واحدة لقرون القرون. آمين.

هذه الرسالة وهذه السفارة هما من ملك إثيوبيا الكبرى والعليا، المسمى باسم التعميد أنسيانسيو العذراء، والمدعو الآن داود منذ أن صعد الى الملك، رئيس بلاده المحبوب من الله وسند الدين وسليل قبيلة يهودا ابن داود بن سليمان ابن سلسلة صهيون المنحدر من نطفة يعقوب، ابن يد مريم، وابن ناحوم من اللم. إليك دييكولوبيزدوسيكيرا جنرال الهند.

سمعت بانك خديم للملك(2) منتصر في كل أعماله لا يخاف الكفار لأنه مسلح بالايمان وبحقيقة الانجيل، ولأنك متكىء على عصا الصليب. فالحمد لله على الدوام على نعمة الدين المقدس، إذ إننا غمرنا بالسرور في محبة سيدنا المسيح بسبب قدومك لأنك جئت تحمل سفارة السلم، والهدية التي بعد أتعاب ومشاق أتيت بها عن طريق البحر والبر وأنت تقوم برحلة طويلة ضدا على الكفار. وقد عجبنا من سماعنا أن أسطولكم وهو يذهب حيث يشاء، يقوم منذ سنتين بالحرب

(1) هنا، أيضا، نثبت الرسالة كما وردت في النص الأصلي، وإن كان فيها ما يخالف عقائدنا كمسلمين. فنحن نترجم ولا نتصرف في النص (مترجم).

(2) دون مانويل.

في البحر وأنتم متعرضون للأخطار دون راحة لا في ليل ولا في نهار كما هو الشأن بالنسبة لبني الانسان ذلك أن النهار جعل للشغل والسفر والليل للنوم والراحة كما يقول الانجيل. النهار منح للانسان للعمل من الصباح إلى المساء ولكن الليل يهبش الأسد الأرض برجليه ويخرج للبحث عن أكله، ولكنه يدخل إلى عرينه عند طلوع الشمس. والناس مثلهم مثل الحيوان، والحيوانات موجودة منذ بدء الخليقة. ولا بالنسبة لكم لا رقاد الليل يتعبكم ولا الشمس تضايقكم في النهار بسبب محبة السيد المسيح كما يقول القديس بولس. فلا الألم ولا الخوف ولا الجوع ولا القساوة ولا السيف ولا الرمح ولا الشغل ولا الاضطهاد ولا أي شيء في مستطاعه أن يبعدكم عن دين المسيح الذي نؤمن به في الحياة وفي الممات ويقول الحواري المرضى عنه، أيضا، أن المسكين الذي يتحمل الشر كما يتحمل الخير جدير بتاج الحياة والله واعده بكل ما يحب الحصول عليه.

وهنالك رجال يريدون ويعتقدون أنهم يسعون إلى شيء في حين أن الله يريد شيئا آخر. والله لم يخلق الانسان لغاية سيئة، حقق الله إرادتكم وأوصلكم سالمين أنتم وجنودكم إلى الملك دون مانويل سيدكم، وانتم تسوقون أمامكم أولئك الذين علبتم مع سلبهم، لأنهم لا يؤمنون بالمسيح، وهذا ما أهنئكم عليه وأطلب من الله أن يبارك في جنودكم وفيكم لأنهم شهداء المسيح، حينما يموتون على اسمه المقدس ويتحملون البرد والحر والمشاق والأتعاب. وقد علمت أنكم وصلتم الى بلادنا وفرحت كثيرا لهذا النبأ، وكأنني حصلت على غنيمة كبيرة. ولما علمت أنكم رجعتم إلى الهند تأثرت بذلك كثيرا. ولكن لما قيل لي إن سفيركم سيقدم لزيارتي، وأخبرت بنيتكم الحسنة، فرحت بذلك حتى استمر السرور لدي إلى هذا اليوم.

فالحمد لله وللأب الذي هو إلهنا الواحد، ولسيدنا المسيح منقذ العالم. وقد استقبلت سفيركم وسمعت من بعيد شهرتكم جعلكم اله مواصلين لمحبتنا وحقق إرادتكم. وأود، أن توجهوا لي بعض الصناع الذين يحسنون خدمة الذهب والفضة والذين يصنعون بعض الأسلحة، وبنائين لتشييد بعض البنايات وفلاحين في الكروم وبستانيين، ومختصين في تغطية الكنائس بالرصاص وفي بناء السطوح وتغطيتها بالطين الغليظ عوض ما نستعمل نحن من التبن وجذوع الشجر وقد بنيت كنيسة كبيرة تمجيدا للثالوث الأقدس حيث دفن والدي، أي مع الله. وسيقول لكم سفيركم كيف أن جدرانها جيدة. وأريد أن أغطيها عما قريب، لأنها غير مسقفة إلا بالحشائش. وأرجوكم، باسم الله، أن توجهوا لي عشرة معلمين في كل هذه الحرف،

وأضمن لك أنه لن يخصهم أي شيء، وأنهم سيكونون راضين طوال الوقت الذي سيكونون فيه عندنا، ولما يرغبون في الرجوع سنؤدى لهم ثمنا جيدا، ونتركهم يرجعون في أحسن حال. وأوجه لك بعض الفرنج الذين كانوا ههنا والذين كانوا يريدون أن يذهبوا كمسلمين إلى معسكر سلطان القاهرة. وقد حولتهم الى المسيحية وسيرشدونكم الى طريق زيلغ وعدن ومصوع ومكة، لأنهم يعرفون ذلك.

وليطمئن قلبك فرحا على هذا وهو انني سأكون عند رغبتك واستجابة للطلب الذي قدمته لي بالاذن لك ببناء كنيسة وحصن بجزيرة مصوع، فأنا آذن لك بذلك وبنفس العمل في دلاكا وأن تعين الرهبان في الكنائس وأن تضع الحاميات في المراكز ضد العرب فاشرع منذ الآن في العمل قبل الرجوع الى الهند ودون أن تضيع الوقت ولا ترجع حتى يكون ذلك قد تم وسنشكرك على ذلك كما نشكر الملك دون مانويل سيدك. وحيث أن الله شاء أن يتم الحلف فيما بيننا، فافتحوا أسواقا تباع وتشترى فيها السلع، دون الاذن للعرب بالمجيء اليها. وإذا لم تكن تلك هي رغبتكم، فلتجر الأمور كما تشاءون وبإذنكم.

ولما تعملون ما قلت لكم في مصوع الذي هو مرسى تذهب منه كثير من الأقوات لعدن ولمجموع الجزيرة العربية ولعدد من الأقطار الأخرى التي لا يمكن أن تزود إلا من هذاالمكان. فسيكون في يدك كل هذه البلاد دون أن تحمل السيف في يدك، لأنك ستمسك في يدك طعامهم وإذا أردت أن تشهر الحرب على الكفار، ما عليك إلا أن تعلمني بذلك، وسأوجه لك الخيالة والرماة الذين سيساعدونك على إلحاق الهزيمة بهم. وإذا أردت أن تذهب إلى الهند، فاترك دون روذريك حاكما على مصوع، وحافظ على الاتصال به عن طريق المراسلة إذا حصل تخوف من أي شيء.

وإن السفراء الذين أرد إليك هم الأولون الذين جاءوا لمقابلتي فعاملهم أحسن معاملة، وبالأخص دون رودريك الذي هو رجل شريف. ويستحق ذلك لوفائه ورزانته، والأب فرانسوا دالفاريز الذي يستحق مكافأة مزدوجة، لأنه رجل أمان ويحب الله. وقد اعترفت باستحقاقه ومنحته الصليب والعصا. وكلاهما علامتان على علو المكانة في بلادنا. فضاعف له هذا التشريف، وأجعله سيدا على مصوع وزيلع وكل جزر البحر الأحمر، لأنه مقتدر وجدير بهذا التشريف بسبب خدماته وأحسن كذلك للكاتب الذي هو صاحب فضيلة وخديم مخلص للملك. وأحسن، أيضا، إلى بقية رجال السفارة من أصغرهم إلى أكبرهم. حسب

استحقاقهم سلمك الله وغمرك وغمر بفضله كل أولئك الذين هم معك. أحسن إليهم أيضا. وأنارك الله وهم بهديه وأعان إخواننا الذين يتحابون وكل أولئك الذين يلجأون إليك. كان معك ومعهم وأمدكم بعونه. ولتجتمع رجالكم على الطريق وليحفظكم من العين الشريرة وسفنكم من الأمواج العاتية والعاصفة. ولينعم عليكم بقضاء بقية أيامكم بدون مرض. وليحفظكم في كل ساعات النهار والليل، والشتاء والصيف على الدوام.

إني أوجه لكم مباركتي، لا لأنني أكتب إليك ولأن من عادتي أن أفعل ذلك في كل رسائلي، ولأن الأمر جار بذلك في كل الكنائس والمعابد التي أسسها أسلافنا، ولكن لأني أحبك. واحتفظ بك في ذكراي. إننا نتوسل إلى الله مولانا وولده يسوع من أجل اخواننا الذين قطعوا بحارا وأنهارا وبحيرات وطرقا مجهولة ليصلوا إلينا. فليكن معهم أينما حلوا وليقدهم بكل أمان على صفحات البحار وليحفظهم ويزك عمرهم. وذلك ما يجيب به الشمامسة في خطابهم للرهبان الذين يقولون لهم، أيضا : كان الله معكم وأعطاكم ما يريد. وهم إخوان في الخطر، كما هم كذلك عند ذهابهم للحج.

وليكن الصراط المستقيم معهم، وهو الطريق الذي يرغبون فيه ليمنحهم الله ما يتمنون. ويقول الشماس والشعب : ربنا الله ارحمنا. ويجيب الراهب : قادكم الله دون خطر في بسائط البحار وأبلغكم إلى والديكم كما تشاؤون. وجعلكم سعداء بفضل ولده يسوع، الذي يكون معكم كما تكونون معه ومع روح القدس الذي هو المجد الخالد الآن وإلى الأبد. آمين.

وعلى هذا الأساس، تتلى الصلوات في كل الكنائس وفي كل الساحات، وفي القداس الاحتفالي يكون ذلك باحراق البخور لا من أجلك أنت، ولكن من أجلكم كلكم فليكن معكم في هذا الحج بحرا وبرا. وسنقوم بهذا القداس حتى يحفظكم الله ويجنبكم كل فكرة سيئة في صلواتكم. وحينما تأتون لمحاربة الكفار، سأعينكم بالجنود والمال والأقوات، ليس فقط ضد أولئك الذين هم في مصوع وزيلع وعدن، ولكن ضدا على كل الأشرار والجاحدين من أبناء محمد. فحاربوهم بعون مولاتنا المنعمة العذراء مريم. ومن جانبي سأقوم بذلك وأحاربهم وأغلبهم في البر كما تهزمونهم في البحر، باتفاق مشترك فيما بيننا وبفضل الثالوث المقدس.

الفصل السابع والعشرون

رسالة امبراطور الأحباش الى الملك دون مانويل، ملك البرتغال

باسم الالاه الذي هو منذ الأزل لا بداية له وسيبقى كذلك الى الأبد. إن الذي كتب هاته الرسالة، ملك شواوسفط وفاتيكار وأنكور وبارو، وبالكانسى، وعادى وفاك، وتيكريماون وسبين، التي أتت منها ملكة سبأ، وبركاس الذي يمتد ملكه إلى مصر.

إلى الملك العظيم والجليل دون مانويل المنتصر دائما والمحبوب من الله، والمتمسك بالدين الكاثوليكي، ابن بيير وبول ملك البرتغال، صديق النصارى وعدو الوثنيين والمسلمين، سيد افريقيا وغينيا وجبال القمر والجزيرة التي تحمل اسمه في البحر الأحمر وجزيرة العرب والفرس وهرمز(1)، والهند الكبرى وكل الجزر والمدن الموجودة بها. حاكم على الوثنية وفاتح لها. سيد على الكفار والأراضي القصية.

سلام عليكم يا دون مانويل، القوي في الايمان، وخديم سيدنا يسوع لالحاق الهزيمة بالمسلمين والذي يلقي بهم خارج البلاد بدون رمح ولا سيف. السلام على زوجتكم، صديقة يسوع، وخديمة سيدتنا العذراء مريم، أم منقد العالم. السلام على أولادكم جعلهم الله يتفتحون حول مائدتكم كالآس في البستان. السلام على بناتكم أضفى الله عليهن من الزينة ما هو موجود في القصور الجميلة. السلام على أقاربكم بذور الأولياء وكما يقول الكتاب المقدس : بارك الله في أبناء القديسين. وملأهم غنى ونعمة من الداخل. السلام على رجال شوراكم وعلى ضباطكم ومن يقوم مقامهم، وعلى قضاتكم. السلام على كبراء دولتكم وعلى قادة جيوشكم وحكام ثغوركم. السلام على شعوبكم الذين ليسوا الا واحدا في شخص يسوع. سلام على مدنكم وسكانها إذا كانوا غير مسلمين ولا يهود(2)، وإنما نصارى فقط، سلام على كل خورنيات يسوع وأتباعه الأوفياء. آمين.

(1) هذا افتراء من المؤلف، إذ ما كان لملك البرتغال أي سيطرة على جزيرة العرب ولا على الفرس، وانما احتك البرتغاليون ببعض النقاط في الساحل، لكن سرعان ما طردوا منه (مترجم).

(2) مثال آخر من تعصب المؤلف (المترجم).

سمعت، أيها العاهل الكبير، والذي أنت أب لي، أنك لما تعرفت على عن طريق التقرير الذي قدمه سفيرك، جمعت أساقفتك ورؤساءهم، وهذا ما أدخل على سرورا كبيرا وحمدت الله عليه ولست وحدي في ذلك بل شعوبي، أيضا، وحين علمت أن هذا السفير توفي في دير فيسام تأثرت لذلك كثيرا، وإن كنت لم أوجهه، وانما أمي هي التي كانت تحكم آنذاك في بلادي لأن سني لم يكن يتجاوز آنذاك اثنى عشرة عاما حين توفى والدي. وكان السفير تاجرا ويتسمى أبراهام، الا أنه غير اسمه باسم ماتيو، لما اجتاز ببلاد الكفار وهو يحمل بضائع ليعد كتاجر. ولكن لما وصل الى ديبل، وعلم المسلمون أنه نصراني، أخذوه وسجنوه في مطبق ومن هنالك وجه الى جنرالكم في الهند يتشكى مما حصل فيه من أسر وذكر بأنه كان سفيرا لي وأنني كنت وجهته الى ملك البرتغال حتى يمكنكم أن تأتوا لفكاكه من الأسر. وإثر هذا الاعلام، وجه جنرالكم، وقد حركته الغيرة الدينية، سفنا وجنودا لتحريره وللانتقام من الكفار.

ولما قابله وعلم من هو وما هو هدفه، وجهه إلى البرتغال حيث كان، كما قال، يحمل صليبا وأعطاه إياه وبعد محادثة معه، أحسنتم اليه وشرفتموه. إلا انه مات عند عودته. والبرتغاليون الذين كانوا راجعين معه أبلغوني رسالته. ولذلك فأنا أشكر الله وأعبر عن سروري بالاطلاع على أخباركم وأخبار شعوبكم. ولكني فرحت بالخصوص لما رأيت الصلبان على رؤوسهم وفوق بطنهم وأياديهم. ولما سألتهم عن أمور الدين وسمعت منهم بأنك نصراني وبأن أناسا جاءوا الى مملكتي لم يكونوا معروفين بها من قبل. قالوا لي بأن الله هداهم في طريق جديد ليصلوا الي هذه البلاد. ذلك أنهم، في الوقت الذي كانوا يبحثون فيه عن طريقهم دون أن يهتدوا إليه، وكانوا مستعدين للرجوع الى الهند، معرضين أمتعتهم وحياتهم للخطر، شاهدوا فوق هذه الديار صليبا أحمر في السماء كان يعبده الجميع، وهذا ما أثار إعجابي، إذ هو علامة على أن الله هو الذي قادهم حتى تصل الي سفارتكم. وقد وقع التنبؤ بذلك في حياة ومحنة القديس فيكتور، حيث يقول بأن أحد ملوك الفرنج سيلتقي مع أحد ملوك إثيوبيا وسيتم الحلف بينهما. ولم أكن أعلم أن ذلك سيحدث في زماني، ولكن الله كان يعلم ذلك.

فليقدس اسمه وليحمد على ما أتاح من وصول سفارتكم حتى أوجه لكم سفارتي، وكأنها لأبي وصديقي المنتمي لنفس الدين ولم يحدث أن رأيت من قبل

سفيرا بجانبي في حين كان من قبل لا يوجد إلا أولاد محمد الشريرون(3) والزنوج الذين منهم من يعبد الخشب، ومن يعبد النار، ومن يعبد الشمس أو الحيات وما أشبه دلك. ولم أكن أشعر بأمن ولا راحة لأنهم لم يكونوا يريدون الاعتقاد في الدين الذي كنت أعلمهم. ولكن اليوم جعلني الله في راحة ولم أعد أخشى أي شيء من أعدائي فاذا ذهبت لمحاربة المسلمين على الحدود، فانهم لا يجرؤون على انتظاري. وإذا وجهت لهم جيوشي، فإني انتصر عليهم انتصارا كاملا. وكما يقول المزمار : «الملك يسر بقوتك والكثير فرحون لسلامك، فستعطيهم ما يطلبون، حينما يكون طلبهم عادلا» وكل واحد يقول في نفسه نفس الشيء في أمداحه، ولكن من الواجب الحمد لله لمنحه إياك السلم فيما وراء البحر ابتداء من بلادك إلى إثيوبيا ولكونه وضع في يدي عدة عوالم. أعبر له عن امتناني الذي لا ينتهي في حقها.وهذه العوالم قوية جدا وأنا متيقن بأن أبناء الكفار سيأتون لمعرفة الحقيقة وانتم وأنا سنفرح بذلك لأنه سيكون أعطانا إياها لنا جميعا.

فلا تنته من الصلاة حتى يسلمك الله البيت المقدس في أورشليم التي هي في يد الكفار. وإذا ما تم ذلك، فلن يشتهر اسم كاسمك فاعمل لذلك، إذن كراع واجعل عليه رعاة مخلصين ووزراء في خدمة السيد المسيح.. وعلمت أنك وجهت سفراء مع سفيري وأنه مات منهم ثلاثة في الطريق. وجاء جنرال الهند الى مصوع وتحادث مع برناكاس الذي هو ملك تابع لنا. ومن هنالك وجه لي سفراءكم. وهذا ما فرحت له. فمن بين كنوز الدنيا، اسمك هو الأنفس عندي واعتز به أكثر من كل الثروات والجواهر. ولذلك فقد انصت اليهم بكامل الانتباه.

ولنترك الآن هذا لننتقل إلى ما هو أمس بنا. إني أضع مائتي مليون من الذهب في حلفنا إذا أنت قبلت أن تقوم بما أريد. وبرغم كوني لم اعتد توجيه سفراء لمثل هده الفضايا، كونوا على يقين أنني سأفي بوعدي لأنك كنت أول من وجه لي من أجل اعتناق النصرانية وللقيام بما أمرنا به يسوع وأتباع سنة الحواريين الذين لم يكونوا كلهم إلا قلبا واحدا وروحا واحدة.

أيها الملك دون مانويل، أبي، حفظكم الله، الله الواحد الذي هو في السماء والذي لا يتغير ولا يكون صغيرا ولا شيخا. فالسفارة التي وجه الي

(3) تحامل المؤلف بهذه الصورة يدل على الصعوبات الكثيرة التي صادفها البرتغاليون مع المسلمين وهم يحتكون ببلادهم، أثناء اتجاههم الى بلاد المحيط الهندي (المترجم).

جنرالكم، بأمر منكم، سفارة صالحة والذين شاركوا فيها كانوا من أهل الخير. استقبلتها بكل احتفال وأحسنت إلى دون رودريك الذي كان في صدارتها. وقابلني الأب فرانسوا دالفاريز. وبينت له كثيرا من المحبة لأنه رجل عادل وصادف في أقواله وفي كل الأشياء التي تتعلق بالدين. فزد في رتبته وامنحه الأمانة في تنصير أهل مصوع ودهلك وزيلع وكل جزر البحر الأحمر الواقعة على حدودنا، لأنني منحته إياها ووضعت الصليب والعصا في يده وهما علامتا هاته السلطة. فاعمل على أن يحصل على الاسقفية في هاته الجهات لأنه يستحقها ويقدر عليها رفع الله قدركم وزادكم قوة لمحاربة أعدائك حتى يأتوا وينحنوا على رجلكم. وأطال عمركم ومنحكم مكانا في السماء، كما أطلب ذلك لنفسي.

كنت أسمع أشياء جميلة بأذني، ولكن لم أكن أراها بعيني والآن، أشاهد ما لم أكن أتصور حدوثه. فليزد الله في ذلك. آمين. وسيقول لكم سفيري ما انتظر منكم. وقد وجهت فرانسوا ألفاريز إلى البابا بتكليف مني. وهذا ما كنت أرغب فيه. وسأعيده لكم كولد مطيع لأبيه، حينما توجهون لي سفراءكم. فاكتبوا الي دائما حتى نتعاون فيما بيننا. وسأستقبل أحسن استقبال أولئك الذين يردون منذ الآن الى مصوع ودهلك والمراسي الأخرى وما تطلبونه مني سيكون منجزا لأن نيتي أن نجمع بين قواتنا. ولما يصل رجالكم الى هذه الديار، سأذهب لاستقبالهم لأن البلاد لي، ولأنه لا يوجد بها نصارى، وانما وثنيون ومسلمون. فأنا مسرور باستقرارهم في هاته الأماكن وليتم ما بدىء به.

وجه لي صناعا يحسنون تصوير الوجوه بالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، ومعهم الرصاص لتغطية الكنائس وطباعين لطبع الكتب بلغتنا وأناس يحسنون صنع أوراق التذهب والتذهيب. والكل في العاجل ليظلوا معي هاهنا وإذا رغبوا في العودة، فإني لن أمسكهم، وأقسم بالسيد المسيح، ابن الله الحي على ذلك، ولم أؤد لك أي خدمة على مقابل ذلك ولكن ما أطلبه منك إنما بإسم الصداقة التي تكن لي، بسبب الخير الذي أسديته إلى سفيسري محبة في. فلا استوحش من ذلك، فإنه سيكون على حسابي، لأن الأب لا يرفض مطالب والده. وأنا ولدك وانت أبي. فنحن كلانا متحدان في سيدنا عيسى، كما هم كل المؤمنين.

ولم يتلق ملك البرتغال هاته الرسالة لأنه مات قبل ذلك. فكتب الامبراطور رسالة الى دون جان الذي خلفه ونوردها فيما يلي.

الفصل الثامن والعشرون

رسالة ملك إثيوبيا إلى دون جان ملك البرتغال

باسم الله ذي القوة وخالق السماوات والأرض وكل شيء مما يرى ولا يرى. وباسم الله الابن، الارادة والنصيحة ونبي الاب وباسم الالاه روح القدس، باركليس، الالاه الحي المساوي للأب والابن والذي نطق بفم الانبياء والذي انتشر على الحواريين حتى يؤدوا الحمد ويشكروا الثالوث في السماء والأرض وفي البحر على الدوام. آمين(1).

هذه الرسالة موجهة اليكم من لدن أنسيانكوا العذراء ملك إثيوبيا، ولد ناحوم ابن الملك من يد مريم، ابن الملك من ذرية يعقوب الذين خرجوا من بيت داود وسليمان ملكي أورشليم إلى الملك دون جان ملك البرتغال ابن الملك دون مانويل. السلام عليكم ومجد مولانا يسوع دائما لنبإ قوة الملك والدى الكبري، الذي كان ينتصر على قوات العرب، أبناء محمد. وإني أشكر الله وأحمده على أن أسبغ عظمته وأسس تاجا للسلام في ملة النصرانية وأفرح غاية الفرح لكونه وجه في طلب الحلف معي للقضاء على المسلمين واليهود والوثنيين، الموجودة بين مملكته ومملكتنا.

ولما علمت بأنه توفي قبل أن أوجه سفرائي، تحول فرحي إلى حداد، وأسف عليه كبراء دولتي، وانتحب عليه رجال الدين في أديارهم، لما دخل عليهم من الحزن للنبأ، بقدر ما كانت الأنباء الأولى تسرهم.

أيها السيد الأخ منذ بداية أمبراطورية إثيوبيا إلى الساعة الراهنة، لم نشاهد أي سفارة قادمة من ملك البرتغال، وإنما كنا نسمع بعض الأصداء من الحجاج الذين كانوا يذهبون إلى روما وإلى القدس إلى أن وجه الملك أبوكم إلى قصري الضباط مع عدد من الرجال والرهبان والشمامسة الذين كانوا يأتون للأشياء الضرورية لأداء الصلاة. وقد سررت كثيرا لمجيئهم واستقبلتهم، وجعلت الناس يستقبلونهم بكل تشريف ووجهتهم في أمان وسرور. ولكن، لما وصلوا الى مرسى تابع لي في البحر الأحمر، لم يجدوا الجنرال الذي كان والدكم وجهه لأنه لم ينتظرهم

(1) ننقل كلام المؤلف، حسب عقيدته دون تغيير. ونحن في غنى عن التذكير بأن ذلك يختلف مع عقائد الاسلام. (مترجم)

كما طلب منه. والسبب هو أنه، نظرا لعادتكم لتغييرهم من ثلاث سنوات إلى ثلاث سنوات، كان لا بد له من الانصراف لأنه جاء آخر ليحل محله.

وهذا هو نفس الموضوع الذي دعا سفراء الملك والدكم الى التأخر. وأنا أوجههم اليكم الآن وسفرائي معهم، ليروكم كما سيرون البابا.

أيها السيد والاخ. حافظوا على الصداقة والحلف الذي كان والدكم أسس معنا ووجهوا إلى سفراءكم بكثرة. وأتمنى أن تكون سفارات أخوية. ومن الواجب، إذا شئتم ذلك أن ندعوا بعضنا البعض بالأخ مادمنا نصارى وما دام المسلمون يتحدون فيما بينهم في كل مسائل الدين. ومنذ الآن لست أرغب في سفارات آتية من ملوك مصر وغيرهم من الملوك الذين اعتادوا أن يوجهوا لي سفاراتهم. وإنما رغبتي في سفاراتكم فقط. ذلك أن أولئك الملوك لا يبحثون عن صداقتي الا من أجل الاستفادة منها في التجارة أو في كميات الذهب التي يحصلون عليها منها. ولكن العلاقة مع الكفار لا تعجبني. ولا أتحملها إلا من باب العادة. وإذا تخليت عن محاربتهم، فذلك خوفا من أن يقوموا بتحطيم القدس حيث يوجد قبر المسيح الذي وضعه الله في قبضة المسلمين وكذلك كنائس مصر وسوريا.

ومع ذلك، فالذي يحزنني في هذا، بسبب كوني ليس لي جار نصراني قادر على أن يساعدني في هذا المشروع. وإنه ليضايقني، أيها السيد الأخ، أن يكون ملوك الفرنج، وهم نصارى، لا يتحدون ويظلون في انقسام دائم. فلو كان لدي كجار أمير نصراني لما افترقت منه ولو ساعة واحدة. وليس لي ما أقوله في هذا الشأن لأن هذه أشياء جاءت بقضاء من الله.

أيها السيد والأخ، اكتبوا إلي، لأنه يخيل الي أنني أراكم كلما قرأت رسائلكم. والمحبة هي أقوى بين الغائبين منها بين الحاضرين لما يحدوهم من الرغبة في رؤية بعضهم البعض. فالانسان إذا كان بعيدا عن كنزه فإنه يبقى حاضرا في ذهنه دائما، كما يقول ربنا في الانجيل، فليكن قلبنا حيث يوجد كنزنا. وهكذا فقلبي معك لأنك انت هو كنزي فكن أنت كذلك معي ولنجمع بين قلوبنا، أيها السيد الأخ. فإنك متبصر وحكيم. واجرؤ على القول بأنك أكثر علما من والدك، لأن هذا قد علمته من الغير، وهو شيء أحمد الله عليه. وقد حول حزني الى فرح. فقلت : بارك الله في العاقل والرزين بن الملك دون مانويل.

أيها السيد، لا تملوا مطلقا من محاربة المسلمين فستغلبونهم بمعونة الله. لا تعبروا بأنكم لا تملكون القوات الكافية. إن قواتكم كبيرة وسيكون الله في

عونكم. ولدي من الرجال والأموال والأقوات مقادير تساوي رمال البحر ونجوم السماء. فإذا اتحدنا، فسنحطم كل الكفار. ولا أريد منكم الا رجالا ينظمون رجالنا ويسلحونهم فأنت رجل مكتمل. وقد كان الملك سليمان وهو ابن اثنتى عشرة سنة قويا جدا وأشد حكما من والده.

وفيما يخصني فإنه لما توفي والدي كنت جد صغير، ولكن الله أمدني بقوة كبيرة أكثر مما كانت عنده وأنا ممسك بزمام كل شعوبي وأقاليمي الخاضعة لسلطتي وأحكم في منتهى الراحة. فلنحمد الله على ما غمرنا به من أفضاله. والذي أرغب فيه منك، أيها السيد والأخ، هو أن توجه لي صناعا يحسنون التصوير وأرطالا مقولبة وسيوفا وكل أنواع السلاح وبنائين وسقافين وأطباء وجراحين وصيدليين وسكاكين لقطع الذهب والفضة وأناسا يحسنون استخراج الذهب والفضة والنحاس من المناجم وتغطية السقوف بالرصاص وصناعة السطوح والبنادق، وبالاجمال، كل أنواع الصناع الضروريين في المملكة.

فأعني إعانة الأخ لأخيه فيما أطلبه منك أعانك الله وخلصك من كل بلاء، وتقبل الله خطبك، كما يتقبل الضحايا المقدسة، كل واحد في وقته. أولا، هابيل، ثم نوح في السفينة، ثم إبراهيم في بلاد مدين، ثم إسحاق حينما غادر بئر القسم، ثم يعقوب في بيت لحم، ثم موسى في مصر، ثم هارون في الجبل، ثم يوشع بن هو ثم كَلكَادا، ثم جديون على الشاطىء، ثم مانوهي وامرأته، ثم همشون حينما أصابه العطش في الصحراء، ثم يفتي وديبورة، حينما قاما ضدسيسيرا في جبل طابور، ثم النبي السمؤال في راما، ثم داود في البيدر، ثم ربعام وسليمان في مدينة كَباون، ثم هيلي في حبل الكرمل، حينما بعثه ولد الأرملة، وريكا في البئر، ويوثسفاط في المعركة، ومناصى منذ أن حارب وعاد إلى الله، ويوسياس منذ عودته، ودانيال في حفرة السباع ويونس في بطن الحوت، والأطفال الثلاثة في التنور وحنا داخل المعبد، ونهيمي التي أعادت بناء أسوار أورشليم مع زروبابل، ومراسياس وأولاده على ربع العالم، وايساو من أجل المباركة.

تقبل الله تضحياتكم ودعواتكم وأعانكم على أعدائكم الشريرين. صحبكم السلام وأقبلكم قبل التقديس وكذلك كل من يدخل في شوراكم المقدس لما فيهم من كبار الاساقفة والاساقفة والرهبان والشمامسة وكل النصارى، وستر الله وبركة سيدتنا تكون معكم ومعهم امين.

ذلك هو المحتوى الحرفي للرسالة. ولننظر الآن كيف وجه السلطان الأعظم جيشا إلى مرسى سويس ضد البرتغاليين. وبعد ذلك ننتقل إلى وصف مصر.

الفصل التاسع والعشرون

كيف حشد الباب العالي جيشا بحريا في مرسى السويس ضد البرتغاليين وما نتج عن ذلك

تأثر سليمان بنداءات العرب، سواء منهم عرب الجزيرة أو مسلمي الهند، وبالخصوص، القاطنين بشواطىء افريقيا التي كانت متضايقة من البرتغاليين، اعتبارا للمصلحة الخاصة، الناتجة عن تجارة التوابل، فعزم على أن يوجه جيشا بحريا قويا إلى البحر الأحمر. ومن أجل ذلك حجز كل السفن المسيحية التي كانت موجودة بالاسكندرية، وبالخصوص منها سفن جمهورية البندقية التي كان قد قطع معها العلاقات في تلك السنة(1). وجند فيها كل البحارة الذين كانوا موجودين بها والطبجية وقادهم إلى القاهرة. ومن هنالك إلى مرسى السويس، حيث كان من المقرر تجهيز الأسطول. وأمر بأن يجلب من سيطالي الخشب وكل التجهيز الضروري والاتيان به الى الاسكندرية ومن هنالك يحمل عن طريق النهر إلى القاهرة ومن القاهرة الى السويس على ظهر الجمال.

فصنع من ذلك سبع عشرة كاليرة خفيفة وست ماهونيات مهجنة وسبعة وعشرون غرابا جديدا وغليوناان وأربع سفن وعدة مراكب أخرى صغيرة. وكان الكل جاهزا لليوم الخامس عشر من مارس في سنة ألف وخمسمائة وثمانية وثلاثين وجاء سليمان باشا بنفسه لقيادة الجيش وفي ظرف ثمانية أيام، قام بتهيىء كل شيء. وبعد أن أدى للجنود أرزاقهم، خرج من المرسى على كاليرته، وأمر أن يقاد إلى رأس فرعون الموجود على بعد فرسخ من مرسى السويس وأربعة باعات من الماء. وهذا الرأس واقع على ثلاثة فراسخ من آبار موسى السبعة بين الشرق والجنوب. والتحق به كل الجيش هنالك.

وأخذ في طريق الهند، بحثا عن الجيش البحري لملك البرتغال، أو، كما كان يقول، لاسترجاع حصن ديو، الذي كان البرتغاليون استولوا عليه قبل ذلك ببعض الوقت. وبعد أن نزل من مصب السويس في اتجاه الشرق، وعرج شيئا ما من جهة

(1) 1537.

الجنوب، جاء وتوقف قبل الليل في كراندالو، حيث يقال بأن بني اسرائيل قطعوا هنالك البحر الأحمر بمعجزة. ومن هنالك ذهب الى طور الذي هو آهل بالنصارى المدعوين نصارى الحزام والموجودين على بعد يوم ونصف من قمة سيناء. ونزل للتزود بالماء وأخذ بعض المرطبات في صيدا، فواصل طريقه، وبعد أن أضاع بعض السفن بسبب العاصفة، جاء الى جزيرة قمران. ومن هنالك وجه غرابين، أحدهما الى ملك زبيد، والآخر الى ملك عدن ليهيئا له الأقوات للجيش مع أمر الأول بأن يؤدي الفريضة التي كان مدينا بها للسلطان الأعظم وأن يقدم له فروض الطاعة باسمه.

وبعد أن انتظر عشرة أيام وصول الجواب، وجه له ملك زبيد هدية وهنأه بذهابه لمحاربة البرتغاليين وواعده بأن يؤدي له الفريضة عند عودته. بوصفه تابعا للسلطان الأعظم وبهذا الجواب غادر قمران وذهب ليرسو في صخرة لونكتراشين على شاطىء أبيكس. وفي الغد خرج من مصب المضيق وجاء الى مدينة عدن، حيث أتاه أربعة من الكبراء ببعض المرطبات، فاستقبلهم أحسن استقبال، وأعطى كل واحد منهم، حاكيته من المخمل فيها أزهار مزخرفة، مع أمر الملك بأن يأتي لزيارته في كاليرته دون أي خوف. ولكنه لم يستمع لذلك وأجاب بأنه يعطي كل ما يستطيع بحرية، إلا أنه لا يقبل أن يخضع لسلطة الغير. وفي الغد، أنزل الانكشارية بأسلحتهم، ووجه يطلب منهم مرة ثانية أن يأتي لتقديم الطاعة للسلطان الأعظم. وقبل، في الأخير، بإقناع من الشخص الذي وجه اليه والذي قدمه الباشا بثوب ملتو على عنقه، ولكنه استقبله استقبالا حسنا، وأهداه طليسانين من المخمل المزخرف بأوراق الذهب، ووجه إلى حال سبيله ولكنه قبل أن يصل الى الأرض، قتل هو ومن كان معه. ووجه في الحين سنجق مع الانكشارية للاستيلاء على القصر والمدينة حيث ترك سليمان ثلاث سفن لحراسة المرسى، وتوجه في طريقه.

وفي الثالث من شتنبر، بلغه من زورق أنه كان بقصر ديو سبعمائة برتغالي وست كاليرات مجهزة في المرسى. وبعد ذلك جاء غراب وعلى ظهره يهودي وقع في الأسر. ومنه أخذت كل المعلومات المطلوبة. وجاء الأسطول ليرسو على بعد فرسخ من ديو، ووراءه ريح طيبة. وهناك جاءه مرتد من كلابريا(2)، وكان قد تاه في أسطول آخر. وهو صاحب كاليرة. وكان في خدمة مالك كامباي الذي أسند اليه قيادة جنوده ومنحه بعض الأراضي. وكان هذا الشخص قد عقد الصداقة مع

(2) كتسازفير.

البرتغاليين، وتعامل معهم برفق ولكنه لما علم بأن الجيش البحرى للسلطان الأعظم آت في الطريق، جمع قواته، واستولى على مدينة ديو وقام بحصارهم في القصر. وكان مصحوبا بجنرال آخر لملك كامباي، ومعه ثمانية آلاف رجل كان يخرج إليهم المحاصرون كل يوم.

ولما دخلا كلاهما الى الكاليرة الملكية، استقبلهما الباشا استقبالا حسنا وعلم منهما بأن القصر كان يحتوي على ثمانمائة نصراني لا يوجد من بينهم إلا خمسمائة جندي وأضاف بأنه مضت عليهما ستة وعشرون يوما وهم يحاصرون المكان، وأنه إذا أعطاهما مدفعا مع العتاد، يضمنان الاستيلاء عليهم بقواتهما وحدها وأهداهما الباشا جاكيتتين حسب العادة. وفي الوقت الذي كان يجري فيه هذا الحديث معهما، قام الأتراك بنهب المدينة وبيت الجنرال، وانتهاك حرمات السكان. وبعد ذلك، دخلوا في مناوشة المسيحيين ورجعوا بدون خسارة ، ولما شاهد الكلابرى ذلك، صمم على الدفاع عن نفسه عند عودته فترك ألفي رجل لأخيه وعاد ببقية الجيش الى ملك كامباي. وفي الغد، وجه الباشا عن طريق البر إلى الجنرال وإلى ملك كامباي وإلى قائد الانكشارية بالهجوم على المحاصرين بجنودهم والانصراف من هناك للرسو في مرسى موندا بوراتو، وأنزل المدفعية، وسدد ثلاثة مدافع نحو قصر صغير كان قريبا من مكان التزود بالماء، يمكن إصابته بالمدفع الطويل من القصر الكبير. وكان جيدا وبداخله ضابط(3) مع مائة جندي مع أربع قطع من البرونز ولكن، لم يكن به أي خندق. فضربه من جهة البحر ومن جهة البر يوم 30 شتنبر 1930. فلما رأى المحاصرون بأنه لم يعد في مستطاعهم المقاومة وبأن قذائف المدفع كانت تخرق الجدار من الجهة إلى الأخرى، طلبوا الاستسلام. ووجه لهم الباشا بعد أن استقبل رسولهم رخصة بالانسحاب في أمان بما يملكون.

ولما عاد اليهم الرسول وأخبر قائد القصر بذلك ذهب هذا الأخير إلى الباشا مع رفيقين له، فاهداه الباشا طليسانا من الحرير الأحمر وأكد الرخصة على شرط أن لا تذهب الحامية الى القصر الكبير. ولكنه لما استولى على المكان سجنهم كلهم في دار بعد تجريدهم من السلاح ثم جعلهم يشتغلون في الكاليرات وإثر ذلك، ظهرت ثلاث كاليرات برتغالية دخلت دون عرقلة الى المرسى. وفي الغد

(3) جان فرانسوا دوبادوان.

انسحب الباشا من المكان الذي كان يوجد به، وجاء ليرسو من جهة الشرق. فأغرق له المحاصرون كاليرتين بالمدافع وكسروا علم واحدة أخرى. وبعد ذلك، بلغه الخبر بأن الجيش البحري البرتغالي قادم لنجدة المحاصرين فتخلى عن المركب الذي كان يوجد به، ودخل إلى كاليرة مهجنة، ووضع كل المسيحيين المشتغلين بالأسطول في السلاسل، وغير شراع كاليرته الذي كان من ألوان مختلفة، وأقام محرسا من الأشرعة والحبال على ظهر الكوثل ليدافع عنها إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وفي يوم 22 أكتوبر، وجه قذافته الى القصر من ثلاث جهات. وفي مركز للمدفعية، كان يوجد مدفع طويل وزنه مائة وخمسون رطلا من الحديد المذوب ومقذف للحجر زنته مائتا رطل، ومدفع مزور من ستة عشر رطلا من الرصاص، ومقذف آخر للحجر وزنه ثلاثمائة رطل. وفي المركز الثاني للمدفعية، كان هنالك مدفع مزور، وصقر يزن مائتى رطل ومدفع صغير من ستة عشر رطلا مع مهراس كان يقذف أحجارا وزنها أربعمائة رطل وفي المركز الثالث، لم يكن الا مدفع طويل من مائة رطل.

وبعد أن حطم الأتراك برجا، وأحدثوا ثغرة واسعة، اتخذ البرتغاليون من التراب، ومن الأكوام، وقاية، وقد رأوا كل وسائل دفاعهم تحطمت أي الشرفات العالية في حصنهم، إذ لم يكن هنالك أي عارضة ولا سرداب، لأن الحصن كان مبنيا فوق صخرة. فكانوا يخرجون خلسة، وعددهم خمسة عشرة أو عشرون ويقتلون عددا، مما كان يحدث خوفا في المعسكر، حتى إن الذين كانوا في الحراسة، كانوا ما يرونهم قد انصرفوا حتى يشاهدونهم رجعوا فارين. وكان أحد المدفعيين من بين الهاجمين نصرانيا، فأسقط بضربة مدفع الراية التي كان البرتغاليون رفعوها فوق البرج، الشيء الذي أثار الابتهاج بين الأتراك. ومنحه الباشا كجائزة ألف درهم وطليسانا.

وفي الغد أتى بأكياس من الجلد مملوءة بالقطن ومربوطة بالحبال ليملأ بها الخندق، وألقاها في نصف الليل بأعداد كبيرة حتى صارت كارتفاع الجدار. ولكن المحاصرين خرجوا صباحا قبل طلوع الشمس وعددهم ستون. فدخل ثلثهم في الخندق. بينما بقي الآخرون يقاتلون. وجاء كل واحد منهم بفتيلة مشتعلة وأدخلوها في أكياس القطن التي كانت داخل الخندق. ودامت النار مشتعلة حوالي يومين. وقاتل أصحابهم، في أثناء ذلك، حوالي ساعتين، ثم انسحبوا ولم يفقدوا إلا رجلين، بعد إن قتلوا مائة وخمسين من الأعداء، وجرحوا أكثر من ذلك. وفي يوم ستة

وعشرين أكتوبر، وصلت خمس سفن برتغالية، فاستولت أثناء مرورها على كاليرة تركية، وقدمت النجدة لذلك المكان. ولكنهم لم يستطيعوا أن يدخلوها إلى المرسى. وفي الغد، وجه الباشا أربعين قاربا للهجوم على القصر مع بعض القطع الصغيرة من المدفعية للهجوم على القصر الصغير الذي كان على حافة البحر بين القصر الكبير والمدينة. وقد كان ضربه قديما وكان محطما للنصف، بحيث لم يكن يسير إليه الا ستة جنود ويعود منه، على ظهر مركب للحصن الكبير الذي لم يكن بعيدا منه إلا بقدر قذفة مدفع صغير.

واقترب الأتراك من أسفل الجدار، قبل أن يظهر النصارى. وما بدأوا يصعدون من أحد أطراف الجدار المهدم، حتى استقبلهم البرتغاليون بقاذفتين للنار وأرسلت النيران من الحصن على القوارب بشدة حتى فر الأترك، وانفلب بعضها، وغرق البعض الآخر. واشتولى أهل الحصن على البعض منها وقد خرجوا في زورق. وكل ما أمكنهم الاستيلاء عليه، علقوه في شرفات القصر على مرأى من معسكر العدو وثارت ثائرة الباشا فهيأ جنوده لهجوم عام، وفي الغد وضع كل واحد في مكانه. فأمر البعض بأن يضعوا السلالم في جهة المرسى. وأمر آخرين بأن يتسربوا من الثغرات. ولما حان الوقت، أعطى الاشارة فوقع الهجوم على القصر من جهتين. ولكن الأتراك جاءوا من جهة الأرض من الثغرة العليا دون أن يتجرأوا على الدخول وهذا ما لاحظه البرتغاليون، فوجهوا نيرانهم عليهم وقتلوا أربعمائة مما ألزم الآخرين بالانسحاب دون أن يقوموا بأي شيء. وفي الغد جاء الباشا في إحدى عشرة كاليرة ليضرب القصر الصغير. ولكنه لم يتمكن من الوصول اليه، نظرا لشدة ضربات المدفعية الآتية من الحصن الكبير. وفيما كانت الأمور تجري على هذا المنوال، بلغ الباشا الخبر بأن الجيش البرتغالي قادم لمنازلته. وفي 2 نوفمر، أركب السنجق وأغا الانكشارية كل جنودهم، تاركين المدفعية الثقيلة.

وبعد ثلاثة أيام، لاح عشرون مركبا مسيحيا جاءت للرسو هنالك، على بعد سبعة فراسخ، فبقيت الليل كله متوقفة. وفي الصباح، ظهر منها ثلاثة في البحر، بينما كان الباشا يبتعد من الشاطىء. وعند غروب الشمس شوهدت عدة ذراعات وسمعت ضربات المدفع، ولكن لم يمكن التعرف على السفن التي صدرت عنها، لأن الأحداث كانت جارية على البعد. وأمر الأبواق بالنفير وبدأت المجاذيف تتحرك في الواحدة ليلا وليس لها من شراع إلا قلاع الصاري. وبعد ثلاث ساعات، رفع الثاني، وأخذ الطريق الذاهبة بين الغرب والجنوب فحاذي شاطىء الجزيرة العربية

يرافقه ريح طيبة ووصل الى فمران يوم 23 من الشهر، حيث قضى يوما في التزود من الماء، وبعد ذلك ذهب نحو طريق عسير، حبث كان أربعون برتغاليا يتجرون في التوابل وغيرها مقابل الجياد العربية التي تؤتى بها والتي هي ذات ثمن مرتفع. واحتفظ سيد المكان بالبرتغاليين الأربعين عند ما سمع بمجيء الباشا وقدمهم له ووضعهم في السلاسل. وأشاع الأتراك بأنهم هاجموا البرتغاليين واستولوا على الهند. ومن هنالك سايروا الشاطىء بسرعة.

وفي ظرف ستة أيام، وصل الباشا إلى مرسى عدن، حيث ترك سنجقا مع حاميتين. وبعد ذلك، دخل الى البحر الأحمر ونزل بحصن موتشا[4]، ووجه يقول إلى ملك زبيد الذي كان يتجول داخل البلاد ثلاثة أيام بأن يأتي لتقديم الطاعة للصلطان الأعظم. فأجابه بأنه مستعد لاداء الاتاوة، ولكنه لموانع طارئة لا يمكنه أن يقدم عليه. فغضب الباشا ووجه اليه الكاهية مع بعض الانكشارية ليقنعه بالقدوم. ولكنه لم يقبل بذلك رغم كونهما، من الجهتين، تبادلا هدايا مهمة، وكون التركي هدده بمجيء الباشا وفي اليوم الثالث والعشرين من يناير[5]، رجع الجيش البحري الى قمران وأمر الباشا بأداء الأرزاق للانكشارية الذين كان يريد أن يأخذهم معه. ونزل الى البر، فوصل إلى شبيكاريف[6]، حيث جاء تركي كان في خدمة ملك زبيد ومعه خمسون فرسا مجهزة، فاستقبله استقبالا حسنا. وبعد ذلك نزل الباشا الى الأرض وأنزل بعض القطع الحربية مع الأقوات والعتاد وتقدم لمحاربة ذلك الأمير.

فوجد في الطريق تركيا آخر جاء ليسلم نفسه إليه مع خمسين فرسا. ولما قرب من المدينة، خيم تحت أسوارها. فوجه في طلب الملك. ورأى هذا الأخير نفسه متروكا من ذويه، فجاء إليه، فقطعت رأسه في الحين. فانسحب السكان من توهم الى الجبال. فوجه إليهم الباشا يطلب منهم العودة، مؤكدا لهم بأن لن يصيبهم بسوء. ولكن ما ان رجع بعض المحاربين الواثقين بكلامه حتى جردهم من السلاح وأمر الانكشارية بقتلهم. وكان من بينهم بعض الضباط من قيمة عالية ووضع حامية في المكان، وهي عبارة عن سنجق يضم ألفا من الأتراك، وترك أربعة

(4) بحثت عن هذا الاسم في المعاجم العربية، فلم أجده. فهل يقصد مسقط، ولكنها في الخليج لا في البحر الأحمر (مترجم).

(5) 1539.

(6) لا وجود لهذا الاسم في المراجع العربية (مترجم).

أغربة لحراسة الشاطىء وانصرف مع بقية الأسطول بعد ان قطع رأس مائة وأربعين برتغاليا كانوا أسارى لديه. وأمر بسلخ وتمليح جثث المهمين من بينهم وملأهم بالتبن ووجههم إلى الملك مع أنوف وآذان الآخرين وبعد ذلك سار في طريق السويس. وجاء ليزور مكة في طريق مروره، ليخبر نبيه بجرائمه(7). ولما وصل إلى مرسى السويس، سحب سفنه إلى اليابسة. وفي هذا القدر كفاية لافادة القارىء بأخبار شواطىء البحر الأحمر. ولننتقل الآن الى مصر.

ــ نهاية الكتاب العاشر ــ

(7) مثال آخر من تعصب المؤلف وتحامله (مترجم).

الكتاب الحادي عشر

مصر وما بها مما يستحق الذكر

الفصل الأول

وصف البلاد

يريد البعض أن تكون مصر قسما من آسيا، وبالخصوص ما يوجد فيها ابتداء من النيل في اتجاه الشرق. ويجمع بطليموس بين مرماريكا ومصر داخل افريقيا، في حين أن بعض الجغرافيين وضعوا كحد بين هذين الجزئين من العالم نهر النيل. ونضع كحد الصحاري الموجودة بالشرق على تخوم غزة وسوريا. وبقية مصر تحد غربا بصحاري برقة ومرماريكا وليبيا الداخلية، وشمالا بالبحر المتوسط، وجنوبا بمملكة نوبيا واثيوبيا التي توجد أعلى مصر. وهيرودوت الذي يتحدث عن هذا الاقليم ويتكلم باسهاب عن عاداته ومعالمه وحفلاته يدعي أن مصر في عهد الملك مينس لم يكن إلا بحيرة منزوية داخل عزلة كبيرة ويضيف انه لم يكن هنالك شيء قبل هذا الامتلاء الترابي الموجود حاليا فوق بحيرة ميروس أوميريدة. وأن مسايرة النيل الى البحر تدوم سبعة أيام، وأن ما يشاهد فيه أرض أتى بها النيل من أعلى الى تحت، وهو شيء قابل للاحتمال.

ذلك أن أرض مصر تختلف عن الأقاليم المجاورة. فأرض افريقيا حمراء وخفيفة، وأرض الجزيرة العربية متحجرة ومبيضة. وتراب سوريا هش ومليء بالغبار. وتراب مصر أسود ودسم وثقيل. ويذكر هذا المؤلف أن رهبان فولكان أخبروه بأن البلاد في عهد الملك ميريس، حينما كان النيل يصعد بثمانمائة أذرع، كانت كلها يغطي عليها السيل، في حين أن ذلك يتطلب الآن أكثر من سبعة عشر ذراعا من الارتفاع. مما يدل على أن الطمى الذي بقي من الفيضانات رفع مستوى القطر شيئا فشيئا(1). وطول مصر مائة وخمسون فرسخا من مساكن بوجية الى البحر المتوسط وليس لها من الاتساع إلا ما يحيط بالنهر من الجهتين ويمتد على بضعة فراسخ بين جبال متحجرة وجدبة ومتصلة بالصحاري. ولا يوجد سكان ولا نبات الا فيما بين النهر والجبال.

وأكثر أراضيها اتساعا توجد في البحر المتوسط، ابتداء من المكان الذي يتفرع فيه النيل ويشكل دلتا، على بعد ستة وعشرين فرسخا فوق القاهرة إلى

(1) وهو شيء يشاهد كل يوم في قنوات الأنهار التي تمتلىء شيئا فشيئا.

البحر. ومن هيلو بوليس صعودا مع النهر تكون مصر ضيقة وتحدها جبال العرب التي تحاذيها، ولكنها من جهة الشرق تمتد الى البحر الأحمر. ومن محاجر تلك الجبال العربية، استخرجت الصخور التي بنيت بها الأهرام. وهاته الجبال تمتد على طول ستين يوما. ومن الجهة التي تطل فيها مصر على الجزيرة العربية، تنبت الأشجار التي تمتاز بعطرها. ومن الجهة التي تطل فيها مصر على الغرب، توجد جبال محجرة أو بالأحرى، سلسلة من الجبال الموازية للأخرى. وتمتد هي أيضا، نحو الجنوب وقد سماها القدماء الجبال البونيقية أو الافريقية. وكل ما يوجد بين الاثنين هو مصر الذي يظهر أن البحر كان قد ملأها قديما وأن الحيز الواقع أسفل من منفيس كان يجر مياه البحر المتوسط. كما أن ما كان يوجد في خليج العرب كان يمتلىء من البحر الأحمر. بحيث لم يكن هنالك أرض كثيرة بين هذين البحرين. وأخيرا، فإن النهر يسيل بين هاتين السلسلتين من الجبال. على طول عشرين فرسخا من كل جهة حسب امتداد الفيضان. وعلى قمة أعلى تلك الجبال المقابلة للقاهرة تشاهد قواقع مجار مملوءة بالرمل بين الصخور وأصداف ناتئة من نفس الاحجار تدل على أن البحر كان هنالك في أزمنة قديمة. ولهذا فإن سكان البلاد يقولون بأن المياه المالحة لما انسحبت، مكنت مياه النيل من الانتشار في مكانها عبر السهول بقدر ما استطاعت أن تصل إليها.

الفصل الثاني

أصل المصريين

كان المصريون القدماء يعتقدون أنهم هم أول البشر. ولكن في عهد الملك «بساميتيك» تبين أن الفريجيين كانوا أقدم منهم. فقد أورد هيرودوت بأن هذا الملك لما أراد أن يعرف قدم أصلهم أخذ بعد بحث طويل ولدين، إثر وضعهما بقليل، ورباهما بين القطعان في مكان خال حيث لم يكن لهما اتصال بالناس. وأوصى الراعي الذي كان مكلفا بتربيتهما أن ينتبه لأول كلمة ينطقان بها. ولما وقع فطامهما وبدا يأكلان أشياء أكثر صربة، أمسكا بيده ذات يوم، وهو داخل الى البيت وقالا له : «بيتشو» وتكرر ذلك عدة مرات فذهب الراعي ليخبر الأمير بذلك. فسأل عن معنى ما سمع فاكتشف بأن الفريجيين كانوا يسمون الخبز بهذا الاسم، فكان هذا سببا في كون المصريين تخلوا لهم عن مجد الأقدمية.

ويقص الاغريق هذه الرواية بطريقة أخرى، فيقولون ان «بساميتيك» ربى الولدين في برج وقطع لسان مرضعتهما وان أول كلمة نطقا بها كانت هي بيتشو.

وأخيرا كان المصريون هم أول من قسم السنة الى اثنتي عشر شهرا، تبعا لحركة الكواكب، وبهذا الحساب تفوقوا على الاغريق الذين كانوا يضيفون شهرا في كل ثلاث سنوات، وأعطوا لكل شهر ثلاثين يوما، مضيفين خمسة أيام لاتمام السنة. وقد كانوا شعبا شديد الفطنة ومغاليا في الاعتقادات وعابدا للأوثان، وعنهم أخذ الاغريق أسماء الآلهة الاثنى عشر وأنشأوا الأصنام والمعابد وما يتعلق بعبادة الآلهة، واحتفظوا بذكر الأشياء، ونقشوا الحيوانات على الأحجار. وكانوا يحبون الحفلات والمواكب الفخمة، ويحيون أعياد آلهتهم في عدة أماكن. ومن مدينة بوبسط كان لهم معبد ديانا، وفي بوصي معبد ايزيس أو سيريس، وفي ساموس معبد ميرنفا، وفي هليو بوليس معبد الشمس، وفي بوتو معبد نارون، وفي مدينة أخرى معبد ماوس، وفي ممفيس معبد فولكان. كانوا مهتمين بالعقيدة الى أن أصبحوا يقدسون الطيور والبهائم ذات الأربع ويبنون لها قبورا خاصة بكل جنس من الحيوان. ويروي موسى بأن المصريين ينتمون بأصلهم لمصرائيم ابن كوش، وحفيد سام الذي كان أحد أولاد نوح. ومن ثم دعا العبرانيون هذا البلد باسم مصر والسكان مصرايت كما يسميهم العرب اليوم. وأبناء البلد قبط باسم أحد الملوك الذي خلف بساميتيك، وكان أول من بنى البيوت بمصر. ويتسمون فيما بينهم الأقباط.

ولك لم يبق مصريون حقيقيون ما عدا بعض المسيحيين الذين يتسترون على أصولهم بتعاطيهم للحفلات والمعتقدات القديمة. أما الآخرون، فقد دخلوا في دين محمد واختلطوا مع الأفارقة وأمم أخرى حكمت، من حين لآخر، بمصر.

الفصل الثالث

ملوك مصر القدماء ومآثرهم الكبرى

حكمت مصر، خلال مدة طويلة، من لدن الفراعنة الذين كانوا هم ملوك البلاد الأقوياء، والذين كان أولهم هو مينيس وهو الذي، بفضل اختراع عجيب، أوصل النيل الى مدينة ممفيس، لأن النيل كان يقذف بمياهه الى جبل بساميتيك، من جهة افريقيا. وحمل هذا الملك التراب من جهة الجنوب الى تيار الماء وفتح طريقا،

(1) ملاحظة عامة تتعلق بهذا الفصل والفصول التالية المتعلقة بعهد الفراعنة : إنها تحتوي على معلومات لا علاقة لها بما نعرفه الآن عن تاريخ تلك الفترة استنادا الى المعلومات التي نتوفر عليها بفضل الحفريات الآثارية وقراءة الخطوط الهيروغليفية. وقد آثرنا مع ذلك أن نترجمها وفاء للنص كما كتبه المؤلف (مترجم).

اتساعها مائة غلوة أوقفت النهر، وجعلته يمر من بين الجبال، حيث يتدفق في الساعة الراهنة. وقد حظيت هذه الطريق برعاية كبيرة من لدن ملوك مصر، مخافة أن يحطمها الماء أو أن يحدث فيه حفرا. وكانوا يضعون حولها حراسا لمنع الأمم الأخرى من تخريبها، وارجاع الماء الى الانصباب من جهة لفريقيا.

وبنى منيس مفيس في المضيق ذاته في اتجاه الغرب ومن الشمال الى الغرب، أحدث بحيرة كبيرة تحيط بها من تلك الجهة، بينما النيل يحميها من جهة الشرق. وبنى أيضا في تلك المدينة معبد «فولكان» الذي كان من أعجب البناءات الموجودة في ذلك الزمان. ومنذ منيس الى ميريس حكم في مصر ثلاثمائة وثلاثون ملكا، كان منهم ثمانية عشر من الاثيوبينن، ومن بينهم ملكة أجنبية اسمها نيكوطيس، ملكة بابل. أما الباقون، فهم من أبناء البلد، وحفر ميريس البحيرة التي تحمل اسمه، وبنى الهرمين الموجودين فوقه. وكانت تلك البحيرة من أعاجيب الدنيا، لأن دائرتها كانت من ثلاثة آلاف وستمائة غلوة، وهو امتداد الشاطىء المصري بكامله على ساحل البحر المتوسط، وكان يمتد من الجنوب الى الشمال ويبلغ خمسين خطوة من العمق، وفي الوسط على علو خمسين خطوة فوق الماء. وعلى كل هرم كان يوجد عملاق من الحجر، بحيث إن كل واحدة كان لها مائة خطوة من العلو، وهو باضافة وجه العملاق يبلغ غلوة بكاملها. وكل واحدة كانت تبلغ مائة وأربعة وأربعين شبرا. وماء البحيرة كان يبين بأنه لم يكن آتيا من عين، لكن من النيل، الذي كان ينفذ اليه ستة أشهر وينفذ منه بعد ستة أخرى.

ولا شك أن الأهرام بنيت هي الأولى، ثم وضع فيها الماء بعد ذلك ولكن، كل التراب الذي أخرج من حفر تلك البحيرة قذف به في تيار النهر الذي حمله الى الأماكن المنخفضة. وجاء بعد الملك ميريس، سيسوستريس بعد مرور تسعمائة سنة أو ما يقاربها على الطوفان، وكان هو أول من استعمل المراكب لاخضاع سكان البحر الأحمر وكل الأقاليم المحيطة به ولكنه أكرم أولئك الذين قاوموه ودافعوا عن حريتهم، وبعد أن غلبهم، رفع أعمدة من المرمر في الأماكن المختارة حيث نقش اسمه، ووصفت الطريقة التي غلبهم بها. ولكن في الأماكن التي استسلمت اليه بدون قتال، نقش على الاعمدة عورات النساء، اشارة الى الدناءة. وقهر كل الأمم حتى بلغ الى السيتيين، ولما غلبهم، انتقل الى أروبا وأخضع تراقيا، ثم رجع أدراجه واجتاز نهر فاز. وكان يصنع تماثيله وهو حامل لسهم في اليد اليمنى وقوس في اليسرى. وكان نصفها شبيها بأقواس المصرينن، ونصفها الآخر بأقواس

الاثيوبيين مع حروف مكتوبة من الكتف الى الآخر وكانت تسمى مقدسة. وتشير الى أنه تحمل عبء تلك الامبراطورية ورجع من فتوحه بعدد كبير من الرقيق شغلهم منذ ذلك الحين في استخراج أحجار كبيرة وضعها أمام معبد فولكان وفي حفر قنوات كانت تقطع كل أرض مصر وتعوق السير على الخيل أو على العربات. وأمر بصنع تلك القنوات لايصال ماء النيل الى المدن التي كانت بعيدة منهم. وكان أول من قسم الأراضي الصالحة للزراعة بمصر، وحدد ما كان يجب على كل واحد اداءه في السنة. وحينما كان النيل يذهب في فيضانه ببعض الأدوات، كان يخفف على المالك بنسبة تقارب الضياع.

وكان هو مكتشف الهندسة التي ازدهرت فيما بعد باليونان وهو الملك المصري الوحيد الذي حكم بإثيوبيا، وشيد له كمعلمة للذكرى تمثال علوه ثلاثون ذراعا مصريا أمام باب معبد فولكان، وآخر مماثل لزوجته، وأربعة من عشرين لأولاده الأربعة.

وحينما استولى داريوس على مصر، لم يشأ الكاهن أن يضع تمثاله أمام تمثال سيسوستريس. الشيء الذي قبله ذلك الملك لأن سيسوستريس كان هو الوحيد الذي غلب أمة السيتيين التي لم تعرف الهزيمة. وخلف سيسوستريس ولده فيرون الذي أصيب بالعمى في بداية عهده، ثم استرجع البصر ورفع بهليوبوليس في معبد الشمس حجرتين مربعتين متشابهتين، كل واحدة طولها مائة قدم على ثمانية وسميت مسلة.

الفصل الرابع
مواصلة الموضوع بالحديث عن اختطاف هيلانة

خلف بروتي فيرون وبنى معبدا عظيما في مدينة ممفيس قريبا من باب معبد فولكان الذي كان يواجه الجنوب. وفي عهده وقع اختطاف هيلانة، ذلك أن باريس كان يمخر عباب بحر ايجي، فقذفت به الرياح المعاكسة الى شاطىء مصر. ووقف عند مصب كانوب. وينص هيرودوت على انه في زمانه كان يوجد معبد مهدي لهرقل وانه اكراما لهذا البطل، كل من فقد حريته يسترجعها إذا دخل اليه.

وعلم عبيد باريس بهذا الأمر. ففروا اليه عند وقوفهم وزادوا في الطين بلة حينما أعلموا الحاكم باختطافه. فأخبر في الحين ملكه الذي أمر بأن توجه اليه المرأة

ومختطفها مع أمتعتهما وطاقمهما. وأضاف انه لما وصل الى ممفيس تلقى باريس لوامرا من ذلك الملك الذي أخذ له خليلته. وكل ما كانت تملك وأمره بالخروج من مملكته في ظرف ثلاثة أيام، والا قتله. ويقص هيرودوت بعد ذلك كيف أن مينلوس مع ملوك اليونان قام بعملية طراودة وطالب بهيلانة فأجيبوا بأنها لم تكن هنالك وأنها في مصر مع خليلها. وهذا ما لم يصدقوا به فقاموا بحصار المدينة زاستولوا عليها بعد أن طوقوها مدة طويلة.

ثم طالب بها منيلوس ملك مصر مع كل ما انتزع منه. وكان ذلك أكثر احتمالا من القول بأنها كانت في طراودة لأنه كان من المعقول أن ترد تجنبا لخراب البلاد، خصوصا بعد موت هكتور واخوته، ولكن كفانا من هذا الاستطراد، فلنعد الى ملوك مصر.

الفصل الخامس
مواصلة الحديث عن ملوك مصر

وتولى ربسنيت مكان الملك بروتي وترك بعد وفاته بعض المآثر من إنشائه منها تمثال من خمسة وعشرين ذراعا طولا أمام معبد فولكان. كل واحد منها من حجر واحد، وكان الأول يمثل الصيف ويوجد في اتجاه الشمال، والثاني الشتاء وكان من جهة الجنوب. وقد ملك هذا الملك كنوزا كبيرة وأنفق على العدل وعلى الشرطة في مملكته أكثر مما فعل أسلافه.

وخلفه شيوب الذي كان مولعا بالبناء أكثر مما كان مهتما بالعدل. ومن أجل ذلك، قام باغلاق كل المعابد حتى يشتغل الناس في بناءاته أكثر مما ينصرفون لخدمة الأصنام، وقيل انه شغل مليونا من البشر في استخراج الحجر من جبال جزيرة العرب لينقلها الى أهل افريقيا الموجودين بالجهة الأخرى وانه كان يستبدلهم بغيرهم كل ثلاثة شهور. واستعمل تلك الأحجار في بناء هرم اتخذه ضريحا له، وكان أعظم انجازا من الأول ونقش عليه حيوانات وجعل اقباء تحت الأهرام حيث حفر قبره وأحاطه بماء النيل على شكل جزيرة، وكان هرمه يعلو بخمس غلوات على عشر خطوات عرضا، ولكن في الأعلى لم يكن يتجاوز ثمانية، وبنى هرما آخر قريبا منه وكان مربعا وطوله ثمانية أشبار ومثل ذلك في علوه وعليه نقوش متعددة. وكان هذا الهرم على شكل كرتين، واحدة فوق الأخرى مع أدراج للصعود اليها.

وكان هنالك هرم ثالث يحمل كتابات تبين اسم مؤسسه وما كلفه بناؤه من نفقة وكيف أنه أنفقت ستمائة طالانت من الأعشاب والبصل لتغذية العمال. الشيء الذي يبن أن بقية النفقة صعدت الى قدر يتجاوز المعقول. ذلك أن ثلاثمائة ألف من الرجال اشتغلوا فيه طوال عشر سنوات. وكانوا مقسمين الى ثلاث فئات. واحدة منها تشتغل بجر الحجر، والثانية بحملها، والثالثة ببنائها. وقامت احدى بنات هذا الأمير ببناء الأهرام الثلاثة السابقة. وكان مربعا، وكل صفحة منه تزن نصف أربنت عرضا. وخارجه كان عبارة عن قشرة ذات ألوان مختلفة ولامعة ومصقولة. ودام عهد هذا الملك خمسين سنة ومات مكروها من لدن رعاياه، لأنه شغلهم طوال حياته في بناءاته.

وخلفه أخوه الذي بنى هو، أيضا، هرما أصغر من السابق. ولم يكن النيل يدخل اليه. ولكنه كان يحيطه كليا بواسطة بحيرة غلفت كلها بمرمر إثيوبيا مع قصر في نهايته يعادل الهرم في علوه. وطال عهد هذا الملك ستا وخمسين سنة في أعمال شاقة. وأقفلت المعابد طوال تلك المدة. ولكي ينتقموا من هذين الملكين بعد موتهما، لم يعودوا يستعملون اسميهما ونسبوا منجزاتهما لملك آخر. ولما مات هذا الملك، آلت الى ولده الذي كان اسمه شيوب، وقد أعاد فتح المعابد، وترك المصريين في حريتهم لكي يشتغلوا بشؤونهم. ولهذا فقد كان يحظى بالتقدير زيادة على كونه كان لطيفا ومتسامحا ومحبا للعدل الى درجة أنه كان يراجع أحكامه بطلب من أحد الخصمين، وقد استراح رعاياه في عهده من أشغالهم وأخذوا حقهم في التمتع وقضوا أوقاتهم في الأعياد والأفراح داخل الحدائق ليل نهار أو على ضفاف البحيرات وغيرها من أماكن اللهو.

ولكي يسخر هذا الملك بأسلافه، أمر ببناء هرم لا يبلغ من العلو الا عشرين قدما نصفها من المرمر الأسود الذي لم يعد تعديلا رقيقا، والنصف الآخر من المرمر الأبيض المصقول. وينسب البعض هذا العمل لعشيقة اسمها رودوب، ولكنها كانت موجودة في عهد أماسيس وخادمة ليادمون أستاذ إيزوب الذي انتزعت منه لتساق الى مصر حيث اعتقت، وبسبب جمالها اكتسبت ثروات كبيرة، قيل إن منها بنت هذا الهرم.

وجاء بعد ذلك الملك أفيشين الذي منع القرض بالربا، إذا لم يدفع المدين جثمان أبيه كرهينة للدائن، وإذا لم يسترجعه في الوقت المعهود يحرم من الدفن وكذلك أحفاده معه. واتخذ هاته التدابير بمنع الاقتراض وليكون شخص واحد من

العائلة هو المأذون له بذلك. فبنى هرما من الآجر وعليه هاته الكتابة : لا تقارني بغيري من أهرام الحجر التي أنا أكبر منها على غرار جوبيتر الذي يتفوق على الآلهة الأخرى. ولم أصنع الا من الطين الذي كان ملتصقا بقعر البحيرة. وخلف هذا الملك انيفيمو الذي فقد البصر منذ صباه وطرده سباشو ملك اثيوبيا الذي حكم خمسين سنة في مصر دون أن يحكم على أحد بالاعدام طوال ملكه. واكتفي بأن ألزم المتهمين كعقاب لهم بحمل التراب الى الأماكن المجاورة ليرفعوا مستواها حتى تسلم من الضرر وتجنب فيضانات النيل. وقد بدأ هذا العمل في عهد سيزوستريس، لما حفر خنادق المدن وأتم العمل هذا الملك.

واهتم بالخصوص برفع مدينة بوبسط التي كان فيها معبد ديانا الموجود كله وسط النيل والمغشى بقطع كبيرة من المرمر مع نقوش مختلفة ذات فن رفيع ويحيط بها عدد من الأشجار التي كانت تمنحها طراوة. وبعد خمسين عام، رجع هذا الملك الى إثيوبيا، فخرج الأعمى الذي اختفى هذا الزمن وصعد الى العرش. وبعده آل التاج الى سيتون الذي كان كاهنا لفولكان. وبما أن هذا الأخير لم يكن ذا ميول حربية، لم يهتم برجال الحرب واسترجع منهم الاقطاعات التي كان أسلافه منحها اياهم، ففي عهده أغار سنجاريب، ملك آشور، على مصر بجيش كبير. وبما أن الجنود كانوا مستائين. فلم يقبلوا حمل السلاح واضطر أن يذهب للقائه مع الشعب الى بيلو التي كانت تفصل مصر عن فلسطين وهناك أخذ يبكي أمام إلاهه. وقيل انه جاء عدد من الفئران الى معسكر الآشوريين، فقطعوا أوتار القسى ولجم الخيل، بحيث اضطروا الى الانسحاب. ولهذا السبب صنع المصريون تمثال هذا الملك وفي يده فأر. وعليه هاته الكتابة : فلتأخذوا مني مثالكم في التقوى.

الفصل السادس
تغيير الحكومة

وبعد موت سيتون، غير المصريون حكومتهم. وبما أنهم لم يكونوا قابلين أن يعيشوا بدون ملك ولا في حرية، فقد عينوا اثنى عشر رئيسا كحكام على الأقاليم. وهكذا حددوا لكل واحد إقليمه حتى لا يتدخل في إقليم جاره ولا أن يمتلك من الأرض أكثر مما أسند اليه في البداية واعتقدوا أنهم سيعيشون في أمن بهاته الطريقة، وليحتفلوا بهذا التغيير أقاموا بناء لتخليده هو عبارة عن سرداب في بحيرة مينوس قريب من مدينة التماسيح، وهذا البناء كان أعظم من البناءات الأخرى المعاصرة،

فكان فيه اثنا عشر مشورا أو فناء محاطة بعمارات للسكنى ذات هندسة عجيبة وكل واحدة كان فيها اثنا عشر بابا، ستة منها في اتجاه الشمال، وستة في اتجاه الجنوب ويقع الانتقال من الأولى الى الثانية بجهاز عجيب. وكان سور واحد يحوطهما جميعا. وتتلقى الضوء من نوافذ كانت بين الأعمدة وكان فيها ثلاثة آلاف شقة مزدوجة كلها. ألف وخمسمائة في الأعلى وألف وخمسمائة في الأسفل مع قباب تحت الأرض حيث كانوا يدفنون الملوك والتماسيح.

ومن هاته الافنية الاثنى عشر يقع الخروج من الأبواب نحو اثني عشر مشورا كبيرا ومن هنالك الى أخرى. وكل القباب كانت من المرمر وكذلك الجدران مع وجوه منقوشة، والبلاط مغشى برخام من الهيصم واليشب بألوان مختلفة. وكانت الفناءات محاطة بأروقة مقببة ومدعمة بقناطر من المرمر الأبيض. وفي كل ركن من السرداب، كان يوجد برج أو هرم يعلو البناء بأربعين خطوة ومنقوش بحيوانات عظيمة الجرم، وهنالك كان يوجد السلم، ورغم أن هذا البناء كان عجيبا، فلم يكن يساوي بناء البحيرة التي كان مدارها ثلاثة آلاف وستمائة غلوة.

ولنعد الى موضوعنا، فقد أراد بساميتيكو وهو أحد الرؤساء الاثنى عشر أو الملوك أن يصير سيدا على الدولة. وهذا ما اكتشفه الآخرون فحكموا عليه بالعزل من منصبه وحبسوه في جزيرة بالنيل، وسبق له أن طرد من لدن الباشا الذي كان قتل نكار أبا إبساميتيكو، ولكن والديه استرجعاه من سوريا حيث انسحب ليسندا إليه القسمة الثانية عشرة من الدولة. وبماأنه كان يرغب دائما في سلب أصحابه فقد اغتنم فرصة وصول بعض القراصنة الى جزيرة النيل حيث كان محبوسا فأطمعهم بوعود كبيرة وضمهم الى إعوانه. وتمكن من هزم أصحابه في عدة معارك. واستولى على مجموع الامبراطورية، ومكن الفراعنة من حقوق البورجوزية لأنهم تبعوه مع قسم من نواحي بيلوز ونقلهم منذ ذلك الحين الى ممفيس لحراسته الشخصية وحراسة المدينة. فكان أولئك هم الأجانب الأولون الذين استوطنوا مصر، وخلطهم الملك بالمصريين حتى يتعلموا منهم اللغة الاغريقية.

ومن هؤلاء الناس انحدر الأشخاص الذين كانوا يستعملون كتراجمة. وقام الأغريق من بعد بالتبادل التجاري مع المصريين. وحكم هذا الملك مدة أربعة وخمسين سنة قضى منها تسعا وعشرين في حصار مدينة آزوط بفلسطين وهو أكبر وأشهر حصار ذكر في التاريخ الى اليوم، وتولى بعده ولده نياك الذي حفر قنالا من

النيل الى البحر الأحمر. وهو الذي واصل فيه العمل الملك داريوس ملك الفرس. وكان طوله أربعة أيام وعرضه لا يتجاوز مقدارا يسمح لكاليرتين بالمرور وهما متحاذيتان، وكانّ مبدأه فوق مدينة بوبسط ونهايته في البحر الأحمر. وكان من الممكن أن يكون أقل لو انطلق من ممفيس أو أقصر من ذلك لو ذهب من البحر الأحمر أسفل جبل قاسيوس الذي يفصل سوريا عن مصر. ولكن المكان الذي أختير له جعله يفيد التجارة مع كل تلك الشعوب. ويقول المؤرخون بأن حفره تسبب في موت ستة وعشرين ألف مصري، مع أنهم لم يتموا منه الا نصفه. وفي الأخير تخلى هذا الملك عن هذا الانجاز ليتفرغ للحرب. وسلح أسطولين، أحدهما في البحر الأحمر والآخر في البحر المتوسط وبفضلهما استولى على أقاليم كبيرة وهزم الآشوريين في البر قرب مكدالة وأحرق قادس عاصمة سوريا. ومات بعد ان حكم سبع عشرة سنة، وقام ولده ابسامو بالحرب في اثيوبيا، حيث أصابه الموت بعد ست سنوات من الملك وترك ولده آبريس كخلف له.

الفصل السابع

متابعة هاته المادة

وصادف آبريوس حظا سعيدا في بداية ملكه واستولى على مدينتي صور وصيدا، ولكنه أضاعهما فيما بعد مع أشراف مصر إثر معركة، فثار عليه رعاياه تحت قيادة واحد منهم اسمه أماسيس، الذي استولى عليه أثناء المعركة وقتله، وكان المصريون مقسمين آنذاك الى طبقات. الأولى : الكهان، الثانية، رجال الحرب، الثالثة والرابعة : المكلفون بتربية القطعان من البقر والغنم، كل واحد منهم له عصبيته، على حدة، والخامسة تضم الصناع والتجار. والسادسة : المترجمين، نظرا لكثرة الأجانب القاذمين للتجارة، السابعة : تخص رجال البحرية، وكل طبقة كان لها اسمها ونظامها المطابق لمهنتها، وكان رجال الحرب مقسمين الى فريقين للدفاع عن مصر العليا ومصر السفلى، فالسفلى كانت تشمل خمسة أقاليم وحراستها كانت تقتضي تجنيد مائة وستين ألف رجل من الشبان والشيوخ. وكانت العليا تضم أحد عشر اقليما والدفاع عنها كان يتطلب مائتين وخمسين ألف رجل، ولم يكن في مستطاع أي واحد من المجندين ولا أولادهم أن يقوموا بأي عمل ما عدا استعمال السلاح.

وهزم اماسيس آبريوز بهذه الجنود، برغم كون آبريوس أتى بقوة أكبر من اينونيا ومن كاريا. ولما غلبه واستولى عليه، أمر بشنقه لأنه كان يريد أن يتحرك ضده

من جديد. ودفن في معبد مينرفا بين مسلتين كبيرتين كانتا وسط بحيرة مدورة ومغطاة بالمرمر. وكانت من أجمل ما صنع في الدنيا، ولم يكن اماسيس منذ البداية يحظى باحترام رعاياه لأنه كان ينحدر من الشعب، ولكنه استطاع أن يجلبهم، في الأخير باللين وغلب عليهم في الأخير بالألعاب والحفلات وغيرها من الأفراح لأنه كان يكره الحرب والمغامرة الكبرى، وبنى في الصعيد دهليزا للدخول الى معبد مينرفا وتجاوز كل بناءات البلد من حيث العظمة والشكل، وكان مزخرفا بعدد من التماثيل الضخمة كأبي الهول وغيرها من الوجوه ومبنيا بحجارة تبلغ حجما خارقا للعادة، وأمر باستقدام أخرى أكبر منها من مدينة الفانتين لانجاز عمل كان يريد أن يقوم به فوق ممفيس. ومن بين هاته الحجارة كانت واحدة يبلغ طولها واحدا وعشرين ذراعا مصريا وعلوها ثمانية وعرضها أربعة عشر مع تجويف داخلي يبلغ ثمانية عشر ذراعا على خمسة علوا. ويقال إن ألف مهندس اشتغلوا ثلاث سنوات في نقلها. وأقام أمام معبد فولكان تمثالا عظيما كان من قطعة واحدة ويبلغ طوله خمسة وستين قدما وكان من المرمر الأسود، وعلى البلاط الذي مد عليه، كان بجانبه تمثالان عظيمان قائمين، يبلغ علوهما عشرين قدما، وينسب اليه تمثال ضخم آخر على نفس الشاكلة موجود بمعبد مدينة الصعيد.

وأخيرا، كانت مصر سعيدة تحت حكم هذا الملك، وآهلة بالسكان. وأمر بأن يقدم كل واحد الى القاضي الحساب عما يعيش به، ومن أبى يكون عقابه الموت، وهذا ما تبناه صولون فيما بعد بأثينا، لكنه أراد أن يجلب الاغريق من أجل التجارة، فسمح لهم ببناء مدينة بمعابد في أقاليم مختلفة، الا أن تجارتهم الأساسية كانت من المدينة التي أسسوها والتي اسمها نفارار. وكل السفن الآتية من اليونان لا بد لها من المرور من مصب كانوب وإذا منعوا من ذلك بسبب الرياح المعاكسة، كانوا يحطون بضاعتهم في قوارب ويصعدون في النهر على طوله حتى يصلوا الى أعلى الدلتا. وينتقلون الى الذراع الآخر المتصل بنفارار.

وعقد الحلف مع السيرينيين وتزوج ببنت باطو أحد أمرائهم، واستولى على جزيرة قبرص وجعلها تابعة لمصر، وأشهر قمبيز ملك الفرس الحرب عليه، على رأس جيش عظيم، ولكي يدخل الى مصر وجه الى ملك العرب يطلب منه السماح بالمرور، لأنه لم تكن له أي طريق أخرى من جهة الشرق، ثم ان اقليم فينيفيا يمتد الى جبل كاديت، وهي مدينة فلسطينية حيث تجري تجارة خاصة بتلك المنطقة. ومن هنالك الى مدينة هينيس وبحيرة سربونيد حيث تقص الخرافة أن

العملاق تيفون اختبأ، والكل كان في ملك العرب. وجبل قاسيوس الذي هو من مملكة مصر يصل الى هذه البحيرة. والحيز الموجود بين الجبل ومدينة هينيس يبلغ طوله ثلاثة أيام في أرض صعبة قاحلة، حيث لا يمكن المرور التزود بالماء، وينقل على ظهر العربات الى مساكن تلك الصحاري، وعقد هذا الملك بعد ذلك، الحلف مع قمبيز ووجه إليه كل الابل الموجودة في مملكته تحمل الماء الى جيشه، وعلى إثر ذلك مات أماسيس وتولى مكانه ولده بسامينيت.

الفصل الثامن

قمبيز يفتح مصر

اقترب جيش قمبيز، ورتب المصريون جنودهم في جهة بلوز، على طول ألنيل، ليدافعوا عن المدخل، وكان أكثرهم من الايونيين والكافيين، فلما رأوا جيش العدو يقترب ذبحوا أولاد فانيس بمحضره، وصبوا الماء والخمر والعشب في طشت كبير وشربوا كلهم منه للانتقام من رئيسهم الذي انحاز الى جهة الفرس وجاء ليحاربهم، ثم شرعوا في المعركة، ولكن، بما أنهم كانوا أضعف من الأعداء، فقد وقع استئصالهم، وأما المصريون، فقد هربوا جبنا وانسحبوا الى ممفيس مع ملكهم.

وبعد هذا الانتصار، وجه قمبيز سفيرا على ظهر سفينة الى السكان يطلب منهم الاستسلام دون حرب، ولكنهم غضبوا لوقاحته وكسروا السفينة وقتلوا السفير ومن معه شر قتلة، وثارت الحمية في نفس قمبيز، فحاصر المدينة واستولى عليها صلحاً وأسر الملك بسامينيت، فأخذ الثأر من قتل السفير والميثلاينين الذين رافقوه، وقتل بكل واحد منهم عشرة من أشراف الشبان المصريين، وبعد ذلك مد سيطرته على كل البلاد وعلى مدن برقة وسيرانة واحتفظ قمبيز مدة طويلة ببسامينيت في قصره وكأنه يتمتع بالحرية، وعامله بتعظيم وتشريف كملك، وتركه يأمل بأنه سيضع التاج، من جديد على رأسه، طبقاً لعادة الفرس القديمة، ولكنه أخطر بأنه يدبر للقيام بتمرد، فأمر بقتله بسقيه دم الثور. وفي الحين، جاء الى مدينة صعيد فأمر بإخراج عظام الملك أماسيس من قبره الفخم وإحراقه وإلحاق كل الاهانات به.

وبعد الاستيلاء على مصر، قام بثلاث حروب في نفس الوقت، ذلك أنه وجه سطولا لمحاربة القرطاجيين، وجيشا بريا لمحاربة المكروبيين الذين بقوا في شاطىء

افريقيا الواقع من جهة الجنوب وجيشاً آخر ضد الامونيين، ولكنه لم يحصل على نفس النصر الذي كان له على المصريين. ذلك أنَّ الفنيقين رفضوا المشاركة في حرب القرطاجنيين الذين كانوا قرابة لهم، كما أن قمبيز الذي ذهب بنفسه لقتال المكروبيين بإثيوبيا، أجبره النقص في الاقوات على التخلي عن مشروعه والانسحاب مع ضياع جزء كبير من جيوشه. وأما الذين وجههم الى الأمونيين، فقد وصلوا مدينة أواز وسط رمل رقيق على بعد سبعة أيام من طيبة، فقد صادفوا عاصفة آتية من الجنوب غطتهم كلهم بالرمال وأهلكتهم.

وكان قمبيز بمفيس، اثر عودته من حرب إثيوبيا، فأخذ يرتكب أعمالا وحشية دون اي احترام، ولما أمر بقتل اخوته لتهمة بسيطة، ثار عليه احد الكهنة اسمه «اورباسطين» وكان يشبه احد إخوته «سمرديس»، وأشهر عليه الحرب ومات في الطريق من جراء جرح ألحقه هو ونفسه وبعد موته تولى الملك بالفرس ذلك الكاهن، وهو يحمل اسم «ميمرديس» ابن سيروس واعترفت به «فديمة» امرأته وهي ابنة «أوسطانس» احد أشراف الفرس، واتفق عليه ستة من كبراء الفرس وقتلوه مع «باكيت» اخيه، الذي اعانه على بهتانه، وكان احد أولئك الكبراء هو «داريوس» الذي اختاره الفرس كملك عليهم، لانهم يفضلون الطاعة لواحد على الطاعة لجماعة.

الفصل التاسع

الفرس الذين حكموا مصر والاسكندر الاكبر

وخضعت مصر لداريوس وكذلك سيرينا وبرقة، وكانت تؤدي له سبعمائة طلانط دون حساب مردود الصيد الذي كان يجري في بحيرة ميريوس الكبيرة، بالاضافة الى ذلك كانت المملكة تنفق على ستة وعشرين الف فارسي كانوا يخيمون جميعا في «مورو» البيضاء قرب «ممفيس» لحراسة الدولة وضمان أمنها، وأراد «داريوس» أن يتم القناة التي كان قد بدأها «نيكاو»، ولكنه مات قبل ذلك وحالت دون مشروعه ثورة مصر، وجاء بعده ولده «كسرسيس» فصار الى مصر وأعاد الامن اليها وأسند حكومتها الى «هيمين» احد إخوته، الذي مات في حرب بأفريقيا، وقتل «كسريس» غدرا من لدن «ارابنوس» أحد قادته. وكسرسيس هذا هو الذي اشتهر بحروبه مع الاتينيين، وجاء بعده ولده «ارطاكسيرسيس» ولكن المصريين ثاروا عليه وانتخبوا «هرمبسيمون» ملكا عليهم، الذي استقر في منصبه

بفضل اللاسيديمونيين وجاء بعد «أرطاكسرسيس» ولده «أكوس» الذي بسبب حربه مع الارمينين أسند قيادة جيشه الى كوبرمان وهو شخص كان ذا مزايا حتى إن الفرس آختاروه ملكا عليهم وخلعوا عليه اسم «داريوس» إحياء لذكرى سميه السابق الذي كان أبا لكسرسيس. وهو الذي غلبه الاسكندر في عدة معارك، والذي قتله رعاياه في الاخير.

وبعد مقتله أصبح الاسكندر هو سيد الفرس ومصر، ولكنه لم يعش طويلا، فقسمت مملكته بعد ذلك، لانه لم يعين وليا لعده، وترك التاج، على ما يحكى، للذي يكون اقدر الناس على استعمال السيف، ورفع اخوه الى العرش الى ان ولدت «روكسان» وتقاسم القواد فيما بينهم، وكانوا يسلبون بعضهم البعض، لكن بطليموس ظل حاكما هادئا على مصر. ويقول البعض انه أخ للاسكندر، ولكنه ابن زنا، ويقولون بأن هذا الملك وعدهم بها وهو حي وبنى بإشارة منه مدينة الاسكندرية، وهكذا تولى هاته المملكة في إطار القسمة مع قسم من آسيا وافريقيا، ولحسن تصرفه احتفظ بها وأضاف اليها فتوحا أخرى، وكان مهيبا سواء من اصدقائه أو من اعدائه.

الفصل العاشر

عهد البطالسة ملوك مصر وكيف وقعت هاته البلاد في قبضة الرومان(1)

اختار بطليموس، الملقب الأكبر، مركز حكومته في الأسكندرية، وفي عهده كان السبعون ترجمانا في حالة ازدهار، وكل من تولى بعده حمل اسمه. فالأول كان هو «فيلاديلف» والثاني « إفرجيطيس» والثالث « فيليباتر»، والرابع «فيليماتر»، والخامس «اسكندر»، والسادس «افرجيطس» الثاني والسابع فيفيون» والثامن «ليتور» والتاسع «أولايس» والعاشر «اولاريس» الثاني، وهذا الأخير هو الذي غمل على قتل «بومبيوس» الأكبر. وكان أخا لكيلوبلطرة التي كان في حرب معها، حينما وصل قيصر الى مصر، وسبب هذه الحرب هو ان

(1) لم يعتبر السيد دابلانكور هذا الفصل جديرا بالترجمة، لأن مارمول أورد فيه أشياء مخالفة للتاريخ.

بطليموس كان يرفض الزواج من أخته، رغم أن أباه أمره هو وأخته بذلك. وهذا أمرٌ كان عاديا لدى هؤلاء الملوك المصريين الذين كانوا كفارا.

فاشتكت «كليوباطرة» لقيصر وطلبت منه الانصاف من أخيها الذي سلبها مملكتها، ومن هنالك نشأ العراك بينهما، وبعد عدة أحداث غرق بطليموس وأصبح قيصر سيدا على المملكة فأعطاها للتي سحره جمالها. وهاته الملكة لم يكن خطرها على روما أقل من خطر «هيلانة» على طروادة، فقد كان كل اولئك الملوك الأحد عشر الحاملين للقب بطليموس متساوين في الرذيلة وقتلة لوالديهم وأمهاتهم وأخواتهم وأقاربهم. وكانت لهم حروب مع ملوك الفرس وسوريا وافريقيا. ووجدوا نجدة في الرومان وحدث بعد ذلك أن أنطونيوس كان على وشك الدخول في الحرب مع البارتيين، فوجه يطلب منها النجدة، لكن هاته الأميرة اعتذرت بكون الوباء والمجاعة تعصفان بمصر، وغضب من هذا الجواب، فوجه لها الأمر بأن تحضر الى كيليكيا لتفسر سبب رفضها.

واستطاعت أن تدافع عن نفسها بكل قوة حتى ان أنطونيوس وقع في حبل الغرام بها ونسى كل أمجاده، فتبعها الى مصر ثم انه انهزم أمام «أغسطس»، فانتهى الحكم الثلاثي، ولم تشأ تلك الملكة أن تعيش بعد أغسطس، فعملت على أن تعضها حية مسمومة، وماتت هكذا في سن التاسعة والثلاثين بعد امضاء اثنتين وعشرين سنة في الملك، واستولى الامبراطور في الحال على مصر وحولها الى اقليم خاضع للرومان الى أن استولى عليها خلفاء محمد. ويقص «فيلون» اليهودي انه في عهد الامبراطور فيسباسيان وبابوية «لينوس» ذهب القديس «مرقس» الى مصر بالهام من روح القدس، وبعد ان علم الانجيل في مواعظه وكتابته، أسس كنيسة الاسكندرية ومات في السنة الثامنة من عهد «دومسيانوس».

الفصل الحادي عشر
كيف وقعت مصر في قبضة العرب

ظلت مصر تحت حكم الرومان الى عهد عمر الخليفة الثاني لمحمد، ففتحها على يد عمرو أحد قادته وسمح للسكان بأن يعيشوا على دين النصرانية، وبنى حصنا(1) على نهر النيل في المكان الذي خيم فيه مدة طويلة وقرية بجوارها

(1) الفسطاط.

تسمى المدينة القديمة(2) لأنها تسمى القاهرة التي ليست هي ممفيس القديمة، وممفيس توجد من جهة افريقيا بالقرب من الأهرام. وهي على ما يظهر، مدينة «أفروم» التي بناها فرعون في عهد موسى على ذراع من جهة افريقيا على بعد سبعة عشر فرسخا من القاهرة في اتجاه الجنوب، ويرى بناء في المكان الذي يلتقي فيه ذراعا النيل والذي يدعى ضريح يوسف، حيث يقال انه دفن قبل أن يحمل العبرانيون جثته للأرض الموعودة.

فالقاهرة، إذن، وما يحيط بها من أماكن لا علاقة لها بالفراعنة القدماء الذين كانوا يقطنون في اتجاه الصعيد فوق القاهرة بممفيس ومنفلوط وإخميم وغيرها من المدن التي كانت مشهورة في ذلك الوقت.

ولكن منذ أن أخضع الأسكندر الأكبر مصر، كل من فيها كان ذا أهمية نزل نحو شاطىء البحر المتوسط، لأن البطالسة أقاموا حاضرتهم الملكية بالأسكندرية، واستمر الأمر على ذلك في عهد الرومان حتى بعد انتقال الأمبراطور الى اليونان، ولكن خلفاء محمد استقروا بوسط المملكة في المكان الذي بنيت فيه القاهرة، وذلك سواء للمحافظة على أمن البلد الذي قسم الى جهتين، أو للدفاع عنها صدا على الأمراء المسيحيين الذين كانوا يتمتعون بتفوق في البحر، لما أخذت الدولة في الانهيار أقام صلاح الدين امبراطورية المماليك في مصر، واتفق خلفاؤه على أساس أن تمتد سيطرتهم في عهد فانصو أو الغورى على طول البحر المتوسط في مسافة تمتد على ثلاثمائة فرسخ منذ رأس «أراز أوزن» الذي يسميه بطليموس جسر موريا الى خليج «اراز» الذي هو «سريبلويس» القديمة، على ما يظهر.

وعلى طول هاته السواحل توجد عدة موانىء مشهورة. وإذا صعدنا في النيل خلال اقليم الصعيد، نجده يصل الى «بطليمايد» وينزل الى البحر الأحمر، ثم يصل من هنالك إلى الشريف بركات، الذي هو شريف مكة مع أمير عدن الذي كان يحكم الى مصب المضيق ويملك بلاد القصيم التي تقابل جزيرة قمران، ومن هنالك يقطع الصحاري وياتي الى مدينة بير الموجودة على الفرات، ثم يتجه شرقا من طريق أخرى فيعود الى خليج لاراس، وهذه الدائرة تشمل قسما كبيرا من صحراء جزيرة العرب وكل البتراء وبلاد يهودا وقسما كبيرا من سوريا وافريقيا. والاسم الذي كان

(2) مصر العتيقة.

يحمل هذا السلطان هو قانصو، ولكنه كان يضيف إليه اسم الغورى، لأنه كان انتصر على ملك الفرس في بحيرة الغور التي توجد على الفرات بين مدينتي «إيناس» و «وبغداد».

الفصل الثاني عشر

فتح مصر من لدن السلطان الأعظم

سبق أن قلنا في الفصل الأربعين من الكتاب الثاني أن سليم وجه سلاحه ضد سلطان مصر وغلبه. ونقدم هنا تفاصيل ذلك الفتح لا لأنه جد مهم ووضع في قبضة السلطان الأعظم مصر وسوريا والأقاليم المجاورة فحسب، ولكنه أيضا لكونه قضى على دولة المماليك التي هم موضوعنا الذي نعالجه وحاول الصفوى «طهماسب» الذي حل محل والده اسماعيل على رأس مملكة فارس أن يتقوى بحلف جيرانه ضدا على السلطان الأعظم ووجه الى السلطان الغورى يخبره بنوايا السلطان سليم، إذ سينتقل الى مصر بمجرد ما يستولى على فارس، ويدعوه الى جمع قواتهما ليقاوما معا عدوهما المشترك. فاستطاع سليم، في تلك الأثناء، أن يحصن حدوده من جهة البلاد المسيحية، فقرر أن يواصل مشاريعه في آسيا وترك ولده سليمان في أدرنة مع حامية كبيرة والباشا بيرى في القسطنطينية، وأصله من «كرمانيا» وجهز أسطولا متكونا من عدة سفن أسند قيادته للجنرال ظافرو، وهو مرتد من هنغاريا. وكان خصيا وانتقل الى الأناضول بجيش قوي وترك الباشا «شرشوغلو» الذي كان صقلبيا مع مجموعة من الجنود لضمان أمن ذلك الاقليم. وصار في طريق الفرات وغرضه أن يدخل الى فارس، لكنه علم بالاتصالات الجارية بين السلطان والصفوى، فتوقف في اقليم «أكونيا» ووجه الى السلطان يرجوه أن لا يمنعه من محاربة الصفوى الذي أدخل بدعا في الدين ونسبب لآسيا في مصائب.

وكان السلطان، بوصفه رئيسا لدين محمد رجلا متكبرا ويرغب في القضاء على عظمة سليم، بسبب شدته وطموحه، حيث لم يتم الوصول إلى إي اتفاق معه، بل أعاد السفير(1) مع بعض الأمل في السلم، تبعا لأحد قادته «ينبوردو غزال» الذي أشار عليه بأن لا يتخاصم مع التركي، وأن يدع باب الأمل مفتوحا، لأن جيشه سيتشتت من عنديته بسبب كبره، وكان السلطان يتوفر على ثمانية

(1) قاضي الشرع.

وعشرين ألف محارب، كلهم مسلحون تسليحا جيدا وماهرون في عملهم الى حد أنهم كانوا يحتقرون الأتراك وتابع سليم طريقه الى قيصرية ومن هنالك أمكن أن يسير نحو الفرات ويتقدم إلى جهة الصفويين، كما وقع الاعلان عن ذلك، أو يدخل الى سوريا عن طريق جبل امانوس، وبينما كان هنالك، قدم عقد للصلح من الجهتين، ولكن بدون الرغبة في الامضاء، وانما ليتعرف كل جانب على قوات الآخر.

ولاحظ سليم ان السلطان كان ينتظر الاتصال بالعاهل الصفوي ليدخل في المعركة، فقرر أن يسبقه، وبينما كان السلطان يسير نحو حلب ليحمي تلك المدينة التي كان حاكمها متصلا بالعدو، غادر سليم طريق الفرس ودخل إلى سوريا عن طريق جبل «أمانو» التي كان القدماء يسمونها «أباميا» فلما علم بمقدم التركي، ذهب، في الحين، للقائه. وأصدر أمره في الحين لقايتباي، حاكم حلب، الذي جاء اليه مع كل قواه الى خمسة فراسخ من المدينة على ضفة نهر سنجا. كما فعل هو، لا بقصد خدمته. ولما تقارب العدوان، وجه السلطان أمامه «سيبيو بلفانو» أمير دمشق مع جيش كبير من المماليك، ثم تقدم حاكم حلب مع جنوده. وفعل ذلك دون أن يتلقى الأمر من سيده، وكان مخطئا، وبدأ يدور حول العدو، وكأنه يريد أن يستولي على متاعه.

وأسندت قيادة الجيش الثالث من المماليك الى غزال وتبعه السلطان مع بقية الجيش، على نصف فرسخ، وقسم سليم جيشه، اقتداء به، على أربعة فرق : الأول جعله تحت قيادة مصطفى، حاكم الأناضول، والثاني تحت قيادة امبراكور باشا والثالث تحت قيادة سنان باشا واحتفظ لنفسه بقيادة الرابع الذي كان يضم معظم الجيش.

وهجم الأتراك هم الأولون على المماليك الذين كان يقودهم حاكم دمشق، ولما صادفوا شيئا من المقاومة تراجعوا قليلا. وفي تلك الأثناء، كان غزال يهاجم سنان باشا، الذي فتح له الطريق ليمر، ثم أطلقت عليه النيران من المدفعية ومن بنادق الانكشارية، الشيء الذي هيج الخيل، حتى انها فرت بركابها الى البعيد، وهاته الهزيمة اضطرت السلطان الذي كان يتبعهم الى الدوران، ولكن بما انه كان عجوزا من سن ستين سنة، فإن فرسه أوقع به على الأرض أثناء الفرار وداس جنوده بطنه، ومات في الواقعة حاكم دمشق وحاكم طرابلس، ولكن غزال أفلت وجمع كل من يستطسع من المماليك وذهب الى دمشق، ومات عدد كبير من الخيل الجيدة

لشدة الخدمة والحرارة، ولم يشأ سليم أن يتابع الأعداء، بل بقي كل ليله مسلحا. وفي الصباح، قام بتخريب معسكرهم حيث وجد غنائم كبيرة، ومن هنالك، سار نحو حلب، وبعد أن قام بحفلة عظيمة، تلطف كثيرا مع الحاكم جزاء على الخدمة التي أداها له، أثناء المعركة، وبعد أن ترك جيشه يأخذ قسطا من الراحة، سار في طريق دمشق حتى لا يترك لأعدائه الوقت الكافي لترميم قولتهم.

ولكن بإشارة من غزال، استدعى المماليك من كل جهة الى القاهرة العظمى وانتخبوا كسلطان عليهم طومان باي، حاكم الاسكندرية الذي كان من جيشهم ويحظى بتقديرهم، وجمع كل المماليك الذين تمكن من جمعهم ووجه يطلب من حاكم رودوس الكبير المدفعية وغيرها من الاستعدادات ليقاوم الأتراك. ووصل سليم في تلك الأثناء الى مدينة أمانو واستقبل استقبال الفاتحين، ولما اقترب من دمشق، فتح له السكان الأبواب، بحيث لم يدخل الا مخفورا من حرسه الانكشارية خوفا من أن يقع النهب في المكان، وكان بعض المماليك يوجدون في القصر، فتهيأوا للدفاع، ولكنهم استسلموا في الأخير، وهكذا وقع لمدن أخرى، بحيث ان سليم وجد نفسه في أمد قصير سيدا على سوريا، ثم استقدم كاليرات الى يافا التي هي في مقابلة القدس، ودعا كل نواب فلسطين الى دمشق وحاول بخطاب طويل أن يجتذبهم إلى خدمته، وترك قسما من المراكز الى ولاتها الذين كانوا عليها منذ عهد السلطان، ولم يشأ أن يعين فيها على الفور أتراكا، خوفا من ازعاج البلد، ولكن لكي يحافظ على زمام الأمر، وضع حامية في كل الحصون، وقام بإصدار أحكام ليضرب المثل للسكان، وألغى بعض الجبايات التي كان السلطان يتقاضاها والتي كان الشعب يتذمر منها، وأدخل اصلاحات جديدة وغير عادات سابقة، وبعد ان استراح بضعة أيام، أخذ في طريق مصر، لكي يستولى على بقية تلك المملكة.

وعرج في طريقه على القدس كي يزور البقاع المقدسة التي كان الأتراك يعظمونها، ودفع أمامه سنان باشا على رأس خمسة عشر آلاف من الفرسان ليفتح له مسالك الصحراء، وجرت للباشا بعض المناوشات مع العرب في تلك الطريق، ولما تخلص من مشاكلهم ذهب ينتظر سليم في غزة التي هي مدينة كبيرة على بعد ثلاثة أرباع فرسخ من البحر، وهي آخر مدينة في سوريا، وهنا، بكت شمسون الفيلستيين، على ما يقال، وذلك بقلبه لأعمدة المكان الذي كانوا مجتمعين به للسخرية منه، وهي في محاذاة البحر من جهة الغرب والفرات من الجهة الأخرى.

وتوجد كيليكيا وكبادوسيا في الشمال، وصحراء جزيرة العرب في الجنوب، وتقسم سوريا على أربعة أقسام : اقليم دمشق وفلسطين وأنطاكية وكيليكيا.

ولنرجع الى ما كنا بصدده، كان السلطان آنذاك في القاهرة، حيث كانت تصله أنباء الأتراك على رأس كل ساعة. وبما أنه كان محبوبا في غزة فقد اعتقد أنه كان في مستطاعه أن يحرك سكانها للثورة، فوجه غزال مع ستتة آلاف من المماليك وعددا كبيرا من العرب ليلزم المدينة بالاعلان عن موقفها. وعلم سنان باشا بذلك، فخرج منها وخيم على بعد خمسة فراسخ من غزة. ولما علم باقتراب العدو، عبأ رجاله للحرب. وهاجم المماليك طليعته بقوة، وبعد قتال قوي، مات فيه كثير من الجانبين وجرح فيه غزال وقتل بعض الضباط الكبار في جيشه، تراجعوا بفوضى وقد رأوا أن المدينة لم تتخذ أي موقف، خلافا لما كانت واعدت به السلطان، وأمر الباشا بقطع رؤوس المماليك الذين قتلوا وعلقها في جذوع النخيل حتى يعرفوا من لحاهم الطويلة، ووصل سليم بعد ذلك بقليل الى غزة، وبعد أن تلطف مع سنان أمر بذبح كل من شك فيهم، وبما أنه كان عليه أن يجتازا ثمانين فرسخا وسط الصحراء قبل أن يصل الى القاهرة، جمع عددا كبيرا من القرب لحمل الماء على ظهر الجمال، وبعد أن هيأ كل ما كان ضروريا لتلك المسيرة الطويلة، تقدم بجيشه تسمه الى فرقتين جعل سنان على رأس طليعته وفيها جنود من أروبا. وتبعه ببقية لجيش يوما بعد آخر.

ووصل بهاته التعبئة الى مطير على فرسخين من القاهرة وفيها يوجد ذلك البستان الجميل الذي يوجد به شجر البلسم وهو شجيرة تبلغ ثلاثة أقدام علوا، وأعصانها تشبه تعرشات الكرم، ولها نفس اللون، واوراقها شبيهة بأوراق الفيجن. إلا أنها أكثر بياضا، وهي مخضرة طوال السنة ولا يصيبها سقوط، وحبتها حمراء. والذين يزرعون هاته الشجرة، يشرحون أغصانها في وقت معين بسكين من العاج أو الزجاج، لأن الحديد قد يتسبب في يبسها، ويسيل الدواء الموجود بها في أوان موضوعة من تحت، وهذا السائل صاف كزيت الزيتون الأصيل. وتنبعث منه رائحة قوية، ولكنها طيبة، حتى انها تدوخ من يقترب منها، وأجود المحصول يترك للسلطان الأعظم، والباقي يروج في التجارة. ويقال انه لا يوجد مثلها في مكان آخر. ولكن من المؤكد أن الذوات الكبار يمتلكون هاته الأشجار في القاهرة.

وكان السلطان على علم بقرار العاهل التركي في الهجوم وبكون الملك الصفوي ظل واقفا على حدود الفرس دون أن يتقدم للالتحاق به. فجمع اثني

عشر ألفا من المماليك ومعهم عدد كبير من العرب. وجاء ينتظر العدو في مطرية التي حصنها وصوب بعض المدافع الحديدية الرديئة نحو الجهة التي كان من المنتظر أن يأتي منها الأتراك وأمر بحفر خنادق كبيرة مغطاة بالعشب وحفائر في الممرات وغير ذلك من الحيل. وكان سليم قد بلغه العلم بذلك من لدن الجنود الفارين، بحيث انه جاء من مكان آخر. ورأى السلطان ان كل هاته الوسائل باتت باطلة. فقرر أن يدخل في المعركة. وقسم جيشه الى ثلاثة فيالق فجعل منها واحدا تحت قيادة سنان باشا وآخر تحت قيادة ديودور الكبير لمواجهة حاكم الأناضول وتوجه بقوة مع بقية الجيش لمحاربة السلطان الأعظم.

وجرت المعركة في سنة ألف وخمسمائة وسبعة عشر في يوم رابع يناير. وكانت دامية جدا. وقتل فيها سنان باشا مع عدة من الأتراك الشجعان. وكان الحظ يسير مع المماليك لولا أن سليم شجع الانكشارية ودفعهم الى القيام بقذفات جاءت في وقتها وتكررت، مما جعل الكثير من الأعداء يقتلون والبقية منهم لاذوا بالفرار في الوقت الذي كادوا فيه أن يهتفوا بانتصارهم. وأخذ ديودور وبيلو من الرؤساء المجروحين أثناء تبادل النيران. وأمر سليم بذبحهما، انتقاما لصاحبه سنان باشا. وانكفأ السلطان وغزال نحو القاهرة مع فلول الهزيمة، وخيموا بين المدينة والنيل ليجمعوا كل قواهما، وجاء اليه الجنود الذين كانوا في المدينة وفي الحصن. فحرر ستة آلاف من المماليك ليشجعهم على الدفاع. ووضع الحواجز في الأزقة ودعم جدران البيوت بالتراب. وأمر السكان بالهروب خوفا من النهب، ثم وجه الى الملك الصفوي ليلزمه بالتقدم وتطويق العدو. ولم يشأ أن يغامر وحده في القتال، ولذلك اختار ليلا حالكا ليهاجم معسكر الأتراك، ولكن هؤلاء علموا بالخبر من بعض المخبرين، كما يجري عادة في مثل هذه اللقاءات، وبعد أن هيأوا مدفعيتهم وكل ما كان ضروريا للدفاع عن المعسكر، أشعلوا كثيرا من النيران حتى أصبح كل شيء يرى كما لو كان النهار.

ووصل المماليك في الوقت الذي عولوا عليه. ولما رأوا الأعداء على احتراز منهم، رجعوا الى القاهرة حيث أقفلوا عليهم وكأنهم في آخر ملجأ لهم. وفهم سليمان بأن العدو يتهرب من القتال، فقرر أن يسيطر عليه بالقوة، وبعد أربعة أيام، دفع بالباشا يونس ومعه الخيالة والمشاة وعشرون قطعة من المدفعية ليضرب احدى الأبواب، فوجد دفاعا ضعيفا لأنها لم تكن محمية الا من لدن السكان، ولما وصلوا الى الأزقة والبيوت حيث اختبأ المماليك، استمر القتال طوال يومين

وليلتين، برغم كون سليم حضر مع بقية الجيس. ولما سيطر الأتراك على معظم المدينة، اضطر بعض المماليك كانوا قد التجأوا الى الجامع الأعظم، أن يستسلموا لنفاذ الأقوات لديهم، ولكنه أمر بذبحهم بعد ذلك. ولما رأى السلطان أن الأتراك أصبحوا سادة على المكان، اجتاز النيل مع من استطاع أن يتبعه ليرمم جيشه ويحاول مرة ثالثة أن ينشد الحظ، وجمع حوله كل المماليك والعرب في منطقة الجيزة حيث توجد الأهرام المشهورة التي بناها الفراعنة لتكون قبورا لهم، ومنها واحد مربع ويزن الفا ومائتي خطوة في دائرته. ويضيف شيئا فشيئا في اتجاهه الى القمة.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان يرمم قواته ليطرد السلطان من عاصمته كان غزال الذي ذهب بأمر منه الى مصر العليا ليستنفر الجنود هنالك، قد رجع بعدد من الفرسان والمشاة. ولما وجد الأتراك مسيطرين على المدينة والسلطان ملتجئا الى الضفة الأخرى من النهر وهو عاجز عن استرجاعها، انقلب مع تقلب الزمان باشارة من ضباطه وجنوده وجاء يعرض خدمته على سليم ويقبل رجله ويده. واستقبله سليم بترحاب، ووعده بأن يستخدمه هو وأصحابه الذين منحهم أجورا جيدة وجعل من غزال أحد قواد جيشه وبينما كان سليم بالقاهرة، حشد السلطان أكثر ما يمكن من الجنود، وقرر أن يهاجمه بقصد الانتصار عليه ولكن أحد رجاله غدر به، وأعلم بذلك السلطان الأعظم. فوضع عدة سفن في احدى الضواحي ليذهب للقائه، وأمر بحبس كل السكان المشبوه في اخلاصهم، ولما تأكد من كل ما ترك وراءه، أمر مصطفي باشا باجتياز النهر على رأس جنود آسيا وعدد من المدافع.

وعلم السلطان بذلك، فأراد أن يضع حدا لتلك الحرب بسبب عدم اطمئنانه الى ما لديه من قوات، فخرج من معسكره في بداية الليل ومعه أربعة آلاف من الفرسان ومثلها من المشاة واقترب من معسكر الباشا دون أن يرى. فباغث الأتراك بهجوم قوي، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم، وكان أن يتم الهزيمة عليهم لولا أن الباشا أعلم بذلك السلطان الأعظم الذي وجه اليه الانكشارية. ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يردوا الخطر لازدحامهم عند المرور فوق الجسر، ولكن كانوغلي وهو أحد أبناء ملوك التتار وصهر لسليم ارتمى في ماء النهر مع خيالته واجتازه سابحا وأنجد الباشا. ومنح الفرصة للأتراك كي يسترجعوا مركزهم، ورأى السلطان أنه عاجز عن الصمود طويلا أمام قوات خصمه، وبعد أن أظهر شخصيا أفانين من الشجاعة في المعركة الأخيرة، انسحب مع الذين

أرادوا اتباعه وسار في طريق افريقيا وابتعد بمسافة ثلاثة أيام وجاء الى قرية سكوفة حيث اعتقد أنه سيظل آمنا، ولكن سليم كان على يقين انه لم يحصل على شيء ما دام خصمه على قيد الحياة، فأمر كوكبة من الفرسان باقتفاء أثره والرجوع به حيا أو ميتا، وبما أن كثيرا من رجاله قتلوا أو أسروا، فقد فر داخل سبخة وهو متنكر في ثوب رث، ولكن السكان أمروا بالبحث عنه وتلقوا وعودا بالمكافأة.

فألقي عليه القبض وهو مختف في الماء الى العنق وأخذه قايتباي، حاكم حلب وأتى به الى سليم. وألحقت به صنوف العذاب ليبين أين أقبرت كنوز الغوري سلفه، ولكنه لم يقل شيئا ولم يشتك مما لحق به من تعذيب. وفي الغد، حمل على ظهر بغل مع حبل في عنقه وطيف به في القاهرة وعلقت رأسه في الباب التي وقع منها الدخول. وتذمر كثير من الناس من سليم لما صدر منه من معاملة جد قاسية. ولكنه أجاب على ذلك بأنه أراد أن ينتقم لسفرائه الذين قتلهم المماليك لما وجههم في سبيل الحصول على تفاهم. وكان مصرع طومان باي نهاية لعهد المماليك وتلاه مقتل كل الأسارى، وفي الحين، قام الاسكندريون بذبح حاميتهم ووجه لهم الانكشارية الذين أصبحوا سادة في كل البلاد الواقعة بين النيل وليبيا، وأصبح الأمراء المجاورون الذين كانوا خاضعين للسلطان من أتباع السلطان الأعظم، وهكذا أصبح الأتراك بفضل ذلك سادة على بحر مصر من سوريا وكرمانيا الى القسطنطينية. وهي مسافة جد طويلة حيث توجد عدة موانىء وعدة مدن جميلة.

وبعد أن أصدر سليم الأمر بالقيام بكل ما هو ضروري لضمان الأمن في المنطقة الجديدة التي قام بفتحها، أخذ على ظهر السفن خمسمائة من أعيان سكان القاهرة ووجههم الى القسطنطينية مع أكبر عدد من نساء المماليك وأولادهم، وترك حكومة القاهرة في يد حاكم حلب الذي خان سيده وحكومة دمشق، غزال، ووضع جيشه في مواجهة الصفويين بكرمانيا، قريبا من جبل طوروس. واجتاز بامفيليا والأناضول وأبحر مع جنود اروبا وانتقل الى القسطنطينية حيث استقبل بأفراح كبيرة.

ولننتقل الأن الى وصف مدن مصر (2)

(2) هنالك في هذا الفصل بعض أسماء الأعلام التي لم نتمكن من التعرف على أصلها العربي، فأوردناها كما قدمها المؤلف. (مترجم)

الفصل الثالث عشر

بوصير

انها مدينة قديمة جدا على الساحل. وهي بعيدة من الاسكندرية في اتجاه الشرق بمسافة سبعة فراسخ. وهي الأولى التي يصادفها المتجول عند خروجه من صحاري برقة، والظاهر عليها انها بنيت وحصنت بأسوار جيدة. وكانت محاطة بكثل من النخيل ولكنها الآن مهجورة، ذلك انه لما انتزع «المريك» ملك القدس، الأسكندرية من يد الأتراك ومعه سلطان مصر، فإن السكان. هجروا المدينة وفروا نحو بحيرة البحيرة، ورغم أن البعض منهم رجعوا منذ ذلك الحين، فانهم لم يمكثوا بها طويلا.

الفصل الرابع عشر

الاسكندرية

إنها مدينة بنيت في عهد الأسكندر على يد بطليموس ابن لاكوس، حاكم مصر. وقد بنيت في عهد هذا الملك الكبير ثلاث مدن تحمل نفس الاسم. احداها على ضفة تنابس(1)، والأخرى بالهند، والثالثة، بمصر. وكلها بنيت بأمر منه.

ولكن هذه هي أشهرها. وحدد موقعها من لدن الرياضي ديموقريط. ومن ثم استنتج أن عددا من كبار المهندسين شاركوا في بنائها. وهي واقعة في سهل جميل على حد من الأرض داخل في البحر في غرب وادي النيل. وما زالت أطلال البناية الكبرى تشاهد، لأنها كانت هي عاصمة ملوك مصر في عهد البطالسة. ولهذا، فقد أدركت سمعة كبيرة كمدينة، سواء بسبب حصانتها أو جمالها أو تجارتها. واحتفظت بتلك السمعة حتى بعد انحطاطها حينما استولى عليها خلفاء محمد(2). ومنذ ذلك العهد عرفت تراجعا لأن تجارتها مع أروبا نقصت ونقص عدد سكانها ولكن أحد هؤلاء الخلفاء أظهر تسامحا كبيرا. فأعاد اليها السكان في ظرف وجيز، لأن الناس كلهم جاءوا اليها بقصد الربح. فأمر ببناء دور في أبراج أسوار المدينة

(1) ليست هي تنايس الحقيقية.

(2) مثال من تحامل المترجم (مترجم).

لايواء الحجاج مع عدد من المدارس والزوايا لرجال الدين أو للطلبة القاصدين الدراسة.

وهي مربعة الشكل وذات أربعة أبواب احداها تجاه الشرق نحو النيل، والأخرى تجاه الجنوب نحو البحيرة، والثالثة في الغرب تنظر الى صحاري برقة، والرابعة من جهة البحر حيث يوجد الميناء. وهنالك يقوم الحرس ورجال الجمرك. لأنه لا بد من أداء نسبة مئوية على البضاعة وعلى المالك نفسه الذي يأتي عن طريق البحر. وما زالت هنالك بابان آخران من جهة البحر وهما منفصلان عن المدينة بطرف من السور وبرج نحو ميناء مرفأ حيث تصل المراكب الكبرى المشحونة بالبضائع الثقيلة من البندقية وجنوة وإسبانيا وانجلترا وحتى من اليونان وتركيا لأنه ميناء جيد. ولكن ما يأتي من ايطاليا هو أكثر من غيره. وهنالك مرسى آخر يسمى مرفأ السلسلة الذي تأتي اليه مراكب تونس وكل ما يأتي من شواطىء المغرب. وتؤدي بضائع النصارى عشرة في المائة عند الدخول أو عند الخروج. أما بضائع المسلمين فإنها لا تؤدي الا النصف وأما التي يؤتي بها برا من الاسكندرية الى القاهرة، فلا تؤدي شيئا.

وبين هذين المرفأين، يوجد حيز لا يتعدى مائة خطوة هو على شكل مون. وهنالك جرت معركة بين قيصر والسكان. ولما رأى نفسه مستعجلا، لرتمى في أحد القوارب ومن هنالك نحو البحر إذ رأى أنها على وشك الغرق في العمق فسبح مائتي خطوة، وهو يحمل ألواحه في احدى يديه، خوفا من أن يصيبها البلل وفي نهاية هذا المون أقام بطليموس فيلادلف برج المنار الذي كان في أعلاه منارة تضيء ليلا للسفن الواصلة، لأن مدخل الميناء صعب جدا. وبما أن التجارة قد انتهت، فإن الأسكندرية لم تعد الآن شيئا كبيرا. فلا يوجد فيها الا شارع طويل وجميل يقطعها من طرف الشرق الى طرف الغرب، وحي قريب من البحر، حيث توجد المتاجر والدكاكين وعدد من اليهود الذين يقطنون خارج الأسوار. أما بقية المدينة فهي مهجورة. فقد وقع تخريبها بعد فكاك الملك سان لويس من لدن ملك قبرص والبندقيين مصحوبين ببعض المراكب الفرنسية. فاستولوا على المدينة ونهبوها ولما رأوا أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها، خربوا تحصيناتها وأوقدوا فيها النيران.

وبنى بعد ذلك السلطان الأسوار بقدر المستطاع وشيد حصنا في الميناء مجتهدا في بنائه بالتدريج. ويوجد في المدينة ربوة عالية شبيهة بربوة تسطاس في روما، تشاهد فيها عدة جرار قديمة. ويظهر أنها ليست من صنع الطبيعة. بل من نتاج

الفن وفي الأعلى يوجد برج صغير للحراسة لمشاهدة السفن القادمة من بعيد وهذه الحراسة لها حقوق على كل السفن التي تكشف عنها. ولكنها تتعرض للعقاب إذا لم تقم بذلك الواجب وكأن المدينة مجوفة كلها ومبنية على أحواض غير مقوسة. وماء النيل يدخل اليه، إذ على بعد أربعة فراسخ من هنالك، في جهة الشرق يمر الذراع الهرقلي أو ذراع رشيد. وإذا ارتفع النيل، يدخل الماء بواسطة قنطرة الى المدينة من تحت الأسوار. وتفتح تلك القنطرة في اليوم الأول من أغسطس وتقام أفراح كبيرة وتطلق المدافع، ومن هنالك يوزع الماء في صهاريج الخواص التي هي كبيرة ومتعددة، بحيث أنها لما تمتلىء يكون فيها من الماء ما يكفي للشرب طول السنة بأكملها وكذلك لخدمة البيت. لكن بما أن تلك الصهاريج قديمة وملأى بالوحل، فإن ماءها نتن ويتسبب في أمراض بالصيف وتأتي القنطرة بالماء من فوق رشيد ولا تسيل بالماء الا مدة ثمانية أيام في السنة حينما تصعد المياه ويكون الفيضان في منتهاه. فإذا انحسرت المياه فإن القنطرة تجف.

إن موقع الاسكندرية جميل فوق رمل رقيق. وهي محاطة بأسوار جميلة تتخللها أبراج فيها بيوت جيدة وفي غربها توجد صحراء برقة الجافة القاحلة لأن ماء النيل لا يمكن أن يصعد اليها. وفي الشرق، توجد قناة الرشيد. وفي الجنوب بحيرة مريوط التي لا تبعد عنها الا بفرسخ. ولا يوجد حواليها لا شجر ولا كرم ولا أرض صالحة للحراثة. ويحمل اليها الزرع من أربعة عشرة فرسخا، وتوجد حديقة محاذية للقنطرة، ولكن فاكهتها غير صالحة وتتسبب في المرض. وعلى فرسخين من الأسكندرية في جهة الغرب تشاهدأبنية قديمة وفيها عمود شاهق بصورة تتجاوز المعتاد. ويقول العرب إن البطالسة هم الذين بنوه لحماية المدينة ويضيفون انه كانت توجد به مرآة سحرية من الفولاذ، وأنها كانت من القوة ما يجعلها إذا كشف عنها تحرق كل السفن المارة ولكن لما استولى العرب على تلك الديار، كسروها ورفعوا العمود من هنالك. وهي خرافة اختلقوها مع غيرها من الخرافات ليشهروا فتحهم لتلك البلاد. فالعمود يشبه مسلة القديس بطرس بروما وهو عال الى درجة انه يترك ذيلا من سبعة وأربعين خطوة عند الزوال ويسميها اليونان مسلة «بومبيوس»! وفي أعلاها برميل كبير على شكل كرة مدورة، يظهر أنها كانت مدفنا لأحد الرومانيين. وأما برج المنار الذي بناه بطليموس، فهو الذي يوجد في الميناء ويوجد في المدينة السجن والقديسة كاترينا والعمودان اللذان كانت فيهما عجلة المحالق والسجن صغير جدا ومفتاحه يوجد لدى أحد المسيحيين. ويفتحه لمن شاء مقابل

صدقة تقدم له، وأن جدران هذا السجن ملأى بأسماء الذين دخلوا اليه وسيكتب فيه اسمي. وفي وسط الطريق، توجد حجرة مدورة ومرصعة باليشب وفي وسطها ثقب كما يوجد بالضبط في حجر الرحى ويزن قطرها أربعة أشبار. وقد قال لي السكان لما كنت هناك(3) أن رأس القديس ماركوس قطع في ذلك المكان، لأنه أقام بالاسكندرية وزاول فيها تعليم الانجيل، ولذلك وضعت هنالك بطاريكية ومنذ ذاك العهد تكاثر رجال الدين حتى إن الرهبان والشهداء والزهاد يتجارز عددهم عدد السكان واستقرت هنالك هرطقة البطريك يعقوب ومن ثم سمي أتباعه اليعقوبيين ونصارى الحزام لأنهم كانوا يختنون. ولم تكن لهم الا كنيسة واحدة، وهي التي كان بها جثمان القديس مرقس الذي أخذه البندقيون سرا وحملوه الى البندقية واتخذوا منه قديسهم.

وأكثر هؤلاء اليعاقبة صناع أو تجار. وهم متعصبون لهرطقتهم. وفي وسط المدينة بين أطلالها يوجد بيت شبيه بالمصلى يوجد به قبر يعظمه المسلمون إذ يقولون ان الأسكندر الأكبر مدفون به. وهم يعظمونه كملك ونبي ويوجد عندهم مذكور في القرآن ويأتي اليه الناس متبركين من جهات بعيدة.

ويوجد كذلك بطرف المدينة فرن مات فيه، على ما يقال، يعقوب المنصور وهو يقوم بصنع الخبز. ويتهافت الناس عليه بكثرة من كل جهة.. وأطلعنا أحد الرهبان المصريين على المكان الذي كان فيه أثناء ازدهار الأسكندرية تعلم العلوم التي طالما حفلت بها تلك المدينة عند ما كانت مركزا لتعليم الآداب الاغريقية فكانت تدرس بها الفلسفة وعلم الفلك. وكان بها علماء كبار. وإذا كان التعليم في البداية يجري بحروف هيروغليفية أخذت عن الاثيوبيين الذين حكموا مصر، فإن السبب في ذلك كان هو أنهم لم يكونوا يرغبون في أن تكون تلك العلوم مشاعة بين سائر الناس كما هو شأن القابلين مع العبرانيين والخوس مع الفرس والكلدانيين في أشوريا والبرهمانيين في الهند والجيمنوفستيين بإثيوبيا والفلاسفة الأولين باليونان، والدرويديين في غالبا، إذ كانوا كلهم يعلمون مذهبهم بالرموز.

وهنالك تعلم هوميورس وأورفيوس وهينوبيلوس وفيثاغوراس وديموقريطوس وأفلاطون الذين حملوا الفلسفة الى اليونان. وتوجد الأسكندرية على بعد أربعة أيام من القاهرة واليها كانت تأتي التوابل من الهند والبضائع النفيسة من جزيرة العرب

(3) 1546.

السعيدة، حيث كانت تنزل في مرسى عيذاب على البحر الأحمر وتحمل على ظهر الجمال الى القاهرة. وعن طريق النيل تصل الى الأسكندرية التي كان يتوافد عليها التجار من كل جهة ولكن منذ أن اكتشف البرتغاليون طريق الهند عبر المحيط، عرفت التجارة النقصان بها. وللسلطان الأعظم بعض الكاليرات في هذا المرسى لحماية الشاطىء. وتوجد حامية تركية بالمدينة التي توجد في بعد ستين درجة وثلاثمائة دقيقة وعرض درجة وثماني دقائق، حسب بطليموس.

الفصل الخامس عشر
أبو قير في أراضي الريف

إنها مدينة قديمة على شاطىء البحر وتبعد بثلاثة فراسخ عن الأسكندرية من جهة الشرق. وهي الآن خراب ولم يبق منها الا الحيطان في بعض الأماكن شاهدة على أنها لم تكن مدينة كبيرة. وأظن أنها هي التي يسميها بطليموس كانوب، ويجعلها في طول ستين درجة وخمس وخمسين دقيقة، وعرض احدى وثلاثين درجة وست دقائق.

ويشاهد حواليها بعض الأراضي التي يزرعها أناس فقراء يسكنون في أخصاص بين النخيل والشاطىء وعرجدا. وتتكسر عليه عدد من السفن ليلا وهي قادمة من سوريا. ويوجد هنالك برج يتخذ منه الأتراك مخزنا لهم وبعض الجنود كحامية. وأما ما يحيط بها من اراض فليس الا صحراء من الرمال متصلة الى النيل.

الفصل السادس عشر
رشيد

انها على ذراع من النيل من جهة الشرق وتبعد عن البحر بفرسخ وكذلك عن مصب النهر الذي يسمى هيراكليوتيك. والبعض يسمونه رشيد. وآخرون يظنون بأنه كانوب وعن طريق ذلك المصب، تدخل مراكب من سبعين الى ثمانين برميل محملة بالبضائع التي تقاد من هنالك على متن القوارب الى القاهرة التي لا توجد الا على بعد عشرين فرسخا، ويذكر المؤرخون العرب أنها من بناء رشيد وهو أحد قواد خليفة مصر الذي سماها باسمه. ولم تكن من قبل الا مسكنا صغيرا تسمى القبط. وتوجد بها ثلاثة آلاف دار مبنية بأحسن بناء وفيها قصور على طول النهر وساحة محاطة بالدكاكين وصناع وتجار مع مسجد جميل واقع بين الساحة والنهر.

وأمام أبواب المسجد، يوجد ميناء تقف فيه الزوارق وغيرها من المراكب التي تحمل البضائع الى القاهرة. وينزل اليها من أبراج كبيرة وهي غير مسدودة بجدران وحواليها عدد من الأهراء يبدو فيها الأرز بأدوات من الخشب. وتوجد بهذا البلد كميات كبيرة منه حتى أنه يمكن أن يدرس منها في الشهر الواحد ثلاثة آلاف صاع. وفي جهة من المدينة، توجد قرية تستأجر فيها الدواب لحمل الأثقال الى الأسكندرية لأنه لا توجد أي تجارة أخرى بذلك المكان. ويمكن السير على جانب الشاطىء بسرعة كبيرة حتى إن أربعة عشر فرسخا ليست مسافة كبيرة، ولو كان الانسان يمر أحيانا فوق الماء.

وموارد المنطقة تتكون من الأرز والتمر مع عدد من البساتين والحقول حيث تنبت هنالك أجود أنواع الرمان التي تباع بالاسكندرية وبغيرها والسكان مؤدبون، ولكنهم أصحاب ملذات. ولهم حمام كبير يتلاعبون فيه وهو أجمل ما يوجد بمصر. وتوجد المدينة على بعد سبعة فراسخ من الأسكندرية وهي في كل تلك الطريق ذات رمل ولا يوجد بها ماء صالح للشرب. ولا يصادف فيها الا ملاحات وتشاهد من وقت لآخر قباب فيها جرار ملأى بالماء تحمل في العربات لخدمة المسافرين، إذ توجد أوقات مخصصة لذلك وأموال رصدت لذلك بوصية، تبعا لتقاليد العرب، الذين يسمون ذلك صدقة. وعلى البعد من رشيد على طول الساحل توجد بعض المراكز سنتحدث عنها بعد أن نساير الشاطىء[1].

الفصل السابع عشر
أنشيوس

هذه المدينة التي كانت تسمى أنتدون فيما سبق، جميلة جدا. وقد بناها الرومان على ضفاف النيل من جهة الشرق. وتشاهد بها طاولات من الجبص وعليها نقوش لاتينية ويوجد بها عدد من التجار والصناع من أصناف أبناء الشعب ويجرى بها نشاط تجاري كبير. ويجنى من ضواحيها مقادير كبيرة من الخضر والأرز والقمح والشعير. ويملك السكان حقولا من النخيل وهم يتصفون باللين والوداعة ويعيشون من كد يدهم دون أن يسيئوا لأحد ويذهبون لبيع أرزهم الى القاهرة.

(1) دمياط، منية، بلطين.

وتلك هي تجارتهم الكبيرة. وتقع هاته المدينة، حسب بطليموس، على بعد أربعة وستين درجة وخمسين دقيقة طولا، وعلى احدى وثلاثين درجة وأربعين دقيقة عرضا.

الفصل الثامن عشر
فرنفال

إنها مدينة قديمة على ضفاف النيل في الشرق. وقد أسست في بداية عهد المسيحية بمصر. والكان جميل جدا والمنطقة غنية بالقمح والأرز الذي يكون موردها الأساسي. وبالمدينة أكثر من أربعمائة بيت يدرس فيها الأرز. وأكثر سكانها أجانب عن الأقليم. وأصلهم من بلاد المغرب. وهم أصحاب رذيلة وفجور الا أن حديثهم لا يخلو من حلاوة.

الفصل التاسع عشر
طيبة

انها مدينة قديمة جدا على ضفاف النيل من جهة الغرب. ولكن ليس هنالك اتفاق فيما يخص تأسيسها فالبعض يقولون انها من بناء اليونان، وآخرون يذكرون الرومان الذين لم يظهروا الا بعد زمان طويل، بحيث ان الرأي الأصوب هو نسبة بنائها للمصريين. الا أننا نشاهد فيها، في أطلالها، كتابات باللغات الثلاث. كانت المدينة كبيرة جدا لكن معظمها أصابه التخريب، وما بقي من بيوتها جميلة والأرض المحيطة بها منتجة للقمح والشعير والأرز والسكر وغيرها من المزوعات ولكنها تنتج بالخصوص فاكهة تسمى الموز. ويوجد بها عدد من التجار والصناع. أما الآخرون، فهم فلاحون ورعاة وفي الغالب، هم أناس وادعون ومؤدبون. ونساؤهم ذوات كلام طيب.

وهي محاطة بنخيل كثيف، بحيث لا يمكن اكتشلفها الا بعد الدخول اليها. وهي مزانة بعدد من الحدائق فيها عرائش الكروم والتين والخوخ وغيرها من للأشجار ذوات الثمار التي تباع غلتها بالقاهرة. وتشاهد في كل مكان أطلال شامخة وأعمدة من الحجر مع أطراف من الجدران دالة على ما عرفته المدينة من صعود. وها هوميروس يتحدث عنها في الالياذة ويذكر أنها كانت تشتمل على مائة باب

ويخرج من كل واحدة منها مائتان من الحرس. وكانت في الزمان القديم عاصمة ملوك مصر. وهو الذي انتقل بعد ذلك الى ممفيس، وأخيرا الى الأسكندرية وهذه البلدة هي أحد الاقليمين المنسوبين لطيبة أحدهما هو الذي يسميه بطليموس «ليكوبولى» وعاصمته أخذت اسم الاقليم ويضع بطليموس مدينة ليكوبولى على مسافة واحد وستين درجة وستة وأربعين دقيقة طولا، وثماني وعشرين درجة عرضا، على ضفة النيل الغربية والاقليم الآخر المنسوب لطيبة يوجد في الضفة الأخرى للنهر ويسمي بطليموس عاصمته «ديوسبوليس»، أو مدينة (جوبيتر) ويجعل موقعها على طول اثنتين وستين درجة وعرض خمسة وعشرين ولكنها، على ما يترأى لي تعني موقع سينا.

الفصل العشرون

فـوة

انها مدينة قديمة بناها المصريون أنفسهم على ضفة النيل على بعد خمسة عشر فرسخا من القاهرة واثنى عشر من رشيد مع الاتجاه نحو الجنوب. انها آهلة جدا بالسكان. وتضم عددا من البيوت الجميلة من جهة النهر، التي تبرز منها الشرفات التي تطل عليه. وكذلك السطوح وشبابيك الحديد. وسكانها مسلمون حضريون أو فلاحون. وهم أناس أغنياء يتوفرون على كثير من الخيرات المتنوعة ومن بينهم عدد من التجار والصناع من كل الأصناف. وهم أناس وادعون ومؤدبون يميلون الى الراحة ولا يسيئون لأحد. ولكنهم أصحاب ملذات ويبالغون في ذلك. والنساء يتمتعن بكثير من الحرية حتى انهن يتجولن طوال النهار أين شئن ويرجعن في الليل الى بيوتهن دون أن يغضب رجالهن لذلك. وأما النساء المومسات فلهن حي خاص بهن في الضاحية ولكن الأخريات لا يعطين هن أيضا، المثال الحسن، وتوجد عدة حقول من النخيل حول المدينة ومزارع من قصب السكر ومنها تحمل الى كل جهات مصر بقصد البيع إذ لا يوجد بها كثير من العسل. وتجاه المدينة في وسط النهر جزيرة يسميها العرب جزيرة الذهب. وهنالك يملكون بيوتا للنزهة وفيها حدائق مشتملة على عدد من أشجار الفواكه والنخيل وقصب السكر والأرز الذي يحمل الى القاهرة بقصد البيع.

الفصل الواحد والعشرون

المحلة

انها مدينة بناها خلفاء محمد على ضفة النيل من جهة الشرق وسورها غير جيد ولكنها آهلة بالسكان. وفيها عدد من النساجين والفلاحين. والبلاد المجاورة خصبة بالزرع والشعير والكتان وفي المنطقة يوجد عدد كبير من الأرز الذي يحمل حيّا أو مملحا الى القاهرة. ولا يوجد بها تجار. ولذلك لا يزورها الأجانب.

الفصل الثاني والعشرون

ديروط

انها مدينة غنية مشهورة وغنية بناها أحد القناصل الرومان على ضفة النيل في اتجاه الغرب وهي آهلة ومشتملة على عدد من البيوت المبنية بإحكام والمرتبة بأحسن وضع. ولم يبق تقريبا شيء من أسوارها ولهلا ضواح كبيرة يوجد بها عدد من التجار. وسكانها من أغنى سكان مصر بسبب الاتجار في السكر الذي يجرى بطريقة مكثفة، حتى ان السلطان يجلب من جبايتها كل سنة مائة ألف من دنانير الذهب. وبها طاحونة مبنية على شكل قلعة حيث يعالج ويكرر. وهنالك عدد من ناس يشتغلون بزراعة القصب وتكرير السكر. ويجنى بالاضافة الى ذلك. في نفس المكان، مقادير كبيرة من القمح والشعير وتوجد به كثرة من الفواكه والدواب. مما يجعل المدينة مزودة بكل الأشياء.

الفصل الثالث والعشرون

محلة قيس

انها مدينة بناها خلفاء محمد على ربوة عالية واقعة على ضفة النيل من جهة الغرب. وبما أن فيضانات النهر لا تصل الى ذلك المكان فهو مغروس بالكرم الذي يزود القاهرة بالعنب الطري في فصل من السنة. وهذا هو، تقريبا، كل ما يشتغل به السكان، الذين ليست لهم أرض يتوسعون فيها. وأكثرهم أصحاب مراكب يتحركون على طول النهر.

الفصل الرابع والعشرون
ممفيس القديمة

هذه المدينة التي كانت عاصمة للفراعنة هي اليوم خراب. كانت تقع على قنال النيل المتجه الى الغرب على بعد سبعة عشر فرسخا من القاهرة في اتجاه الجنوب. ويشاهد قرب أطلالها الأهرام من الجهة المقابلة لافريقيا. وفيها كان مقر الفراعنة في عصر موسى وأسر بني إسرائيل. ويوجد بناء قديم في المكان الذي يلتقي فيه ذراعا النيل ويسمى ضريح يوسف. ولكني أظن أنه معبد لفولكان. وأما قبر بومبيوس سالم فهو على بعد فرسخين من الأسكندرية من جهة الغرب، حيث تشاهد هنالك مسلة عالية جدا شبيهة بتلك التي توجد في كنيسة القديس بطرس بروما. ويؤكد اليونان أن الأمبراطور أدريان هو الذي زخرف ذلك القبر الذي توجد حوله أطلال كبيرة يقال عنها انها من بقايا معبد جوبيتر وأن مدينة ممفيس بنيت في عهد يوسف من لدن أحد الفراعنة.

الفصل الخامس والعشرون
القاهرة العظمى وما فيها مما يستحق الذكر

ان القاهرة من أعظم مدن الدنيا وسنخصص لها وصفا خاصا حتى نصحح ما يروج عنها من أساطير. فقد بناها أحد المرتدين من الصقالبة(1) الذي كان في خدمة الخليفة القائم. فبدأ بقلعة وحي ممتد على شكل قرية كبيرة(2) على ضفاف النيل. وهذا أقدم ما يوجد بالقاهرة ويشتمل على ستة آلاف بيت مبنية بناء حسنا، مع قصور فخمة مطلة على النهر ومسجد عظيم بهندسته وجماله وضخامته وقوته. وهو مسجد مشهور جدا عند المسلمين بسبب أقدميته وضريح السيدة نفيسة بنت زين العابدين الموجود به. ويذكر العرب أن هذه السيدة حفيدة لمحمد وكانت تسكن بمدينة الكوفة في جزيرة العرب السعيدة(3) وأنها لما قام النزاع

(1) يعني القائد جوهر الصقلي. ولكن المصادر لا تذكر انه كان مسيحيا ثم أسلم. ونسبته الى صقلية هي كنسبة عدد من المسلمين الذين استوطنوا هذا البلد. ونحن نشعر بأن المؤلف يريد بهاته الاشارة أن ينتقص، مرة أخرى، من قيمة المسلمين. فكأنه يريد أن يقول إن فتح مصر ما كان ليتم لولا تدخل أحد المرتدين من النصرانية !(مترجم)

(2) مصر العتيقة.

(3) بين القصرين.

الكبير بين الخلفاء ورأت أسرتها مبعدة من السلطان، جاءت يائسة الى القاهرة حيث استقبلت أحسن استقبال ولقيت من التبجيل كولية، لأنها كانت مشهورة بصدقها وأمانتها وترتفع بنسبها الى محمد. ويذكرون انه بعد موتها في عهد الخلفاء الشيعيين من بيت علي، بني لها هذا الضريح الذي نال من الشهرة ما يجعله أكثر شيء تقديسا لدى المسلمين. فهم يضعون فيه دائما قناديل الفضة وزرابي الحرير مع عدد كبير من الهدايا التي يقدمها التجار والزوار الذين يأتون اليه. ويؤكد فقهاء المسجد لأبناء الشعب بأن جثمان نفيسة يحدث المعجزات وهكذا يملأون الأفكار بعدد من الخرافات ليدفعوا بالناس الى المزيد من التدين حتى ينالوا من ذلك صدقات أكبر. وتبلغ تلك الصدقات بهذا المكان من الكثرة حتى تبلغ في بعض الأحيان مائة ألف دوكا. وهي تستعمل لمكافأة الفقهاء والاحسان لآل بيت محمد ولما استولى سليم على ذلك البلد، قام الانكشارية من حراسه الذين لم يكونوا يحفلون بالدين، قاموا بنهب ذلك الضريح وأخذوا منه خمسمائة ألف دينار من الذهب مع كمية من المجوهرات وأواني الفضة ولكن سليم أعاد أكثرها الى مكانه. وفي هذه المدينة من جهة النهر، يوجد ديوان كبير توضع فيه البضائع الآتية من مصر العليا، وفي الخارج من جهة حدائق المطرية توجد قبور السلاطين الجميلة مع القباب والأقواس الكبيرة. ومن بين بيوت المدينة يمكن السير في طريق مغطاة تحت رواق يصل الى برجين ضخمين كان قونصو الغورى قد بناهما. وأمام القاهرة في وسط النيل توجد جزيرة مقياس. ومن جهة القاهرة تجاه البيوت الواقعة بضاحية باب زويلة الذي هو أحد الأبواب المهمة في المدينة توجد قلعة مهمة للسلطان حيث يستقر الحكام المعينون من لدن البابا العالي. وتوجد في سفح جبل المقطم محاطة بأسوار كبيرة وحولها قصور كبيرة وجميلة تثير اعجاب كل من يراها. وكل الأعتاب والأقواس والأعمدة والقنوات والقباب من اليشب والجبص والمرمر من مختلف الألوان وكل التلبيسات والسقوف مطلية بالذهب والأزرق.

وفي بعض هاته القصور كان يسكن السلاطين مع حاشيتهم وفي أخرى نساؤهم، وفي أخرى جواريهم، وفي أخرى الطواشيون القائمون على خدمتهم، وفي أخرى حرسهم. ومن بين تلك القصور قصور لا تستعمل الا للولائم والحفلات أو استقبال السفراء، حينما كان أولئك الأمراء يريدون أن يظهروا بمظهر الفخفخة والزينة حتى يبينوا عظمتهم وكان هنالك قصور يجتمع بها الولاة والقضاة لتداول القضايا المهمة. ولكن كل هذا أبطله سليم بعد استيلائه على المكان.

أما المدينة الأخرى التي تسمى القاهرة حسب العرب، فتشتمل على أزيد من ثمانية آلاف دار يسكن بها أناس ذو شأن وهي مسورة بجدار متين من الحجر المنجور، فهنالك توجد التجارة الرفيعة ويتوارد التجار المسيحيون والمسلمون والترك واليهود الى ثلاثة متاجر قادرة على أكثر من خمسمائة دار للواحد منها. وأكبر مسجد بالمدينة هو الذي يسمى جامع الأزهر ويحمل اسم الذي بناه. وأخيرا، فإن المدينة توجد في سهل كبير تحت اشراف جبل المقطم على بعد نصف فرسخ من النيل وأسوارها قوية وأبوابها مغطاة بصفائح كبيرة من الحديد وهي ثلاث أبواب رئيسية، باب النصر من جهة الشرق في اتجاه صحراء البحر الأحمر الثانية باب زويلة من جهة النيل والمدينة القديمة والثالثة باب الفتوح التي يذهب منها للبحيرة. وتوجد طريق كبيرة من باب زويلة الى باب النصر حيث يقطن هنالك أكثر الأسر الشريفة وتوجد المدارس الكبرى المبنية بكل اتقان وعدد من المساجد الجميلة التي تستحق اعجابنا لجمالها.

ومنها المسجد الذي بناه الحاكم، الخليفة الفاطمي الثالث، وهو الذي يتميز عن الجميع، وهنالك مساجد أخرى جميلة جدا في كل أحياء المدينة، ولكن بناء الحمامات الموجودة بكثرة تتفوق على غيرها في كثير من الأشياء على أجمل الحمامات الموجودة بالمغرب. ولكن لنبدأ من باب النصر ففي هذا الشارع يوجد جانب كله متصل من الدكاكين الشبيهة بالمطاعم، حيث يأكل المارة على قدر ماهم وتوجد هنالك كل أصناف اللحم والسمك المطبوخ في طناجير كبيرة مطلية بالقصدير الذي يلمع مثل الفضة. وقريبا من هنالك، توجد الدكاكين التي يباع فيها العصير المستخرج من كل أصناف الفواكه والذي يختزن في الزجاج أو القصدير المصقول صقلا جيدا، والذي يشرب منه ذووا الحيثيلت وفي دكاكين أخرى، توجد أصناف من المربيات واللاعوق المصنوع بالسكر أو بالعسل، ولكنه مختلف عما يوجد بأروبا.

وبعد هذا تصادف دكاكين ملأى بالفواكه المجلوبة من سوريا مثا الكمثري والتفاح والرمان وغيرها مما لا يوجد بمصر ودكاكين أخرى يباع فيها الطحين المقلى بالزيت والبيض مع الجبن. وإذا تقدمنا أبعد من ذلك نصادف شارعا متقاطعا يوجد في جانب منه عدد من الصناع المشهورين وهو قريب من مدرسة كبرى بناها قانصو الغورى وأمام هاته المدرسة يوجد السوق وفي البداية توجد تجارة

القماش القطني الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية وأخرى أقل حبكا ولكنها متينة لصنع العمائم وأقمصة السادة الكبار، وفي جهة ثانية، نصادف أقمشة ثمينة مذهبة أو من الحرير مثل الأطلس والدمشقي والطافطا والديباج والمخمل وغيرها وهي منسوجة أحسن نسيج، بحيث لا يمكن أن يوجد مثلها في مكان آخر الا بصعوبة وفي سوق آخر، يوجد تجار البندقية وفلورنسا واسبانيا وغيرها من البلدان الذين يبيعون ملف أروبا.

وفي دكاكين أخرى، باعة العباءات وثياب السرجة وغيرها من الأشياء المماثلة. الى أن نصل الى باب زويلة حيث يوجد ديوان كبير وفخم حتى أنه ليشبه أحد قصور السلطان الأعظم. وهناك يقطن تجار الفرس حيث يقومون بتجارتهم ولا يوجد هنالك الا كبار الأغنياء يتجرون في التوابل والأحجار الكريمة وثياب الهند وغيرها من الأشياء التي يستوردونها من الشرق.

وهاته الطريق تقطعها طريق أخرى يوجد بها العطارون الذيب يبيعون المسك والعنبر والغالية وغيرهما من العطور بكثرة كبيرة حتى انك إذا طلبت رطلا يقدمون لك مائة رطل. ومن الجهة الأخرى من الطريق يباع الورق المصقول. والذين يبيعونه يملكون أحجارا كريمة جيدة من التي تباع بالمزاد على يد دلال يتجول بها من دكان الى آخر الى ان يتم بيعها. وتتقاطع نفس الطريق مع أخرى يوجد بها الصياغون اليهود الذين تمر على يدهم ثروات كبيرة. وهنالك أزقة أخرى يوجد بها تجار الملابس الذين يبيعون الأثواب الجاهزة وأدوات الزينة الفاخرة للأشخاص ذوي الاعتبار.

وبنفس المدينة يوجد بيمارستان دخله مائتا ألف دينار. وقد بناه أحد السلاطين ويعالج به الجرحى وكل أصناف المرضى ويوجد به أطباء وجراحون موظفون لهذه الغاية. ولا يحتاج المريض لأي شيء ولكن البيمرستان يرث من كل المرضى الذين يموتون به هذا ما يمكن قوله عن المدينة ولنتحدث الآن عن الارباض أو القرى المجاورة. فأمام باب زويلة ربض يشتمل على أربعة عشر ألف كانون تمتد الى نصف فرسخ في اتجاه الشرق، ومن جهة الجنوب تصل الى قصر السلطان. ومن جهة الشمال تمتد على ربع فرسخ الى حي آخر. ويوجد به من ذوي الحيثيات مثل ما يوجد بالمدينة. وأكثر التجار لهم دكاكينهم في أحد هذه الأرباض وبيتهم في ربض آخر. وتوجد هنالك عدة مساجد وأديرة ومدارس. واحداها بالخصوص كلها مقبية كان السلطان حسن هو الذي بناها. فهي عالية وفخمة حتى إنه، مهما وقع من

ثورات داخل القاهرة، فإن الانسان يأمن على نفسه فيها وكأنه يوجد في القلعة التي لا توجد بعيدا منها الا بنصف قذفة من المنجنيق.

وهنالك ربض آخر يسمي جامع ابن طولون الذي يماشي باب زويلة في اتجاه الشرق ويصل الى الغرب في أطلال البنايات القديمة الموجودة بالمدينة. وهنالك ستة آلاف كانون. وأبناء البلد يؤكدون بأن المكان كان مسكونا قبل القاهرة وأن ابن طولون هو الذي بناه، وهو أحد مماليك خليفة بغداد الذي عمره بالسكان وكان واليا على مصر. ذلك أنه ترك المدينة القديمة التي كان يقطن بها وجاء ليسكن بقصر فخم أمر ببنائه في تلك الجهة مع مسجد كبير وجميل، وهنالك يوجد عدد من التجار والصناع من كل الأصناف وأكثرهم من المغرب.

وباب اللوح هو أيضا، ربض كبير يشتمل على أربعة آلاف كانون ولا يبعد عن القاهرة الا بربع فرسخ. وهنالك أصناف مختلفة من التجار والصناع وساحة كبيرة أمام قصر جميل جدا، ومدرسة رائعة كان بناها يزبك المملوك الذي كان وزير دولة لسلطان قديم. وما زال المكان يحمل اسمه. وكل جمعة بعد الصلاة يأتي أبناء القاهرة الى هنالك حيث يوجد عدد كبير من الحانات وكثير من بيوت المومسات وكثير من السحرة والبهلوانيين يرقصون الكلاب والجمل والحمير ويقدمون طيورا في الأقفاص، يأخذون المال من يد الذي يريد أن يعرف شيئا عن مستقبله : وحينما يضعه في القفص يخرج منه ورقة فيها الجواب، وآخرون يتبارزون بالعصي والسيوف وآخرون يتعاطون للمصارعة، وآخرون يصعدون على كراسي عالية ويتغنون بحروب المسلمين والعرب حينما استولى عمرو على تلك البلاد : ولكنهم يضيفون اليها كثيرا من الخرافات والأكاذيب.

وبولاق قرية كبيرة على بعد ثلاثة أرباع فرسخ من المدينة ولا يوجد بينهما الا طواحين تديرها البهائم لطحن الحبوب. وهذه الضاحية قديمة وتوجد بها خمسة آلاف بيت يوجد بها عدد كبير من التجار والصناع الذين يبيعون القمح والشعير والزيت والسكر وبها مساجد ومدارس للشباب. والبيوت التي تطل على النيل مبنية بناء جيدا ومرتبة ترتيبا حسنا وبها عدة نوافذ وشرفات تشاهد منها المراكب عند مرورها لأن القرية توجدأمام ميناء القاهرة الذي تصل اليه في اليوم الواحد ألف زورق، وخصوصا في موسم الحصاد وهنالك الديوان الذي يستقبل فيه التجار القادمون من الأسكندرية ومن دمياط فيه تقتطع حقوق السلطان. ولا يؤدون مثلما

يؤدي المصريون لأنهم حينما يصلون هنالك يكونون قد أدوا حقوق الجمرك في ميناء البحر.

والقرافة هي بمثابة مدينة صغيرة توجد على بعد قذفة حجر من جبل المقطع وثلاثة أرباع فرسخ من القاهرة وأكثر من ذلك بالنسبة للنهر. وفيها ثلاثة آلاف بيت. ولكنها في حالة خراب تقريبا، وتشاهد فيها عدة أضرحة تنسب للأولياء ويقدم لها من مراسيم التقديس مثلما يقدم قدماء المصريين لآلهتهم التي كانوا يسمونها (أنديجيت). وهي في أبنية عالية جدا قبابها مصنوعة كلها من الذهب ومن عدة ألوان بينما أرضها مغطاة بزرابي جميلة وفي كل يوم جمعة يأتي هناك صباحا عدد من سكان القاهرة وأرباضها حيث يزورونها ضريحا ضريحا ويتصدقون على الفقراء تعبدا.

هذا ما يمكن أن نقوله بحق وحقيق عن بناءات تلك المدينة التي يقصدها كل سنة الأتراك والعرب الذاهبون للحج الى مكة والمدينة حيث يوجد قبر محمد. فمحطتهم الأولى تبدأ بالسيدة نفيسة وفي بداية الربيع يذهبون مع عدد كبير من قوافل الجمال والنياق التي تحمل الماء والأقوات لاجتياز صحاري مصر والجزيرة العربية مخفورين بأربعمائة أو خمسمائة من الانكشاريين الذين يؤدى لهم الحجاج أرزاقهم، وذلك خوفا من أن يغير عليهم العرب وينهبونهم ويقضون خمسين يوما في الذهاب ومثلها في الاياب لأنهم يحسبون الأيام. ومما يزيد في شهرة القاهرة التقاء عدد من الشعوب بها وشراء الهدايا منها. ويوجه البابا العالي في كل سنة كسوة من الحرير المذهب لبيت ابراهيم، حيث يقال ان هاجر ولدت اسماعيل. ذلك أنه من عادة خلفاء مصر أن يجددوا كسوة الكعبة كل سنة.

وأول شيء يقوم به الحاج حينما يصل الى مكة هو الاغتسال من ماء بئر توجد قرب باب المسجد. ويقال ان ابراهيم هو الذي احتفره، ويعتقدون بأنهم إذا اغتسلوا منها، فإنهم يجتنبون عذاب جهنم. واحياء لتضحية اسحاق(4)، فإنهم يحملون أكباشا يذبحونها في حفلات معلومة. ومن هنالك يذهبون الى المدينة لزيارة قبر محمد ويتوقفون في مزارات أخرى يأتون منها فيما بعد بحكايات خيالية حتى أنهم يملأون الدنيا بالخرافات. ان شعب القاهرة ذو أدب مع الناس، ويعد أكثر مما

4) بل هو إسماعيل، حسب الرواية الاسلامية (مترجم).

يفي، ويشتغل بالفنون والتجارة. ولكنه لا يبتعد من بلاده حيث تمسكه عدة مغريات.

وكثير من المصريين يشتغلون بالفقه، ولكن قليل منهم بالعلوم ومع أن المدارس ملأى دائما بالطلبة. فقليل منهم من يستفيد. وهم يلبسون جيدا في الشتاء بثوب المخمل أو القطن المضلع. وفي الصيف يلبسون أقمصة رقيقة مع جبة فوقها من ثوب مخطط بالحرير والخيط وعمائم من قماش رقيق يجلب من الهند. والنساء يلبسن لباسا ثمينا ويحملن مجوهرات على جبينهن وفوق صدورهن وخيوط من الذهب مركب فيها أحجار كريمة ومن أعلاها يخرج أنبوب في طول الشبر يتدلى منه اللؤلؤ ويلبسن تنورة، أو بالأحرى، فستانا تركيا يتدلى الى القدمين وهو مصنوع من الحرير وخيوط الذهب. ولهن أجواخ ذات أكمام ضيقة مطرزة بالذهب والحرير. ولهن أخواخ بيضاء من القطن الممتاز في صنعه وهو من عدة أشكال ويسميه المصريون «ليسيا»، وعلى وجوههن لثام أسود مصنوع من الهلب أو من الشعر، وهو رقيق بحيث يسمح للمرأة أن ترى ما حولها دون أن يرى وجهها. وهن ينتعلن أخفافا صغيرة أو أحذية على النمط التركي نظيفة المنظر. وهن جميلات ولطيفات ومترفعات الى حد انهن لا يقبلن أن يشتغلن بالغزل ولا بأي شغل ولا بالطهي. فاللحوم تشترى مطبوخة عند أصحاب المطاعم والطباخين المنتشرين في كل المدينة والذين لا شغل لهم الا تلك التجارة، وقليل هن النساء اللواتي يصنعن الخبز في بيتهن إذا لم تكن أسرتهن كبيرة جدا. ولهن حرية كبيرة، فإذا ذهب أزواجهن الى دكاكينهم خرجن مزينات ومعطرات ليقمنن بزياراتهن ويتجولن. ومن عادتهن أن يركبن الحمير المجهزة خصيصا للنساء برواحل ثمينة.، وفي الغالب هنالك تجار يكرونها لهن كما هي العادة، ويتبعهن بعض الغلمان، وهن غير متعودات على المشي بحيث لا يستطعن أن يسرن ربع فرسخ على أرجلهن.

وكل أناس القاهرة، ذكورا كانوا أم إناثا، غيرأوفياء بالعهد، والنساء يذهبن لرفع قضاياهن الى القضاة إذا لم يجامعهن رجالهن في كل ليلة بحيث هنالك قدر كبير من حالات الطلاق، كما هو مسموح به فى شريعة محمد، والتجار والصناع يغلقون دكاكينهم ساعة قبل نزول الليل ويذهبون للتلهي في الأرباض، وإذا قام إحد الصناع بإنجاز رائع يلبسونه لباسا من الحرير الدمشقي ينزل الى قدميه، ويحمل حمل الاشهار والتنويه من دكان الى دكان، وكل واحد يقدم له هدية.

والمصريون غير معروفين بالشجاعة، ويحتقرهم الأتراك الى درجة أنهم لا يسمحون لهم بحمل الأسلحة ولا حتى بامتلاكها في بيوتهم، بحيث إنهم يملكون بشق الأنفس ما يقطعون به اللحم. وإذا حدث شجار بينهم، فباللكمات حيث يتجمع الناس حول المتشاجرين ولا يتركونهم حتى يجعلونهم يتبادلون القبل. واللحم المعتاد أكله في القاهرة هو لحم الجاموس، ولكن يوجد بها كثير من الخضر كما هو الشأن بأروبا. وهنالك أناس يقضون يومهم في الشارع يبيعون الفاكهة والجبن واللحم النيىء أو المطبوخ وغير ذلك من المأكولات. ويبيعون كذلك الماء في قرب محمولة على ظهر الجمال لأن النهر يبعد بثلاثة أرباع فرسخ، والبعض يحملون تلك القرب على أكتافهم مع أنبوب من الصفر في فمها وطاسات مزخرفة في اليد. ولبيع الماء في الشارع، فإنهم يتقاضون عن كل شربة دوبلين. وآخرون يبيعون الدجاج بالمدينة، يبيعونه بالوزن لا بالواحدة.

ويفرخون ألفا أو الفين من البيض في أفران ذات سراديب محيطة بها وثقب في آخرها حيث توضع نار معتدلة، ويفقس ذلك البيض في سبعة أيام وتباع كتاكيته بالمدينة في مكاييل لها قعر توضع في قفة المشتري، وحينما يملأ الكيال وتبقى الكتاكيت في السلة، والذين يشترون تلك الكتاكيت يضعونها تحت ديوك مخصية فتتعامل معها كالدجاجات ويغذونها الى أن تنمو وتصبح صالحة للأكل. وينتف بطن الديك ويحك بالحريق، بحيث انه يشعر بلذة عندما يحضن على تلك الكتاكيت. وحينما تكبر تباع في المدينة. وأكثر الذين يقومون بهذا التفقيس من العرب الذين يؤدون ضريبة كبيرة عن ذلك للباب العالي.

وهنالك طائفة من العرب بمصر يأكلون لحم الفرس، تعبدا. بحيث إنه كلما أصيب حصان بآفة، فإن الجزارين يشترونه ويعلفونه من أجل ذبحه، وتلك قضية ترجع الى المذهب المسمى الحنفية التي ينتمي اليها المماليك والآسيويون وكذلك الأتراك. ولكن هؤلاء لا يأكلون من ذلك اللحم ولو كان حلالا عليهم، وفي القاهرة أربعة مذاهب رئيسية، في مصر بكاملها، وهي مختلفة جدا مع بعضها، سواء بالنسبة لقوانينها وأعيادها، وإن كانت ترتكز كلها على أساس شريعة محمد، وكل منها له قاضيه الذي يتبع أحد القرآنات الأربعة، ويفسر التنزيل حسب طريقته.

ورغم أن الآراء مختلفة، فلا يسمح بالانتقال من رأي الى آخر إذا لم يكن الشخص المعني بذلك عالما من العلماء، وقادرا على أن يدلي بالحجة على ذلك التغيير(5).

وهؤلاء الفقهاء الأربعة يقررون في المسائل المهمة، وبالنسبة للقضايا الصغيرة، فالذين يبتون فيها قضاة صغار يوجد عدد منهم بالمدينة وإذا كان هنالك شخصان من مذهبين مختلفين في نزاع بينهما، فالمدعى عليه يلزم عليه أن يحضر أمام قاضي المدعى، لكن إذا كان الحكم في غير صالحه، يمكنه أن يستأنف لدى قاضي أعلى يكون حكمه باتا في مذهب الشافعي، الذي له السيطرة على أولئك القضاة الأربة، وإذا صدرت عن شخص أفعال منافية لمذهبه، فإنه ينال عقابا شديدا من قاضيه، ونفس الاختلاف يوجد بين قضاة المذاهب الأربعة، سواء فيما يخص العبادات أو غيرها، ولكن ذلك لا يتسبب في عداوة بين أنصارى هذا المذهب وذاك، وبخاصة فى أوساط الشعب.

والأدباء لا يتنازعون فيما بينهم، خصوصا فيما يتعلق بالدفاع عن آرائهم أو محاربة آراء غيرهم، ولا يمكنهم أن يذكروهم بسوء ولا حتى أصحاب ذلك الرأي، وإلا نالوا عقابا جسديا، وأخيرا، انهم يحترمون كلهم الشرع ويحافظون على مذهب الأشعري الذي هو القاعدة للعقيدة الاسلامية، سواء بافريقيا أو بمصر أو بآسيا، باستثناء بلاد الصفويين التي لا يقبل فيها الا تأويل علي، ويعاقب المجرمون في القاهرة ويشنق الصوص بدون هوادة. فيمسك رجلان بالقتلة في الهواء من أرجلهم ومن رأسهم أمام القاضي ويأتي الجلاد فيقطعهم من وسطهم بسيف ذي قبضتين الى شطرين. ويضع شطره الأعلى من الحزام الى الرأس على حرارة الجير الحامي ويسأله بعض الوقت ويجيبه المجرم ويسلخ اللصوص والثوار من جلدهم وهم أحياء وكذلك المتمردون ولكن قبل أن يسلخ جلدهم بكامله يحشى بالتبن ويخاط ثم يقع الطواف بالشقي على جمل وتشهد جريمته في كل مكان، وهذا التعذيب قاس جدا لأن المجرم لا يموت قبل أن يسلخ الجلاد سرته، وهذا ما لا يمكن أن يعمله بدون اذن القاضي.

(5) معلومات معظمها خطأ. فالمؤلف يخلط بين المذاهب والقرآن. فلذلك يجعلها أربعة قرآنات، في حين أنها أربعة مذاهب. وكل هذا يدل على عدم تثبت المؤلف فيما يعرفه عن الدين الاسلامي شأن الكثير من المسيحيين الذين كتبوا عنه في ذلك العصر (مترجم).

وأما السجناء من أجل الدين والعاجزون عن أدائه، فإن السجان يؤدي عنهم ويوجههم كل يوم مسلسلين من العنق ومعهم حارس ليطلبوا الصدقة حتى يتخلصوا من دينهم ولا يتركهم بنصرفون الا إذا تمت براءته من الدين. ولعل القارىء المتطلع يجد ما يرضيه في ذلك، ولننتقل الآن الى ذكر مدن أخرى.

الفصل السادس والعشرون
الجيزة

إنها مدينة قديمة على ضفة النيل تنظر الى الغرب، بالنسبة للقاهرة القديمة، وهي آهلة جدا بالسكان، وفيها تجرى تجارة الأنعام التي ياتي اليها بها العرب من صحراء برقة وغيرها لتموين القاهرة، وحتى لا يكونوا مضطرين لاجتياز النيل، فإنهم يقيمون سوقهم في ذلك المكان، حيث ياتي الناس للشراء ويحملون البهائم على ظهر الأفلاك ليبيعوها بالجملة أو بالتقسيط.

وتوجد بالمدينة قصور جميلة وبيوت للفسحة بناها المماليك حتى يتخلصوا من ازدحام القاهرة، ويقطن بها أيضا، عدد من التجار والصناع. وعلى حافة النهر يقع الجامع الأعظم محاطا بحدائق جميلة وبكمية كبيرة من النخيل، وسكان القاهرة ياتون كل يوم الى الجيزة لشراء الأقوات ويرجعون بالليل. وأقصر طريق الى الأهرام حيث توجد قبور الفراعنة القدماء جنب ممفيس يمر من الجيزة، لكن لا يوجد بعدها الا صحاري من الرمال الرقيقة، ولكن بما أن النيل يترك في طريقه عددا من الآبار والبرك عندما ينسحب، فيستطيع الناس أن يسلكوا من هنالك بدون صعوبة إذا كان معهم دليل.

الفصل السابع والعشرون
المحلقة

انها مدينة قديمة بناها المصريون على حافة النيل. وهنالك بيوت جيدة وبنايات قديمة مع مسجد جميل على جنب النهر. وكل الضواحي ملأى بالنخيل وأشجار التين المصري، والمدينة صغيرة ويعيش فيها الناس كما في القاهرة.

الفصل الثامن والعشرون

الخانقاه(1).

هي مدينة كبيرة بناها المصريون على بعد فرسخين من القاهرة، في مدخل الصحراء على طريق سيناء. هنالك بيوت جيدة جدا مع مساجد ومدارس، وفي الحيز الفاصل بينها وبين القاهرة يوجد النخيل، ومن الخانقاه الى ميناء سيناء، لا توجد مساكن على مسافة خمسة وأربعين فرسخا، وعند الخروج من المدينة يوجد طريقان. أحدهما يتجه الى جزيرة العرب والآخر الى سوريا.

السكان أغنياء لأن قوافل سوريا تجتمع هنالك وتشترى كل ما تحتاج اليه، ولا يوجد في النواحي الا أرض ملأى بالنخيل. ولا يوجد من الماء الا ما يفضل عن فيضان النيل.

الفصل التاسع والعشرون

المعيصرة(1)

إنها مدينة صغيرة على حافة النيل بنيت انطلاقا من القاهرة، وتبعد عنها بعشرة فراسخ، ويجنى منها قدر كبير من السمسم الذي يستخرج منه الزيت، وتوجد هنالك مطاحن لهذه الغاية، وأكثر السكان فلاحون ورجال حقول ومن بينهم بعض الصناع وبعض البزازين.

الفصل الثلاثون

بني سويد.

إنها مدينة على ضفة النيل على بعد عشرين فرسخا من القاهرة، صعودا مع النهر. وتقع في وسط برية واسعة يجنى فيها كثير من الكتان والقنب، والكتان جيد ويدعى الأسكندري. ويصدر الى المغرب وغيره لأنهم يصنعون منه قماشا رفيعا ومتينا. وهذه المدينة تزود مصر كلها بالكتان والقنب، والنيل يقتلع في بعض الأحيان أشجار النخيل من هاته المنطقة حينما يفيض. ولولا هذه الآفة لكانت المدينة من أغنى مدن مصر. وإذا صعدنا في النيل الى أعلى من هناك، صادفنا التماسيح التي تأكل البشر.

(1) في الأصل شنشاه.

(1) في الاصل : المحيفرة

الفصل الواحد والثلاثون

المنية

إنها مدينة جميلة على ضفة النيل، من جهة الغرب، وفي مركز مرتفع وقد أعاد بناءها ابن الخصيب الوالي العربي في عهد خلفاء بابل، وهي محاطة بحدائق وأجنة الكروم التي تباع غلتها في القاهرة لأنها جيدة جدا، وإن كان يصلها في حالة الطراوة لأن المدينة تبعد عنها بستين فرسخا. وتوجد في كل مكان مساجد جميلة وقصور فخمة. وتشاهد في بعض الأماكن أطلال بناءات قديمة يظهر أنها للمصريين. ويلوح انها في الموقع الذي كانت فيه نيقوبوليس. ولعلها بنيت فوق أنقاضها، والسكان أغنياء لأنهم يذهبون في كل سنة للتجارة في بلاد الزنوج.

الفصر الثاني والثلاثون

الفيوم

إنها مدينة عتيقة على مرتفع واقع في أحد أذرع النيل، ويقول العرب انها بنيت من لدن أحد الفراعنة في عهد بني اسرائيل وان هؤلاء اشتغلوا في بنائها. وهو بلد خصب بكل أنواع الفواكه والزيتون ولكن يؤكل الزيتون دون أن يستخرج الزيت، ويشاهد داخلها وخارجها أطلال لبنايات قديمة، وقرب المكان الذي يتميز فيه ذرع النيل عن النهر، توجد آثار قديمة، ويقال بأن قبر يوسف هنالك وأنه وقع نقل عظامه من هنالك الى بلاد يهودا، والمدينة ملأى بالسكان وتروج هنالك تجارة كبيرة. ويصادف فيها عدد من التجار والصناع وفي كل مكان عدد من الأكواخ.

الفصل الثالث والثلاثون

منفلوط

كانت مدينة عظيمة في عهد الفراعنة. ولكن الرومان خربوها. ثم جاء العرب، فأعادوا بناءها، لكن دون أن يبلغوا بها فخامتها القديمة، وتشاهد في جملة من الأماكن عدد من الاعمدة والقطع والطاولات من المرمر وعليها نقوش باللغة المصرية، ويوجد قرب النيل معبد، ويقول مؤرخ عربي بأن خلفاء بابل(1) لما حفروا

(1) كثيرا ما يستعمل المؤلف عبارة «خلفاء بابل» وهو يعني بذلك خلفاء بغداد أي الخلفاء العباسيين، وكما بينا في الجزء الأول، فهو لديه معلومات مخلوطة ومشوشة عن تاريخ الاسلام في تلك الفترة (مترجم).

في اسس ذلك المعبد وجدوا تمساحا من الرصاص ومعه رسائل مصرية، وكآن هذا التمثال صنع تحت بعض الأفلاك ليمنع هذا الحيوان من أكل البشر كما حدث ذلك منذ أن وقع كسره، ولهذا فإن المؤلف يعطي اسم التمساح لهاته المدينة. ويوجد فيها عدد من المداليات من الذهب والفضة والنحاس حيث توجد حروف، من جهة، وصور قديمة للملوك، من جهة أخرى. وقد وضع بطليموس المدينة الحاملة لهذا الاسم في إقليم أفروديت، على طول واحد وستين درجة وعشرين دقيقة، وعرض سبع وعشرين درجة وعشرين دقيقة. والبلد غني بالقمح والماشية من كل نوع. ولكنه حارّ جدا وتحدث فيه التماسيح عدة إتلافات على طول النهر، ويقال بأن هذا هو السبب الذي جعل الرومان يخربونها. وأكثر السكان يقومون الآن بتجارتهم في بلاد الزنوج.

الفصل الرابع والثلاثون

أسيـوط

هاته المدينة التي كانت تسمى فيما قبل بوبسط، قديمة جدا، بناها المصريون على ضفة النيل، على بعد ثلاثة وثمانين فرسخا من القاهرة. وكانت فيما قبل كبيرة جدا وآهلة بالسكان. وما زالت تشاهد فيها أطلال البناءات القديمة، مع عدد من الكتابات المصرية فوق الأعمدة وعلى الأحجار وقد وقع إتلافها على عهد العرب. ومن السهل أن نعرف بأن هاته المدينة كانت محكومة من قبل من لدن أناس ذوي حيثيات كبيرة بسبب ما فيها من حضارة ومن جمال البيوت. وما زال فيها الى اليوم عدد من الأشراف ومن الناس المترفين. ويوجد فيها من جهة أكثر من مائة بيت للنصارى وثلاث أو أربع كنائس قديمة، وخارج أسوارهايوجد دير للرهبان المصريين الذين لا يأكلون لا لحما ولا سمكا وانما يتقوتون بالخبز والأعشاب والخضروات وغيرها من المأكولات التي لا تثقل البطن، وبعض الطواجين التي يصنعونها بأنفسهم، والتي لا يدخلون فيها أي شيء مما يحسب من الأحياء. وكانوا سابقا جد كرماء ويستقبلون الغرباء الذين يمرون من هنالك ثلاثة أيام. ولاطعامهم كانوا يسمنون الحمام والدجاج وغير ذلك من الحيوانات.

الفصل الخامس والثلاثون

إخميم

إنها أقدم مدينة في مصر وهي التي بناها حفيد كوس على ضفة النيل من جهة الشرق، على بعد ألف فرسخ من القاهرة. وقد خربها العرب عندما فتحوا مصر بحيث لم يعد يرى في مكانها لا أسس الأسوار التي انتزعت منها الأحجار والأعمدة لبناء المنشية التي هي على الجانب الآخر من النهر.

الفصل السادس والثلاثون

المنشية

هاته المدينة بناها خلفاء محمد على ضفة النيل في اتجاه الشرق وعلى مستوى «بردوا» الموجودة بليبيا. والفضل في بنائها يرجع لحاكم الاقليم الذي بناها على نمط افريقيا. وأزقتها ضيقة ومعوجة ويكثر فيها الغبار بالصيف بحيث يصعب التجول فيها. والبلد غني بكل أنواع القمح والماشية، وكانت من قبل تحت سيطرة افريقي اسمه هوارة كان سلفه تسلمها من الخليفة الفاطمي المنشق القائم، وذلك ليساعد مولاه جوهر، قائد الجيش في مصر. لكن سليمان انتزعها من هوارة، وعلى بعد فرسخ من هنالك كان يوجد دير القديس جرجس الذي كان غنيا ويمتلك عدة أراض في الناحية. وفي العادة، كان هنالك أكثر من مائتي راهب يؤون الغرباء ويوجهون البقية الى بطراريكية الاكسندرية حيث كانت تجرى الصدقة على الفقراء، ولكنهم ماتوا كلهم من العدوى مع رجالهم منذ مائة وستين سنة، وبقي الحاكم هنالك بسبب جمال المكان بعد أن حصنه وأسكن فيه التجار والصناع إذ كان هنالك أجنة وبساتين حواليها، وهي التي كان رجال الدين قاموا بزراعتها فوق بعض الربوات. واشتكى اليعاقبة الى السلطان، فأسس ديرا لثلاثين راهبا في المكان الذي كانت فيه المدينة سابقا.

الفصل السابع والثلاثون

الخيام

هي مدينة صغيرة من إنشاء خلفاء محمد وهي آهلة باليعاقبة الذين يشتغلون بالحرث ويربون عددا كبير من الدجاج والحمام والأرز التي يبيعونها بثمن بخس.

وهنالك أديرة فيها بعض الرهبان ويأوى اليها الغرباء عند مرورهم. ولا يدخل اليها لا تركي ولا عربي ما عدا الحاكم وأسرته.

الفصل الثامن والثلاثون

بـربـنـدة

إنها مدينة قديمة بناها المصريون على ضفة النيل، على بعد مائة وأربعة وثلاثين فرسخا من القاهرة، وليس يشاهد فيها الا أطلال الأسوار والمعابد. ذلك أن العرب أخذوا الأعمدة والحجارة الكبيرة الى مدينة إسنا[1]. وما زالت تكتشف في تلك الجهة مسكوكات من الذهب والفضة، وقع نفيسة من الزمرد تدعى العبيدية.

الفصل التاسع والثلاثون

قـنـة

إنها مدينة قديمة بناها المصريون على النيل مقابل مدينة بربندة، وهي محاطة بأسوار. ويقطن بها زراع وفلاحون لهم محاصيل كبيرة من القمح وعدد كبير من الماشية، والقدوم إليها عند الذهاب من القاهرة الى مكة عن طريق النيل، ومن ثم الى البحر الأحمر أربعون فرسخا تقطع داخل الصحراء حيث لا يشاهد الماء الا عند الوصول الى البحر. وهنالك يكون الوصول الى مرسى صغير[1] توجد به عدد من الأكواخ حيث تستودع البضائع. وكل مساكن الناس هنالك هي من حصر الجريد. وتصاد مقادير كبيرة من السمك في ذلك المرسى، ويوجد أمامه مرسى[2] بجزيرة العرب حيث ينقل هنالك قدر كبير من القمح من قنة الى المدينة ومكة إذ كثيرا ما يحصل هنالك الحاجة اليه.

الفصل الأربعون

سـيانـا

هاته المدينة التي يسميها الاثيوبيون كَاكَير قديمة جدا. وقد تغنى بها الشعراء، لأنه لا يوجد بها ظل فى الزوال حينما تكون الشمس في برج السرطان، وكانت تسمى

(1) قصير.
(2) الينبع.
(1) في الأصل : سيانا (م.).

أسنا إلا أن العرب لما فتحوا مصر استبدلوا اسمها باسم زينة أي الجميلة لأنها في الواقع رائقة سواء في بناياتها أو في موقعها على ضفة النيل من جهة افريقيا.

وكان الرومان قد خربوها تقريبا لكن العرب أعادوا بناءها وزينوها، وسكانها أغنياء ومتوفرون على كميات كبيرة من القمح والماشية. وهم يقومون بالتجارة على طول النيل، وهم يصعدون الى مملكة النوبة أو بواسطة القوافل عن طريق الصحراء. وكان لهاته المدينة فيما مضى من الأيام دائرة كبيرة ما زالت تشاهد فيها بنايات فخمة وقبور عجيبة للوثنيين مع كتابات باللغة المصرية وكتابات أخرى باللغة اللاتينية منقوشة في أحجار كبيرة. ويجعل بطليموس موقعها على اثنتين وستين درجة طولا وخمس وعشرين درجة وخمسين دقيقة عرضا. وهي مجاورة لبوجوهيوس في النوبة وليست مفصولة عنها الا بخمسة أيام تقطع في الصحراء.

الفصل الواحد والأربعون
أســوان

إنها مدينة كبيرة على بعد ستة وعشرين فرسخا من المدينة السابقة كان المصريون القدماء بنوها على ضفة النيل في اتجاه الشرق. وهي غنية بالقمح ويقطن بها تجار أغنياء يتاجرون ببلاد النوبة. ولا يمكن الملاحة في النيل الا عند حدها، إذ بعد تجاوزها يسيح النهر في السهول حيث يكون بحيرات كبيرة. وهذا المكان يقع في حدود النوبة والصحراء التي تذهب الى سواكن في البحر الأحمر أو الى بلاد القس يوحنا. والسكان سود أكثر منهم حمر. وهذا بسبب حرارة الصيف وكذلك بسبب الاختلاط مع الاثيوبيين.

ويشاهد في عدة أماكن أبنية مصرية قديمة مصحوبة بأبراج عالية تدعى باربا وهنالك تنتهي مصر مع الصعود على طول النيل. وكل المدن التي تحدثنا عنها توجد في هاته الضفة أو في الضفة الأخرى من ذراع النيل الكبير المتجه الى الشرق، وبعدها لا توجد أي مدينة ذات أهمية، وإنما بعض الأماكن التي يقطن بها أناس فقراء يتكلمون لغة نصف عربية ونصف مصرية أو حبشية وهم تحت امرة شعب يعيش تحت الخيام مثل العرب، ولم يتمكن لا السلطان ولا الباب العالي أن يتصل بهم، ولننتقل الآن بحديثنا الى المدن الواقعة على البحر الأحمر.

الفصل الثاني والأربعون

سواكـن

إنها آخر مدينة بإثيوبيا وأولها بمصر على شاطىء البحر الأحمر، وهي على بعد ستين فرسخا من جزيرة مصوع نحو الشرق وبينها وبين القوصر، الواقعة على مائة وثلاثين فرسخا منها في نفس الجهة، توجد عدة موانىء[1] لا يعرفها الا الربابنة من أجل الحصول على الماء. وهذا أحسنها في البحر الأحمر، لأن البحر يدخل اليها عن مضيق صغير وينتشر بعد ذلك في بحيرة كبيرة توجد بها جزيرة صغيرة ليست أكبر من المدينة القائمة بها، وكل البيوت مبنية بالحجر والجير، على شكل البناء الأوربي، وهنا يبتدىء شاطىء الكافر، ولهذا منح هذا الاسم[2]، وكان هنالك، فيما سبق، ملك. ولكن الأتراك استولوا على بلاده وعينوا حاكما مع حامية تحت قيادة باشا القاهرة.

الفصل الثالث والأربعون

قصير، أي القصر الصغير بالعربية

إنها مدينة صغيرة على البحر الأحمر وليست مشهورة لا بحضارتها ولا ببناياتها التي تدل على بؤس العرب الذين يسكنونها، ولكن بسبب كون المكان تنفتح فيه الجبال التي تحاذي ذلك البحر. ومن هنالك ينقل القمح من مصر الى جزيرة العرب، فأكثر المسلمين الذين يأتون من المغرب بقصد الحج الى مكة والمدينة يتجرون من قصير حتى لا ينزلوا الى القاهرة. وعلى بعد فرسخين منها تلوح أطلال مدينة قديمة تحمل نفس الاسم. ولكنها هجرت لأنها كما يقول أبناء البلد كانت مدينة مثقلة بضرائب كثيرة. والظاهر ان «فيلاتير» كان هنالك. وتوجد المدينة على بعد ستة عشر فرسخا من النيل في الجبال الواسعة بينه وبين السويس. ويوجد هنالك ديران أحدهما للقديس أنطونيوس في مستوى كرونلة والآخر

(1) طونه، كَوالبو، كسوانا، كساكوه، صومول، كسام، كلاكل، فركوسة، داردانت.
حاولنا أن نجد هاته الأسماء في المعاجم العربية، فلم نصل لنتيجة (مترجم)

(2) سواكن القفار. هكذا ورد في الهامش. وهنا التباس. فهل يريد المؤلف ان يشير الى انها بلد القفار أو بلد الكفار ؟ الظاهر أن المعنى الأول أرجح، لأن سكانها مسلمون. (مترجم)

للقديس باولوس مقابل للطور، وهذا الأخير أقرب الى البحر من الأول وان كان بعيدا من الشاطىء وقائما في أعلى الجبل. وهما ممتلئان بالرهبان من عدة أمم، أتوا بقصد التوبة ولهم اتصال مع أديرة أخرى من نفس الطريقة موجودة بمصر. ومن السويس الى قصير ستون فرسخا.

الفصل الرابع والأربعون

السويس

هاته المدينة مبنية بين الرمال الرطبة التي لا توجد فيها أية خضرة، ويقص أبناء البلد بأنها كانت كبيرة فيما مضى ولكن المسلمين خربوها مع مدن أخرى في الاقليم. ولا يوجد في هاته الجهة لا سقاية ولا نهر. ولكن السكان لهم نطفيات تملأ بماء النيل، عن طريق قنال كان العرب أغلقوه، بحيث ان الماء الذي يشرب في المدينة حاليا يحمل على ظهر الجمال من بعض الآبار المالحة الواقعة على فرسخين من هنالك. وهذه المدينة تقع في آخر خليج البحر الأحمر. وما زالت تشاهد فيها بقايا من الأسوار القديمة وبقايا من القصر القديم التي يحتمى فيها الأتراك الذين يحرسون الأسطول والمكان.

والظاهر أن هذه هي مدينة الأبطال التي جعلها بطليموس بعيدة عن البحر. ولا يوجد الآن في السويس الا صناع وعمال لصنع مراكب الأسطول الذي يحافظ عليه الباب العالي في ذلك المكان ويؤتي بالخشب من تركيا وكذلك بالملاحين، ولا زالت تشاهد هنالك بيوت كبيرة مغطاة بتلك الرمال الرطبة وعدد من النطفيات التي لا تصلح لشيء لأن قناة النيل مغلقة، ويوجد هذا الميناء على بعد فرسخين من القاهرة في اتجاه الشرق وعلى بعد فرسخ من هنالك توجد شوكة فرعون، وسبعة فراسخ آبار موسى، وعشرين فرسخا كوروندولو، حيث يقال ان أبناء اسرائيل مروا من هنالك. ويوجد الطور في الجهة الأخرى من الخليج في نفس الطريق نحو جبل سيناء، وفي هذا المكان تنتهي مصر.

الفصل الأخير

الطـور

مدينة صغيرة على البحر الأحمر تبعد عن السويس بأربعين فرسخا، وتعد حدا لمصر من جهة الجزيرة العربية، سواء كانت تابعة لهذا الاقليم أو ذاك. وهي أشهر من أية مدينة أخرى في هذا الساحل سواء من حيث التجارة أو هيئة المنازل أو تحضر السكان. يسكنها اليعاقبة، ويوجد بعض رجال الدين في دير القديسة كاترين لربط الاتصال مع دير سيناء الذي يوجد به ضريح هذه القديسة ويبعد عنه بنحو ثمانية عشر فرسخا. ويحكى في هذه المنطقة أن موسى (عليه السلام) مر من هنالك عندما فر من فرعون. ويوجد الحد بين الجزيرة العربية ومصر على بعد ثلاثة فراسخ من ثمة. ويعتقد بعضهم أن الطور هو علم الذي تحدث عنه جميع الجغرافيين القدامى، لأن الخليج الذ يوجد أمام هذه المدينة يدعى عيلمي، ولو أن بطليموس يجعل الطور على تسع وعشرين درجة وربع من الخط، والبرتغاليين يجعلونها على ثمان وعشرين درجة وسدس. وفيما بين موقع هذه المدينة ومدينة السويس لا توجد عمارة في المكان الذي رسمه بطليموس ولا حتى اثر يدل على انه كان معمورا في قديم الزمان، لأنه قفر قاحل لا ماء فيه. وعلى بعد ثلاثة فراسخ من السويس توجد الآبار التي تنسب لموسى. ويؤكد أنه حفرها بعد أن قطع البحر الأحمر، ويجلها العرب اجلالا عظيما، غير انهم ليسوا متفقين على انه اجتاز من ثم أو من كوروندول التي تبعد عن السويس بخمسة عشر فرسخا، وعن الطور بخمسة وعشرين فرسخا.

هنا تنتهي مصر في هذه الجهة، ومنها ترجع عبر الصحراء الى البحر المتوسط في دمياط، ولها على امتداد الساحل في اتجاه الغرب مدن بيلتن، وجاليزين وميكي ورشيد.

انتهى كتاب افريقيا لمارمول

فهرس الموضوعات
الكتاب السادس
مملكة تونس

الكتاب السابع

نوميديا

الكتاب الثامن

ليبيا أو الصحراء

الكتاب التاسع

ويتناول أثيوبيا العليا والسفلى

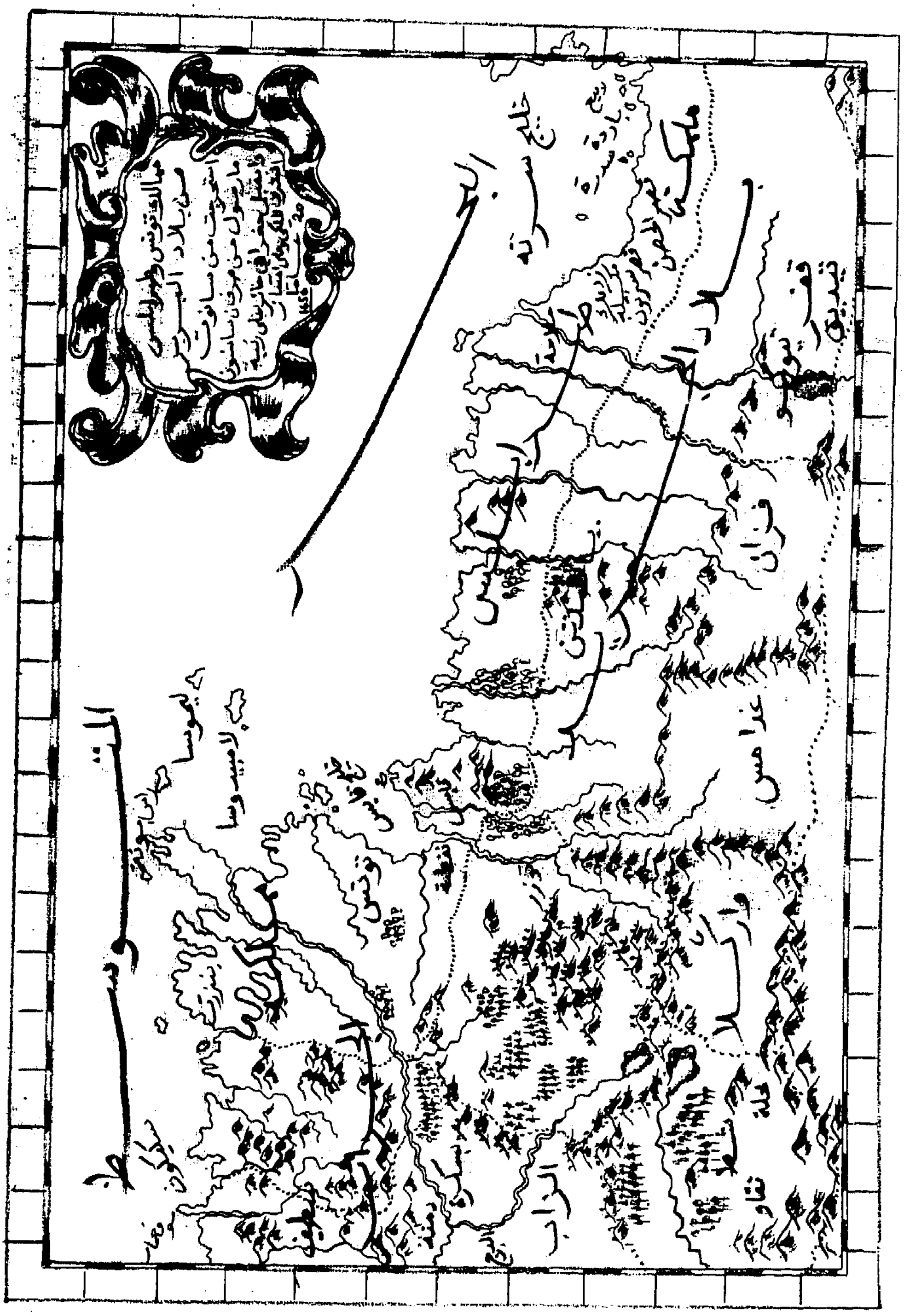
الكتاب العاشر

إثيوبيا العليا أو بلاد الاحباش

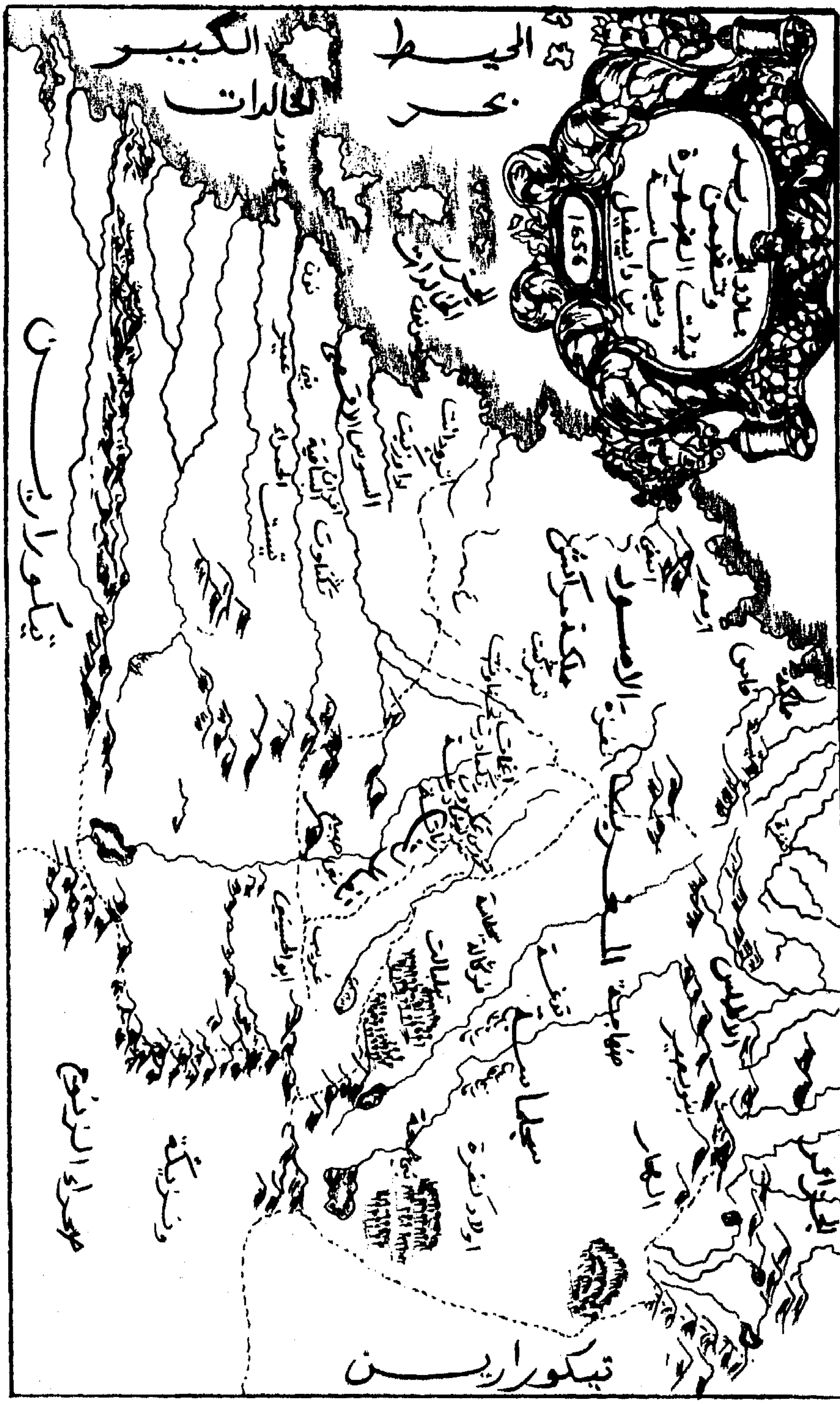
الكتاب الحادي عشر

مصر وما بها مما يستحق الذكر

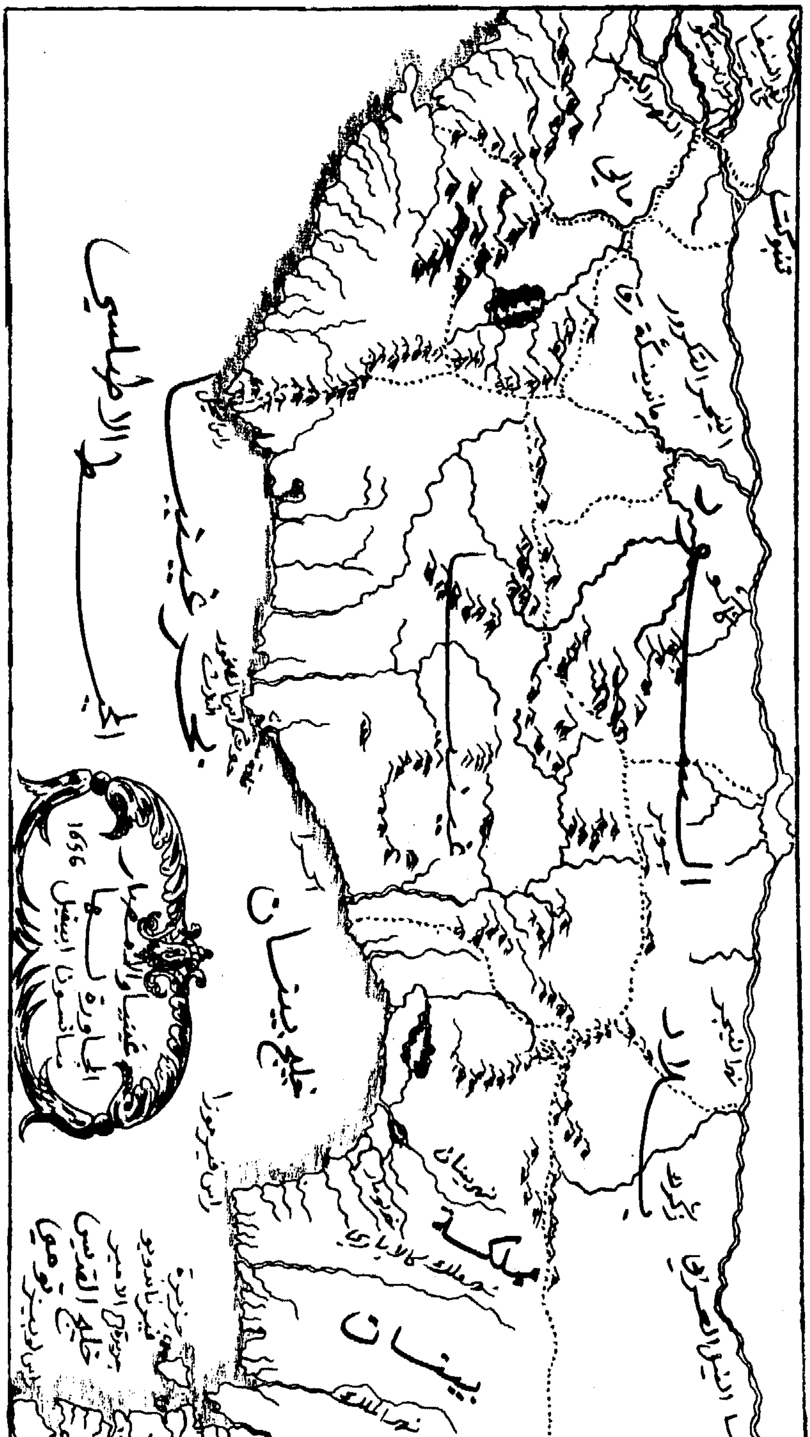
الخرائط :




البحر المتوسط
ليبيا
الصعيد

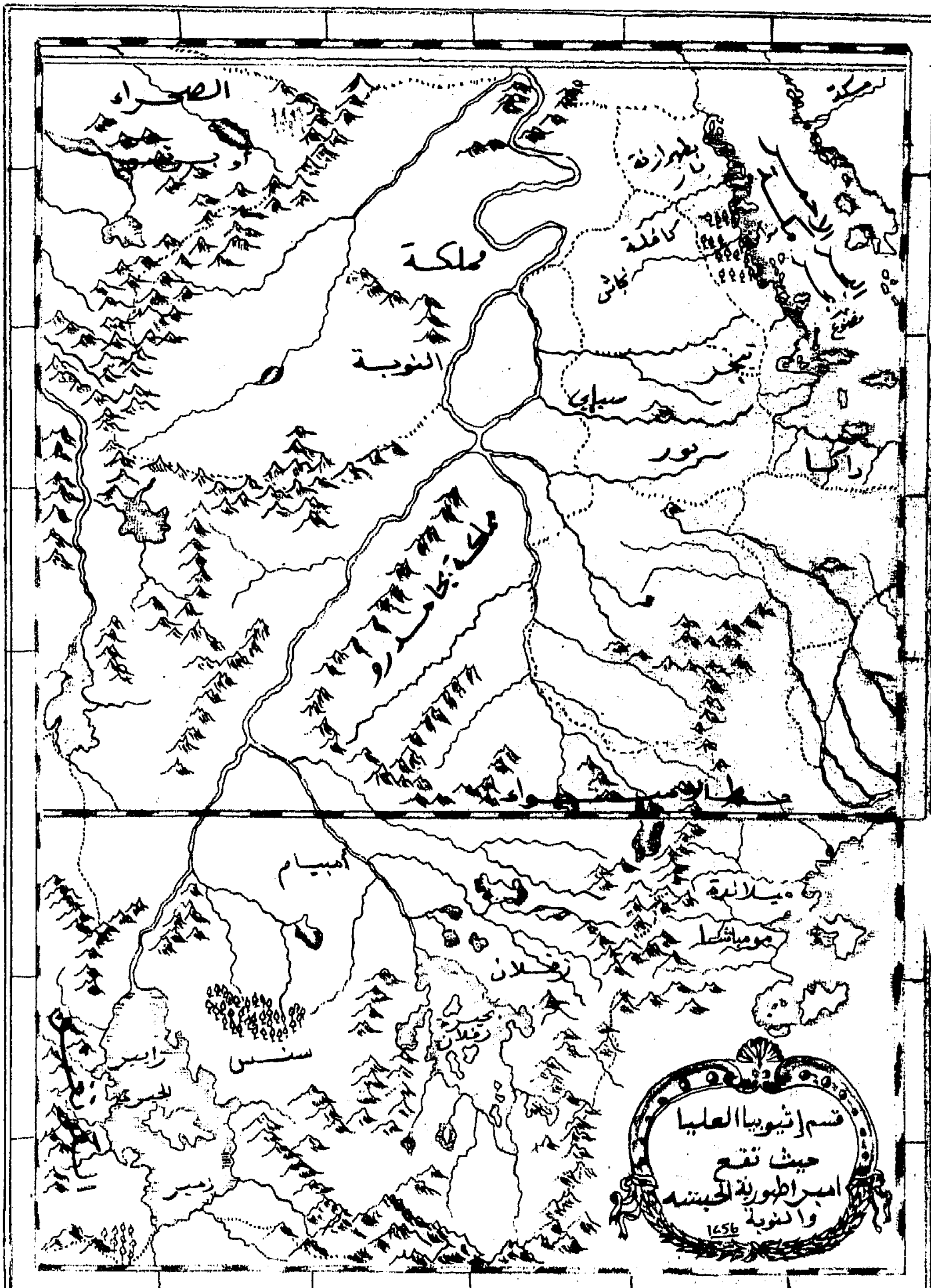

تيكورارين


غينـوة
مملكة مـالي
بـلاد السـود

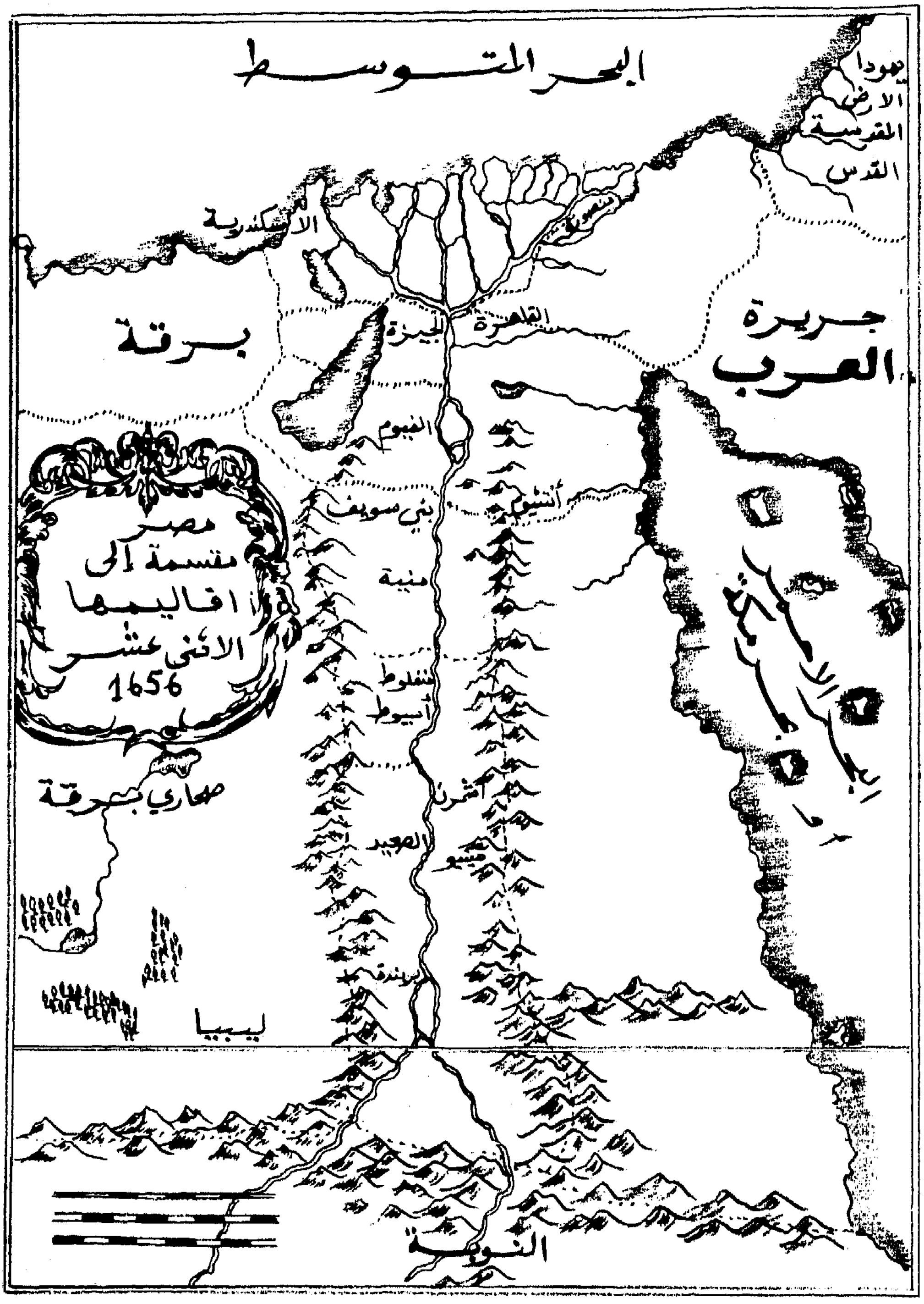





مملكة الحبشة
الجزيرة العربية
بحر العرب
البحر الشرقي أو الهندي



الصحراء
مملكة
النوبة
قسم إثيوبيا العليا
حيث تقع
امبراطورية الحبشة
والنوبة
١٢٥٦


البحر المتوسط
يهودا
الأرض
المقدسة
القدس
الاسكندرية
برقة
الجيزة
القاهرة
جزيرة
العرب
الفيوم
بني سويف
منية
منفلوط
أسيوط
الصعيد
مصر
مقسمة الى
اقاليمها
الاثنى عشر
1656
صحاري برقة
ليبيا
النوبة

تمّ الطبع بمطابع المعارف الجديدة،
الرباط، المملكة المغربية

[illegible] TE DE [illegible] Grana- [illegible] y po- [illegible] con to- [illegible] y cosas memorables, [illegible] hasta este presente año, [illegible] republica Christiana, por ende [illegible] licencia y facultad para [illegible] años, o como la nuestra merced fuesse. Lo qual [illegible] por su mandado se hizieron las diligencias que la pregmatica [illegible] sobre la impression de los libros dispone [illegible] tuvimos lo por bien y mandamos mandar dar [illegible] licencia y facultad para que por tiempo de diez años primeros siguientes [illegible] que corran y se cuenten [illegible]

ثمن البيع 60.00 درهم

[illegible] Hecha en el Pardo a [illegible] del mes de Março de mil y quinientos y setenta y dos años.

YO EL REY.

Por mandado de su Magestad
Antonio de Erasso.

مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 947 08/09/15/38
رقم الايداع القانوني 117 — 1984